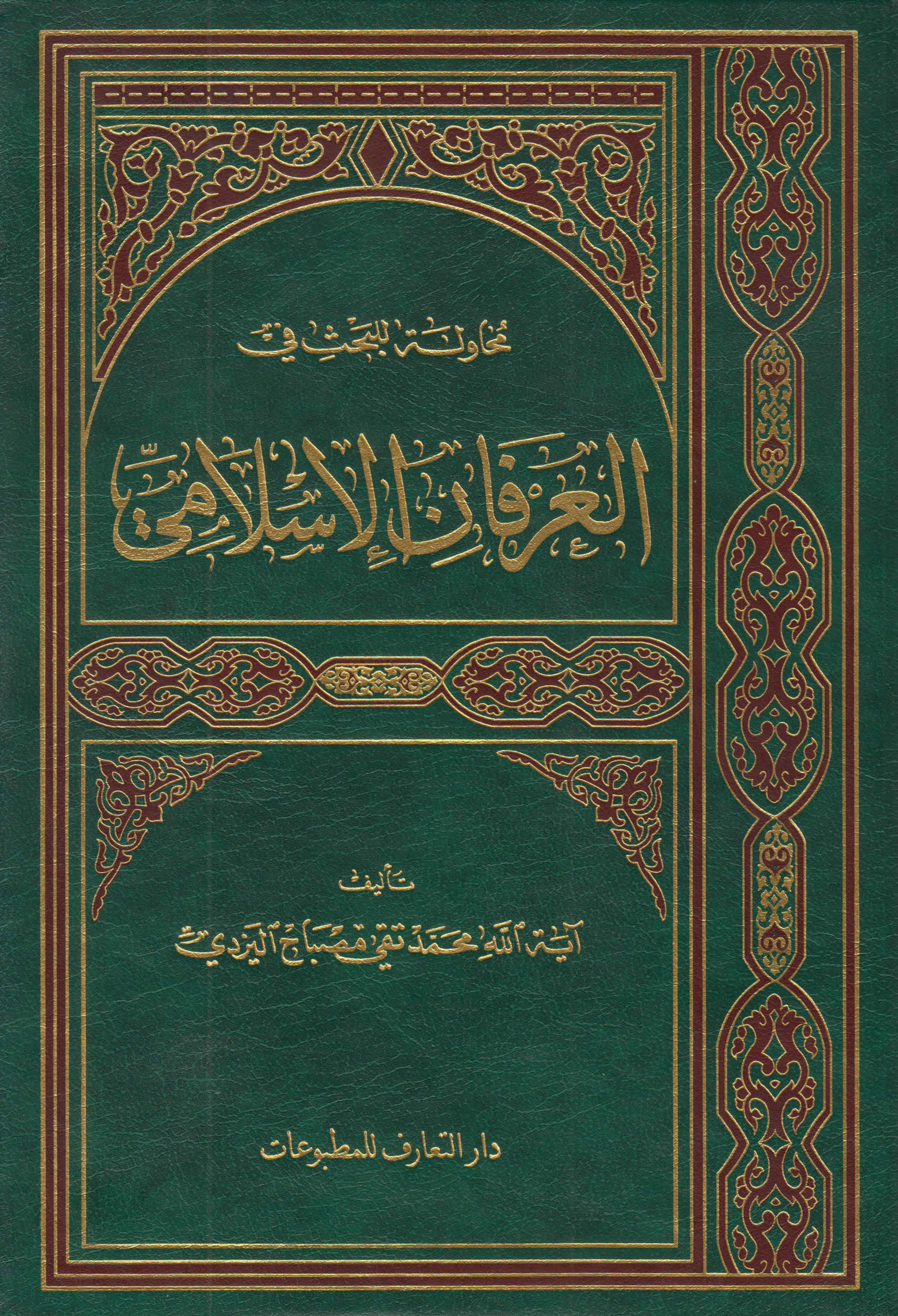
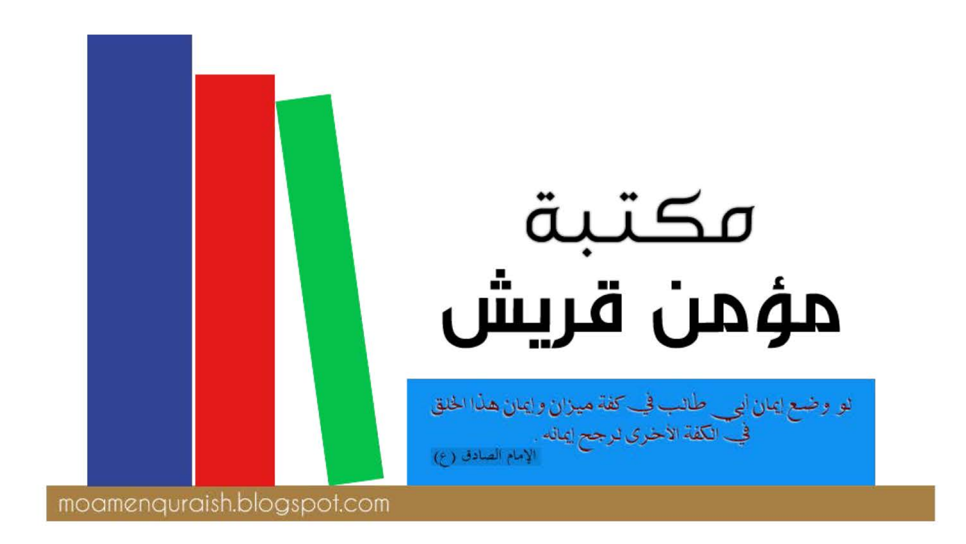
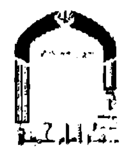

محاولة للبحث في
العرفان الإسلامي
تأليف
آية الله محمد تقي مصباح اليزدي
دار التعارف للمطبوعات



محاولة للبحث عن

العرفان الإسلامي



محاولة للبحث عن

العرفان الإسلامي

تأليف

آية الله محمّد تقي مصباح اليزديّ

ترجمه الى اللغة العربية

الشيخ محمّد عبد المنعم الخاقاني

الفهرس

الفصل الثاني: التحريف والانحراف عن التعاليم العرفانيّة

الفصل الثالث: ميزات العرفان الاسلاميّ الصادق

الفصل الرابع: السبيل إلى نيل المقامات العرفانيّة

بسم الله الرحمن الرحيم

انّ الحقيقة هي أشدّ اسرار الوجود أصالةً وخلوداً وجمالاً، ويشعر الانسان بانّه في أمسّ الحاجة اليها، ولهذا نلاحظ انّ المؤمنين والعلماء الصادقين على مرّ الدهور والأحقاب لم يبخلوا عليها بأرواحهم الشريفة، ونلاحظ في الطرف الآخر انّ الجهلاء والراكضين وراء الباطل لم يدّخروا جهداً ولم يتورّعوا عن مؤامرة ولم يعفّوا عن حيلة سعياً منهم وراء محو الحقيقة ومسخها.

انّه لواقع مرّ اذا تطلّعنا الى الحقيقة فوجدناها مظلومة، ولكنّها حقيقة حلوة اذا اكتشف الانسان الواقع فوجد انّ الصراع المستمرّ بين الحقّ والباطل ينتهي دائماً بخروج الحقّ منتصراً مرفوع الرأس وبهروب الباطل مهزوماً ذليلاً يجرّ أذيال الخيبة.

انّ هذا العلوّ وهذا الشموخ الذي تتمتّع به الحقيقة يعود الى عاملين: احدهما طبيعة الحقّ نفسه، والثاني يتعلّق بالجهود المخلصة والمضنية والمستمرّة التي يبذلها طلاّب الحقيقة حيث شمّروا عن سواعدهم في المجالين: النظريّ والعمليّ وتحرّروا من شباك الدنيا. واذا دقّقنا النظر

فسوف نجد انّ دور وتأثير الأديان الالهيّة وأنبياء الله عليهم السلام، ولاسيّما الاسلام والنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله ومَن خَلفهُ بالحقّ عليهم السلام هو الأبرز والأرفع والأقوى.

فعلماء الشيعة البارزون يعتبرون رسالتهم الخطيرة والتي لا مثيل لها متعلّقة بالانتفاع من العقل والنقل والغوص في بحر معارف القرآن لالتقاط الجواهر البِكر من الحقيقة المنبثّة في سيرة اولئك القادة الكبار، ثمّ تقديمها للعالم البشريّ، والدفاع المستميت عنها في مقابل هجوم الغارقين في الظلام والفارّين من نور الحقيقة. وتزداد المسؤوليّة اذا عرفنا كم من الأبصار قد استُهلكت وكم من الأعمار قد اُنفقت في هذا السبيل.

ونحن نعيش اليوم في عصر اضطراب المعنويّات حيث يبذل أعداء الحقيقة والانسان قصارى جهدهم للسيطرة على العالم كلّه وذلك من خلال انتاج ونشر الكثير من الآثار المكتوبة والمسموعة والمرئيّة، واستخدام ألوان الوسائل الميكانيكيّة والالكترونيّة في المجالات المختلفة. فاذا جعلنا هذا كلّه نصب أعيننا فسوف نشعر بمدى خطورة الرسالة وصعوبة المهمّة التي ينهض بها طلاّب الحقيقة والعلماء في الحوزة والجامعة، ونخصّ بالذكر علماء الدين حيث تكون المسؤوليّة أضخم وأعمق وأوسع.

ففي عالم التشيّع يتميّز علماء الحوزة وباحثوها بتاريخ مشرق في مجال انتاج العلوم الفلسفيّة والكلاميّة والتفسيريّة والحديثيّة والفقهيّة والاصوليّة وغيرها. وكلّ منصف فهو يلاحظ انّ تأمّلاتهم تتلألأ في سماء الدراسات والبحوث الاسلاميّة.

وأمّا في مجال العلوم الطبيعيّة والتجريبيّة والفنيّة الحديثة فانّ باحثينا قد بذلوا جهوداً جبّارة وقطعوا أشواطاً مهمّة وهم يقتربون تدريجيّاً من الموقع الذي يناسبهم في العالم المعاصر، وهم مندفعون في القيام بنشاطاتهم المتنامية

ليحتلّوا ـ قريباً ان شاء الله تعالى ـ الموقع المناسب لهم في الساحة العلمية المتعلّقة بالعالم كلّه.

ولكنّنا اذا تأمّلنا في مضمار البحوث المتعلّقة بالعلوم الاجتماعيّة والانسانيّة فسوف نلاحظ انّ جهود علماء هذا الوطن لم تثمر بالشكل المطلوب الذي يتناسب مع النظام الاسلاميّ، فهم أحياناً قد اكتفوا بالترجمة والاقتباس من نظريّات الآخرين. وفي هذا المجال لا يظفر الباحث إلاّ بالقليل من الأعمال المبتكرة، ولاسيّما الابداعات المنبعثة من الاسس الاسلاميّة. فهناك أمامنا طريق طويل مليء بالمشقّات علينا ان نقطعه بكلّ حزم وثبات للوصول الى الغاية المنشودة.

وبناءً على هذا يغدو الاستنباط والاستخراج والتفسير والتوضيح للتعاليم الدينيّة وتنظيم المعارف الاسلاميّة والبحث والتنقيب في مواضيع العلوم الانسانيّة والاجتماعيّة من وجهة النظر الاسلاميّة وتبيينها من أهمّ الأهداف والأولويّات للمؤسسات العلميّة ولاسيّما مراكز البحوث في الحوزات العلميّة.

وأمّا مؤسّسة الامام الخمينيّ للتعليم والبحوث فانّها في ظلّ تأييد قائد الثورة الاسلاميّة المباركة ودعم ومباركة خلفه الصالح آية الله السيد علي الخامنئي «مدّ ظلّه العالي» قد أخذت على عاتقها منذ تأسيسها بادارة وتخطيط آية الله محمّد تقي مصباح اليزدي «دامت بركاته» النهوض بشؤون البحوث العلميّة والدينيّة، وحاولت بكلّ جهدها القيام بسدّ الحاجات الفكريّة والدينيّة للمجتمع من خلال تقديم الدراسات والبحوث الأساسيّة في المجال النظريّ والمجال العمليّ.

ومن اجل تحقّق هذا الهدف المهمّ قامت معاونيّة البحوث في المؤسّسة

بالتخطيط والاشراف وهداية الباحثين والمحقّقين، وبالاضافة الى ذلك فقد حاولت أيضاً نشر وطباعة آثار هؤلاء المحقّقين، وفي هذا المضمار قدّمت ـ بحمد الله ومنّه ـ للمجتمع الاسلاميّ آثاراً قيّمة تتناسب مع قدراتها وامكانيّاتها.

والكتاب الذي بين أيدينا هو مجموعة من البحوث التي قدّمها الاستاذ المبدع آية الله محمّد تقي مصباح اليزدي «دامت بركاته» في مناسبات متنوّعة لكنها تدور حول موضوع واحد وهو «العرفان». وقد قام بتنظيمها في اللغة الفارسيّة حجة الاسلام والمسلمين المحقّق محمد مهدي نادري القمّي.

وأمّا ترجمة هذا الكتاب الى اللغة العربيّة فقد رأى الاستاذ المؤلّف ان يوكل هذه المهمّة الى سماحة حجة الاسلام والمسلمين الشيخ محمد عبد المنعم الخاقاني. وقد أعانه في الترجمة الدكتور السيد حيدر الحيدري.

والهدف الأساسيّ من الكتاب هو تقديم صورة واضحة نسبيّاً للعرفان الاسلاميّ وميزاته الرئيسيّة.

ومعاونيّة البحوث ترجو من الله تعالى طول العمر المليء بالبركة للاستاذ الكريم والتوفيق المستمرّ للمحققّين المحترمين لهذا الأثر المبارك، حيث قام اوّلهما بتحقيقه في اللغة الفارسية، وقام الثاني بتحقيقه في اللغة العربيّة.

معاونيّة البحوث

مؤسّسة الامام الخميني ﷺ للتعليم والبحوث

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله الطاهرين

مقدّمة المحقّق

«الهي هب لي كمال الانقطاع اليك وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها اليك حتّى تخرق ابصار القلوب حجب النور فتصل الى معدن العظمة وتصير أرواحنا معلّقة بعزّ قدسك»[1]

انّ الانسان باحث عن الله بفطرته، كما يؤكّد ذلك القرآن الكريم، وهو يطلب تلك الحقيقة الفريدة، وان كان التعلّق بالدنيا والاهتمام بألوان الشهوات واللذّات الماديّة يُسدل حجاباً على ذلك الميل الانسانيّ الأصيل فيحول بينه وبين العمل بمقتضى تلك الرغبة الفطريّة. يقول الله تعالى: **﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾**.[2]

---

١. مفاتيح الجنان، الأعمال المشتركة لشهر شعبان، العمل الثامن، (المناجاة الشعبانيّة).

٢. سورة الروم، ٣٠.

أجل انّ أكثر الناس لا يعلمون انّ ضّالتهم هي الله سبحانه، وبالوصول إليه فقط تطمئنّ أرواحهم المضطربة. ولهذا نلاحظ أنّ أكثر الناس في العالم مغرمون بالمادّة وهم يركضون وراء المادّيات ويبحثون عن ضّالتهم في الشؤون المادّية والدنيويّة: فمنهم مَن يسعى وراء الثروة، ومنهم مَن يبحث عن الشهرة، ومنهم مَن يركض وراء الشهوات، ومنهم مَن يفتّش عن القدرة، ومنهم مَن يعشق الزعامة والرئاسة، ومنهم مَن يحرص على العلم والفنّ، و... .

ولكن من بين كلّ هؤلاء يمكن الظفر بقليل من الناس الذين تعلّقت قلوبهم بحقيقة الوجود وهم يقضون الليل والنهار في طلبها والبحث عنها. هؤلاء قد أسلموا قلوبهم الى مالكها الأصيل، وهم لا يشعرون باللذّة في شيء كما يلتذّون بالانقطاع اليه والانس معه، بل هم لا يعدّون غير ذلك لذّة ولا يعتبرونه أنسا. انّهم يردّدون ـ تبعاً لمولاهم وقائد مسيرتهم ـ حديث العشق والمحبّة ويناجون محبوبهم قائلين: «**واستغفرك من كلّ لذّة بغير ذكرك**».[١]

هؤلاء المعلّقة أرواحهم بعزّ قدس الله تعالى يعتقدون ويشعرون من أعماق قلوبهم بأنّهم اذا كانوا مع الله سبحانه تعالى. فانَّ لديهم كل شيء، واذا لم يكونوا مع الله تعالى ـ والعياذ بالله ـ فانّه ليس لديهم شيء، وتنطلق ألسنتهم معبّرة عمّا في قلوبهم قائلين: «**ماذا وجد من فقدك وما الذي فقد من وجدك؟!**».[٢] انّ عيونهم متّجهة الى محبوبهم يطلبون منه بصدق واخلاص: «**الهي هب لي كمال الانقطاع اليك**».[٣] والله تعالى أيضاً يستجيب لهم، ويتعامل

---

١. مفاتيح الجنان، مناجاة الذاكرين.

٢. مفاتيح الجنان، دعاء عرفة للامام الحسين عليه السلام.

٣. مفاتيح الجنان، الأعمال المشتركة لشهر شعبان، العمل الثامن، (المناجاة الشعبانيّة).

مع هؤلاء المعطّرين بعطر محبّته فيمكّنهم من اقتلاع جذور محبّة غير الله من قلوبهم فلا يختارون لأنفسهم ملجأً غيره: «**أنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبّائك حتّى لم يحبّوا سواك ولم يلجأوا الى غيرك**».[1]

لكنّ ارتشاف كأس «المحبّة» لابدّ ان يمرّ عبر وادي «المعرفة»، ولابدّ ان يتمتّع المرتشف بمعرفة ـ مهما كانت غامضة ومبهمة ـ للمحبوب وصفاته، وذلك لانّه من المستحيل ان تتعلّق المحبّة بـ «المجهول المطلق». والواقع انّ كلّ شخص يظفر من «زمزم المحبّة» بمقدار ما لديه من «نور المعرفة»، وبناءً على هذا فانّ قصّة استسلام القلب وارتعاشه تكمن جذورها في رؤية المحبوب ومعرفته. وفي هذا المجال صحيح انّ المعرفة الغيبيّة والحصوليّة التي تتمّ بالواسطة يمكنها أيضاً ان تشكّل جسراً يتمّ العبور عليه من وادي «المعرفة» الى آفاق «المحبّة»، إلاّ انّ للمعرفة الحضوريّة ورؤية جمال المحبوب بلاواسطة قصّةً من نوع آخر، وهناك هوّة عميقة ومسافة كبيرة تفصل بين النار التي تلهبها هذه المعرفة الحضوريّة في أعماق الروح البشريّة وبين الجذوة الضعيفة والباهتة التي تحقّقها المعرفة الحصوليّة.

نعم لا مجال للشكّ في ضرورة المعرفة العقليّة والحصوليّة لله سبحانه وتعالى، ولكنّ السؤال عن الشيء الذي يزيل الصدأ عن الروح البشريّة ويمنحها التكامل ويجعلها مؤهّلة لاستقبال اللطف الالهيّ فتصبح مخاطبة بالخطابات الرحمانيّة مثل قوله تعالى: ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾،[2] والجواب: أنّه هو نور المعرفة الحضورّية لتلك الذات المقدّسة، وإلاّ فانّ المعرفة

---

١. مفاتيح الجنان، دعاء الامام الحسين عليه السلام في يوم عرفة.

٢. سورة الفجر، ٢٧ ـ ٣٠.

الحصوليّة ـ في بعض الأحيان ـ لا تجلب للنفس سوى الظلمة والحجاب، وتغدو مصداقاً للقول المشهور «العلم هو الحجاب الأكبر».

أجل انّ ذلك النور الذي يداعب أرواح الأولياء هو من جنس الاشراق الحقيقيّ الذي ينزله ربّ الأنوار على قلوب خاصّته فيعرج بهم الى المقام الرفيع لـ «التوحيد»: «**الهي أنتَ الذي أشرقتَ الأنوار في قلوب أوليائك حتّى عرفوك ووحّدوك**»[١] وهذا النور هو ذلك الجوهر الذي لا بديل له والذي يبحث عنه العرفاء والعظماء وأهل الطريقة وأصحاب السير والسلوك، وقد وطنّوا أنفسهم على تحمّل كلّ الصعاب والمشقّات من أجل الظفر به، وألسنتهم تنطلق لتعرب عمّا يجري في أعماق نفوسهم: «**فأنتَ لا غيرك مرادي ولك لا لسواك سَهَري وسُهادي ولقاؤك قرّة عيني ووصلك منى نفسي واليك شوقي وفي محبّتك وَلَهي والى هواك صَبابتي**».[٢]

أجل انّ كيمياء المحبّة التي تحوّل نحاس الوجود الى ذهب وتجعل الشيء الذي لا قيمة له شيئاً ذا قيمة هي في الحقيقة انعكاس لنور معرفة الله تعالى «معرفة حضوريّة». والله سبحانه قد عدّ محبّته أيضاً علامة على الايمان به حيث قال عزّ وجلّ: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لله**﴾[٣]

انّ حقيقة العبوديّة لا تتجلّى في مرآة الروح البشريّة الاّ اذا ارتبطت بعروة المحبّة الالهيّة، وعروة محبّة الله أيضاً ملتحمة بحبل المعرفة الشهوديّة للذات الالهيّة المقدّسة. ويشير الامام الصادق عليه السلام الى هذا

---

١. مفاتيح الجنان، دعاء الامام الحسين عليه السلام في يوم عرفة.

٢. مفاتيح الجنان، مناجاة خمس عشرة، مناجاة المريدين.

٣. سورة البقرة، ١٦٥.

الترابط فيقول: «**انّ اولي الألباب الذين عملوا بـالفكرة حتّـى ورثـوا منـه حبّ الله**».[1] ثمّ يعدّد عليه السلام ثمرات مقام المحبّة فيقول: «**فاذا بلغ هـذه المنزلـة جعل شهوته ومحبّته في خالقه فاذا فعل ذلك نزل المنزلة الكبرى فعاين ربّه في قلبه وورث الحكمة بغير ما ورثه الحكماء وورث العلم بغـير مـا ورثـه العلماء وورث الصدق بغير ما ورثه الصدّيقون: انّ الحكماء ورثوا الحكمة بالصمت وانّ العلماء ورثوا العلم بالطلب وانّ الصدّيقين ورثـوا الـصّدق بالخشوع وطول العبادة**».[2]

إلاّ انّ المعرفة والمحبّة الالهيّة لا تحصل بـسهولة بـل لابـدّ للـسالك مـن تذليل صعوبات عديدة حتّى يظفر بهما. ولا نجازف اذا قلنا إنّ أهمّ مشكلة تواجه السالك في هذا المـضمار هـو تـشخيص أصـل الطريـق، وذلـك لانّ السالك اذا أخطأ في انتخاب مسيره فانّه لن ينتفـع مـن محاولاتـه وجهـوده ومشقّاته، بل انّ استمراره في مسيره لن يعود عليه إلاّ بالبُعد عـن مقـصوده وهدفه. اذن قبل كلّ شيء لابدّ من بذل غاية الجهد واستعمال الدقّـة لمعرفـة الطريق الصحيح للعرفان والسير والـسلوك. وفي هـذا المجـال يكـون مـن النافع جدّاً اللجوء الى التشاور والاستماع الـى نـصائح الأسـاتذة الـذين يُعتمد عليهم لانّ لهم تاريخاً مشرقا وتجارب ناجحةً واطّلاعا واسعاً ودقيقـاً على تفاصيل الاسلام الحقيقيّ الأصيل.

ولتحقيــق هــذا الهــدف قمــتُ بجمــع وتنظـيم وتــدوين هــذه المجموعة مـن المواضـيع التـي تـدور حـول هـذا المحـور، وهـي مـأخوذة مـن محـاضرات مختلفـة اُلقيـت هنـا وهنـاك، وقـد قـام بالقائهـا الاُسـتاذ

---

۱. بحار الأنوار، ج ۲۶، ص ۴۰۳، الباب ۴۶، الرواية ۱۵.
۲. بحار الأنوار، ج ۲۶، ص ۴۰۳، الباب ۴۶، الرواية ۱۵.

المبـدع والمفكّـر الاسـلاميّ الـواعي بزمانـه آيـة الله محمـد تقـي مـصباح اليزدي دام ظلّه.[١]

---

١. للتعرّف أكثر على شخصيّة آية الله مصباح اليزدي يحسن الالتفات الى وجهة نظر بعض الشخصيّات الكبيرة بالنسبه اليه، ومن جملتهم:

١ـ آية الله بهجت:

ينقل حجة الاسلام والمسلمين الدكتور طهراني: «قبل انتصار الثورة الاسلاميّة في ايران زار مجموعة من تجّار سوق مدينة قم آية الله بهجت وطلبوا منه ان يعيّن لهم واحداً من علماء الدين الذين يعتمد عليهم ليعقد لهم درساً في الاخلاق. واجابهم آية الله بهجت بانّ سماحة الشيخ مصباح اليزدي مؤيَّد من قبلي، اذهبوا إليه واطلبوا منه ذلك وأنا ايضاً سوف اطلب منه أن يعقد لكم درساً في الأخلاق. وكان درس الأخلاق هذا يُعقد لفترة طويلة في بيت المرحوم اسلامي». (نقلاً من كتاب: حياة آية الله مصباح اليزدي، ص ٣١)

٢ـ العلاّمة الطباطبائيّ:

«يعتبر مصباح من بين طلاّبي مثل التين بين سائر الفواكه، وذلك لانّ فكره ليس فيه شيء زائد يمكن الاستغناء عنه». (نفس المصدر السابق، وهو مطبوع باللغة الفارسيّة، وهذا الموضوع منقول عن حجّة الاسلام والمسلمين الشيخ علي أصغر مرواريد).

٣ـ آية الله بهاء الدين:

يقول حجّة الاسلام والمسلمين حسين زاده:

انّ آية الله بهاء الدين كان يولي الاستاذ مصباح منزلة خاصّة... وفي أحد الأيّام كان آية الله بهاء الديني مستغرقاً في الحديث وفي أثناء الجلسة دخل الاستاذ مصباح فجلس ـ حسب ما يقتضيه أدبه الجمّ وخلقه الرفيع ـ في نهاية المجلس، ولكنّ آية الله بهاء الديني قطع حديثه احتراماً له ونهض واقفاً وأجلسه الى جانبه، وقال عنه ما مضمونه: أنا ارى في طلعتك القرآن الكريم. ويواصل حسين زاده قوله: انّني كنت أكثر من زيارة آية الله بهاء الديني ولكنّني لم اسمع منه قطّ مثل هذه الجملة في حقّ أحد غيره.

٤ـ قائد الثورة الاسلاميّة (آية الله السيد علي الخامنئي):

«انّني اعرف سماحة الشيخ مصباح اليزدي منذ ما يقرب من أربعين عاماً، وأنظر اليه بعنوان كونه فقيها وفيلسوفاً ومفكراً وصاحب رأي في المواضيع الاسلاميّة الأساسيّة، واحبّه وأميل اليه. واذا كان الله سبحانه وتعالى لم يوفّق هذا الجيل الحاضر للانتفاع من شخصيّات كبيرة مثل العلاّمة الطباطبائيّ والشهيد مطهّري، ولكنّه جلّ وعلا أنزل لطفه على هذه

ونحن نشكر الله تعالى على توفيقه لنا ـ بعد شهور من البحث والجهد ـ في إعداد هذه المجموعة وجعلها تحت تصرّف الراغبين الأعزّاء.

ومن الجدير بالذكر انّني اضفت بعض المواضيع ـ بعد التشاور مع الاستاذ (دام ظلّه) والحصول على موافقته ـ وسجّلتها في الحاشية. ومن هنا فانّه باستثناء بعض الحواشي الواردة في الفصل الأوّل ←

الشخصيّة العزيزة والعظيمة القدر فملأ بها الفراغ الذي تركه اولئك الأعزّاء في زماننا». (صحيفة جوان: ـ ۹ـ۱۹۹۹م، ص ۱ـ۲).

وقد أكّد سماحته أيضاً بتاريخ ۲۰۰۱/۶/۲۶م أثناء استقباله لمجموعة من اليافعين والشباب الحافظين للقرآن الكريم قائلاً:

«انّني أرجو ان يلتفت هو [حجّة الاسلام الطباطبائيّ] ومجموعته العاملة معه الى هذه الملاحظة وهي: من الضروريّ ان يجعلوا ضمن برامجهم ان يزوّدوا هؤلاء (اليافعين من القرّاء والحفّاظ للقرآن) الوعي الاستدلاليّ والعمق البرهانيّ بالنسبة لعقائدهم .... ومن وجهة نظري فانّ من جملة الامور التي تساعد كثيراً في تحقّق هذه القضية هو الانتفاع من كتب الشهيد مطهّري ومن المعارف التي يقدّمها اليوم شخصيّات مهمّة مثل سماحة الشيخ مصباح وآخرين ممّن يتمتّع في الواقع بالاسس الفكريّة للاسلام، حتّى انّه من الممكن تبسيط هذه الكتب والأفكار، وأنتم قادرون على القيام بهذه المهمّة». (صحيفة پرتو سخن الاسبوعيّة، بتاريخ ۲۰۰۱/۷/۴م)

۵ـ آية الله مشكيني:

«انّه [آية الله مصباح] من الشخصيّات المباركة. ايّها السادة انّ الحوزات العلميّة تنفق المبالغ الباهظة من الحقوق الشرعيّة خلال عشرات السنوات وتربّي آلاف الطلاّب من اجل أن يظهر في كلّ عصر عدد قليل من أمثال آية الله مصباح في المجتمع. اذا ظفرنا بعشرة علماء كبار في الحوزة فانّ أحدهم قطعاً هو آية الله مصباح. نحن نعتقد بعظمة مكانته .... وهو من ذخائرنا الوجوديّة». (حميد رسائي، لماذا التحصّن وكيف يكون؟ منشورات الفيضيّة، قم، الطبعة الثالثة، بتاريخ ۲۰۰۰/۱۲م، ص ۱۴۴، وهو مطبوع باللغة الفارسيّة).

ويقول آية الله مصباح اليزدي نفسه فيما يتعلّق بأساتذته في الأخلاق: «من جملة الشخصيّات الكبيرة التي يمكنني أن أذكرها بعنوان انّهم أساتذة في الأخلاق هؤلاء الثلاثة: العلاّمة الطباطبائيّ رحمه الله، آية الله بهجت رحمه الله والمرحوم الانصاري الهمداني...» (هذا النصّ مأخوذ من شريط تسجيل يوثّق مقابلة أُجريت مع آية الله مصباح اليزدي).

تكون سائر الحواشي المثبتّة في هذا الفصل وبقيّة فصول الكتاب هي من اضافاتي الشخصيّة، واذا لوحظ فيها قصور أو ضعف فذلك بسبب انتسابها اليّ.

نرجو الله تعالى ان يمنّ علينا بالاخلاص في العمل وان يتقبّله منّا بأحسن قبوله، آمين ربّ العالمين.

محمد مهدي نادري
جمادى الثانية ١٤٢٦هج.ق.
١٣٨٤/٤ هج.ش.
٢٠٠٥/٦م

الفصل الأوّل

الكلّيات

أنواع رغبات الانسان

تقطع الروح الانسانيّة مراحل مختلفة في مسيرها منذ الـولادة وحتّـى المـوت، ولها في كلّ مرحلة من تلك المراحل طلبات معيّنة وحاجـات خاصّـة. فـنحن منذ عرفنا أنفسنا ولحدّ هذه المرحلة التي نعيشها من حياتنا قد جرّبنا تحـوّلات متنوّعة في أرواحنا، وقد تعرّفنـا علـى هـذه التحـوّلات عـن طريـق التجربـة الباطنيّة التي تُسمّى حسب الاصطلاح الفلسفي بـ«العلم الحضوريّ». وتكون بعض هذه المراحل والتجارب مشتركة بين جميع الناس، فكلّ واحـد منّـا قـد عاش هذه التجربة بشكل أو بآخر. مثلاً بالنسبة للطفل الرضيع مـن الانـسان فانّ كلّ حركاته وجهوده في البداية تكون من أجـل الأكـل والـشرب فهـو لا يفكّر بشيء خارج عن هذين الأمرين. اذن أوّل حاجة للانـسان هـي حاجتـه للمأكولات والمشروبات، وتستمرّ معه هذه الحالـة الـى فـترة لا يـشعر فيهـا بحاجة اخرى غير هذه الحاجة. وصحيح أنّنا عادة لا نتذكّر شيئاً مـن وضـعنا الذي عشناه في الشهور الاولى من حياتنا الشخصيّة، لكنّنا نستطيع ان نجرّب هذا الأمر في حياة الآخرين. فنحن نشاهد بـأُمّ أعيننـا انّ الأطفـال الرضّـع لا

يهتمّون بشيء ـ أثناء الشهور الاولى من حياتهم ـ إلاّ بالأكل والشرب، ولهـذا فانّ كلّ ما يقع في أيديهم فهم يضعونه في أفواههم.

وبعد هذه المرحلة تتكامل قليلاً الروح بـصورة طبيعيّـة وفطريّـة وغـير اختياريّة، فنلاحظ انّ هذا الانسان قد أصبح يدرك أيضاً أشياء اخرى غـير الأكل والشرب. فهو يدرك مثلاً في هذه المرحلة الجديدة محبّـة الأب والأُمّ، ولا سيّما محبّة الأُمّ، فهو يلتذّ من نظراتهم المفعمة بالمحبّة وكذلك من حملهـم له ومداعبتهم ومضاحكتهم له. انّ هذه الرغبة والحاجة قد ظهـرت حـديثاً في الطفل. فقد يكون الطفل شاعراً بالشبع ولا حاجة لهُ الى الطعـام والمـاء ولكنّه يشعر بالألم والضجر لانّ والديه عـاملاه بقـسوة ولم يحنـوا عليـه. انّ هذه علامة على ظهور حاجة جديدة في الطفل.

وبعد تجاوز هذه المرحلة يبدأ الطفل بالرغبة تـدريجيّاً في اللعـب، وهـي أيضاً رغبة فطريّة وطبيعيّة ومن جملة المواهب الالهيّة. ومن هنا أيضاً فانّنا لا نشعر بالحاجة الى تعليم الطفل لكي يحبّ اللعب، وذلك لانّ هـذه الرغبـة تتفجّر في نفسه بشكل ذاتيّ. حتّى انّه في بعض الأحيان تشتدّ الرغبة عنده في اللعب ويلتذّ منه الى الحدّ الـذي ينـسى فيـه الأكـل والنـوم، وأحيانـا تمـرّ ساعات على موعد تناوله للطعام لكنّه مستغرق في اللعب ولا يـسأل عـن الأكل. ومن البديهيّ ان تجاوز هذه المراحل والعبور التدريجيّ منها لا يعنـي بالضرورة انّ الرغبة والحاجة السابقة قـد انتفـت تمامـاً وانّ رغبـة وحاجـة جديدة قد حلّت محلّها. فمن الواضح انّ الرغبة في تناول الطعام والـشراب ترافق الانسان الى آخر عمره في هذه الدنيا ولا تفارقه اطلاقاً.

ومن جملـة الحاجـات التـي تنبعـث في الانـسان بـشكل طبيعـيّ وفطـريّ في المراحل اللاحقة من نضجه وتكامله هو الاحساس بـ «الحاجة الى الجنس الآخر»

أو «الاحساس الجنسيّ». فهذا الاحساس يظهر بشكل ذاتيّ ومن دون حاجة الى التعليم والتربية في مرحلة معيّنة من مراحل النضج في الحياة الانسانيّة. فهذه الرغبة في بدايتها لا يدركها الطفل بوضوح، ولا يفهم بالدقّة عن أيّ شيء يبحث ولا يعلم ماذا يريد. ومع مرور الزمن تظهر هذه الحاجة تدريجيّاً وتصبح أكثر وضوحاً. وتشتدّ هذه الرغبة باستمرار حتّى يصل الشاب الى سنّ البلوغ وحينئذ يصل الى ذروة الوعي فيعرف ماذا يريد وعن أيّ شيء يبحث، ومنذئذ فصاعداً حتّى ذروة الشباب تواصل هذه الرغبة حالة ظهورها وزيادتها وشدّتها. وتظهر هذه الرغبة في الفتيات أسرع من الذكور حيث يشعرن بهذا الاحساس عادة بين سنّ التاسعة والعاشرة. ومن الواضح انّ هذا التحوّل الطبيعيّ الذي يحدث في روح الانسان ليس منبتّ الصلة بالجهاز الجسميّ والفسيولوجيّ للانسان، وانّما هو مرافق للتغييرات الطارئة على بعض أجهزة البدن.

وأساساً فانّ التحوّلات التي تظهر في الروح الانسانيّة بحيث تنبعث فيها حاجات ورغبات جديدة تكون منسجمة مع التحوّلات الفسيولوجيّة عنده. ففي هذا الخضمّ من التحوّلات تحدث تغييرات في بعض الأعضاء والغدد والهرمونات وسائر أجهزة البدن. لكنّ المهمّ في هذا المجال هو الالتفات الى هذه الملاحظة وهي انّه على كلّ حال تقوم التغييرات الفسيولوجيّة والجسميّة بدور المقدّمة فقط في ظهور هذه الرغبات والحاجات، وأمّا الاحساس والادراك لكلّ رغبة وحاجة فهو أمر روحيّ ومتعلّق بروح الانسان. وأمّا البدن والجسم وأعضاء الانسان فهي لا «تدرك» شيئاً، و«الادراك» أساساً متعلّق بـ«روح» الانسان.

وبما انّ كلّ واحد من التحوّلات الروحيّة يحدث في مرحلة معيّنة من

حياة الانسان وتكامله فانّ الانسان لا يتمتّع بأيّ ادراك واضح لذلك الاحساس وتلك الحاجة قبل وصوله الى تلك المرحلة. فالانسان الذي لازال ـ مثلاً ـ يعيش فترة الطفولة لا يتمتّع بأيّ ادراك واضح للحاجة الجنسيّة، وفهمها غير ممكن بالنسبة اليه، ولا يتيسّر شرح وتوضيح كيفيّة وحقيقة هذا الاحساس له. فمهما حاولنا ان نوضّح للطفل انّ الأشخاص البالغين يشعرون بحاجة تُسمّى الحاجة الجنسيّة حيث يتمّ اشباعها بواسطة الجنس الآخر فانّه لا يفهم شيئاً عن حقيقة ما يجري في الواقع.

فالطفل لا يستطيع ان يتصوّر انّ هناك لذّةً تُسمّى باللّذة الجنسيّة تختلف في طبيعتها عن لذّة الأكل والشرب، وهذه اللذّة لا يمكن مقارنتها مع تلك اللذّة. انّ الطفل الذي لم يتمتّع لحدّ الآن بادراك للشؤون الجنسيّة لا يتيسّر لنا ان نوضّح له ـ بأيّة وسيلة من الوسائل ـ كيفيّة هذا الاحساس وهذه اللذّة. انّه لا يعرف لذّة سوى لذّة الأكل والشرب واللعب. وغاية ما يمكن ان يقال له في توضيح اللذّة الجنسيّة هي انّها «تشبه حلاوة العسل»، اِلاّ انّ هذا التشبيه غير صحيح لانّ حلاوة العسل وحلاوة اللذّة الجنسيّة هما من مقولتين مختلفتين تماماً ولا يمكن المقارنة بينهما اطلاقاً.

حاجات الانسان الروحيّة وتحوّلاتها غير المحسوسة

هناك تحوّلات اخرى أيضاً غير التحوّلات التي ذكرناها، وهي تظهر في الأفراد بصور مختلفة، وهي تتفاوت عن التحوّلات من النوع الأوّل في جهتين على أقلّ تقدير: الجهة الاولى: انّها ليست محسوسة الى حدّ ما. الجهة الثانية: انّ ظهورها وبروزها ليس بشكل متساوٍ وانّما هو مختلف بحسب استعداد الأفراد وروحيّاتهم.

انّ الرغبة في تناول الطعام والشراب والرغبة في اللعب والغريزة الجنسيّة، كلّ هذه محسوسة تماماً بالنسبة للأفراد، هذا أوّلاً، وثانيا: انّ درجة ومستوىً فعّالاً من أصل هذه اللذّات موجود عند جميع أفراد الانسان، وان كان هؤلاء الأفراد مختلفين ـ بشكل أو بآخر ـ في شدّة تلك اللذّات وضعفها. لكنّنا نواجه رغبات عند الانسان بحيث تكون ظاهرة عند بعض الأفراد بشكل فعّال وقويّ جدّاً، أمّا في البعض الآخر منهم فهي تكون ضعيفة وباهتة بحيث يُتصوّر انّها غير موجودة عندهم على الاطلاق. وهذا يعني انّ هذه الرغبات تختلف عن الرغبات من النوع الأوّل، حيث يكون تفاوت الدرجة والمستوى كبيراً جدّاً. مثلاً الرغبة في الفنّ، ولا سيّما بعض الفنون الخاصّة، فانّها متفاوتة جدّاً بين أفراد الانسان. فهذه الرغبة تظهر أحيانا في بعض الأفراد بصورة شديدة وعميقة بحيث تغطّي على كلّ شؤون حياتهم، بينما يُلاحظ في تعامل وردود أفعال بعض الأفراد عند مواجهتهم للمواضيع الفنّية وكأنّهم لا يتمتّعون بأيّ ذوق فنّي.

انّ جميع الناس يلتذّون من رؤية الحدائق الغنّاء وتسريح النظر في أمواج البحار وشموخ الجبال، اِلاّ انّ بعض الأفراد ينفعلون من رؤية هذه المناظر بحيث تستحوذ على مشاعرهم وتنسيهم سائر شؤون الحياة. فهم أحيانا يستغرقون في تملّي وردة جميلة أو شجرة حلوة وتمرّ عليهم الساعات وهم لا يحوّلون أعينهم عنها. وتتجلّى هذه الرغبة في الانسان أحيانا بحيث تدفعه لان يحاول ايجاد ألوان من الجمال في الحياة. انّ فنوناً كثيرة من قبيل: الرسم والخطّ والشعر والنثر الأدبيّ الجميل كلّها نابعة من هذه الرغبة والغريزة الانسانيّة.

هناك أشخاص عندما يسمعون مقطوعة من الشعر أو النثر الجميل فانّهم يشعرون بلذّة لا تعدلها لذّة اخرى. وبعض الناس عندما يسمع

صوتاً جميلا فانّه يلتذّ بحيث تطرأ عليه حالة تشبه السكر. بينما لا تُلاحظ مثل هذه الحالة عند الآخرين فهم لا يواجهون الجمال والقضايا الفنّية بهذا المستوى من الحسّاسيّة. والأشخاص الذين يتمتّعون بهذه الميزة يستطيعون هم ان يتأمّلوا في ظهور هذه الحالات والتغييرات الروحيّة في أنفسهم، ويستطيعون أيضاً ان يطّلعوا على حصولها عند الآخرين من خلال مشاهدة الحالات والآثار التي تظهر عليهم.

الرغبات القصيرة الأمد والطويلة الأمد

الملاحظة الاخرى حول أنواع رغبات الانسان هي انّها ليست متشابهة من حيث البقاء والزوال. انّ بعض الرغبات تكون ثابتة تماماً طيلة حياة الانسان، بينما البعض الآخر منها يظهر في مرحلة معيّنة من نموّ الانسان ثمّ يُنسى بعد ذلك تماماً فلا يعود مطلوباً له تماماً. والرغبة في ألعاب الطفولة هي من قبيل النوع الثاني من الرغبات. فالانسان في مرحلة الطفولة مغرم جدّاً بالألعاب ووسائل اللهو، ولكنّه عندما يخطو نحو مرحلة البلوغ فانّه يتركها جانباً، بل وحتّى انّه يشعر بالخجل من ان يمدّ يده الى وسائل اللهو واللعب التي كان بالأمس يعشقها ويحبّها كما يحبّ نفسه.

توجد في الانسان رغبات ليس لها ارتباط مباشر بجسمه وأعضاء بدنه، ولا علاقة لظهورها وبروزها وشدّتها وضعفها بالشيخوخة والشباب، ولا بالسمنة والنحافة. حتّى انّ بعض الرغبات يشتدّ ويقوى عندما يمسي الانسان شيخا وتبدو عليه بوادر ضعف قواه الجسميّة. ولنأخذ مثالاً لذلك «الرغبة في الاحترام». فالانسان بذاته وفطرته يحبّ ان يحترمه الآخرون وان ينظروا اليه بعنوان كونه شخصيّة متميّزة. انّ «الحاجة الى الاحترام» لا علاقة لها بالسمع

والبصر واليد والرجل والجهاز التناسليّ وسائر أعضاء البدن. والانسان على كلّ حال وفي أيّة مرحلة من العمر كان فهو يحبّ ان يكون متمتّعاً بشخصيّة رفيعة وان ينظر اليه الآخرون بنظرة الاحترام والتقدير. وهذه الرغبة لا تشيخ ولا تُنسى أبداً وهي ترافق الانسان الى أعتاب الموت. حتّى انّ بعض الأشخاص يحاول القيام بعمل مادام حيّاً بحيث ينظر اليه الناس نظرة الاحترام بعد وفاته أيضاً ويذكرونه بخير واجلال. انّها رغبة لا تنتهي ولا تنفد، بل هي تشتدّ وتزداد بازدياد العمر وكبر السنّ أيضاً.

الرغبات الانسانيّة التي تتفتّح بذاتها والتي لا تتفتّح بذاتها

انّ الرغبات التي ذكرناها كلّها مشتركة في هذه الميزة وهي انّها تتفتّح بشكل طبيعيّ ومن دون حاجة الى نشاط الانسان، فهي توجد بشكل ذاتيّ وتقطع مراحلها المختلفة من دون عناء. وهنا يُطرح هذا السؤال وهو: هل انّ جميع رغبات الانسان وحاجاته هي من هذا القبيل؟ أم انّ هناك رغبات وحاجات اخرى أيضاً بحيث لا تكون طبيعيّة وذاتيّة مائة بالمائة، وانّما يحتاج تفتّحها ونضجها الى تحرّك ومحاولة من الانسان نفسه؟

انّ الجواب على هذا السؤال يكون بالايجاب. فهناك بذور واستعدادات في أعماق الانسان ويحتاج تفتّحها ـ وانتقالها من القوّة الى الفعل ـ الى نشاط الانسان نفسه. انّ حقيقة هذه الرغبات الفطريّة هي بشكل بحيث اذا لم يحاول الانسان ولم ينشط في تنميتها فانّ هذه الرغبات لا تظهر ولا تتفتّح. وفي هذا المجال يمكننا ذكر نموذج كمثال على ذلك وهو «العشق»:

فالكثير منّا قد قرأ في آدابنا من شعر ونثر وقصص كيف انّ بعض القلوب قد التهبت بعشق شديد وحبّ عميق. ولعلّ بعضنا قد جرّب هذه

الحالة في نفسه أيضاً. فالعشق حالة يشعر فيها الانسان بانّ روحه متعلّقة تعلّقا شديداً بشخص آخر، وهو يرجو ويأمل ان يتطلّع الى معشوقه وهو مبتسم إليه. وتسيطر على العاشق حالة من السرور الى حدّ السكر عندما يشاهد ابتسامة معشوقه وكأنّ الدنيا كلّها قد مُنحت له. أمّا عندما ينظر الى معشوقه وهو غاضب عليه فانّ الدنيا تمسي في عينيه مظلمة.

انّ هذه الرغبة التي تظهر في البداية بصورة باهتة وضعيفة، تشتدّ عند بعض الناس وتتفتّح، لكنّ حالة الاشتداد تقتصر على الذين يهتمّون بها ويعطونها المجال. فكلّما اهتمّ الشخص بهذه الرغبة وأعطاها مجالاً أكبر وأثارها فانّها تشتدّ وتقوى. كلّما تذكّر الانسان معشوقه أكثر وجسّم خياله في ذهنه وفكره وتأمّل في أبعاد جماله فانّ محبّة معشوقه تزداد في نفسه يوماً بعد يوم وجذوة العشق تتّقد في روحه بشكل أكبر. وعلى العكس من ذلك فانّه اذا لم يعط ذلك مجالاً وسعى متعمّداً لحذفه من قلبه وفكره، أو إذا حصلت له مشاكل وصعاب في الحياة اليوميّة أدّت به الى الغفلة عن معشوقه، فانّ تلك الرغبة تضعف تدريجيّاً في روحه ويميل عشقه الى الذبول شيئاً فشيئاً حتّى يموت.

وبناءً على هذا يمكن القول انّه بغضّ النظر عن وجود الرغبات التي تتفتّح في روح الانسان بشكل ذاتيّ وبصورة طبيعيّة، هناك رغبات أيضاً يكون تفتّحها ونضجها ـ الى حدّ بعيد ـ تحت تصرّف الانسان نفسه. فالانسان ذاته يستطيع ان يعمل عملاً يؤدّي الى تفتّح هذه الرغبات، كما انّه يستطيع ان يعمل ما من شأنه ان يؤدّي الى الحيلولة دون ظهورها والى انعدامها.

هل الرغبات العرفانيّة تتفتّح بذاتها أم لا؟

يجري الحديث هنا عن «الرغبات العرفانيّة»، حيث يتمّ التأكيد على انّها من

قبيل الرغبات التي لا تتفتّح بذاتها، وانّما هي بحاجة الى اهتمام الانسان وجهده لكي تنمو وتتفتّح.

انّ ما يمكن اقتناصه من مجموع المعارف الدينيّة وتجارب الأشخاص المهذّبين وذوي الهمم العالية وما يؤكد عليه العلماء الكبار أيضاً هو انّه توجد في الانسان بعض الرغبات اللطيفة التي لا تكون يقظة في البداية، وانّما نضجها وتفتّحها يتوقّف على نشاط الانسان وجهوده الذاتيّة. انّ هذه الرغبات ليست واضحة للانسان في بداية الأمر، بل هي غارقة في جوّ من الابهام. فالانسان يشعر انّ لديه ضالّة، ولكنّه لا يعرفها ولا يدري ما هي حقيقتها، وأين هي، يشعر أنّ في نفسه حاجةً، ولكنّه لا يعرف بشكل واضح الى أيّ شيء والى أيّ شخص. هذه هي فطرة البحث عن الله. وصحيح انّ الانسان ـ بفطرته ـ يعرف الله ويبحث عنه، ولكنّه لا يتمتّع ـ في البداية ـ بوعي كامل بالنسبة لهذه الحاجة. انّ هذه الرغبة تظهر أحياناً، ولكنّه بعد فترة قصيرة يُسدَل على وجهها الجميل ستارة وحجاب بحيث يعود الانسان ـ مرّة اخرى ـ الى الغفلة عنها.

انّنا جميعاً نتنسّم ـ أحياناً ـ رائحة حلوة ونسيما لطيفاً فنشعر بالاطمئنان المنبعث من أعماق وجودنا، إلاّ انّه في أغلب الأحيان تأتي الموانع المادّية والدنيويّة المختلفة لتسدّ الطريق في وجهها، وتنطلق التلوّثات الدنيويّة المتعدّدة لتحرم الانسان من استنشاق هذا الهواء النقيّ الذي يداعب روح الانسان ويمنحها الحيويّة.

واذا أردنا لهذه الرغبة الكامنة والدافع الخفيّ ان يستيقظ في أعماقنا ويتحرّك ويثبت ذاته فانّ علينا ان نشمّر عن سواعدنا وان نبذل جهدنا وننشط. وبعد بروزه أيضاً يتحتّم علينا ان نهتمّ به ونلتفت اليه ونرعاه حتّى

لا يضيع وسط هجوم وازدحام الرغبات المتنوّعة المادّية والدنيويّـة، وان لا يطفئه طوفان الغرائز الحيوانيّة المختلفة والشهوات الهابطة.

وهناك أدلّة وشواهد تؤكّد انّ بعض الناس ـ من بين كلّ هذا العدد الغفير من بني آدم ـ يتمتّع منذ مرحلة الطفولة بهذه الرغبة بصورة قويّة وشديدة، ثمّ انّهم يوصلونها بسرعة الى مستوى الوعي واليقظة فيعرفون محبوبهم بدقّة، ويبذلون غاية جهدهم بوعي والتفات ليصلوا اليه وليظفروا بلقائه. ومن الواضح انّ أمثال هؤلاء قليلون، وهؤلاء هم الذين نسمّيهم بـ «أنبياء الله» و«أوليائه».

ولعلّه في زماننا أيضاً يوجد مثل هؤلاء الأفذاذ.

انّ بعض هؤلاء كانت لهم ادراكات أثناء ولادتهم، ونحن لا نحيط علماً بمثل هذه المعرفة. حتّى ان بعضهم كان مدركاً وهو في بطن امّه،[1] بل كان يتكلّم وهو في الأرحام!

وبمشاهدة هذه النماذج يمكننا ان نتصوّر مثل هذا الأمر في سائر المجالات، وان لا نستبعد وقوعه. فأحياناً نسمع في زماننا مثلاً انّ طفلا عمره ثلاث سنين قد ألمّ بعلوم يعجز عن الالمام بها حتّى الشباب الذين وصلت أعمارهم الى سن الخامسة عشرة، أو هناك طفل حافظ للقرآن الكريم وهو في السنة الرابعة من عمره. ولدينا نموذج بارز في هذا المضمار وهو الحافظ للقرآن الكريم ونهج البلاغة الدكتور محمد حسين الطباطبائي الذي حيّر العالم بقدراته الفكريّة والذهنيّة. انّ مثل هؤلاء الأشخاص الذين

---

١. لقد أثبتت العلوم الحديثة انّ للطفل الانسانيّ ـ في المرحلة الجنينيّة ـ ادراكات أيضاً، وانّه يبدي ردّ فعل للعوامل البيئيّة المحيطة به مثل الأصوات. وعلى كلّ حال فانّ مقصودنا من الادراكات الحاصلة للأنبياء والأولياء أثناء المرحلة الجنينيّة هو أوسع من هذه الادراكات التي تحصل لعامّة الناس في هذه المرحلة.

يبرزون بين حين وآخر هم من الآيات الالهيّة، ووجودهم علامة على انّ الله تعالى يستطيع ان يخلق اناساً يعتبرون استثناءً من القاعدة بحيث تكون قدراتهم واستعداداتهم أكمل وأفضل بكثير من الأفراد العاديّين.

وعلى أيّة حال فانّ حديثنا هنا لا ينصّب على الموارد النادرة والاستثنائيّة، وانّما كلامنا يجري عن الأشخاص العاديّين أمثالنا، ممّن تكون لهم حياة ورغبات وادراكات متقاربة ومتشابهة بشكل أو بآخر.

فالبحث يتركّز هنا على الناس العاديّين أمثالنا، ويؤكّد على انّ لهم رغبات ودوافع خفيّة تدفعهم نحو الله والمعنويّات، وهي في البداية لا تتميّز بالوضوح التامّ حتّى بالنسبة إلينا، واذا أردنا لها ان تظهر تماماً وتكشف عن نفسها فلابدّ ان نبذل جهداً لنزيل النقاب عنها. وبعد ذلك أيضاً فانّ نموّها ونضجها وتفتّحها يتوقّف على مراقبتنا وتوجّهنا ومتابعتنا لها، وعلى كلّ حال فانّ ظهورها وكمالها لا يحصل بشكل ذاتيّ وغير اختياريّ.

انّ موضوع «الأخلاق» بالمعنى العامّ، و«العرفان» و«السير والسلوك» بالمعنى الذي يقصده علماء الأخلاق والعرفان يدور حول هذا الأمر. انّ أساس جميع المواضيع والبحوث المطروحة في الأخلاق والعرفان والسير والسلوك قائم على وجود لون من الكمال الذي يمكن ان تناله روح الانسان وتتّصف به، ولكنّ ذلك مشروط بأمرين: أوّلاً: انّ ادراك الحاجة الى هذا الكمال يحتاج الى نشاط الانسان نفسه. ثانياً: انّ قطع خطوات في مسير النموّ وتقوية هذه الرغبة واشباعها متوقّف أيضاً على حركة وجهد الانسان نفسه.

ويكفي في شرف وفضيلة وعلوّ منزلة هذه الرغبة ان نعرف انّها تشكّل الأساس لبعثة الأنبياء عليهم السلام جميعاً، وانّ جهود ومحاولات الأنبياء وأوصيائهم

هي في النهاية قد بذلت بهدف ايقاظ هذه الرغبة والرقيّ بها في مدارج الكمال والتعالي.

الرغبات العرفانيّة هي من أكثر رغبات الانسان أصالةً

تتّضح أهميّة وأصالة وشرف هذه الرغبة عندما نلتفت الى انّه:

صحيح انّ الأنبياء عليهم السلام قد نهضوا من أجل اقامة القسط والعدل في المجتمع، وصحيح أن الأنبياء قد بُعثوا ليقطعوا أيدي الظالمين وينقذوا المظلومين والمستضعفين، وصحيح أنّهم أُرسلوا لتعليم الناس «الكتاب» و«الحكمة» ولتربيتهم كما يريد الله، وصحيح أنّهم قدّموا للناس مجموعة من الأحكام والقوانين الاجتماعيّة والاقتصادية والسياسيّة والعسكريّة والحقوقيّة والمدنيّة والصحيّة من أجل سعادة المجتمع البشريّ، لكنّه لا ينبغي ان يتوهّم أحد انّ هذه المواضيع كانت تتمتّع بالأصالة في مدرسة الأنبياء، وكانت هذه الامور تشكّل هدفهم النهائيّ. لا شكّ في انّ هذا التصوّر خطأ فاحش. انّ جميع هذه الشؤون مقدّمة لأمر آخر، وذلك الآخر هو الهدف النهائيّ، أمّا تلك المقدّمات فهي تعتبر من جملة الأهداف المتوسّطة.

لا ريب في انّ المجتمع لابدّ ان تُقام دعائمه على أساس العدل والقسط، وأن تتمّ الحيلولة دون وقوع الظلم حتّى ينال كلّ فرد حقّه، وأن تُبنى العلاقات الانسانيّة والاجتماعيّة بشكل سليم لينشأ الناس في المجتمع بأرواح نشيطة وأجسام صحيحة، ولكنّ السؤال هنا هو: لماذا لابدّ ان تتحقّق كل هذه الامور؟ الجواب هو: كلّ هذه الامور يجب ان تتحقّق كي تتهيّأ الأرضيّة اللازمة للنموّ الروحيّ والمعنويّ بشكل أفضل وأكثر، ويتحقّق الكمال الواقعيّ للناس، وهو القرب الى الله سبحانه. وقد أكّد مؤسّس الجمهوريّة

الاسلاميّة في ايران في خطاباته كثيراً على انّ تشكيل الحكومة الاسلاميّة ونشر العدل والقسط ليس هو الهدف النهائيّ، وانّما جميع هذه الامور تعتبر مقدّمة لكي يتعرّف الناس بصورة أفضل على الله تعالى، وبعد معرفته سبحانه يتحرّكون نحوه. ومعنى الأخلاق والسير والسلوك والعرفان الصحيح هو انّ الانسان الذي يتمتّع بقوّة واستعداد خفيّ وغير واضح في أعماق روحه بحيث يدفعه نحو الله سبحانه، فانّه يستغلّ هذه المنحة الالهيّة ويحوّلها ـ بجهده الشخصيّ ـ لتصبح بشكل واعٍ ويسير بها في طريق التكامل. وبناءً على هذا يمكن القول انّ العرفان الحقيقيَّ هو محاولة مستمرّة للوصول الى أرفع المنازل والدرجات الميسورة للانسان.

ما هو «العرفان»؟

«العرفان» و«المعرفة» كلمتان لهما معنى واحد، وذلك المعنى هو «الاطّلاع والوعي». ويمكن أن تكون هذه المعرفة ناشئة عن طريق «الحسّ» أو «العقل» أو «النقل» أو «القلب». من هنا فانّه لا فرق ـ من الناحية اللغويّة ـ بين أنواع المعرفة، فعلى كلّ واحد من هذه الأنواع يطلق اسم «العرفان». لكنّه من حيث الاصطلاح فانّ «العرفان» يختلف عن «المعرفة»، ويستعمل في معنى خاصّ. فعندما تطلق كلمة «المعرفة» فهي تشمل كلّ نوع من أنواع المعرفة، بينما «العرفان» في الاصطلاح مختصّ بنوع معيّن من المعرفة، وهذا النوع المعيّن من المعرفة لا يتمّ الحصول عليه عن طريق الحسّ والتجربة ولا عن طريق العقل والنقل، وانّما يحصل عن طريق الشهود الباطني والرؤية الحضوريّة. انّ الشهود القلبيّ والادراك الباطنيّ هو معرفة بلا واسطة بحيث يدرك فيها العالم ذات المعلوم بصورة مباشرة، ويُسمّى هذا ـ حسب

الاصطلاح الفلسفيّ ـ بـ «العلم الحضوريّ». والعلم الحضوريّ ـ على العكس من «العلم الحصوليّ» ـ لا يتمّ الحصول عليه عن طريق التجربة والفكر والاستدلال والمفاهيم الذهنيّة. فكلّما تعاملنا مع المفهوم والتفكر والتعقّل فانّ نتيجة جهدنا هي أمر عقلانيّ آخر أيضاً وهو من سنخ المفاهيم، بينما العرفان هو معرفة حضوريّة وليست من سنخ المفاهيم.

الاّ انّ المعارف والعلوم الحضوريّة كثيرة، ولا يطلق اسم «العرفان» على كلّ علم حضوريّ أو شهود باطنيّ، وانّما العرفان ـ بشكل ملخّص ـ هو عبارة عن معرفة الله تعالى معرفة حاصلة عن طريق الادراك القلبيّ الباطنيّ، وليست ناتجة عن طريق الفكر والاستدلال. العرفان يعني معرفة الله سبحانه، الاّ انّها ليست معرفة غيابيّة عن طريق العقل والبرهان، وانّما هي معرفة بالقلب ورؤية لحضوره سبحانه في أعماق الروح.

انّ ألوان المعرفة التي تحصل لنا عن طريق البراهين والاستدلالات الفلسفيّة والكلاميّة فيما يتعلّق بالله سبحانه هي كلّها صفات تتحدّث عن موجود يعتبر وجوده غائباً عنّا.[1]

فمعرفتنا بالنسبة لشيء معيّن تارة تكون قبل رؤية ذلك الشيء وقبل الاحاطة به وعندئذ تتمّ عن طريق توصيفه وتعريفه، وتارة اخرى نرى ذلك الشيء ونتعرّف عليه عن كثب.

وهذا الأمر نفسه وارد أيضاً في مجال معرفة الله. فمعرفة أكثر الناس لله سبحانه هي من قبيل النوع الأوّل، أي انّها تتمّ عن طريق التوصيف

---

١. ورد هذا المضمون في كتاب «تحف العقول» عن الامام الصادق عليه السلام انّه قال: «مَن زعم انّه يعبد المعنى بالصفة لا بالادراك فقد أحال على غائب .... انّ معرفة عين الشاهد قبل صفته، ومعرفة صفة الغائب قبل عينه» (تحف العقول، ص ٣٢٥ـ٣٢٨).

والتعريف. فنحن لا نجد الله تعالى في هذا اللون من المعرفة، وانّما نتعـرّف من بعيد على بعض صفاته فحسب. وقد عبّرت رواياتنا عن هذا اللون من المعرفة بـ «معرفة الغائب». الاّ انّ لله تعالى عباداً يتمتّعون بمعرفة أرفـع مـن هذه فيما يتعلّق بالله سبحانه، وهي معرفة لا تكـون فيهـا الـصورة الذهنيّـة والمفهوم والفكر واسطة وحجاباً بين العالم والمعلوم.

انّ الوان المعرفة التي تحصل لنا بواسطة المفاهيم والصور الذهنيّة هي في الواقع معرفة من وراء حجاب وحائل. ومن الواضح انّ الحجاب قد يكون رقيقاً وقد يكون سـميكا، إلاّ انّ الحجـاب حتّـى اذا كـان رقيقـاً فهـو يعـدّ حجابا على كلّ حال. فـنحن عنـدما ننظـر الـى زهـور الحديقـة مـن وراء الزجاج فانّنا لا نرى الزهور بصورة مباشرة، وانّما نحن نـرى الزجـاج أوّلاً ومن ثمّ نرى الزهور من خلال الزجاج. لكنّه في بعض الأحيان قـد يكـون الزجاج نظيفاً وشفّافاً بحيث لا نلتفت الى انّ هناك حائلاً ونتخيّل انّنا ننظر الى الزهور بصورة مباشرة. وأحيانا يكون الحجاب سميكاً لا يسمح برؤية ما وراءه كما لو حاولنا رؤية زهور الحديقة من خلال ستار سميك نسبيّاً.

ومعرفة الله تعالى هي أيضاً مـن هـذا القبيـل. فـنحن عـادةً نعـرف الله سبحانه عن طريق المفاهيم والـصفات والبحـوث العقليّـة والاسـتدلاليّة. وهذه هـي المعرفـة غـير المبـاشرة ومـن وراء الزجـاج والحجـاب. وجميـع البراهين الفلسفيّة والكلاميّة ـ وحتّى أكثرها دقّة وإحكاماً ـ ليست شيئاً سوى «معرفة للغائب» تصبح في متناول الانسان. امّا «العرفان» فانّه لا يتحقّق إلاّ اذا تحوّلت هذه المعرفة الغيابيّة والمفهوميّة الى معرفة حضوريّة وعينيّـة، ولم يكن هناك أيّ حجاب مهما كان رقيقاً ولطيفا، فيغدو الانسان مؤهّلاً لـيرى الله سبحانه بصورة مباشرة وبواسطة عين القلب.

ومن المناسب في هذا المجال ان نذكر مثالاً لتقريب الموضوع الى الذهن، وان كان هذا المثال مختلفاً اختلافاً أساسيّاً ومن عدّة جهات مع موضوع البحث، ولكنّه مفيد لتوضيح الموضوع فحسب:

توجد ألوان من الفواكه في بعض بقاع العالم ونحن لم نسمع حتّى باسمها فضلاً عن أن نكون قد تذوّقناها، ولهذا فانّنا لا نملك أيّ تصوّر عن طعمها ونكهتها. فاذا فرضنا انّ شخصا قام بتعريفها لنا من خلال ذكر اسمها ورسم شكلها وعرض صورتها في فِلم حيّ وتعيين خواصّها والموادّ الأوليّة المكوّنة لها وتأثيرها الحاسم في علاج بعض الأمراض المحدّدة، وخلاصة القول انّه قام بتعريفها بجميع التفاصيل اللازمة، فانّ كلّ هذا لا يجعلنا نتذوّق طعماً ونشعر بنكهة تلك الفاكهة في أفواهنا.

وصحيح انّ هذا التوصيف والتعريف يجعل تحت تصرّفنا معلومات كثيرة فيما يتعلّق بتلك الفاكهة، الاّ انّ السبيل الوحيد لتذوّق طعمها والاحساس بنكهتها هو تناول تلك الفاكهة والتمتّع بأكلها.

فما لم يتذوّق الانسان طعم الشيء الحلو فانّ فمه لا يشعر بالحلاوة حتّى وان استرسلنا كثيراً في وصف الحلاوة. وكما يقول المثل المشهور:

«قولنا هذا حلو حلو لا يجعل الفم يشعر بالحلاوة». انّ وصف الحلاوة يجعل تحت تصرّف الانسان ألواناً من المعرفة في اطار المفاهيم والصور الذهنيّة، لكنّ هذه جميعاً لا تجعل الانسان يظفر بطعم الحلاوة. انّ الطريق الوحيد للظفر بطعم الحلاوة هو أكل الأغذية الحلوة. فاذا ذاق الفرد بنفسه طعم الشيء الحلو فانّه لا يحتاج عندئذ الى الوصف والتعليم والكتاب والشرح والتحليل.

انّ الفرق بين المعرفة الحصوليّة العقليّة لله سبحانه والمعرفة الحضوريّة العرفانيّة لله تعالى هو أيضاً من هذا القبيل. ومن الواضح انّه في مجال

المعرفة الحضوريّة العرفانيّة لله تعالى يكون الأمر أرفع بكثير ممّا مرّ ذكره، إلاّ انّه كما أشرنا فانّ الالتفات الى هذا المثال يمكنه ان يقرّب الموضوع ـ بشكل من الأشكال ـ الى أذهاننا.

انّ معرفة الله سبحانه عن طريق العقل والفلسفة والكلام والبرهان والاستدلال هي مثل «السماع»، وامّا معرفته تعالى عن طريق القلب والكشف والشهود الباطني والقلبيّ فهي مثل «الرؤية». وفي بيان الفرق بينهما يكفي ان نقول: متى كان السماع كالرؤية!

العرفان النظريّ والعرفان العمليّ

أشرنا فيما سبق الى انّ كلمة «العرفان» في اللغة تعني المعرفة، وفي الاصطلاح تُطلق على معرفة الله الحاصلة عن طريق الشهود الباطنيّ. إلاّ انّه ينبغي الالتفات الى انّ العرفان يستعمل في معانٍ واصطلاحات اخرى أيضاً، ويوجد لون من الارتباط والتناسب بين هذه المعاني وذلك المصطلح المذكور. صحيح انّ العرفان في الأساس يعني الكشف والشهود الباطنيّ والقلبيّ، إلاّ انّه يُطلق ـ حسب أحد الاصطلاحات ـ على القضايا التي تعكس تلك المشاهدات والمكاشفات أيضاً.

توضيح ذلك: قلنا انّ العرفان في الأساس يعني الادراك الحضوريّ والشهوديّ لله وصفاته وأفعاله، ومن الواضح انّ هذه المعرفة ليست هي من سنخ المفاهيم والصور الذهنيّة والكلمات، وانّما هي رؤية ومشاهدة. إلاّ انّ مَن تحصل له هذه المشاهدة والمعرفة اذا أراد ان ينقل الى الآخرين ويصف ما شاهده ورآه فانّه يتعيّن عليه ان يصبّ ذلك في قالب الألفاظ والمفاهيم ليصبح مفهوماً عند الآخرين. ومن هنا ـ وحسب هذا الاصطلاح ـ يُطلق «العرفان» أيضاً على

هذا النقل وهذه القضايا التي يُقصد بها الحكاية عن ذلك العلم الحضوريّ. وهذا هو في الواقع ما يُعبّر عنه بـ «العرفان النظريّ»، وقد قام البعض، كما جاء في فلسفة الاشراق، بدعم ذلك بلون من الاستدلال العقليّ أيضاً.

وعلاوة على ذلك، ففي كلّ مجال يتوقّف الكشف والشهود عادةً على القيام ببعض الرياضات الخاصّة والتمارين المحدّدة، فانّ هذه الأساليب العمليّة أو «السير والسلوك» يُطلق عليه أيضاً اسم «العرفان» ولكنّه يُقيّد بصفة «العمليّ». وبناءً على هذا فـ «العرفان العمليّ» هو عبارة عن القواعد الخاصّة التي تقود الانسان الى المعرفة الحضوريّة والشهوديّة لله تعالى.

ومن هذا البيان يتّضح انّ العرفان النظريّ هو من سنخ الألفاظ والمفاهيم. ومن هنا فان القلب لا يطمئنّ ولا يكتفي بالعرفان النظريّ، وروح الانسان لا تهدأ في ظلّه. انّ العرفان النظريّ يستطيع اقناع العقل فحسب، وتغدو قيمته ـ في الحدّ الأقصى ـ على مستوى الفلسفة.

وحسب التعبير الفلسفيّ يُعدّ العرفان النظريّ عبارة عن أخذ العلم الحصوليّ من العلم الحضوريّ، وافراغ العلم الحضوريّ والشهود الباطنيّ في قالب الألفاظ والمفاهيم الذهنيّة. فاذا كان هناك من ظفر بحقيقة العرفان ـ أي الشهود الباطنيّ لله والعلم الحضوريّ بذاته المقدّسة ـ فانّه عندما يريد بيانه للآخرين لا يكون له مفرّ من استخدام الألفاظ والمفاهيم. وفي هذه الحالة اذا كان ذلك الشخص الذي تُبيّن له هذه الحقائق العرفانيّة ممّن لم يدركها من قبل فانّ من الطبيعيّ ان لا يتيسّر انتقال حقيقة تلك المعاني إليه، وانّما يمكن تقريبه من تلك الحقيقة فحسب وذلك من خلال ذكر بعض المقدّمات وأحياناً باللجوء الى الوان من التشبيه والتمثيل والتوصيف.

تصوّروا شخصاً لم يذق لحدّ الآن طعم غذاء معيّن أو لم يشمّ عطر وردة

خاصّة، فانّ أمام هذا الشخص طريقين لادراك ذلك الطعم أو تلك الرائحة: أحدهما أن يقوم هو بنفسه وبصورة مباشرة بتذوّق ذلك الطعام أو شمّ تلك الوردة، والثاني ان يقوم شخص آخر يتمتّع بهذه التجربة بوصف ذلك الطعم أو تلك الرائحة له. وفي الحالة الثانية يتعيّن سلوك طريق الألفاظ والمفاهيم والتعريف والتوصيف، وحينئذ لا مفرّ من استخدام التشبيه والاستعارة والمجاز وأمثالها، وبالتالي لن يتمكن ذلك الفرد اطلاقاً من لمس حقيقة ذلك المعنى. ومن باب المثال نذكر شكلاً أكثر تعقيداً وهو ما اذا ولد شخص في هذه الدنيا وهو أعمى منذ البداية ولا يعرف أيّ معنى للون. ومن الواضح انّ الطريق الوحيد لادراك الألوان بالنسبة لهذا الشخص هو استخدام القوالب اللفظيّة والمفهوميّة التي يرافقها التمثيل والتشبيه أيضاً، وبالتالي حتّى اذا حصل ادراك فانّه يكون مبهما جدّاً وناقصاً وباهتا.

وفي مجال المسائل العرفانيّة أيضاً يكون الأمر بهذه الصورة تماماً. فاذا أراد عارف ان يتحدّث الى عارف آخر حول هذه المواضيع فان كانا في مستوى متقارب من حيث درجة ونوع الادراكات العرفانيّة فانّهما يستطيعان ان يتفاهما بسهولة وان يدرك كلّ منهما حقيقة كلام الآخر. وأمّا اذا حاول عارف ان يتحدّث عن تجاربه العرفانيّة لأشخاص لا يتمتّعون بمثل هذه التجارب فانّ الأمر يكون مثل تلك الحالة التي كنّا نحاول فيها تفهيم شخص معنى عطر الوردة عن طريق الألفاظ والمفاهيم. فالعارف هنا لا يجد أمامه الاّ طريقاً واحداً وهو أن يقوم بصبّ علومه الحضوريّة وتلك الحقائق العرفانيّة في قالب العلم الحصوليّ والألفاظ والمفاهيم، ويسعى من خلال اللجوء الى التشبيه والاستعارة والمجاز لرسم تصوير عنها في ذهن ونفس المخاطب، وان كان هذا التصوير مبهما وناقصا. ومن هنا فنحن نقول انّ العرفان النظريّ منطبع

بطابع فلسفيّ،[١] وذلك لانّه يتعامل مع الألفاظ والمفاهيم، وهذا القالب وهذه المواضيع وشكل بيانها يشبه الفلسفة. وغاية ما في الأمر انّه لمّا كان هذا التوصيف وهذا البيان يدور حول موضوع خاصّ (وهو المعرفة الحضوريّة لله تعالى وصفاته) فانّه يُطلق عليه اسم العرفان النظريّ.

وبناءً على هذا يصبح ادّعاء أصحاب العرفان النظريّ بهذه الصورة وهي: انّنا قد أدركنا هذه الحقائق بالعلم الحضوريّ، والآن نحاول ان نبيّنها لكم في قالب الألفاظ والمفاهيم.

ولمّا كان الأمر بهذه الصورة، فاذا كان هذا الادّعاء صادراً من النبيّ صلى الله عليه وآله أو الأئمّة المعصومين عليهم السلام فهو: أوّلاً: لا شكّ في انّ هؤلاء قد أدركوا شيئاً بشكل حقيقيّ وهم يريدون ان يبيّنوا لنا ما وجدوه بالعلم الحضوريّ. ثانياً: لا شبهة في انّ ما وجدوه يمثّل عين الحقيقة وليس هو خيالاً ولا وهماً ولا هو من القاءات الشيطان. أمّا سائر الناس من غير الأنبياء والأئمّة المعصومين عليهم السلام فانّ ما يدّعونه مشكوك بالنسبة الينا حتّى يحصل لنا الاطمئنان، أوّلاً، بانّهم لا يتحدّثون كذباً، وانّهم في الواقع قد ظفروا بمثل هذه الادراكات والعلوم. وثانياً لابدّ ان نحصل على قرائن نحرز بها انّ ذلك العلم والادراك كان من جملة العنايات الربانيّة وليس هو من جملة الالقاءات الشيطانيّة والتسويلات النفسانيّة. وعلى كلّ حال ففي مجال غير النبيّ والأئمّة المعصومين عليهم السلام اذا كان لدينا أدنى شكّ في صحّة ما ينقلونه فانّ كلامهم لا يصبح ذا قيمة

---

١. انّ تعبير الاستاذ (منطبع بطابع فلسفيّ) جاء لهذا السبب: وهو لمّا كانت الفلسفة علماً برهانيّاً بينما العرفان النظريّ يعتبر علماً وجدانيّاً (لانّه علم حصوليّ مأخوذ من علم حضوريّ)، لهذا فانّ الاستدلالات البرهانيّة فيه تكون للتقريب والاستئناس وليست جزءاً من نفس العلم، وهي مختلفة مع الفلسفة المصطلحة. ولكن لمّا كانت المسائل البديهيّة لعلم المعرفة جزءاً من الفلسفة أيضاً فانّ التعبير بانّه (منطبع بطابع فلسفيّ) يصبح مقبولاً.

بالنسبة الينا، وانّما يكون معتبراً وذا قيمة بالنسبة لذلك الشخص المدّعي نفسه فحسب. وبغضّ النظر عن كلّ ما سبق ذكره لابدّ ان نكون ملتفتين الى انّ الانسان الطالب للحقيقة يغدو وجود العرفان النظريّ وعدمه بالنسبة اليه سواء. والعارف الحقيقيّ انّما هو بصدد البحث عن الحقيقة التي تُدرك عن طريق القلب، ولا دور فيها لوجود الألفاظ والمفاهيم وعدمها. ومن هنا فسواء عرف تلك الألفاظ والمفاهيم أم لم يعرفها فان ذلك لا تأثير له في حصوله على تلك الحقائق العرفانيّة. انّه ليس قليلاً عدد العرفاء الكبار الذين ما كانوا يعرفون حتّى القراءة والكتابة وهم عاجزون عن بيان جانب بسيط من مدركاتهم الحضوريّة.

اذن خلاصة القول انّ لدينا ـ في مجال العرفان ـ ثلاثةَ عناصرَ يمكن الاشارة اليها:

الأوّل: التوصيات الخاصّة التي يزعم أصحابها انّها توصل الانسان الى المعرفة الشهوديّة الباطنيّة والعلم الحضوريّ الواعي بالله تعالى وأسمائه الحسنى وصفاته العليا ومظاهرها. وهذا هو ما يُطلق عليه اسم: «العرفان العمليّ».

الثاني: الحالات والملكات الروحيّة والنفسيّة الخاصّة، وبالتالي المكاشفات والمشاهدات التي تحصل للسالك الى الله سبحانه. وهذا المعنى هو الذي يشكّل أساس العرفان وحقيقته.

الثالث: القضايا والبيانات التي تحكي عن هذه المدركات الحضوريّة والشهوديّة، وهي تعتبر من الامور التي يمكن معرفتها بشكل أو بآخر حتّى بالنسبة للأشخاص الذين لم يقطعوا بأنفسهم مسيرة العرفان العمليّ، ولكن يجب التأكيد على انّ الظفر بحقيقة هذه الامور وكنهها مقصور على العرفاء الواقعيّين. وهذا هو ما يُطلق عليه اسم «العرفان النظريّ».

ومن ناحية اخرى يمكن اطلاق اسم «العرفان» ـ بلون من التسامح والتوسّع في الاصطلاح ـ على جميع أنواع السير والسلوك الذي يتمّ بدافع الظفر بالحقيقة والوصول الى الفلاح وتنشأ منه حالات روحيّة وادراكات شهوديّة، بحيث يكون هذا الاطلاق شاملاً أيضاً للعرفان الهنديّ والبوذيّ وألوان العرفان المنتشرة بين القبائل الساكنة في سيبريا والقبائل المتوطّنة في افريقيا. وهذا التوسّع والتسامح يشبه التوسّع في مفهوم «الدين»، حيث يستعمل في معنى عامّ ليشمل حتّى البوذيّة وعبادة الأصنام وأمثالها أيضاً.

التصوّف والعرفان

انّ كلمة «التصوّف» مأخوذة ـ حسب أظهر الاحتمالات ـ من لفظة «الصوف»، ويصبح معنى «التصوّف» هو «لبس الصوف». وارتداء الملابس الصوفيّة والخشنة هو انعكاس لحياة قاسية وبعيدة عن الدلال والرفاهية والحرص على اللذّة، والانسان المتصوّف يحاول ـ من خلال ارتداء مثل هذه الملابس وتعذيب نفسه ـ ان يحرّر ذاته من قيد الأهواء واللذّات المادّية والدنيويّة، وان يجعل نفسه المندفعة والملقى حبلُها على غاربها تحت قيادته وتصرّفه. ولهذا يغدو «التصوّف» متناسباً أكثر مع «العرفان العمليّ»، كما انّ كلمة «العرفان» تستدعي الى الذهن «العرفان النظريّ» وتكون أكثر تناسباً معه.

وعادةً ما فانّ الأشخاص المعروفين بـ«التصوّف» يقولون بانّه في كل زمان يوجد «انسان كامل». وهذا الانسان الكامل يُسمّى عادة باسم «القطب»، وهو محيط ومشرف على جميع الأفراد، ولابدّ ان يتعلّق الكلّ بأذياله وان يتلقّوا الفيض منه. ولـ«الأقطاب» سلسلة أيضاً، وكلّ قطب مكلّف بأن يتلقّى من القطب المتقدّم عليه، وكلّ قطب ملزم بنقل ما لديه الى القطب الذي يأتي

بعده. ومن الواضح انّ المتصوّفة هم فرق مختلفة وجماعات متنوّعة، ولبعضهم أهداف ومسالك خاصّة وعقائد متميّزة. وفي الفصول الآتية من هذا الكتاب وفي المحلّ المناسب سوف نتحدّث أكثر عن هذا الموضوع.

وعلى كلّ حال ففي عرفنا نحن الشيعة المتشرّعين لا يعتبر عنوان التصوّف أمراً ممدوحاً، وهو يطلق غالباً على الفرق المتورّطة في الانحراف بشكل أو بآخر. ولا يفوتنا ان نشير الى انّ هذا العنوان كان يُنظر اليه بنظرة ايجابيّة في بعض المراحل الزمنيّة، ولعلّه الى الآن أيضاً يعتبر عنوان التصوّف شيئاً مقدّساً في بعض المناطق والمدن، فيقال مثلاً انّ التصوّف يعتبر عنواناً مقدّساً وممدوحاً عند العرف العام في منطقة كرمانشاه والمناطق المحيطة بها.

ولكنّه على أيّ حال ـ وكما أشرنا من قبل ـ فانّه في عرفنا، نحن الشيعة المتشرّعين، يطلق عنوان التصوّف على الأفراد والفئات المبتلاة ـ بشكل أو بآخر ـ بالأخطاء وألوان الانحراف في مجال العقائد والسلوك والعمل، وهي مذمومة عادة.

أمّا بالنسبة الى عنوان «العارف» فانّ القضيّة بالعكس، حيث يكون الانطباع العامّ عنه ايجابيّا، وقد احتفظت هذه الكلمة لحدّ الآن بقداستها وحرمتها في عرفنا وثقافتنا.

مَنْ هو «العارف»؟

اذا اعتبرنا حقيقة العرفان ـ بشكل مختصر ـ هي «المعرفة الشهوديّة لله سبحانه»، فمن الطبيعيّ ان يصبح العارف الحقيقيّ هو الذي ظفر بمثل هذه المعرفة. ومن هنا وفي جملة واحدة يمكن القول انّ العارف هو الذي وجد الله تعالى وأدركه بقلبه وروحه. ودرجة عرفان الشخص تعود أيضاً الى شدّة وضعف معرفته الشهوديّة وادراكه القلبيّ بالنسبة الى الله عزّوجلّ.

وبناءً على هذا الأساس فانّ صيرورة الانسان عارفاً لا تحتاج الى مراسم وتقاليد خاصّة ولا إلى عناوين محدّدة، بل انّ حقيقة العرفان ـ التي هي المعرفة الشهوديّة والادراك القلبيّ ـ أمر باطنيّ روحيّ خفيّ، ولا يستطيع أحد ـ غير العارف نفسه ـ ان يدركه ويذوقه. ونحن نستطيع ان نحدس فقط ـ بفضل وجود العلامات والقرائن ـ هل انّ هذا الشخص قد وصل الى مثل هذه المنزلة أم لا، ومن الواضح انّه بغضّ النظر عن الأولياء المحيطين بباطن الأشخاص وهم عالمون بالأعماق، فانّ هذه العلامات والقرائن لا تُحدث عادةً اليقين عند الأشخاص العاديّين، وانّما غاية ما تستطيع احداثه هو الظنّ فحسب.

ومن هنا فانّ معيار الحكم على الشخص فيما يتعلّق بكونه عارفاً أم لا، وأيضاً في تعيين درجة منزلته العرفانيّه، ليس هو الاسم والعنوان، وانّما المهمّ هو أساس معرفته الشهوديّة بالله سبحانه. فليس مهمّاً ان يطلق على الشخص الفلانيّ عنوان «العارف»، ولا أهميّة لذكره في تاريخ العرفان، ولا لادراج اسمه في زمرة «العرفاء»، وانّما المهمّ والذي يشكّل روح العرفان الحقيقيّ هو انّ هذا الفرد قد رأى الله تعالى بعين قلبه. ومن الجدير بالذكر هو انّ من ظفر بالجوهر الحقيقيّ للعرفان لا يكون من أهل التظاهر ولا يحرص على الأسماء والعناوين، بل هو في خلوة روحه غارق في لذّة الأنس مع محبوبه وقد تحرّر من الاسم والعنوان وكلّ أنواع المظاهر.

من بين الشخصيّات الشيعيّة ـ سواء أكانوا من العلماء أم من الصلحاء ـ يوجد الكثير من الأفراد الذين ظفروا بدرجات عالية في الشؤون العرفانيّة والادراك الشهوديّ والباطنيّ لله سبحانه، ولكنّهم كانوا مغمورين ولم تشتهر أسماؤهم. ولعلّ حسن الظنّ بمثل هؤلاء هو أكثر من الذين اشتهروا

بعناوين خاصّة. فهناك أفراد من قبيل السيّد بحر العلوم،[1] والسيّد بن

---

١. هو السيّد محمّد مهدي ابن السيّد مرتضى الطباطبائيّ البروجردي، ويعدّ من أحفاد الامام الحسن المجتبيعليه السلام، وقد ولد في ليلة الجمعة من شهر شوّال سنة ١١٥٥ هجريّة في مدينة كربلاء، وسط عائلة تتميّز بانّ فيها الكثير من علماء الدين المتّقين. وفي نفس الليلة التي ولد فيها هذا المولود كان قد رأى والده في المنام انّ الامام الرضاعليه السلام قد أمر أحد أصحابه وهو محمّد بن اسماعيل بن بزيع (وهو يعتبر من جملة أصحاب الامام الكاظم والامام الرضا والامام الجوادعليهم السلام) بأن يضيء شمعة ويجعلها على سطح بيتهم (بيت السيد مرتضي). وعندما أضاء محمّد بن اسماعيل تلك الشمعة فقد انطلق منها نور ارتفع نحو السماء بحيث لا ترى له نهاية. ويستفيق الوالد من تلك الرؤيا الصادقة واذا به يُبشّر بخبر ولادة ذلك المولود الجديد.

كان يتمتّع السيّد بحر العلوم بدرجة رفيعة من الفضيلة والتقوى ويمثّل نموذجاً راقياً من أخلاق الأنبياء. ومن حيث التهذيب والأخلاق كان يحتلّ منزلة بحيث يصعب على الكثير من الأفراد استيعابها. انّه كان قد قسّم ساعات عمله ونشاطاته. ففي الأيّام التي قضاها في مدينة النجف عندما كان الليل يرخي سدوله فانّه ينفق جانبا منه في التحقيق واعداد مقدّمات الدرس، ثمّ ينطلق نحو مسجد الكوفة، وهناك يستغرق في المناجاة والصلاة والدعاء والانس مع الله سبحانه حتّى الصباح.

ومن جملة ميزات السيّد انّه كان يولي اهتماماً كبيراً للشؤون العباديّة لطلابه أيضاً، واذا قصّر الطالب أو انتابته الغفلة في هذا المجال فانّ آثار الانزعاج الشديد تبدو على محيّاه. يُنقل انّه ـ مرّة ـ ترك التدريس لعدّة أيّام فاجتمع طلاّبه وارسلوا اليه واسطة كي يسأله عن السبب في تعطيل الدرس. فأجابه السيّد بحر العلوم: لم اسمع من بين هؤلاء الطلاب صوت تضرّع ومناجاة ينطلق في أنصاف الليالي، مع انّي أجوب ازقّة النجف في أغلب الليالي. انّ مثل هؤلاء الطلاب ليسوا أهلاً لاخصّص لهم درسا. ولمّا سمع طلابه بهذه النصيحة من السيّد بحر العلوم أحدثت فيهم تحوّلا بحيث انصرفوا في الليالي الى الدعاء والتضرّع والمناجاة والاعتذار من الله سبحانه. وعندما لاحظ السيّد حدوث هذا التحوّل الأخلاقيّ في الطلاب فقد عاد الى التدريس مرّة اخرى.

وقد أطلق على السيّد لقب «بحر العلوم» لأوّل مرّة المرحوم الميرزا مهدي الاصفهانيّ الخراساني (١١٥٣ ـ ١٢١٨ هجريّة)، وتزامن هذا مع سفر السيّد عام ١١٨٦ هجريّ الى ايران بهدف زيارة مرقد الامام الرضاعليه السلام في مدينة مشهد ولقاء كبار العلماء في ايران. واختار السيّد الاقامة في مشهد لفترة امتدّت ستّ أو سبع سنوات اجتمع خلالها مع الناس واجرى مناقشات علميّة مع العلماء، وشارك أيضاً في حضور درس الميرزا مهدي الاصفهاني الخراساني. وقد تعلّم السيّد على يد هذا العالم الكبير الفلسفة والعقائد وعلم الكلام. ولمّا كان الاستاذ معجبا بذكاء واستعداد وكثرة معلومات السيّد فقد خاطبه في يوم من الأيّام وفي أثناء الدرس قائلاً له: يا اخي أنت بحر العلوم. ومنذ ذلك اليوم فقد اشتهر السيّد بهذا اللقب.

وينقل انّ السيّد قد حظي بلقاء الامام صاحب الزمان ـ أرواحنا لتراب مقدمه الفداء ـ عدّة مرات، وهناك قضايا متعدّدة مشهورة عنه في هذا المضمار. ومن جملتها ما ينقله الميرزا حسين اللاهيجي عن الشيخ زين العابدين السلماسي ـ وهو من طلاب السيّد بحر العلوم وأصحابه المقرّبين ـ حيث

طاووس،[١] وابن فهد الحلّي،[١] وآخرين يعتبرون جميعاً من علماء وفقهاء

يقول: في أحد الأيّام دخل السيّد بحر العلوم الى الحرم المطهّر للامام عليّ بن ابي طالب عليه السلام وهو يردّد هذه الكلمات:

ما أحلى ان يُسمع منك صوت القرآن

ما أروع النظر الى وجهك الكريم حين يسمع منه كلام الله

فسألت السيّد عن سبب ترديده لهذه الكلمات فقال: لمّا دخلت الى حرم أمير المؤمنين عليه السلام شاهدت أمامي مولاي الحجّة بن الحسن المهدي عليه السلام وهو يتلو القرآن بصوت عال عند الرأس الشريف. وحين سمعت صوت الامام الكريم انطلق لساني بهذه الكلمات.

١. هو عليّ بن سعد الدين أبو ابراهيم المعروف برضيّ الدين السيّد بن طاووس. ولد في اليوم الخامس عشر من شهر محرّم عام ٥٨٩ هجري في مدينة الحلّة. وينتهي نسبه الى الامام الحسن المجتبي عليه السلام بثلاث عشرة واسطة. وعندما نال درجة الاجتهاد والمنزلة الرفيعة في الفقاهة طلب منه اساتذة مدينة الحلّة ان يسلك طريق العلماء السابقين رحمهم الله ويجلس على كرسيّ الافتاء ويدلّ الناس على الحلال والحرام الالهيّين. لكنّ هذا النجم الثاقب من عائلة آل طاووس تذكّر الآيات الواردة في آخر سورة الحاقّة حيث يخاطب الله سبحانه نبيّه الأكرم صلى الله عليه وآله فيقول: **﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾**.

وبدأ يخاطب نفسه: اذا كان الله تعالى قد هدّد نبيّه الحبيب صلى الله عليه وآله وحذّره من ان ينسب اليه ايّ كلام أو أحكام خلاف الواقع، فانّه سبحانه سوف لن يتسامح معك في الخطأ والانحراف في مجال الفتوى. ولهذا فانّه لم يوافق على اقتراح العلماء ولم يحتلّ كرسيّ الافتاء.

لكنّ أهل الحلّة لم يستطيعوا غضّ النظر عن نجم مدينتهم المتألّق، فعادوا اليه مرّة اخرى ليطلبوا منه ان يتصدّى لمنصب القضاء في هذه المنطقة. إلاّ انّ السيّد لم يوافق على هذا الاقتراح أيضاً وأجاب: منذ فترة طويلة وأنا اعاني من النزاع والصراع بين عقلي ونفسي، وأنا خلال طيلة عمري لم أنجح في القضاء بين هذين المتنازعين ولم استطع ان احقّق الصلح بينهما! فالذي هو عاجز في طول عمره عن رفع اختلاف هذين واصدار الحكم فيما يتعلّق بهما كيف يتيسّر له الحكم والقضاء العادل في مجال المرافعات والاختلافات الكثيرة المنتشرة في المجتمع. ليس أمامكم من حلّ سوى ان تبحثوا عن شخص قد نجح في اقامة الصلح والسلام بين عقله ونفسه، ثمّ وحدّ بينهما للهجوم على الشيطان وتحقيق النصر عليه.

لقد شمل اللطف الالهيّ الخاصّ الروح الطاهر للسيّد بن طاووس وتجلّت فيه أنوار الرحمان. ومن جملة ذلك الرؤيا الصادقة لرفيقه الحميم التقيّ الورع السيّد محمد بن محمد آوى. لقد رافق السيّد محمد آوى في سفره الى النجف السيّد بن طاووس، فالتفت السيّد بن آوى الى صاحبه قائلاً: لقد شاهدتك أنت (السيّد بن طاووس) في عالم الرؤيا وفي يدك لقمة قلت لي انّها لقمة من فم مولانا الامام المهدي عليه السلام، ثمّ أعطيتني شيئاً من تلك اللقمة.

وللسيّد بن طاووس نفسه ذكريات جميلة من هذه السفرة، منها ما يتحدّث عنه فيقول: دخلت

ومحدّثي الشيعة الكبار الذين وصلوا إلى مقامات معنويّة وعرفانيّة رفيعة ←

صباح يوم الخميس الى الحرم النورانيّ لمولانا الامام عليّ عليه السلام، وفي هذا الموقع لرحمة الله تعالى غمرني اهتمام أمير المؤمنين عليه السلام وانهالت عليّ المكاشفات بحيث كدت أفقد توازني وأقع على الأرض. ولاحظت انّ رجليّ كانتا ترتعشان بل كلّ كياني كان يهتزّ بحيث فقدت السيطرة على نفسي وأصبحت على شرف الموت والتخلّص من هذا العالم الترابيّ. وفي أثناء هذه الحالة المعنويّة المتحرّرة من عالم المادّة منّ الله سبحانه عليّ وأحسن اليّ باظهار بعض الحقائق لي ...

وكانت للسيّد بن طاووس مراودات وأسرار مع سيّده ومولاه ووليّ أمره بقيّة الله الحجّة بن الحسن عليه السلام، وكان من جملة من يهتمّ بهم ذلك الامام المعصوم. وكانت العلاقة بينهما وثيقة الى الحدّ الذي كان يشخّص فيه السيّد صوت وليّ العصر عليه السلام. ومن جملة شواهد هذا الموضوع ذكرى من سفرة قادته الى مدينة سامرّاء وهو ينقلها بهذه الصورة: في ليلة الأربعاء المصادف لليوم الثالث عشر من ذي القعدة سنة ۶۳۸ هجريّة كنت في مدينة سامرّاء. وفي السحر سمعت صوت آخر امام معصوم سيّدنا صاحب العصر والزمان عليه السلام وهو يدعو لمحبّيه قائلاً: الهي أعد لهم في الحياة العزّة والسلطنة والغلبة ودولتنا الكريمة.

وأخيراً ارتفعت الروح المطهّرة للسيّد بن طاووس الى الرفيق الأعلى صبيحة يوم الاثنين سنة ۶۶۴ هجريّة وتمّ دفن جسده الشريف في مدينة النجف وفي مقبرة كانت قد أُعدّت له من قبل.

١. ابن فهد الحلّي (۷۵۷ـ۸۴۱ هجري) هو واحد من أكبر علماء وفقهاء الشيعة. وقد تتلمذ ابن فهد على أيدي اساتذته في مجال العلوم الظاهريّة لنيل النموّ العلميّ، والى جانب ذلك قام بتهذيب نفسه وتصفية روحه فبلغ مقاماً رفيعاً في هذا البُعد أيضاً. ومن المناسب هنا أن ننقل قولاً عن العارف الكامل المرحوم السيّد علي القاضي ـ وهو استاذ العرفان والسير والسلوك للمرحوم العلاّمة الطباطبائيّ وكثيرين آخرين من كبار العرفاء ـ وهو يتحدّث عن ابن فهد فيقول: «هناك ثلاثة أشخاص ـ في طول تاريخ العرفان ـ قد بلغوا مقام «التمكّن في التوحيد»، وهم عبارة عن: السيّد بن طاووس وأحمد بن فهد الحلّي والسيّد مهدي بحر العلوم.» ومن هذا الكلام تُدرك منزلة وعظمة المرحوم السيّد بن طاووس والسيّد بحر العلوم أيضاً. وقد تعرّضنا لذكرهما فيما سبق من الحواشي.

ومن أبرز وأشهر آثار المرحوم ابن فهد هو كتابه الشريف: «عدّة الداعي»، حيث يُعتبر من أهمّ كتب الأدعية والأخلاق.

وفيما يتعلّق بحياة هذا العالم العارف نُقل انّ احد العرفاء الأتقياء شاهد في عالم الرؤيا انّ مجلساً ضخماً قد أقيم وحضره جميع علماء الشيعة، اِلاّ انّ ابن فهد لم يكن حاضراً فيه. فسأل في عالم الرؤيا: أين اذن ابن فهد الحلّي؟ فجاءه الجواب: انّه قد احتلّ مكانه في مجلس الأنبياء! وبعد فترة من الزمن التقى ذلك العالم الكبير بابن فهد فحدّثه عن رؤياه تلك وسأله: ماذا فعلت حتّى أصبحت عضواً في مجلس الأنبياء؟ فأجاب ابن فهد: انّ الذي رفعني الى هذه المنزلة هو انّني كنت فقيراً ولا أملك ثروة حتّى أتصدّق بها واُعين محتاجاً. ومن هنا فقد رهنت سمعتي وماء وجهي وتصدّقت، وبهذه الطريقة أعنت انساناً محتاجاً.

جدّاً، ولكنّهم في عصورهم ما كانوا يُعرفون بعنوان كونهم عرفاء ومتصوّفة، وهم أنفسهم أيضاً ما كانوا يدّعون شيئاً في هذا المجال. نعم بعض الذين كتبوا تاريخ العرفاء قد أدرجوا بعض هؤلاء في زمرة العرفاء بسبب ظهور بعض ألوان الكشف والكرامات على أيدي هؤلاء الكبار، إلاّ أنّهم في زمان حياتهم لم يشتهروا بهذا العنوان. ولدينا من بين كبار علماء الشيعة شخصيّات مهمّة من قبيل المقدّس الأردبيليّ،[1] والشيخ

---

١. المقدّس الأردبيليّ اسمه «أحمد»، وقد ولد في القرن التاسع الهجريّ في مدينة «أردبيل» شمال ايران. وبعد نضجه وانهاء مرحلة المقدّمات في العلوم الدينيّة هاجر الى مدينة النجف الأشرف في العراق قاصداً اكمال دراساته العلميّة واكتساب الكمالات المعنويّة، وكرّس كلّ جهده لنيل العلم والفضيلة في جوار المرقد الطاهر لمولى المتّقين عليّ ابن ابي طالب عليه السلام. وقد ركّز اهتمامه على الاستزدادة من العلم والعمل، وبلغ درجة رفيعة في مضمار الزهد والتقوى بحيث اشتهر باسم «المقدّس»، وأحرز تقدّماً كبيراً في مجال العلم والتحقيق بحيث أصبح معروفاً باسم «المحقّق» ويكتب السيّد مصطفى التفرشي، وهو من المعاصرين للمحقّق الاردبيليّ، حوله فيقول: انّ درجته في الجلالة والوثاقة والأمانة أشهر من أن تذكر وأرفع من أن تحتويها عبارة أدبيّة. لقد كان متكلّماً وفقيهاً وعظيم الشأن وجليل القدر وذا منزلة رفيعة، ويعتبر من أكثر الناس ورعاً وتقوى وعبادة في زمانه.

ويقول العلاّمة الكبير المرحوم المجلسيّ في حقّه: لقد بلغ المحقّق الأردبيليّ الى الذروة في قداسة النفس والتقوى والزهد والفضيلة، ولا عهد لي بشخصيّة كبيرة مثله بين العلماء المتقدّمين والمتأخّرين... وتتمتّع كتبه بأعلى درجات دقّة النظر والتحقيق.

وقد نقلت حكايات متعدّدة في مجال فضائله وسجاياه المعنويّة والأخلاقيّة، ومن جملتها يمكننا الاشارة الى اخلاصه العميق في مجال التعليم والتدريس. ويُنقل في هذا المضمار: انّ الملاّ عبد الله الشوشتري ـ وهو من تلامذة المقدّس الأردبيلي ـ قد سأل استاذه مسألة في احدى جلساته، وأجاب الاستاذ المقدّس عن سؤاله، اِلاّ انّ التلميذ لم يقتنع بالجواب فاستمرّ النقاش بينهما، وفي أثناء البحث صمت المقدّس فجأة، وبعد هنيهة قال: نؤجّل هذا البحث الى وقت آخر، ولابدّ لي من الرجوع الى الكتاب. ثمّ نهض الاستاذ من مجلسه وعرض على التلميذ أن يرافقه الى مكان آخر. وبعد مغادرتهما لذلك المجلس قدّم المحقّق الأردبيلي جوابا دقيقاً وعميقاً جداً بحيث أقنع تلميذه ولم تبق لديه أيّة شبهة حول الموضوع. فسأل التلميذ استاذه: لماذا لم تبيّن هذا الجواب اللطيف الذي كنت تعرفه من قبل في جلسة الدرس؟ فأجاب المحقّق: هناك في تلك الجلسة كنّا في محضر مجموعة من الأشخاص، وكان من المحتمل أن يصبح قصدنا هو الجدال والتفاخر واظهار الفضل لكلّ واحد منّا على صاحبه، اِلاّ انّه بعد أن غادرنا المجلس وأصبحنا وحدنا فانّ هذه الشبهة قد انتفت، فالآن لا يوجد سوى الله تعالى ناظر لبحثنا ونقاشنا.

وقد أفل هذا النجم المتألّق في سماء التشيّع في شهر رجب سنة (٩٩٣) هجريّة في مدينة النجف الأشرف، وقد ووري جسده الطاهر الثرى الى جوار مرقد الامام أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام.

الأنصاريّ،[1] والشيخ جعفر كاشف الغطاء[1]، ولعلّ هؤلاء ما كانوا معروفين

---

١. يُعدّ المرحوم الشيخ مرتضى الأنصاريّ (١٢١٤ـ١٢٨١ هجريّة) من أكبر علماء وفقهاء الشيعة في القرون الأخيرة، وقد وصفه بعض العلماء بأنّه: «خاتم الفقهاء والمجتهدين». وقد شغل الشيخ الانصاريّ بعد المرحوم صاحب الجواهر منصب زعامة الحوزة العلميّة الشيعيّة لفترة استمرّت خمسة عشر عاماً منذ سنة ١٢٦٦ وحتّى سنة ١٢٨١ هجريّة، ويعتبر المرجع لكلّ الشيعة في العالم آنذاك. وللشيخ كتابان مهمّان هما: «الرسائل» و«المكاسب»، حيث يُدرّسان في الحوزات العلميّة الشيعيّة منذ قرن ونصف ولا يزالان الى اليوم جزءاً شاخصاً من المناهج الدراسيّة فيها. ويتمتّع الشيخ الأنصاريّ بنبوغ علميّ واضح، وبالاضافة الى ذلك فانّه يتميّز بدرجات عالية من الزهد والتقوى والملكات المعنويّة الراقية. ويقول عنه تلميذه البارز العلاّمة الحاج ميرزا حبيب‌الله الرشتي: «هو تالي العصمة علماً وعملاً».

وكانت الأموال الشرعيّة والتبرّعات تتدفق عليه من مختلف البلدان، ومع ذلك كان يعيش معيشة الفقراء وبشكل بسيط جداً، وحتّى المبالغ التي كانت تقدّم إليه بعنوان الهديّة فانّه كان يقسّمها بين الطلاّب والضعفاء. وفي هذا المجال يُنقل انّ مجموعة من تجّار بغداد قد أرسلوا إليه في مدينة النجف مبلغاً ضخماً من أموالهم الشخصيّة واكّدوا له انّ هذا المبلغ لا يتعلّق بالحقوق الشرعيّة حتّى تمسك عن انفاقها على نفسك، وانّما هو من جملة أموالنا الشخصيّة الحلال، ونحن نحبّ ان نهديها لك حتّى تكون في سعة من أمرك وأنت في عمر الشيخوخة. ولم يوافق الشيخ على هذا الاقتراح وقال: أليس من المؤسف والخسارة ان نقضي عمراً في الفقر، ثمّ في آخر عمرنا نصبح من الاثرياء وعندئذ يُمحى اسمنا من قائمة الفقراء، ولا نظفر في الآخرة بالمنزلة التي أعدّت لهم.

وقد نقلت عن الشيخ الأنصاريّ كرامات متعدّدة، ومن جملتها ما ينقله أحد طلاّبه: عندما أنهيتُ دراسة مقدّمات العلوم الدينيّة والسطوح، هاجرت الى مدينة النجف الأشرف وأصبحت من المنتفعين من جلسات درس الشيخ، ولكنّي لم اكن أفهم ما يطرحه الشيخ من مواضيع علميّة في درسه. وتأثّرت كثيرا من هذه الحالة واستولى عليّ حزن شديد بحيث دفعني للقيام بأذكار وأعمال مستحبّة ولكنّها لم تجدِ شيئاً. وإخيراً توسّلت بالامام أمير المؤمنين عليّ بن ابي طالب عليه السلام. وبعد ذلك رأيت الامام في المنام فهمس في اذني: «بسم الله الرحمن الرحيم». وفي صباح اليوم التالي ذهبت الى الدرس فوجدت نفسي أفهم ما يقوله الشيخ. وفي الأيّام التالية أصبحت أتقدّم رويداً رويداً حتّى انتهى بي الأمر الى أنّي غدوت اشارك في الحديث خلال الدرس وأقوم بالاشكال على الشيخ. وفي أحد الأيّام كنت نشطاً جداً وأشكلت على الشيخ في الدرس مرات عديدة. وفي نفس ذلك اليوم زرت الشيخ بعد انتهاء الدرس. فهمس الشيخ في اذني قائلاً: انّ الشخص الذي همس في اذنك: «بسم الله الرحمن الرحيم»، كان قد همس في اذني كلّ سورة الفاتحة من البسملة الى قوله تعالى: ﴿ولا الضّالين﴾! قال هذا وغادرني.

وتعجّبت من هذا كثيراً وفهمت انّ الشيخ يتمتّع بالكرامة، وذلك لانّي لم انقل رؤياي المناميّة لأحد حتى ذلك الوقت.

وكذا ما نقله الحاج السيّد تاج الدين الدزفولي، وهو خطيب بارع ومن أبرز أئمّة الجماعة في مدينة «الأهواز»، بعدّة وسائط عن أحد أجداده المسمّى بالسيّد محمد علي حيث قال: سافرت مرّة لزيارة النجف الأشرف، وقد نفدت الأموال التي حملتها معي، ولم أجد أمامي ايّ طريق، وحاولت أن

اقترض مبلغاً من المال من أيّ شخص يعرفني ولكنّي لم اُفلح. وكانت لديّ حالة من الإباء بحيث منعتني من شرح حالتي لأيّ واحد من العلماء. وفي هذه الأثناء ذهبت في احدى الليالي الى مرقد الامام عليّ عليه السلام وشكوت حالي له، وقلت له اذا لم تتيسّر حاجتي فانّني سأضطرّ لمدّ يدي الى بعض الأشياء الذهبيّة الموجودة في المرقد الشريف لأسدّ بها رمقي. وعدت الى بيتي وقضيت تلك الليلة جائعا. وعندما أصبح الصباح لاحظت شخصاً يناديني، فتقدّمت نحوه وعرّفت نفسي له. فقال لي أنا الملاّ رحمة الله خادم الشيخ الأنصاري وقد أرسلني الى هذه البناية المعدّة لاقامة الزوّار لأبحث عن غرفتك فيها وهو يطلبك لكي تزوره. وجئت إليه برفقة ذلك الشخص. وبعد أن سلّمت عليه قدّم لي ظرفاً يحتوي مبلغاً من المال وقال: هذه ثلاثون توماناً ايرانياً قد أرسلها اليك جدّك الامام عليه السلام لكي تنفقها على نفسك. واستلمت الظرف وابتعدت عنه قليلا واذا بالشيخ يناديني ثمّ همس في اذني قائلاً: لا تمدّ يدك بعدئذ الى الأشياء الذهبيّة الموجودة في المرقد الشريف!

وتعجّبت كثيراً ممّا جرى، لانّ هذه القضيّة قد مرّت في خاطري فقط ولم يعرف بها أحد من الناس، اذن هذه القضيّة تعتبر من جملة كرامات هذا العالم الربّاني الجليل.

١. هو الشيخ جعفر النجفيّ المشهور بالشيخ جعفر الكبير وشيخ المشايخ وكاشف الغطاء. وهو من كبار علماء ومراجع الشيعة في العراق أثناء القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريّين. وقد ولد سنة (١١٥٦) هجريّة في مدينة النجف. ودرس مقدّمات العلوم عند والده، ثمّ حضر خارج الفقه والاصول على أيدي علماء كبار وفقهاء بارزين كالوحيد البهبهانيّ والسيّد بحر العلوم. ويدلّ كتابه «كشف الغطاء» على تبحّره في الفقاهة واستنباط الأحكام الشرعيّة.

وقد ألّف هذا الكتاب أثناء سفره الى ايران عام (١٢٢٢) هجريّ، في الوقت الذي لم يكن معه أيّ كتاب سوى كتاب «القواعد» للعلاّمة الحلّي. وبعد تأليفه لهذا الكتاب اشتهر بهذا اللقب «كاشف الغطاء». ونُقل عن الشيخ الأنصاريّ انّه قال: اذا عرف شخص قواعد واصول هذا الكتاب فهو مجتهد بحسب تشخيصي. وقد بلغ الشيخ جعفر منصب رئاسة وقيادة الشيعة في العراق وايران وسائر البلاد بعد السيّد بحر العلوم. ومن جملة طلاّبه يمكننا ذكر الشيخ محمد حسن النجفيّ (صاحب كتاب جواهر الكلام)، والشيخ ابراهيم الكلباسيّ، والسيّد محمد باقر الشفتي.

ونقل انّ الشيخ جعفر سُئل: هل صحيح ما يقال انّ الامام المعصوم عليه السلام لا يرتكب في طول عمره أيّ ذنب، وهل هذا شيء يمكن وقوعه؟ فأجاب الشيخ: أنا شخص لست معصوماً وقد مرّ عليّ الى الآن أربعون عاما لم ارتكب فيها مكروهاً واحداً، فكيف يكون الأمر مع المعصوم عليه السلام؟!

ونقل أيضاً أنّه في أحد الأيّام وزّع مساعدة على الفقراء في مدينة اصفهان، ثمّ انصرف الى الصلاة. وفي هذه الأثناء شاع خبر هذا التقسيم فسمع به أحد الفقراء فجاءه بين الصلاتين وطلب من الشيخ ان يعطيه سهمه. فقال الشيخ جعفر لقد جئت متأخراً، وقد انتهت الأموال التي كانت معي، وسوف اعوضك ان شاء الله تعالى في المرّة القادمة. فغضب الفقير وبصق في وجه الشيخ ولحيته! فنهض الشيخ فوراً من محرابه وأمسك بطرف ثوبه وقال للناس الحاضرين: كلّ من يحترم لحية الشيخ فليقدّم مساعدته لهذا الفقير. وأخذ يجول بين صفوف المصلّين لجمع تبرعاتهم فملأ الناس ثوبه بالأموال، وقام الشيخ بتقديمها لذلك الفقير.

وقد توفّي الشيخ جعفر كاشف الغطاء في (٢٢) أو (٢٧) من شهر رجب عام (١٢٢٨) هجريّ في مدينة النجف الأشرف، وقد ووري الثرى في احدى غرف المدرسة التي كان قد أسّسها الشيخ رحمه الله.

بتحقّق الكرامات على أيديهم، إلاّ انّه وعلى أساس القرائن المتوفّرة يمكن القول بكلّ جرأة انّ درجاتهم العرفانيّة وقربهم الى الله تعالى أكثر من بعض المشهورين بالعرفان والتصوّف.

وانطلاقاً من هذا فانّه اذا قام شخص بأعمال خارقة للعادة أو بيّن مواضيع دقيقة ورائعة في مجال العرفان فانّ ذلك لا يعدّ دليلاً على كونه عارفاً واصلاً وله منزلة رفيعة في العرفان. والشيء المهمّ في هذا المضمار هو مستوى معرفته الشهوديّة بالله تعالى، وهذا الأمر ـ كما أشرنا من قبل ـ شيء لا يعرفه ولا يدركه أحد سوى ذلك الشخص نفسه.

والشيء المهمّ ـ في هذا الحقل ـ هو القلب والفؤاد. وأمّا التلفّظ بهذه المواضيع وشرح الامور العرفانيّة فهو أمر مشترك بين أن يكون ذلك الشخص شاعراً بهذه المعاني في قلبه وأن يكون قد تعلّم هذه الألفاظ والمفاهيم من الآخرين واساتذة العرفان. انّ العرفان المصطلح والمعرفة الشهوديّة لا توجد ملازمة بينها وبين ان يكون الانسان عالماً بألفاظها أيضاً، أو اذا كان عالماً بألفاظها فانّه ليس حتماً ان يكون واجداً لمعانيها وحقيقتها أيضاً. فقد يكون شخص عالماً بألفاظها لكنّه ليس واجداً لها بنفسه، كما أنّه من الممكن أيضاً ان يكون واجداً لها بذاته الاّ انّه لا يعرف ألفاظها. ومن الواضح انّه قد يكون هناك من هو واجد لها ويعرف ألفاظها أيضاً. انّ بين هذين الأمرين ـ من الناحية المنطقيّة ـ توجد نسبة «العموم والخصوص من وجه».

وبناءً على هذا فانّ مجرّد استعمال شخص للألفاظ والمصطلحات العرفانيّة المعقّدة والغوص في المواضيع والتحليلات العرفانيّة الدقيقة لا يعتبر دليلاً على تمتّع ذلك الشخص بمعرفة قلبيّة ضخمة، وكذا الأمر بالنسبة لمن لا يعرف الألفاظ والمصطلحات العرفانيّة فانّ هذا ليس دليلاً

أيضاً على انّه لا حظّ له من حقيقة العرفان. وهكذا الحال فيما يتعلّق بظهور الكرامات والعجائب والغرائب على يد شخص فانّه لا يُعدّ دليلاً على تميّزه بدرجات معنويّة وعرفانيّة شامخة، كما انّ عدم ظهور هذه الكرامات منه لا يصلح دليلاً على كونه محروماً من العرفان والكمالات العرفانيّة.

العرفان والفلسفة والعقل

من خلال التوضيح الذي قدّمناه في مجال العرفان حيث قلنا انّه: «المعرفة الحضوريّة والشهوديّة لله تعالى» يتبيّن انّ «المعرفة العرفانيّة» تقع في مقابل «المعرفة العقليّة». فالمعرفة العقليّة تتعامل مع الاستدلال والمفاهيم والتصوّرات والألفاظ، بينما المعرفة العرفانيّة هي من باب الكشف والشهود والعلم الحضوريّ. ومن هنا ندرك انّه لا يوجد اختلاف تقريباً في انّ هذين اللونين من المعرفة هما متغايران، ويقع كلّ واحد منهما في مقابل الآخر.

وعلى هذا الأساس تصبح «الفلسفة» ـ وهي العلم الذي تتمّ دراسته بواسطة الاسلوب العقليّ ـ في مقابل العرفان. انّ مهمّة الفلسفة هي معرفة الحقائق، لكنّ الأداة التي تستخدمها لهذا الغرض وتثبت بها مسائلها هي «العقل» و«المفاهيم الذهنيّة». انّ حدود الفلسفة لا تتجاوز اطلاقاً المفاهيم الذهنيّة. ولهذا يُتوقّع فقط من العقل والفلسفه اثبات وجود الله تعالى، ولكنّه لا يمكن ان نتوقّع منهما إيصالنا الى الله سبحانه. بالعقل والفلسفة يمكننا معرفة الله فحسب، إلاّ انّهما لا يوفّران لنا رؤيته والحضور عنده سبحانه. انّ رؤية الله تعالى والحضور في ساحته المقدّسة تتعلّق بمجال العرفان.

انّ طريق الفلسفة يختلف عن طريق العرفان وماهيّتها غير ماهيّته. فالفلسفة لها ماهيّة ذهنيّة وعقليّة، بينما تكون ماهيّة العرفان من باب الشهود

والعلم الحضوريّ. ومن الواضح انّ أيّاً منهما ـ العرفان والفلسفة ـ لا يمكن ان يملأ مكان الآخر، وانما كلّ واحد منهما ضروريّ في مجاله وله قيمته المختصة به. ولابدّ من الالتفات ايضاً الى انّ العرفان الذي يقع في مقابل الفلسفه ليس هو «العرفان النظريّ»، وذلك لانّ العرفان النظري ـ كما أشرنا من قبل ـ يتعامل مع المفاهيم والصور الذهنيّة. ومن هنا يعتبر العرفان النظريّ ـ من حيث الماهيّة ـ شبيهاً بالفلسفة، ولا يقدّم للانسان شيئاً أكثر من المفهوم.

وعلى أيّة حال، انّ هذه المسائل واضحة ولا يوجد اختلاف فيها. أمّا الشيء الذي يوجد فيه اختلاف في مجال «علاقة العقل بالعرفان»، ويعتبر من جملة المسائل الأساسيّة المختلَف عليها بين المدافعين عن العرفان والمهاجمين له فهو يتعلّق بالنتائج العرفانيّة ـ حيث انّ المفروض كونها قد تمّ الحصول عليها عن طريق الكشف والشهود ـ ونواجه هذا السؤال: هل يستطيع العقل ان يقضي ويقيّم في هذا المضمار ويقوم ـ مثلاً ـ بنفي وانكار بعض تلك النتائج؟

وتتبيّن أهميّة الجواب على هذا السؤال اذا التفتنا الى انّ كثيراً من العرفاء يتحدّثون عن بعض المواضيع التي يتعذّر توضيحها بطريقة عقلانيّة، وهم يدّعون انّهم قد ألمّوا بهذه المواضيع عن طريق الباطن، وانّ العقل عاجز عن ادراكها، وبطبيعة الحال فلن يكون له الحقّ في انكارها ونفيها.

وكمثال على هذا فانّ من جملة أهمّ المسائل التي جرى البحث والنقاش حولها هي مسألة «وحدة الوجود» التي قدّموا لها توضيحات مختلفة: فالبعض يقول في توضيح «وحدة الوجود»: انّه في الأساس لايتمتّع شيء بالوجود غير الله تعالى، وأمّا ما يُسمّى بـ«الموجودات الاخرى» فهي توهّمات وخيالات ليس أكثر.

ويبيّن البعض الآخر هذه المسألة بهذه الصورة فيقول: المقصود منها هو

انّه لا يوجد شيء خارج اطار العلم الإلهيّ. وبناءً على هذا يتمّ الاعتراف بوجود لون من «الكثرة» في أعماق «الوحدة».

وهناك ادّعاء بشكل آخر في توضيح «وحدة الوجود»، وهو شائع أكثر من غيره، واجماله انّ السالك سوف يصل في نهاية مسيره الى مقام الفناء حيث لا يبقى منه سوى الاسم.

وبالتالي هناك صورة أكثر اعتدالاً لهذا الادّعاء وخلاصتها: انّ السالك يصل الى مقام بحيث لا يعود يرى شيئاً سوى الله سبحانه، وفي نظره ينمحي كلّ شيء في الله تعالى. وبعبارة أدقّ فانّه يشاهد انمحاء كلّ شيء في وجود الله تعالى، مثل انمحاء النور الضعيف في نور الشمس.

وعلى كلّ حال ففي مثل هذه الموارد والمسائل التي يحتدم فيها البحث والنقاش بين المؤيّدين للعرفان والمعارضين له فانّ المعارضين ـ عادةً ـ يلجأون الى استخدام الأدلّة العقليّة، وبناءً على البراهين العقليّة يقومون برّد وإنكار ما يدّعيه العرفاء. وفي مقابلهم ينبري المدّعون والمؤيّدون للعرفان قائلين: انّ هذه المواضيع هي أرفع من مستوى العقل. وبهذه الطريقة فانّهم لا يرون أنفسهم ملزمين بتقديم توضيح عقليّ لما يدّعونه.

وبالالتفات الى هذه النزاعات والمناقشات يُطرح سؤال أساسيّ: هل توجد حقائق بحيث يكون العقل عاجزاً عن ادراكها؟

والذي يمكننا قوله هنا باختصار هو: صحيح انّ نشاط العقل دائماً يكون في مجال المفاهيم، وليست مهمّة العقل هي معرفة حقيقة الوجود العينيّ ولا معرفة كنه أيّ مصداق خارجيّ ـ فضلاً عن وجود الله تعالى ـ إلاّ انّ الأحكام الايجابيّة أو السلبيّة للعقل ـ اذا كانت بديهيّة أو منتهية الى البديهيّات ـ لا تكون قابلة للنقض، وهي تنطبق على مصاديقها الخارجيّة عن طريق المفاهيم، وفرض خطأ

مثل هذه الأحكام يستلزم التناقض. وبعبارة اخرى وحسب الاصطلاح الفلسفيّ: صحيح انّ مهمّة العقل ليست هي «معرفة الوجود بكنهه»، ولكنّه لا ينبغي الشكّ والتردّد في صحّة «المعرفة بالوجه» بهذا الشرط المذكور.

وأمّا بالنسبة لمسألة «وحدة الوجود» فلابدّ من القول: انّ نفي الوجود عن غير الله تعالى ونفي مطلق الكثرة يستلزم نفي اعتبار وقيمة أحكام العقل، ليس هذا فحسب وانّما يستلزم نفي قيمة العلوم الحضوريّة المتعلّقة بالنفس وأفعالها وانفعالاتها أيضاً. وعندئذ كيف يمكن اضفاء القيمة على الكشف والشهود مع انّ أقوى سند لهذه القيمة هو كون ذلك الشهود يتمّ بصورة حضوريّة.

اذن لا يمكن اطلاقاً قبول مثل هذا التفسير لوحدة الوجود، لكنّه يمكن الأخذ بعين الاعتبار تفسيراً لها تطمئنّ النفس بقبوله، وهو التفسير الذي قدّمه صدر المتألّهين في «الحكمة المتعالية». وخلاصة هذا التفسير هي انّ وجود المخلوقات بالنسبة الى الله تعالى هو وجود ربطيّ وتعلّقي، ويصحّ القول بالدقّة انّه «عين الربط والتعلّق»، وليس له أيّ لون من ألوان الاستقلال. والشيء الذي يجده العارف ويشاهده هو نفي الاستقلال عن سائر الموجودات ممّا يطلقون عليه اسم «نفي الوجود الحقيقيّ».

وزيادة في التوضيح يمكننا طرح السؤال بشكل آخر فنقول: هل يصحّ تقديم حكم العقل على الوجدان والكشف والشهود؟ وبعبارة اخرى: هل يتيسّر بالاعتماد على حكم العقل ـ وهو لون من ألوان العلم الحصوليّ ـ ان نقوم بانكار قيمة العلم الحضوريّ؟

وفي الجواب لابدّ من القول: انّ العلم الحضوريّ الخالص هو في الحقيقة يعني الظفر بنفس الواقع، ومن هنا فانّه لا يمكن تخطئته، اِلاّ انّ العلم الحضوريّ يرافقه ـ عادةً ـ تفسير ذهنيّ، وهذا الأخير يعتبر من قبيل العلم الحصوليّ. والفصل بين

هذين يحتاج الى دقّة كبيرة، بحيث يكون الانسان ملتفتاً وواعياً حتّى لا ينسب حكم أيّ واحد منهما الى الآخر. والشيء القابل للخطأ ـ في هذا المضمار ـ والذي يمكن ابطاله أحيانا بواسطة البرهان العقليّ هو هذا التفسير الذهنيّ الذي هو من قبيل العلم الحصوليّ ويأتي في مقام الحكاية عن ذلك العلم الحضوريّ. فالعارف أحياناً يقدّم تفسيراً ذهنيّاً غير مطابق للواقع وغير صحيح عن مشاهدته وعلمه الحضوريّ. وفي هذه الموارد يكون الخطأ ـ في الواقع ـ قد تسلّل الى العلم الحصوليّ، ولم يمتدّ الى ما أُدرك بالعلم الحضوريّ بشكل دقيق. وفي مجال وحدة الوجود فالشيء الذي تتمّ مشاهدته ـ بصورة دقيقة ـ هو اختصاص الوجود الاستقلاليّ بالله تعالى، ويُعبّر عنه ـ تسامحاً ـ بالوجود الحقيقيّ، وعلى هذا الأساس فانّه يتمّ نفي الوجود الحقيقيّ عن سائر الموجودات.

ومن الجدير بالذكر بالنسبة الى العلم الحضوريّ والمكاشفات التي تحصل للأفراد فانّ العرفاء الكبار في الاسلام قد صرّحوا بانّ بعض المكاشفات تكون شيطانيّة ولا قيمة لها. ويمكن تشخيص هذه المكاشفات ببعض القرائن، وبالتالي يمكن تقييمها من خلال عرضها على الأدلّة اليقينيّة العقليّة وعلى مسلّمات الكتاب والسنّة.

وخلال الفصول اللاحقة من هذا الكتاب ولاسيّما في فصل «الكشف والكرامة» سوف نتوسّع أكثر في توضيح هذه المواضيع.

العرفان في الاسلام

اذا رجعنا الى التاريخ فسوف نلاحظ وجود اتجاهات ـ منذ زمن غارق في القِدم ـ في العالم الاسلاميّ يُطلق عليها اسم «العرفان» أو «التصوّف»، وقد وصلت الى ذروتها خلال القرن الرابع الهجري وحتّى القرن الثامن في كثير من البلدان، من

جملتها ايران وتركيا. وفي العصر الحاضر تنتشر فرق متنوّعة من المتصوّفة في جميع أرجاء العالم الاسلاميّ ولاسيّما في شمال أفريقيا. وهناك اتّجاهات مشابهة لهذا الاتّجاه منبثّة بين أتباع سائر الأديان أيضاً. وبالالتفات الى نقطة الاشتراك هذه يُطرح هذا السؤال: هل يوجد في الاسلام شيء يُطلق عليه اسم «العرفان الاسلاميّ»، أم انّ المسلمين قد اقتبسوا ذلك من غيرهم، وأمّا الشيء الذي يُطلق عليه اسم «العرفان الاسلاميّ» ليس هو في الواقع سوى عرفان المسلمين لا عرفان الاسلام؟ واذا كان الاسلام قد جاء بشيء يُسمّى «العرفان» فهل هو نفس ذلك المتداول بين المسلمين اليوم أم انّه قد طرأ عليه تغيّر وتحوّل؟

وفي الجواب على هذا السؤال أنكر البعض وجود العرفان في الاسلام مطلقاً واعتبروه بدعة منكرة وأمراً باطلا.

واعتبره البعض الآخر خارجاً عن نصّ الاسلام، ولكنّه منسجم ومتناسق معه.

وهناك من اتّخذ هذا الموقف الثاني بالنسبة الى «التصوّف» أيضاً قائلاً: انّ التصوّف بدعة مرضيّة، وهو يشبه «الرهبانيّة» في المسيحيّة. ويتناول القرآن الكريم موضوع «الرهبانيّة» فيؤكّد على انّ هذا الأمر لم يكن موجوداً في أصل المسيحيّة وفيما أنزله الله تعالى على سيّدنا عيسى، وانّما ابتكرها أتباع السيّد المسيح، ولكنّه مع ذلك لم ينفها ولم يستنكرها حيث قال تعالى: ﴿**وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ**﴾.[1]

وأخيراً هناك فئة ثالثة تعدّ العرفان جزءاً من الاسلام بل تعتبره بمنزلة روحه ولُبّه، وتقول انّه كسائر أبعاد الاسلام نابع من القرآن الكريم والسنّة النبوّية الشريفة، لا أنّه مقتبَس من سائر المدارس والمذاهب والمسالك. ومن

---

١. سورة الحديد، الآية ٢٧.

وجهة نظر هؤلاء فانّ وجود التشابه بين العرفان الاسلاميّ وسائر أنواع العرفان لا يُعدّ دليلاً على انّ العرفان الاسلاميّ مقتبس من تلك المذاهب، كما انّ التشابه بين بعض الأحكام والقوانين الموجودة في الشريعة الاسلاميّة وسائر الشرائع السماويّة لا يعتبر دليلاً على اقتباس الاسلام من تلك الشرائع.

ومن وجهة نظرنا فانّ الرأي الأخير هو الأقرب الى الواقع.

ويتعيّن علينا ان نؤكّد على انّ كون العرفان الاسلاميّ أصيلا لا يعني صحّة كلّ ما هو موجود في العالم الاسلاميّ ممّا يُطلق عليه اسم «العرفان» أو «التصوّف»، كما انّ أيّ لون من ألوان العقيدة أو السلوك السائد بين مجموعة أو فئة من الفئات المنتسبة الى الاسلام لا يصحّ اعتباره سلوكاً أو عقيدة اسلاميّة، وإلاّ فانّه سوف يصبح الاسلام مجموعة من العقائد والقيم المتضادّة أو المتناقضة، أو سوف يكون لدينا عدد من الأديان الاسلاميّة المتضادّة والمتعارضة!

وعلى أيّة حال فنحن في نفس الوقت الذي نعترف بوجود عرفان اسلاميّ أصيل ـ وهو العرفان الذي كان يتمتّع بدرجته الرفيعة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وخلفاؤه بالحق عليهم السلام ـ فإنّنا لا ننكر وجود عناصر غريبة وأجنبيّة بين العرفاء والمتصوّفة المسلمين، ونحن نناقش ونشكل ونعترض على كثير من الآراء النظريّة والأساليب العمليّة والسلوكيّة لبعض الفئات من المتصوّفة.

فالذي يدقّق ويتأمّل في الآيات القرآنيّة وأحاديث النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام سوف يلاحظ حتماً مواضيع عميقة وراقية تتعلّق بالعرفان النظريّ، وسوف يجد أيضاً بعض الآداب والارشادات والنصائح المرتبطة بالسير والسلوك العرفانيّ. ومن باب المثال نشير الى الآيات المتعلّقة بتوحيد الذات والصفات والأفعال الواردة في سورة التوحيد وأوائل سورة الحديد وآخر سورة الحشر، وكذا الآيات الدّالة على حضور الذات الالهيّة

المقدّسة في جميع أرجاء العالم واحاطته سبحانه بجميع الموجودات، وعلى تسبيح جميع المخلوقات لله تعالى وسجودها التكوينيّ أمامه سبحانه.[١]

وهناك آيات في القرآن الكريم تتضمّن ذكر آداب وسنن خاصّة يمكن تسميتها بانّها قواعد للسير والسلوك الاسلاميّ، مثل الآيات التي تحثّ على

---

١. يقول تعالى: ﴿سَبَّحَ لله مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ سورة الحديد، الآيات ١ـ٣.

ويقول سبحانه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ سورة الحديد، الآية ٤.

وفي آيات اخرى يقول عزّ وجلّ: ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ سورة الحشر، الآيات ٢٢ـ ٢٤.

ونقرأ في آية كريمة اخرى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ سورة النور، الآية ٤١.

ويقول سبحانه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ سورة الاسراء، الآية ٤٤.

ونقرأ في آية اخرى: ﴿وَلله يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ سورة الرعد، الآية ١٥.

وفي سورة اخرى نلاحظ قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لله وَهُمْ دَاخِرُونَ * وَلله يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ سورة النحل، الآيتان ٤٨ ـ ٤٩.

ونقرأ أيضاً قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾، سورة فصلت، الآيتان ٥٣ ـ ٥٤.

وهناك آية اخرى تقول: ﴿وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً﴾ سورة النساء، الآية ١٠٨.

ويقول عزّ وجلّ: ﴿وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً﴾ سورة النساء، الآية ١٢٦.

ويقول سبحانه: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ الله﴾ سورة البقرة، الآية ١١٥.

ويقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾، سورة الحج، الآية ١٨.

التفكّر والتأمّل والذكر والالتفات الدائم وقيام الليل والصيام واطالة السجود والاكثار من التسبيح في الليـالي، والخـضوع والخـشوع والاخبـات والبكـاء، وتمريغ الجبهة بالتراب حين سماع آيات القرآن أو عند قراءتها، والاخلاص في العبادة، وأداء أعمال الخير حبّاً لله وبدافع الوصـول الـى رضـوان الله وقربـه، وكذا الآيات المتعلّقة بالتوكّل والرضا والتسليم لله جلّ وعلا.[1]

---

١. نشير هنا من باب المثال الى بعض هذه الموارد وهي كثيرة:

يقول عزّ وجلّ: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ**﴾ سورة البقرة، الآية ١٦٥.

ويقول تعالى: ﴿**فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾ سورة المائدة، الآية ٥٤.

ويقول سبحانه: ﴿**رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ**﴾ سورة البيّنة، الآية ٨.

وقد ورد في سورة الفجر تعبير جميل جداً: ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾ سورة الفجر، الآيات ٢٧ـ٣٠.

ويتحدّث سبحانه في سورة البقرة عن الذين أسلموا أنفسهم لله فيقول: ﴿**بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ سورة البقرة، الآية ١١٢.

وفي سورة الانسان يذكر عباده الذين يقومون بأعمال الخير مخلصين له وبدافع محبّته فيقول عزّ وجلّ: ﴿**وسقاهم ربّهم شراباً طهوراً**﴾، سورة الانسان، الآية ٢١.

وفي نفس هذه السورة يخاطب النبيّ الأكرمﷺ آمراً اياه: ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً**﴾ سورة الانسان، الآية ٢٦.

وفي سورة البقرة يشير تبارك وتعالى الى المؤمنين الذين وضعوا أرواحهم على أكفّهم وباعوا أنفسهم من أجل الظفر بمرضاة محبوبهم الحقيقيّ فيقول: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ**﴾ سورة البقرة، الآية ٢٠٧.

وفي سورة الرعد يشير سبحانه الى الأشخاص الذين تحمّلوا المصائب والمشاكل من أجل محبوبهم: ﴿**وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ**﴾ سورة الرعد، الآية ٢٢.

وفي سورة الليل يتحدّث عن أشخاص اذا قدّموا خدمة للآخرين فانّهم لا يتوقّعون منهم أيّ جزاء أو شكر، وانّما دافعهم للقيام بذلك هو كسب رضا الخالق ورؤية جمال وجهه: ﴿**وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى**﴾ سورة الليل، الآيتان ١٩ـ٢٠.

ويؤكد عزّ وجلّ في آيات متعدّدة على الاخلاص في العبادة، من جملتها: ﴿**فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ**﴾ سورة الزمر، الآيتان ٢ـ٣.

وفي سورة آل عمران يذكر المؤمنين المستغرقين في ذكر الله بشكل دائم: ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ**﴾ سورة آل عمران، الآية ١٩١.

←

وبالاضافة الى القرآن الكريم نلاحظ وجود مواضيع كثيرة في الروايات الاسلاميّة أيضاً وهي تتعلّق بهذا المجال، فما ورد في أحاديث النبيّ الأكرمﷺ والأئمة الأطهارعليهم السلام وما جاء في أدعيتهم ومناجاتهم ممّا له علاقة بهذه الشؤون لا يتيسّر عدّه وإحصاؤه.[1]

وفي سورة الاسراء يخاطب النبيّ الأكرمﷺ قائلاً: اذا كنت راغباً في «المقام المحمود» وطالباً نيل الدرجات العليا في القرب الالهيّ فعليك بصلاة الليل: ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً**﴾ سورة الاسراء، الآية ٧٩.

وفي هذه السورة نفسها يتحدّث عن بعض عباده المقرّبين فيصفهم بأنّهم عندما يسمعون آيات القرآن: ﴿**وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً**﴾ سورة الاسراء، الآية ١٠٩.

وفي سورة هود يذكر بعض المؤمنين الذين يتمتّعون بالايمان والعمل الصالح، وعلاوة على ذلك توجد لهم ميزة اخرى وهي انّ انسهم بالله شديد الى الحدّ الذي يؤدّي فيه قربهم من الله الى ادخال الاطمئنان في قلوبهم بحيث لا يشعرون بأيّ اضطراب أو حزن: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ سورة هود، الآية ٢٣.

١. نستعرض فيما يأتي قطرة من هذا البحر الزاخر بالمعارف الإلهيّة: في احدى المناسبات تلا الامام أمير المؤمنين علي بن ابي طالبعليه السلام هذه الآية المباركة: ﴿**رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ**﴾سورة النور، الآية ٣٧، ثم علّق عليها قائلاً: «**انّ الله سبحانه جعل الذِكر جلاءً للقلوب... وانّ للذكر لأهلاً أخذوه من الدنيا بدلاً فلم تشغلهم تجارة ولا بيع عنه... فكأنّما قطعوا الدنيا الى الآخرة وهم فيها فشاهدوا ما وراء ذلك فكأنّما اطّلعوا غيوب أهل البرزخ في طول الاقامة فيه... فكشفوا غطاء ذلك لأهل الدنيا**»، (نهج البلاغة ـ شرح صبحي الصالح ـ الخطبة ٢٢٢).

ونقرأ في المناجاة الشعبانيّة: «**الهي هب لي كمال الانقطاع اليك وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتّى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل الى معدِن العظمة وتصيرَ أرواحنا معلّقة بعزّ قدسك**»، (مفاتيح الجنان ـ المناجاة الشعبانيّة).

ويناجي الامام الحسينعليه السلام ربّه في دعاء عرفة فيقول: «**الهي علمتُ باختلاف الآثار وتنقّلات الأطوار انّ مرادك منّي ان تتعرّف إليّ في كلّ شيء حتّى لا أجهلك في شيء... كيف يُستدلّ عليك بما هو في وجوده مفتقر اليك أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك متى غبتَ حتّى تحتاج الى دليل يدلّ عليك ومتى بَعُدْتَ حتى تكون الآثار هي التي توصل اليك عميت عين لا تراك عليها رقيبا وخسرت صفقة عبد لم تجعلْ له من حبّك نصيباً... الهي حقّقني بحقائق أهل القرب واسلك بي مسلك أهل الجذب... ماذا وَجَدَ من فقدك وما الذي فَقَدَ من وجدك لقد خاب مَنْ رضي دونَك بدلاً ولقد خسر من بغى عنك متحوّلا... تعرّفتَ لكلّ شيء فما جهلك شيء وأنت الذي تعرّفت اليّ في كلّ شيء فرأيتُك ظاهراً في كلّ شيء**» (مفاتيح الجنان ـ دعاء عرفة).

ونلاحظ هنا وفي مواجهة مثل هذه الآيات والروايات ـ كما جرى أيضاً في كثير من المسائل الاخرى ـ فقد سلك البعض طريق التفريط بينما اتّخذ البعض الآخر سبيل الإفراط.

لقد تعاملت الفئة الاولى مع هذه الآيات والروايات ونظرت إليها نظرة ضيّقة وظاهريّة فحملتها على معاني ساذجة جدّاً وأفرغتها من محتواها ومضمونها الرفيع، وانتهى بهم الأمر الى نسبة الحالات المتغيّرة والنزول والصعود الجسمانيّين الى الله تعالى!

وهولاء هم الذين اندفعوا الى الإنكار ـ بشكل مطلق ـ لوجود شيء يُسمّى «العرفان» في المعارف والمصادر الاسلاميّة.

ومن ناحية اخرى نلاحظ أيضا اندفاع فئة نحو الطرف الآخر تحت تأثير عوامل اجتماعيّة متنوّعة، حيث أعلنت قبول عناصر غريبة وأجزاء أجنبيّة وصرّحت بالاعتقاد بأُمور لا يمكن عدّها نابعة من النصوص الدينيّة ومحتويات الكتاب والسنّة، بل انّ بعضها مخالف أيضاً للنصوص الصريحة التي

وكذا الامام السجّاد عليه السلام فهو يقول في مناجاة المريدين: «**الهي فاسلُكْ بنا سبلَ الوصول اليك وسيّرنا في أقرب الطرق للوفود عليك... فأنتَ لا غيرك مرادي ولك لا لسواك سَهَري وسهادي ولقاؤك قرّة عيني ووصلك مُنى نفسي واليك شوقي وفي محبتك وَلَهي**»، (مفاتيح الجنان ـ مناجاة خمس عشرة).

ويخاطب الامام السجّاد أيضاً ربّه الكريم في مناجاة العارفين فيقول: «**الهي فاجعلنا من الذين ترسّخت أشجار الشوق إليك في حدائق صدورهم وأخذت لوعةُ محبتّك بمجامع قلوبهم فهم الى أوكار الأفكار يأوون وفي رياض القرب والمكاشفة يرتعون... وقرّت بالنظر الى محبوبهم أعينُهم**»، (مفاتيح الجنان ـ مناجاة خمس عشرة).

وفي مناجاة المحبّين يخاطب عليه السلام محبوبه قائلاً: «**الهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتّك فرام منك بدلاً ومن ذا الذي أنس بقربك فابتغى عنك حولا**» (مفاتيح الجنان ـ مناجاة خمس عشرة).

وفي رواية انّ الامام الصادق عليه السلام يقسّم عبادة العبّاد الى ثلاثة أقسام فيقول: «**انّ العبّاد ثلاثة: قوم عبدوا الله عزّ وجلّ خوفاً فتلك عبادة العبيد وقوم عبدوا الله تبارك وتعالى طلب الثواب فتلك عبادة الأجراء وقوم عبدوا الله عزّ وجلّ حبّاً له فتلك عبادة الأحرار وهي أفضل العبادة**»، (بحار الأنوار ـ ج ٧٠ ـ ص ٢٥٥ ـ الباب ٥٥ ـ الرواية ١٢).

لا تقبل التأويل. وأمّا من حيث العمل فقد قام هؤلاء ـ من ناحية ـ باختراع ووضع بعض الآداب والتقاليد أو انّهم اقتبسوها من فِرَقٍ غير اسلاميّة، وأفتوا ـ من ناحية اخرى ـ بسقوط التكليف عن العارف الواصل![1]

ولابّد من القول لهؤلاء: من المؤكّد انّه لا يمكننا أن نجد واصلاً أكثر من رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين علي ابن ابي طالب عليه السلام، الاّ انّ هذين العظيمين قد استمرّا على القيام بكلّ التكاليف الإلهيّة حتّى آخر العمر، بل كان اهتمامُهما بهذه الامور أكثرَ بكثير من الأفراد العاديّين.

ولا يفوتنا ان نشير الى انّ بعض الباحثين ينظرون بحسن ظنّ كبير الى جميع العرفاء والمتصوّفة ويقومون بتبرير جميع تصرّفاتهم ويؤوّلونها، لكنّ الإنصاف يدفعنا الى القول بانّ بعض أقوال هؤلاء ـ على أقلّ تقدير ـ ليس له مبررّ معقول. وفي هذا المجال لا ينبغي انّ تستولي علينا عظمة وهيبة الشخصيّات العلميّة والعرفانيّة بحيث نقبل ونويّد جميع ما يقوله هؤلاء ويكتبونه بشكل مطلق، ونسلب من الآخرين حقّ النقد والنظرة الفاحصة لآثارهم العلميّة. لكنّه من الواضح أيضاً انّ الاعتراف بحقّ النقد لا يعني تصحيح الأحكام الساذجة والمواقف المتعصّبة التي لا تتمتّع بالانصاف، ولا يعني أيضا إنكار النقاط الايجابيّة والقيّمة التي جاء بها هؤلاء.

---

١. والعجيب ان هؤلاء ينسبون مدّعاهم الى القرآن الكريم؛ وذلك حيث يقول تعالى: «فسبّح بحمد ربّك وكن من الساجدين. واعبد ربّك حتى يأتيك اليقين» (سورة الحجر ـ الآيتان ٩٨ ـ ٩٩). فهم يزعمون ان القرآن الكريم في هذه الآية المباركة يؤكّد على انّ السجود والصلاة والعبادة تستمرّ مع الانسان حتّى يصل الى مقام «اليقين»، وهو نفسه مقام «الوصول الى الله»، وأمّا بعد ظفره بهذا المقام فانّه لا ضرورة لقيامه بالصلاة والعبادة!

ومن الواضح جداً انّ هذا الكلام باطل وغير صحيح، ولا يخفى بطلانه على العارفين بتفسير القرآن ومعانيه، فهم يعرفون بالتأكيد انّ هذه الآية الكريمة لا تفيد مثل هذا المعنى إطلاقاً. وسوف نبحث هذا الموضوع بشكل أكثر تفصيلا في الفصل الخامس من هذا الكتاب نفسه.

وعلى كل حال لابّد من بذل غاية الجهد في البحث عن الحق والحقيقة، والسير في طريق العدل والإنصاف، والابتعاد ما أمكن عن الإفراط في النظرات المتفائلة والمتشائمة التي لا تتمتّع بالدليل، وان نستمدّ العون من الله تعالى لمعرفة الحقّ والاستقامة في طريقه.

«العرفان» و«الشرع» هل هما متلازمان أم مفترقان؟

هناك مسألة مهمّة اخرى في هذا المضمار لابّد ان نلتفت إليها وهي العلاقة بين «العرفان» و«الأحكام الشرعيّة»، أو العلاقة بين «الطريقة» و«الشريعة». فقد تصوّر البعض انّ العرفان يشكّل طريقة مستقلّة لكشف الحقائق، حيث يتمّ الاعتماد عليه واستخدامه من دون تنفيذ الأحكام الشرعيّة، مدّعين انّ الاسلام قد أمضى ذلك واعترف به (وهي بدعة مرضيّة)، أو انّه لم يمنع منه على أقلّ تقدير. واندفع البعض في هذا المجال ليزعم انّ الالتزام بأيّ دين من الأديان ليس شرطاً ضروريّاً للوصول الى المقامات والدرجات العرفانيّة! بينما خفّف البعض الآخر من لهجته مدّعياً انّ الالتزام بواحد من الأديان، أو بشكل أكثر اعتدالاً، انّ الالتزام بواحد من الأديان الإلهيّة كافٍ لتحقيق هذا الغرض.

ويتعيّن علينا ان نقول في هذا المضمار: انّ السير والسلوك العرفانيّ ـ من وجهة نظر الاسلام ـ ليس طريقاً مستقلاً ومنفصلاً عن طريق الشرع، وانّما هو جزء دقيق ولطيف منه. فاذا أطلقنا اصطلاح «الشريعة» على الأحكام الظاهريّة، فلابدّ لنا من القول انّ «الطريقة» و«الحقيقة» هما في طول الشريعة أو في باطنها، ولا يمكن تحقّقهما الاّ بواسطة تنفيذ أحكام الشريعة. ونذكر نموذجاً لهذا فنقول: انّ «الشريعة» تبيّن الأحكام الظاهريّة للصلاة، بينما «الطريقة» تتولّى تعليم طرق تركيز الحواسّ وكيفيّة حضور القلب في الصلاة

وشروط كمال العبادات. و«الشريعة» تؤكّد على القيام بالعبادات بدافع النجاة من العذاب الإلهي ونيل النعم التي أعدّها الله للمتّقين في الجنّة، أمّا «العرفان» فهو يؤكّد على تطهير النيّة من غير الله، وهو نفسه الأمر الذي تُطلق عليه روايات أهل البيت عليهم السلام اسم «عبادة الأحرار». وكذا الموقف في موضوع الشرك، فالشرك في الشريعة هو «الشرك الجلّي» الذي نلاحظ أمثلته في الحياة الاجتماعيّة كعبادة الأصنام وكلّ ما هو من هذا القبيل، أمّا في الطريقه فهناك ألوان من الشرك أدقّ يُطلق عليها اسم «الشرك الخفيّ» أو «الشرك الأخفى»، فكلّ لون من ألوان تعلّق الأمل بغير الله، والخوف من غيره، والاستعانة بغيره والحبّ لغيره ـ فيما اذا كانت هذه الامور ذات أصالة واستقلال ولم تكن قائمة على أساس الطاعة لأمر الله تعالى ـ يُعتبر لوناً من ألوان الشرك.

وهكذا يُوفّق السالك بعد تنفيذ الشريعة والطريقة لينال «الحقيقة»، (أي كشف الحقائق).

وبناءً على هذا فانّ ألوان البِدع والمناهج المخترعة ليست غير مطلوبة فحسب، وانّما هي قد تشكّل مانعاً من الوصول الى العرفان الحقيقي أيضا، فضلاً عن اللجوء الى الأشياء المحرّمة والمنهيّ عنها قطعاً وبصورة صريحة. ولابدّ ان نعرف انّ بعض هذه الامور قد تؤدّي أحياناً الى تحقّق حالات عرفانيّه مؤقّتة وقصيرة العمر، ولكنّها لا تتمّتع بنتيجة طيّبة، بل قد تكون فخّاً شيطانيّاً يؤدّي الى السقوط النهائيّ، ولهذا فانّه لا ينبغي الانخداع بها. انّ سبيل الحقّ هو الذي بيّنه الله تعالى، وما عداه انحراف وضلال: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ﴾.[1]

وفي الفصول اللاحقة من هذا الكتاب سوف يأتي الحديث بشكل أكثر تفصيلاً حول «الطريقة» و«الشريعة».

---

١. سورة يونس، الآية ٣٢.

الفصل الثاني

التحريف والانحراف عن التعاليم العرفانيّة

تحريف الأديان السماويّة

لقد أشرنا في الفصل الماضي الى انّ حقيقة «العرفان» أمر يتعلّق بمعرفة الله تعالى، وقلنا في تعريف ذلك: انّ العرفان عبارة عن معرفة الله تعالى وصفاته وأَفعاله، وهي معرفة غير حاصلة عن طريق الفكر والاستدلال، وانّما هي آتية من طريق الادراك القلبيّ والوجدان الباطنّي. وخلاصة القول: فالعرفان يعني معرفة الله سبحانه، ولكنّها ليست معرفة غيابيّة وهي لا تتمّ عن طريق العقل والبرهان، وانّما هي معرفة حضوريّة تتمّ في القلب بحيث تحصل الرؤية في أعماق الروح.

وبناءً على هذا فانّ حقيقة العرفان ليست شيئاً سوى الوصول الى الله تعالى والادراك الواعي والحضوريّ لذاته سبحانه. ولهذا السبب قلنا: انّ حقيقة الدين وروحه وكنهه وهدفه أيضاً ليس شيئاً سوى «العرفان».

وبالالتفات الى هذه الحقيقة فقد أكّدنا أيضاً على انّ الاتّجاهات العرفانيّة وجذور العرفان، التي هي عبارة عن «البحث عن الله، وعبادة الله، ومحبّة الله»، هي في الواقع امور فطريّة. والامور الفطريّة ـ كما أُشير الى

ذلك ـ موجودة في جميع الأفراد والناس وفي جميع الأزمنة، وبالنسبة الى أصل وجودها فانّه لا يوجد أيّ تخلف واختلاف بين بني آدم، كما تؤكّده الآية الكريمة: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾.[١]

اذن خلق الله والامور الفطريّة التي هي من شؤون الخلق لا تتبدّل ولا تتغيّر. وبناءً على هذا فالانسان منذ اليوم الأوّل من بدء حياته على ظهر هذه الكرة الأرضيّة يتمتّع بهذه الرغبة، وهو منذ بداية حياته في هذه الكرة في سعي مستمرّ لإشباع هذه الرغبة. فالله الذي خلق الانسان من أجل التكامل في هذا العالم قد دلّه منذ البداية على طريق التكامل الواقعي. ومن هنا كان أوّل انسان نبيّاً من أنبياء الله.

أمّا السبل التي أنزلها الله تعالى على الأنبياء عليهم السلام من أجل تكامل البشريّه وسدّ حاجاتها الماديّة والمعنويّة بصورة «الدين» و«الشريعة» فقد تعرّضت خلال الزمان ـ وبواسطة عوامل مختلفة ـ الى ألوان من الانحراف والتحريف.[٢]

فالاسلام يصرّح بانّ دين التوحيد قد ظهر مع بداية وجود الانسان، فأوّل انسان كان نبيّاً موحّداً. ونحن المسلمين نعتقد بأنّ أجيال البشريّة

---

١. سورة الروم، الآية ٣٠.

٢. هناك اختلاف في هذه المسألة بين علماء الاجتماع. فهل انّ أوّل دين تمسّكت به البشريّة هو دين التوحيد ثمّ ظهرت تدريجيّاً الأديان الممزوجة بالشرك، أم انّ أوّل دين كان هو دين الشرك ثم اتّجهت الأديان المشركة شيئاً فشيئاً نحو الوحدة وأخيراً ظهر دين التوحيد؟ يعتقد بعض علماء الاجتماع انّ البشريّة كانت مشركة في البداية، وانّ الطوائف المختلفة قد أوجدت ـ بحسب العوامل الاجتماعيّة المتنوّعة ـ ألوانا من الشرك في مجتمعاتها، فمثلاً كلّ قبيلة أوعشيرة يرحل زعيمها من هذه الحياة فانّهم يصنعون له رمزاً أو مجسّمة ويؤدّون الاحترام لها، ثمّ تحوّلت هذه الطقوس تدريجيّاً بحيث صارت عبادة للأصنام، وبعد ذلك انتشرت بين القبائل والعشائر أصنام متعدّده ومعبودات كثيرة، وهكذا وجد العالم المليء بالشرك. ونحن نؤكّد على انّ هذه النظرية باطلة من وجهة نظر الاسلام.

تنتهي الى سيّدنا آدم عليه السلام، وقد كان نبيّاً من أنبياء الله تعالى، وقد علّم أولاده الدين الحقّ، ومن هنا كان أوائل الناس موحّدين، ثمّ طرأت بالتدريج تغيّرات ـ نتيجةً لعوامل مختلفة ـ فظهر دين التوحيد بصور أديان محرّفة وممزوجة بالشرك. وهذه الأديان المنتشرة اليوم في مختلف أصقاع الأرض وتُلاحظ فيها ألوان من عبادة الأصنام وما يشبه الأصنام هي في الواقع أشكال محرّفة من أديان التوحيد التي كانت موجودة في البداية.

ويعتبر الدين المسيحيّ أقرب الأديان ـ من حيث الزمان ـ الى الدين الاسلاميّ، وقد تحوّل اليوم الى لون من الشرك. ولا شكّ انّ النبي عيسى عليه السلام لم يدعُ الناس اطلاقاً الى عبادة نفسه، ولم يدّع أبداً انّه «أنا الله، أو انّني ابن الله»، ولكنّه لم يطل الزمان بعده حتّى تلوّث بالشرك أتباع السيّد المسيح عليه السلام، ونتيجة للعوامل والدوافع المختلفة خلطوا المسيحيّة بظواهر الشرك وادّعوا انّ أساس المسيحيّة قائم على الاعتقاد بالتثليث. وهم يزعمون انّ لله ثلاثة عناصر، أوحسب تعبيرهم ثلاثة «أقانيم»: الأب والابن والروح القدس، أو حسب عقيدة البعض الآخر من طوائف المسيحيّين: الأب والأمّ والابن.[1]

وقد تناول القرآن الكريم هذا الموضوع في عدّة موارد وناقش فيه المسيحيّين مستنكراً عليهم قولهم بالآلهة الثلاثة!! ﴿**لا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ**﴾.[2] ﴿**وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا. تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ**

---

١. انّ أكثر المسيحيّين يفسّرون التثليث بانّه يعني «الأب والابن والروح القدس». ويعدّون السيّد المسيح هو الابن، ويزعمون بانّ الروح القدس هو الواسطة بين الأب والابن، لكنّ البعض الآخر منهم يعبدون السيّدة مريم العذراء بدل الروح القدس، وهم ينصبون تمثالها في الكنائس ويتوجّهون إليها بالعبادة.

٢. سورة النساء، الآية ١٧١.

وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً﴾.[١] اذن فالتثليث الموجود في المسيحيّة حاليّاً لا شكّ في انّه صنيعة الذين يعتبرون أنفسهم زعماء المسيحيّين.

لكن لماذا أقدم هؤلاء على هذا الفعل؟

للجواب على هذا السؤال قصّة مفصّلة، وهي خارجة فعلاً عن موضوع بحثنا هذا.

وعلى كلّ حال فنحن نلاحظ في عصر قريب من عصر مطلع الاسلام حدوث مثل هذا التحريف الضخم في أحد الأديان السماويّة الموحّدة، فمع انّ الدين المسيحيّ كان ديناً توحيديّاً إلاّ انّ الناس التابعين له قاموا بتحريفه بحيث أخرجوه بصورة دين مزيج بالشرك.

ونظير هذا قد جرى أيضاً للأديان السابقة. فالأديان التي جاء بها الأنبياء العظام عليهم السلام للناس قد كانت كلّها موحّدة، ونحن لا نجد في العالم ديناً سماويّاً غير موحّد. وكلّ ما نلاحظه اليوم من وجود أديان ممزوجة بألوان من الشرك فهي جميعاً صنيعة أيدي الناس.

وبناءً على هذا فقد كان الدين السماويّ الأوّل ديناً توحيديّاً، وكان الناس الأوائل موحّدين، ولكنّه تدريجيّاً ونتيجة لعوامل مختلفة ـ مثل حرص عبّاد المناصب على الجاه والشهرة وحرص أصحاب الأهواء على تحقيق رغباتهم ـ فقد ظهرت الأديان المبتلاة بالشرك.

وكذا حقيقة «العرفان» التي هي روح الدين وباطنه فهي أيضاً في البداية قد نُشرت من قبل الأنبياء لهداية البشريّة وإشباع الوجدان العرفاني الفطريّ، لكنّها تعرّضت ـ تدريجيّاً وفي طول التاريخ ـ لألوان من التحريف والانحراف.

فالدين الذي يعني مجموعة من العقائد والأحكام والنصائح الأخلاقيّة هو

---

١. سورة مريم، الآيات ٨٨ ـ ٩٠.

بمنزلة الجسد، أمّا روحه فهو الالتفات الى الله سبحانه والوصول الى الحقّ تعالى. ومن الواضح انّ قيمة وشرف جسم الانسان يكون بواسطة روحه، فالمقصود الأصليّ هو تكامل الروح، وأمّا الجسم فهو ليس إلاّ وسيلة لنموّ الروح وتكامله. ومن هنا كان الهدف الأساسيّ لجميع الأنبياء هو ان يقرّبوا الانسان الى الله وان يُضفوا الصِبغة الملكوتيّة على روحه، أي انّهم يعلّمونه طريق التكامل المعنويّ و«العرفانيّ». وطريق التكامل المعنويّ والروحيّ الذي قدّمه الأنبياء للناس هو طريق إلهيّ عارٍ عن أيّ لون من ألوان الإعوجاج، ولكنّه مع الأسف الشديد كما تعرّضت أحكام الأديان المختلفة وعقائدها للتحريف والمسخ فقد تعرّضت الروح العرفانيّة للأديان أيضاً للتحريف في المجال النظريّ والعقائديّ وفي المجال العمليّ أي السير والسلوك.

انّ تاريخ الأديان يبيّن لنا وجود عناصر عرفانيّة حتّى في أقدم الأديان المعروفة. فقد كانت هنالك اهتمامات عرفانيّة منبثّة في الأديان الهنديّة، كالهندو والبوذيّة ومذاهب «اليوغا»،[1] وسائر فروع وتشعبّات الدين الهنديّ.

---

١. تُطلق كلمة (yogin) على المرتاضين الهنود وأتباع فلسفة «اليوغا» (yoga). و«اليوغا» تُطلق في الأصل على استئناس الحيوانات المتوحّشة، ومعناها اللغويّ يتضمّن اشارة الى الطوق والقيد الذي يجعله سالك الطريق على عنق النفس الأمّارة، وهو يتحمّل ألوان الرياضة الشاقّة ويقوم بالتمارين الصعبة لكي يحرّر روحه من القيود المادّية. ونتيجة لتحمّل هذه الألوان من الرياضة الشاقّة يغدو صاحب «اليوغا» متمتّعا بقوى وقدرات هائلة وغير مألوفة.

ويُعتبر الفيلسوف الهنديّ المسمّى باتانجلي (Patanjali) ـ الذي كان يعيش في القرن الثاني قبل الميلاد تقريباً ـ هو المشيّد والمؤسّس لفلسفة «اليوغا».

ويُسمّى الطريق والاسلوب الذي اخترعه لانقاذ النفس باسلوب «اليوغا». وقد دوّن فلسفته في كتاب يُطلق عليه اسم راغا يوغا (Raga yoga)

وقد قام العالم المسلم الكبير أبوريحان البيروني بترجمة هذا الكتاب الى اللغة العربيّة.

وبصورة عامّة فانّ فلسفة «اليوغا» هي فلسفة الترويض، وتكون نتيجتها التسلّط التامّ على النفس وتزكية الروح والانصراف والانقطاع عن التعلّق بأسباب العالم المادّي. والهدف المعلَن لمدرسة

«اليوغا» لا يقتصر على التحرّر من النفس الأمّارة وإنقاذها من أنواع التلوّث، وإنّما الهدف الأساسيّ منها هو الوصول الى حالة الكشف والشهود والارتباط بحقيقة العالم والروح الكليّة والواقعيّة المطلقة.

فالمرتاضون يقومون بالأعمال الجسميّة الشاقّة والمجهدة لكي يُحكموا سيطرتهم على أنفسهم الجامحة ولكي يُزيحوا الحجاب المظلم للماديّة عن أرواحهم حتّى يظفروا ـ عن هذا الطريق ـ بالمعنويّة المطلقة.

ومن جملة التمارين والرياضات التي يقوم بها المرتاضون هي عبارة عن: عدم التحرّك وحبس الأنفاس والانضباط التنفّسي وتعطيل الحواسّ والتركيز المستمرّ لقوى المخ ومحو جميع الأفكار والتصوّرات والقيام بأعمال تؤدّي الى محو الشخصيّة الظاهريّة والانسانيّة للفرد.

وتتمّ هذه التمارين والرياضات ـ عادةً ـ بواسطة الجلوس الهادئ والمستمرّ بصورة الشخص المتربّع، بحيث يتقارن مع التأمّل والتركيز. إلاّ انّ هناك أساليب اخرى تُستخدم أيضاً؛ مثل الوقوف، والوقوف المقلوب، والإنحناء بحيث يمدّ اليدين نحو الأسفل، والانبطاح على سرير مزروع ـ من أوّله الى آخره ـ بمسامير حادّة وبارزة. وقد تستمرّ هذه الأعمال لسنوات عديدة مع تحمّل مشقّات اخرى كإحضار الماء أمام عين المرتاض لكنّه يدرّب نفسه على تحمّل حالة العطش.

أمّا حبس الأنفاس فانّ التنفّس يقلّ نتيجة للقيام بالتمارين الصعبة، ومن ثمّ يغدو المرتاض مكتفياً بعدد قليل من الأنفاس خلال مدّة طويلة جداً.

وبمثل هذه الأساليب يُخضع المرتاضون دقّات القلب وسائر الأعمال الجسميّة لتكون تحت تصرّفهم. وفي جميع هذه الحالات يتّخذ البدن أساليب جديدة ويواصل بقاءه حيّاً.

وقد نهض العلماء الغربيّون بتجارب علميّة متنوّعة أجروها على المرتاضين وأثبتوا من خلالها واقعيّة بعض هذه الحالات. ومن جملة هذه ما قامت به هيئة علميّة فرنسيّة بقيادة الدكتور بروس (Brosse) في عام ١٩٣٦م حيث أجروا تحقيقات وتجارب في مجال حبس الأنفاس عند المرتاضين، ثمّ قاموا بنشر النتائج التي توصّلوا إليها.

وقد أكّد هؤلاء على انّ المرتاض قد يقلّل من عمليّة تنفسه ـ نتيجة للتمارين الشاقّة ـ بحيث يكتفي بعدّة أنفاس قليلة خلال سنة كاملة! ولعلّهم يقومون بدفن المرتاض لفترة تمتدّ الى ستّة أشهر ثمّ ينبشون قبره ويستخرجونه وحينئذ يلتقط نفساً واحداً ويستعيد حياته من جديد!

وقد وضع باتانجلي ـ مؤسّس فلسفة اليوغا ـ في كتابه المسمّى (Raga yoga) ثماني قواعد لتهذيب النفس وترويضها، وهي كالآتي:

١. اجتناب هوى النفس. ٢. مراعاة الأنظمة الموجودة في مذهب اليوغا. ٣. الجلوس بشكل معيّن. ۴. تنظيم النَفَس والقيام بتكرار كلمة اُم (om) ۵. التركيز على الباطن وترك المحسوسات. ۶. تركيز الحواسّ. ٧. المراقبة والتفكّر. ٨. الوصول الى درجة الفناء أو (ايشوارا).

يؤمن المرتاض بانّه في مذهب اليوغا يمكن السيطرة على أيّ عضو من أعضاء الانسان بحيث يمكن تخديره عن طريق تركيز الحواسّ، ويتيسّر له أيضاً ان يصبح غير مرئيّ عندما يشاء، أو انّه يحول دون حركة جسم من الأجسام، أو انّه يحيط علماً بأسرار الماضي والمستقبل.

وهذا الأمر صادق أيضاً حتّى في مجال اليهوديّة، مع انّ أتباعها هم من أشدّ الناس تهالكاً وتمسّكاً بالاتّجاهات الماديّة من بين جميع الأديان. فاليهود تمتزج عقائدهم بالجسم والمادّة، بحيث تقوم التوراة ـ كتابهم المحرّف ـ بوصف الله تعالى بصورة مجسّمة، ويُلاحظ أيضاً انّ أفكار اليهود ودوافعهم ماديّة، وكذا بالنسبة الى الحرص والتهالك الذي يبديه هؤلاء على المال والثروة وسائر الشؤون الدنيويّة فانّه قلّما يُلاحظ مثله في سائر القوميّات والأُمم، ولكنّه مع ذلك يُلاحظ وجود بعض العلماء اليهود ممّن يتمتّع بالاهتمامات العرفانيّة. حتّى انّ بعض الشخصيّات اليهوديّة البارزة تعتبر من كبار العرفاء، وقد عاصر بعضهم السيّد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام. وهناك بين المسيحيّين فِرَق كثيرة تتميّز بالاهتمامات العرفانيّة، وهي كثيرة اليوم أيضاً في العالم المعاصر.

وبناءً على هذا نعرف انّ هناك اتّجاهاتٍ عرفانيّةً كانت منتشرة بين المذاهب المشهورة في العالم كالأديان الابراهيميّة، ومذاهب اخرى مثل الهندو والبوذيّة التي تحوّلت الى عبادة الأصنام، وقد لوحظ انّ بعض شخصيّاتهم البارزة قد تحمّل الكثير من المشقّات وعانى ألواناً من الترويض في سبيل التكامل المعنويّ والعرفانيّ حتّى نال شيئاً من الكمال الروحيّ والمعنويّ.

وفي الوقت الحاضر أيضاً ينبع المذهب البوذيّ ومذهب اليوغا وكثير من المذاهب المنتشرة بين الهنود واَهل الصين والتبّت من لون من الاتّجاه العرفانيّ.

وكلّ هذه الموارد تصلح علامة على انّ الرغبة في «العرفان» ـ بمعناه العامّ ـ هي رغبة فطريّة، ولمّا كان الدين نازلاً لاشباع الفطرة فهو ـ بطبيعة الحال ـ يقدّم سُبلاً لاشباع هذه الرغبة الفطريّة التي تعتبر أرفع وألطف الرغبات الانسانيّة، بل يمكن القول أساساً انّ العرفان يشكّل روح الأديان وحقيقتها، واَمّا سائر المواضيع فهي بمنزلة الجسد وأعضاء هذا الجسم.

وفي هذا المجال يأتي الحديث عن انّ هذه التعاليم وألوان الهداية لم تبق سالمة من التحريف وانّما هي قد تعرّضت ـ بسبب عوامل مختلفة ـ لألوان من التحريف والانحراف.

ومن الجدير بالذكر انّ هذه التحريفات والانحرافات التي تعرّضت لها الأديان هي من جملة الأسباب المهمّة لتجديد النبوّات. فجميع الأنبياء قد دلّوا الناس ـ حسب ما يقتضيه زمان كلّ منهم واستعداد البشر في عصرهم ـ على سبل الوصول الى الله والحقّ، ولكن بما انّه كانت تطرأ انحرافات ـ بصورة تدريجيّة ـ في عقائد الدين واصوله النظريّة وكذا في الأساليب العمليّة المطروحة من قبل الأنبياء، لهذا كان يُبعث النبيّ اللاحق من أجل ان يقوم بتصحيح تلك الانحرافات.

وفي هذا المضمار نؤكّد على انّ الاسلام أيضاً ليس مستثنى من هذه القاعدة. فهناك اليوم تشيع بين المسلمين كثير من المواضيع التي لم تبق على وضعها الأصليّ وانّما حدثت فيها تصرّفات وامتدّت إليها افتراءات وخرافات. ولم تقتصر هذه الألوان من التحريف والانحراف على بُعد معيّن، بل امتدّت لتشمل جميع أبعاد الاسلام من عقائد وأحكام وآداب وتقاليد وكذا في مجال المسائل السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة وسائر الشؤون المتعلّقة بالاسلام.

ومن هنا انصبّ اهتمام فقيد الثورة الاسلاميّة الامام الخمينيّ على تقديم ما أطلق عليه اسم «الاسلام المحمديّ الخالص» الذي أُزيلت عنه الشوائب والزوائد التي أُلصقت بالاسلام، وقد شمّر عن ساعديه للنضال ضدّ الخرافات والانحرافات التي أُلحقت بالاسلام وهي شائعة اليوم بين مختلف طوائف المسلمين.

وتحقيقاً لهذا الهدف نبدأ في هذا الفصل باستعراض بعض الموضوعات والمسائل المتعلّقة ببحث التحريف والانحراف الواقع في التعاليم العرفانيّة، والتنبيه على المزالق والأخطار الموجودة في مسيرة العرفان، ثمّ نقوم ـ بعون الله ـ في الفصل اللاحق بتوضيح العرفان الحقيقيّ ونذكر خصائص وميزات العرفان الاسلاميّ الصحيح.

التعمّد والسهو في تحريف الأديان:

انّ كثيرا من التحريفات التي وقعت في الأديان الإلهيّة والسماويّة كانت عن عمد ووعي ومن قبل علماء ذلك الدين نفسه. ففي موارد عديدة قام علماء الأديان ـ بسبب عوامل نفسانيّة تتعلّق بهم ـ بتغيير دين الله والكتاب النازل منه إليهم. والقرآن الكريم يؤيّد هذه الحقيقة وهي انّ كثيراً من ألوان التحريف قد حدثت عن عمد وبسبب الطغيان والبغي: ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ**﴾.[1]

وفي آية اخرى يبيّن تعالى هذا الموضوع نفسه مع اختلاف بسيط في التعبير حيث يقول سبحانه: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ**﴾.[2]

ومن جملة الأعمال التي ارتكبها علماء اليهود والنصارى هو انّهم كانوا يكتبون بعض المواضيع من عند أنفسهم ثمّ يقومون بنسبتها الى الله سبحانه

---

١. سورة البقرة، الآية ٢١٣.

٢. سورة آل عمران، الآية ١٩.

فيزعمون انّ هذه أقوال الله تعالى عن ذلك علوّا كبيرا. وفي هذا المضمار يقول القرآن الكريم: ﴿**فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثمّ يقولون هذا من عند الله**﴾.[1] وبناءً على هذا فالقرآن يصرّح بانّ كثيرا من التحريفات التي وقعت في الدين قد تمّت عن علم وعمد.

ولا يفوتنا ان نشير هنا الى انّ التحريف ـ في بعض الموارد ـ قد وقع سهواً ومن دون قصد؛ مثلاً في بعض الأحيان تنمحي الكتابة من النسخة، أو يقع خطأ في الترجمة فلايُنقل الموضوع بشكل دقيق، وتوجد موارد اخرى من هذا القبيل.

اذن يمكن الاعتماد على القرآن الكريم فحسب لانّ الله سبحانه قد ضمن حفظه من التحريف،[2] وأمّا سائر الكتب السماويّة فقد تعرّضت لألوان من التحريف. فليس هناك اليوم أيّ أثر لكتاب نوح أو لكتاب ابراهيم عليهما السلام، ولا نعلم ماذا جرى عليهما. وأمّا المواضيع الموجودة في التوراة التي هي بين أيدينا اليوم فقد تعرّضت لتغييرات كبيرة بحيث نلاحظ في بعض الموارد انّها تشهد على نفسها بالبطلان، مثلاً نقرأ في التوراة ما مضمونه: «انّ موسى قد رحل عن هذه الدنيا في التاريخ الكذائيّ»، بينما التوراة يُنظر اليها على أساس انّها الكتاب الذي أنزله الله سبحانه على موسى عليه السلام. فهل يُعقل انّ موسى عليه السلام قد جاء بآية أثناء حياته تقول انّ موسى قد رحل عن هذه الدنيا في التاريخ الكذائيّ؟!

هناك خرافات كثيرة تنتشر في أرجاء التوراة الموجودة بين أيدينا بحيث جعلته كتاباً مبتذلاً. فمن جملة المواضيع المشهورة في هذه التوراة قصّة نزول الله

---

١. سورة البقرة، الآية ٧٩.

٢. يقول القرآن الكريم في هذا المجال: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾، (سورة الحجر، الآية ٩).

من السماء في احدى الليالي ثمّ مصارعته مع يعقوب! فهذه التوراة تتحدّث عن انّ الله في احدى الليالي نزل من السماء الى الأرض ونشب الصراع بينه وبين النبيّ يعقوب! وكان يعقوب يتمتّع بقوّة هائلة بحيث طرح الله على الأرض وجلس على صدره، واستمرّ هذا الوضع الى زمن قريب من الصباح حيث واصل جلوسه على صدره. وكلّما توسّل الله الى يعقوب لكي يتركه فانّ يعقوب لم يستمع إليه! حتّى قرب طلوع الصباح. وعندئذ قال الله: اتركني يا يعقوب! انّه لقبيح جدّاً ان يشرق الصباح فيراني الناس مطروحاً تحت يديك ورجليك فيراق ماء وجهي! فقال يعقوب ان شئت ان أتركك فلابدّ ان تمنحني البركة، ولّما أعطاه الله البركة تركه يعقوب وسمح لله ان يعود الى السماء!!

هذا هو نصّ التوراة الموجودة بين أيدينا.

فهل هناك عاقل يستطيع ان يصدّق بانّ هذه الأساطير والخرافات هي كلام الرحمان ومعارف نزل بها الوحي؟!

وأمّا بالنسبة للانجيل فلابدّ من القول: انّه أساساً لايوجد في العالم كتاب بهذا العنوان جاء به عيسى عليه السلام. فعلى طول تاريخ المسيحيّة وجدت أناجيل متعدّدة، وبعضها حُذف تدريجيّاً وانمحى. وفي الوقت الحاضر يتداول المسيحيّون أربعة اناجيل مختلفة، وهي تشكّل بمجموعها كتاب «العهد الجديد». وهذه الأناجيل الأربعة يُعرف كلّ واحد منها باسم واحد من حوارِيّي السيّد المسيح عليه السلام (مثل انجيل يوحنّا، انجيل متّى و...)، ولا يُطلق على ايّ واحد منها انّه كتاب عيسى عليه السلام ولا يُسمّى باسمه. وكلّ هذه الأناجيل تتضمّن شرحاً لحياة السيّد المسيح عليه السلام وهي تشبه الكتب التاريخيّة وتعتمد على نقل التاريخ، فهي تقول مثلاً: زار عيسى عليه السلام المدينة الفلانيّة وقال لسكّانها كذا... وهم أجابوه بكذا... و... .

وعلى كلّ حال فـ«العهد الجديد» يحمل في أعماقه تناقضات عديدة،

وبالاضافة الى ذلك فانّه لا يصطبغ بصبغة الكتاب السماويّ الذي يوحيه الله الى النبيّ، والمسيحيّون أنفسهم لا يدّعون انّ الانجيل هو كتاب الله وكتاب سماويّ.

والحاصل: صحيح انّ جذور العرفان تمتدّ الى المعارف الالهيّة المنتسبة الى الوحي وهي تشكّل روح الدين وحقيقته، ولكنّه لا ينبغي ان نغفل عن هذه الحقيقة وهي انّ محتوى الأديان والكتب السماويّة قد تعرّضت ـ على طول التاريخ ـ لتحريفات وانحرافات كثيرة وخطيرة.

ومن هنا فانّ ألوان العرفان والتعاليم العرفانيّة وهي المقتبسة والمقتنصة من الأديان الإلهيّة ـ أو بعبارة اخرى هي روحها ومحتواها الأساسيّ ـ لا ينبغي عدّها حقيقة خالصة وعارية عن أيّ لون من ألوان التحريف والتعاليم الخرافيّة الباطلة. انّ نظرة الى التعاليم والأساليب المختلفة ـ وفي بعض الأحيان المتضّادة والمتناقضة ـ لألوان العرفان الموجودة تشكّل شاهداً متقناً ومؤيّداً واضحاً على هذا الموضوع.

وفي وسط هذا الخضمّ ـ كما أشرنا من قبل ـ بقي القرآن الكريم وهو الكتاب السماويّ الأخير للبشريّة محفوظاً بالارادة الإلهيّة من ان تمتدّ إليه يد التحريف. أجل اذا استثنينا القرآن الكريم ونظرنا الى التعاليم الاسلاميّة في مجموعها فسوف نشاهد بالعيان وجود تحريفات وانحرافات عديدة وخطيرة سواء في مجال المسائل النظريّة أم في مجال الأبعاد العمليّة للاسلام، ويتجلّى هذا الأمر فيما نلاحظه من وجود اختلافات كثيرة بين الطوائف المختلفة التي تنسب نفسها الى الاسلام.

نموذجان من الانحراف في صدر الاسلام

قبل الدخول في صلب البحث ودراسة علل وعوامل وقوع الانحرافات

والتحريفات في باب العرفان وبيان نتائج ذلك، يحسن بنا ان نذكر بعض النماذج من الانحراف الواقع في عهد صدر الاسلام، وذلك لكي يتّضح أساساً كيفيّة وقوع الانحراف في التعاليم الاسلاميّة. وفي هذا المجال تعمّدنا في اختيار نموذجين من صدر الاسلام أحدهما يتعلّق بزمان حضور النبيّ الاكرم صلى الله عليه وآله والآخر يتعلّق بزمان أمير المؤمنين عليه السلام لكي يشكّل هذا جوابا واضحاً لمن يسأل: كيف يمكن ان يسلك البعض طريق الانحراف مع وجود التعاليم الواضحة للقرآن وقادة الدين؟

فالنموذج الأوّل يتعلّق بزمان النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله، فعندما كانت تنزل الآيات التي تتحدّث عن عذاب يوم القيامة وصعوبات عالم الآخرة اتّخذ البعض قراراً بترك الدنيا ولذّاتها، فكلّ واحد منهم قد حرّمها على نفسه بشكل من الأشكال. فأحدهم قطع على نفسه عهداً ان يحيى الليل مستيقظاً الى الصباح وان لا يخلد الى الراحة فيه. وقال الآخر سوف أصوم جميع الأيّام ولا أذوق الطعام والشراب في النهار اطلاقاً. ومن جملة هؤلاء كان عثمان بن مظعون حيث ألزم نفسه بالانزواء في مكان منعزل للاستغراق في العبادة وأعلن انّه سوف لن يقارب النساء الى آخر عمره. وقد كان هذا انسانا ممتازاً ومسلماً معتقداً ومتديّناً وقد وصل فيما بعد الى درجات رفيعة في الاسلام والايمان، ولكنّه في تلك المرحلة كان قد اتّخذ مثل هذا القرار. وكانت زوجه من أقارب النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وهي تتردّد عادة على هذا البيت الشريف. وفي أحد الأيّام كانت في زيارة عاديّة لبيت النبيّ صلى الله عليه وآله لرؤية احدى أزواجه فلاحظت زوج النبيّ انّ مظهر تلك المرأة غير منظّم وانّ شعرها أشعث، فسألتها متعجّبة: ما هذا الوضع؟ فأجابت زوج عثمان بن مظعون: منذ فترة من الزمن وزوجي لا يوليني عنايته، اذن لأيّ شخص أنا اتجمّل؟ فسألتها

زوج الرسولﷺ: ماذا حدث؟ فقالت: انّ زوجي استغرق في العبادة وابتعد عنّي. فانتهى هذا الخبر الى سمع النبيّﷺ، فطلب عثمان بن مظعون وقال له: ما هذه التصرّفات، ولماذا اتّخذت هذه الطريقة؟ فأجاب عثمان: منذ نزلت آيات العذاب فقد فقدنا الدافع للالتذاذ بالحياة الدنيا واتّخذنا القرار الحاسم بالانشغال بالعبادة والتقليل ـ مهما أمكن ـ من الأكل والشرب والابتعاد عن مضاجعة أزواجنا، قمنا بكلّ هذه الامور لعلّها تنقذنا من ألوان عذاب الآخرة وصعوبات جهنّم. فقالﷺ: أنتم مخطئون، وأنا نبيّكم وقد جعلني الله أُسوة لكم في الحياة، فمتى قمتُ أنا بمثل هذه التصرّفات؟ فهل أنا صائم كلّ يوم طيلة السنة؟ هل تركتُ مضاجعة أزواجي؟ ألا آكل الطعام الطيّب؟ أنا نبيّكم وأُسوتكم اصوم يوماً وافطر يوماً، اقضي ساعة في معاشرة أزواجي واتفرّغ ساعة لعبادة ربّي. وأنتم اذا كنتم تابعين لي فلابدّ ان تجعلوا سلوكي نبراساً لكم، لا ان تخترعوا لأنفسكم اسلوباً من عندكم.

وبهذا الكلام الصادر من رسول اللهﷺ أدرك عثمان بن مظعون انّ السبيل التي سلكها كان مخطئاً فيها، وانّ الطريق الذي يوصل الى الله والآخرة ليس كما تصوّرة. وعندئذ نفض يده من تلك الطريقة الباطلة وغيّر اسلوب حياته بحيث ينسجم مع سنّة رسول اللهﷺ.[1]

والنموذج الثاني يتعلّق بعصر حكومة أمير المؤمنين عليّعليه السلام، فنحن نعلم انّه قد حدثت ـ في زمان حكومته ـ ثلاث حروب طاحنة، وقد كان الطرفان ـ أي معسكر أمير المؤمنينعليه السلام وكذا الجيش المقابل ـ في كلّ هذه الحروب من المسلمين، ولهذا السبب كانت تعتبر اختباراً عظيما لمعسكر وأصحاب

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ١١٦، الباب ٥١، الرواية ٤.

أمير المؤمنينعليه السلام. وقد ظهر في ذلك الزمان أفراد كثيرون ـ كما حدث هذا في عصرنا أيضاً ـ يحوّلون هذا الموضوع الى إشكال نتيجة لقلّة وعيهم وخطأ تحليلهم. انّهم كانوا يقولون: كيف نوجّه سلاحنا نحو أشخاص يصلّون مثلنا ويؤمنون بالله ورسوله والقرآن؟ فهل من المناسب ان نعلن الحرب على بعضنا وان يريق أحدنا دم الآخر من أجل صراع شخصين ـ هما عليّعليه السلام ومعاوية ـ على الحكم والخلافة؟ وأساساً فانّه لا ينبغي ان نتنازع على الامور الدنيويّة والزعامة والسلطة، اجلسوا وتفاهموا ولا تعرّضوا أرواح المسلمين وأموالهم للخطر بلا مبرّر ولا فائدة!

وعلى أيّة حال فقد كان هناك في ذلك الزمان مثل هؤلاء الأشخاص الذين يشيعون هذه التفسيرات والتبريرات، وصحيح أنّهم لم يقفوا الى جانب معاوية، ولكنّهم أيضاً لم يدافعوا عن أمير المؤمنين عليّعليه السلام ولم يسيروا معه. ومن جملة هؤلاء شخص يُسمّى بـ «الحسن البصريّ»، وهو يعتبر من مشايخ المتصوّفة، وكثير من المتصوّفة ينتسبون إليه، وقد كانت انطلاقة التصوّف معاصرة له تقريباً.

وفي عصر حكومة أمير المؤمنينعليه السلام اشتعلت فتنة «الجمل» في البصرة بواسطة طلحة والزبير، وجهّز الامامعليه السلام جيشاً لمواجهة هذه الفتنة وسار به الى البصرة، وقبل الاصطدام بين الطرفين عقد الحسن البصريّ العزم على مغادرة البصرة. فقال له أمير المؤمنين: لماذا لا تساهم في القتال؟ فأجاب: انّني أُحبّ عبادة الله وقد عزمت على الاستغراق في العبادة. فقال لهعليه السلام: انّ الجهاد في سبيل الله عبادة أيضاً. فرّد الحسن البصريّ قائلاً: لقد سمعت نداءً يقول: «القاتل والمقتول كلاهما في النار»، أي انّ الطرفين المتقاتلين هما في جهنّم. فقال له أمير المؤمنين: هل عرفت المنادي؟ فأجاب: كلاّ. قال لهعليه السلام: لقد كان هذا هو الشيطان أخاك!

فهل كلّ نداء غيبيّ هو وحي من قبل الله؟ انّ على الانسان ان يقيس سلوكه الى الكتاب والسنّة، فينظر ماذا أمر الله، وماذا يقول القرآن الكريم، وما الذي أكّدت عليه سنّة الرسولﷺ ، وما هي أوامره. أمّا انّه سمع نداءً من الغيب فهذا بمفرده لا يصلح ليكون دليلاً وحجّة للانسان. يتعيّن على الانسان ان يتّخذ كتاب الله وسنّة رسوله الأكرمﷺ معياراً للتشخيص.

فأمير المؤمنينعليه السلام في قوله هذا للحسن البصريّ أشار الى انّ المعيار هنا يُحدّد على أساس قوله تعالى: ﴿**أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾،[١] لابدّ لك ان تطيعني وتساهم في القتال لأنّني خليفة رسول الله حقّاً. ومع هذا كلّه لم يُطع الحسن البصريّ أمر وليّه ولم يساهم في الحرب.[٢]

الانعزال تفكير منحرف وباطل

من جملة الانحرافات الخطيرة في مجال العرفان، والنابعة من أمثال الحسن البصريّ ـ وقد تجلّت في قصّة عثمان بن مظعون أيضاً حيث كان له مثل هذا التصوّر ـ هو انّ البعض يتصوّر كون العرفان بمعنى نفض اليد من الحياة الدنيا والانعزال عن الناس والمجتمع والانفراد في زاوية للاستغراق في العبادة والذكر. ويستدلّ هؤلاء الأشخاص لهذا الموقف بقولهم: انّ التقرّب الحقيقي الى الله تعالى يحصل عن طريق الالتفات القلبيّ نحو الذات الإلهيّة المقدّسة. وكلّما كان التفات قلب الانسان الى الله أكثر كان قربه منه تعالى أكثر. اذن لكي يحقّق الانسان قرباً أكثر فانّه من الأفضل ان ينعزل عن الناس والدنيا لكي يبتعد عن الاهتمامات المزاحمة، وينفرد في زاوية لينشغل بالعبادة

---

١. سورة النساء، الآية ٥٩.

٢. بحار الأنوار، ج ٣٢، ص ٢٢٥، الباب ٤، الرواية ١٧٥.

والذكر، وبهذه الطريقة يحقّق ـ تدريجيّاً ـ الالتفات الكامل لله وبالتالي ينال القرب الكامل منه تعالى.

وفي جواب هؤلاء وردّ استدلالهم لابدّ من القول: صحيح انّ الالتفات الى الله سبحانه يقرّب الانسان منه تعالى، ولكنّ هذا متعلّق بأحد أبعاد القلب وهو الذي مهمّته الالتفات، وهذا البُعد لا يغطّي كلّ وجود الانسان. والقاعدة العامّة في مضمار التقرّب الى الله هي انّ التقرّب يحصل في ظلّ «العبوديّة»، والعبوديّة ايضا لابدّ ان تملأ كلّ زوايا وجود الانسان، فلكلّ عضو تعبّده الخاصّ. اذن لابدّ ان تتجلّى العبوديّة في العين والأُذن واليد والرجل واللسان كما يجب ان تتجلّى في القلب والجنان. أجل انّ تعبّد القلب هو ان يكون دائم الالتفات الى الله تعالى، لكنّ الانسان ليس قلباً فقط، ومهمّة القلب لا تنحصر في الالتفات أيضاً. انّ القلب موقع للايمان والعاطفة والمحبّة والبغض وأشياء اخرى كثيرة أيضاً. فالالتفات أحد أبعاد القلب وفعل من أفعاله. ومن الواضح انّ هذا البُعد وهذا الفعل للقلب مهمّ جدّاً ويُعتبر روح سائر العبادات. فقيمة كلّ عبادة تتحدّد بمقدار النيّة الخالصة فيها وبمدى حضور القلب والتفاته أثناءها، إلاّ انّ هذا الالتفات لابدّ ان يتجلّى في استخدام سائر الأعضاء، لا ان يعطّل الانسان يديه ورجليه وأُذنيه وعينيه وينفرد في زاوية لئلاّ يرى ولا يسمع شيئاً حتّى ينصرف الى العبادة ولا ينجذب التفاته الى مجالات اخرى. نعم اذا عقد العزم على العمل بما جاء في الروايات وسنّة النبيّ الأكرمﷺ والأئمّة المعصومين عليهم السلام وخصّص ساعة من الليل ـ حينما تهدأ الأصوات وتنام العيون ـ للالتفات الى الله تعالى فهذا أمر ممتاز، بشرط ان لا يزاحم سائر تكاليفه الواجبة. اذا كان المرء صادقاً ومشتاقاً جدّاً للالتفات الى الله تعالى فلينهض من مضجعه الدافئ بعد منتصف الليل

وبعد مرور ثُلثين منه وليملأ الوقت بالصلاة والسجود وحينئذ ليقطع التفاته عن كلّ شيء وليوجّه قلبه نحو الله سبحانه. ثمّ بعد ذلك لابدّ ان يكون منتبها الى انّ إحياء الليل والمناجاة في الأسحار صحيح انّها من أفضل السبل للارتباط بالله والالتفات الى مبدأ الوجود، اِلاّ انّ الحياة بأجمعها لا تنحصر في إحياء الليل. فالاسلام لا يأمر الانسان بإحياء الليل الى الصباح ليضطرّ بالتالي للخلود الى الراحة والنوم من الصباح الى الليل! لو كان الأمر كذلك فمتى ينصرف الى اكتساب العلم؟ متى يجاهد وفي أيّ وقت يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؟ ومتى يسعى لكسب المال الحلال وتأمين شؤون حياته، وكذا بالنسبة لقضاء حوائج الضعفاء والمساكين؟ هل العرفان يعني قطع الليل حتّى الصباح في العبادة ثمّ الخلود الى النوم منذ الصباح وحتّى المساء ثمّ الاحساس بالنصر حيث انّه لم يتورّط في الذنب؟! على فرض ان لا يقع الانسان في المعصية اذا عاش بهذه الطريقة، ولكن هل عدم صدور المعصية منه يعتبر قيمة معنويّة؟ انّ بعض الذين يسلكون هذا المسلك في العرفان يندفعون الى القول: بعد قضاء فترة في العبادة وعدم المعصية يصل الفرد الى الله وينال درجة «الانسان الكامل» ويظفر بالحقّ والحقيقة. وحينئذ يجتاز عالم التكليف وينتهي كلّ شيء بالنسبة إليه، وفي هذه الحالة لا يتّجه إليه أيّ تكليف!

فهل هذا هو الحقّ؟!! لو كانت القضيّة بهذه البساطة فلماذا كان الأنبياء والأئمّة عليهم السلام ـ وهم الذين يعرفون الصراط المستقيم أفضل منّا ـ يقضون أعمارهم في الجدّ والجهد والعبادة؟ لو كان الأمر هكذا لما جاء الامام الحسين عليه السلام الى كربلاء لينال الشهادة هو واعزّاؤه وليواجه الأسر أطفاله وعائلته، وانّما كان يختار مكاناً منعزلاً ينصرف فيه للعبادة والذكر، فلماذا إذنْ قام بتلك النهضة المباركة؟

من هنا وبالتأمّل في حياة أهل البيت(عليهم السلام) وسلوكهم نفهم انّ الاسلوب السابق الذكر ليس هو الطريق للتكامل والوصول الى الحقيقة، بل السير والسلوك لابدّ ان يكون من كلّ الجوانب بحيث يتمّ الاهتمام بجميع أبعاد الانسان الوجوديّة حتّى تتكامل بأجمعها.

في الفصل اللاحق سوف نتحدّث ـ ان شاء الله تعالى ـ بشكل أوسع وأشمل عن هذا الموضوع.

منشآن أساسيّان للتحريف والانحراف

انّ السبب في جميع الانحرافات التي تقع في العالم ـ منذ البداية وحتّى النهاية، ما مضى منها وما سوف يأتي ـ يتمثّل في شيئين ليس أكثر، وجميع الانحرافات الفرعيّة تنتهي الى هذين الأصلين وهما: الجهل وعبادة الهوى. فتارة يقوم البعض ـ عالمين متعمّدين وبدافع من الرغبات النفسانيّة ـ بتفسير وترويج مواضيع خاطئة، وأحيانا اخرى يتورّط البعض في مثل هذا الموقف لانّ يده لم تمتدّ الى الواقع ولم يظفر بالحقيقة. وبعبارة اخرى: انّ جميع الانحرافات إمّا ان تصدر من أشخاص لا يعرفون الواقع، وإمّا ان تصدر من أشخاص يعرفون الواقع ولكنّهم لا يريدون ان يصرّحوا به أو لا يريدون ان يعملوا به. إذا أخذنا بعين الاعتبار أيّ انحراف يقع في العالم فانّ منشأه لابدّ ان يكون أحد أمرين لا ثالث لهما وهما الأمران اللذان سبق ذكرهما.

يقول أمير المؤمنين(عليه السلام) في نهج البلاغة: «**انّما بدء وقوع الفتن أهواء تُتّبع وأحكام تبتدع**».[1] فالذين يجعلون البدع إمّا انّهم يرون مصالحهم كامنة في تلك البدع وهم عن هذا الطريق يحقّقون أهواءهم، وإمّا انّهم ينوون الخير ولا

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ٥٠.

يريدون إيجاد انحراف ولكنّهم ـ بسبب الجهل ـ يقعون في مصيدة الانحراف فيؤسّسون أمراً مخالفاً للكتاب والسنّة.

فمنذ بداية العالم ولحدّ الآن لم تخلُ أيّة أُمّة من هذين العاملين المسبّبين للانحراف، ولن تخلو منهما أيّة أُمّة في المستقبل حتّى وقوع القيامة. والسرّ في ذلك هو انّ هذا العالم هو عالم الامتحان والابتلاء كما يقول تعالى في القرآن الكريم: ﴿**إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ**﴾.[1]

ولا يتيسّر الامتحان ولا يكون له معنى إلاّ اذا كان أمام الانسان طريقان على أقلّ تقدير، وهو يستطيع ان ينتخب أحدهما بمحض اختياره. اذن لكي يكون باب الامتحان مفتوحاً باستمرار لابدّ من وجود طريق الخير وطريق الشر وامكانيّة الانحراف بالنسبة للانسان بشكل دائم، وعندئذ يصبح للاختيار والانتخاب معنى ومفهوم.

وعلى أيّة حال فانّ جميع الأُمم في العالم كانت ـ ولا تزال ـ متورّطة في هذين العاملين من الانحراف، والمسلمون أيضا لم ولن يستثنوا من هذه القاعدة. ففي طول تاريخ الاسلام كان هناك دائماً أفراد انزلقوا نحو الانحراف نتيجة للجهل والغفلة، وهناك أيضاً بعض الأشخاص قد أوجدوا في الدين بدعاً وانحرافاتٍ بدافع من أهوائهم ورغباتهم. فمنذ البداية وفي صدر الاسلام ـ وحتّى في عصر حياة نبيّ الاسلام صلى الله عليه وآله نفسه ـ كان هناك بعض الأشخاص الذين لا تنسجم رغباتهم مع بعض عقائد الاسلام وأحكامه، وما كانوا يشعرون بالارتياح منها. وفي بعض الأحيان كانوا يتجاهرون بالجرأة عليها وتنطلق ألسنتهم بعدم الرضى بها ويقفون موقف المعترض على النبيّ صلى الله عليه وآله بشكل علنيّ. مع انّ هناك نصّاً صريحاً في القرآن الكريم يؤكد انّ

---

١. سورة الانسان، الآية ٢.

النبيّ الأكرمﷺ لم يقل شيئاً ـ في مجال الأحكام والشؤون المتعلّقة بالدين ـ من نفسه أو حسب ذوقه، وانّما كلّ ما أبلغه للناس كان كلام الوحي الالهيّ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَي * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَي﴾.[1]

والعجيب في الأمر هو انّ هؤلاء الأشخاص قد رُشّحوا ـ فيما بعد ـ من قبل بعض المسلمين لخلافة النبيّﷺ واحتلّوا هذا الموقع، ونلاحظ اليوم أيضا أنّ أكثر المسلمين ينظرون إليهم على أساس انّهم خلفاء النبيّﷺ أو انّهم شخصيّات ممتازة ومورد تأييد الله تعالى.

ومن جملة الأحكام التي اعترض عليها البعض علناً في زمان حيات النبيّﷺ يمكن الاشارة الى مسألة «عمرة التمتّع» التي ذكر حكمها في القرآن الكريم. فحسب الأحكام النورانيّة للاسلام إذا أراد بعض الأفراد ان يؤدّوا فريضة الحجّ فانّهم ملزمون بالاحرام بنيّة «حجّ التمتّع».

وحجّ التمتّع يكون بهذه الصورة وهي ان يُحرم الشخص في البداية بنيّة «عمرة التمتّع»، وبعد القيام بأعمال هذه العمرة يحلّ من الاحرام ويبقى منتظراً حلول أيّام الحجّ، ثمّ يُحرم من جديد في يوم عرفة أو قبله بقليل ويؤدّي أعمال الحجّ. لكنّ بعض الأشخاص لا يجب عليهم ـ لأداء فريضة الحجّ ـ ان يُحرموا مرّتين، مرّة بنيّة العمرة ومرّة اخرى بنيّة الحجّ، وانّما هم يحرمون مرّة واحدة للقيام بأعمال الحجّ، واذا عقدوا الإحرام فانّهم لا يخرجون من حالة الإحرام حتّى يكملوا أعمال الحجّ تماماً. وكلّ من يعقد الاحرام فانّه يحرم عليه أربعة وعشرون شيئاً، ومادام لم يكمل أعمال الحجّ أو العمرة فانّه باقٍ في حالة الإحرام ولا يحلّ له شيء من تلك الأشياء. وبعد قيامه بتلك الأعمال يصبح الشخص «مُحِلاًّ» ويحلّ له ما كان قد حرم عليه بالإحرام. ومن جملة محرّمات

---

١. سورة النجم، الآيتان ٣ ـ ٤.

الاحرام هو انّه يحرم على الرجل والمرأة التمتّع والتلذّذ الجنسيّ فيما بينهما. وحسب ما تقدّم ذكره فانّ الحاجّ يحلّ من الإحرام بعد إكمال أعمال العمرة، وفي الفترة الفاصلة بين اتمام أعمال العمرة والاحرام مرّة اخرى للحجّ تحلّ له محرّمات الإحرام ومن جملتها التمتّع الجنسيّ بين الرجل والمرأة.

وفي احدى السنين من صدر الاسلام وحسب الظروف التي كانت في ذلك الوقت كان على بعض المسلمين ان يؤدّوا حجّ التمتّع، وبطبيعة الحال فانّهم يحلّون من الإحرام بعد إكمال عمرة التمتّع وتحلّ لهم عندئذ محرّمات الاحرام ومن جملتها التمتّع بالنساء، ويستمرّ هذا الأمر حتّى تأتي أيّام الحجّ ليعقدوا الاحرام مرّة اخرى للقيام بأعمال الحجّ. وفي تلك السنة كانت الظروف التي يمرّ بها النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله ومجموعة من المسلمين المرافقين له تقتضي ـ حسب أحكام الاسلام ـ ان يعقدوا الاحرام مرّة واحدة وذلك للقيام بأعمال الحجّ، ومن الواضح انّهم عندئذ لا يستطيعون الاحلال من الاحرام قبل إكمال أعمال الحجّ. وكانت هذه أوّل سنة تقتضي فيها الظروف مثل هذا الوضع فنزل الوحي ليبيّن انّ على البعض ان يحرم هكذا وعلى البعض الآخر ان يحرم بالشكل الآخر. وفي تلك السنة كان الخليفة الثاني من جملة الأشخاص الذين كان يجب عليهم الاحرام لحجّ التمتّع، وكما أشرنا من قبل فانّ الحاجّ في حجّ التمتّع يحلّ من الاحرام بعد إكماله أعمال العمرة فتحلّ له محرّمات الاحرام ومن جملتها التمتّع بالنساء. وكان هذا الحكم ـ كما ذكرنا من قبل ـ قد أُبلغ ونُفّذ لأوّل مرّة في ذلك العام، فأثار عجب واستغراب البعض ومن جملتهم الخليفة الثاني، فلم يرق لأذواقهم مثل هذا الأمر! قالوا: كيف يمكن ان يحدث هذا؟! كيف يمكن ان يأتي الناس من مكان بعيد من أجل العبادة وان يتحمّلوا مشقّة السفر وان يبتعدوا عدّة أيّام بفضل الاحرام عن بعض اللّذات الدنيويّة لينصرفوا الى الذكر

والعبادة ثمّ يحدث في وسط هذه المعركة وبعد القيام بأعمال العمرة ان نقول لهم: اذهبوا وتمتّعوا باللّذات الجنسيّة واغتسلوا من الجنابة بعد مقاربة نسائكم؟!

وهذا التذمّر الذي شعر به الخليفة الثاني ومَن وافقه من المسلمين لم يخفه هؤلاء في قلوبهم وانّما أعلنوه صراحة واعترضوا على هذا الحكم قائلين: نحن نستحي ان يكون النبيّ محرما بينما نحن نعطّر أجسادنا وندهنها ونضاجع نساءنا ونقارب أزواجنا![1]

أجل في الوقت الذي يسمح فيه القانون الإلهيّ للناس ان يُحلّوا من احرامهم عدّة أيّام وهي الفترة الواقعة بين العمرة والحجّ فانّ هؤلاء قد خطر في أذهانهم انّ هذا الحكم ـ والعياذ بالله ـ حكم غير صحيح ولا معنى لان يُحلّ الحاجّ من إحرامه في وسط أعمال العمرة والحجّ وان يعود مرّة اخرى الى الدنيا ولذّاتها الجنسيّة!

وقد كان للخليفة الثاني موقف مشابه لهذا أيضاً فيما يتعلّق بالزواج المؤقّت (متعة النساء)، فهو لم يعجبه هذا الحكم ولم يستذوقه.

فمع انّ هذا الحكم الإلهيّ الشرعيّ كان قد أُعلن ونُفّذ في زمان رسول الله ﷺ، ثمّ بعد ذلك لم يعارضه الخليفة الأول في فترة حكمه، اِلاّ انّ الخليفة الثاني خالف هذا الموقف في زمان خلافته وأعلن انّ هذا الأمر ممنوع! وقد تحوّل هذا المنع بعد ذلك الى حكم دائم، ونلاحظ اليوم انّ جميع مذاهب السنّة تقريباً يحرّمون زواج المتعة (الزواج المؤقّت). بينما أمير المؤمنين عليّ عليه السلام يقول في هذا الشأن: «**فلولاه ما زنى إلاّ شقيّ أو شقيّة لانّه كان للمسلمين غناءٌ في المتعة عن الزنا**».[2]

---

١. بحار الأنوار، ج ٢١، ص ٣٨٥ ـ ٣٨٦، الباب ٣٦، الرواية ١٠.

٢. بحار الأنوار، ج ٥٣، ص ٣٠، الباب ٢٨، الرواية ١.

ومثل هذا التفكير لا تزال آثاره باقية الى اليوم، وحتّى انّه قد ترك آثاره المدمّرة ـ بشكل أو بآخر ـ في العالم الشيعيّ أيضاً، ويعتبر هذا أحد العوامل المهمّة والأساسيّة للانحراف في العالم الاسلاميّ. انّ جذور هذا التفكير ترجع الى عصر رسول الله صلى الله عليه وآله حيث كان هناك البعض ممّن يستظلّ بالمجتمع الاسلاميّ لكنّه يتجاهر برفضه وتذمّره من بعض الأحكام الاسلاميّة. وهؤلاء هم أنفسهم قد أصبحوا بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله الزعماء الكبار للمجتمع الاسلاميّ فأسّسوا لجعل البدع في الأحكام والمعارف الاسلاميّة. وقد أدّى هذا الأمر ـ منذ صدر الاسلام ـ الى حدوث الاختلاف بين المسلمين في العقائد والأحكام وكيفيّة السلوك الفرديّ والاجتماعيّ. ومن هنا أيضاً نشأت المصائب التي نزلت بأهل البيت عليهم السلام وما كانوا يعانونه من مشقّات وصعوبات ومرارة. ومع كلّ هذا فقد نجح هؤلاء العظام ـ بفضل التدبير الإلهيّ وما كانوا يتمتّعون به من تعقّل وصبر لا نظير لهما خلال قرنين ونصف من الزمان ـ في تقوية أساس الاسلام في المجتمع وان يحولوا دون اضمحلاله وانهدام أركانه.ولو لم يكن تدبير وجهود وصبر وتحمّل هؤلاء المطهّرين لكان الاسلام قد تعرّض للمس والتشويه منذ العقود الاولى لظهوره ولم يبق منه شيء ذو بال.

اذن على طول تاريخ الاسلام نلاحظ وجود فئة قد أدخلت تحريفات وانحرافات على الاسلام وهي عالمة متعمّدة، وهناك فئة اخرى قد وقعت في ذلك الفخّ عن جهل وقلّة وعي. وضعف الوعي عند الأفراد أيضاً تارة يكون ناشئاً من العلل والعوامل الطبيعيّة، وفي كثير من الأحيان يكون مخطّطا له ويتمّ بالتآمر من قبل الأعداء والحاقدين. وبالاضافة الى ذلك فانّ درجة ضعف الوعي لم تكن على مستوى واحد باستمرار، وانّما هي كانت

مختلفة ومتفاوتة، وبالتالي فانّ درجة جهل الناس وقلّة وعيهم هي التي تحدّد مدى التحريف والانحراف الحادثين في هذا المضمار.

وعلى كلّ حال فانّ بعض هذه الانحرافات يتعلّق بهذا البحث الذي هو بين أيدينا، أي طرق التقرّب الى الله تعالى، وهو ما يطلق عليه اصطلاح العرفان. ففي هذا المجال أيضاً قام البعض باختراع وجعل امور باطلة من عند أنفسهم وهم عالمون متعمّدون، بينما كان هناك مَن وافق على هذه الطرق الباطلة واتّبعها نتيجة للجهل وقلّة الوعي. وقد انتقلت هذه الطرق الباطلة تدريجيّاً ـ وخلال القرون المتعاقبة ـ من جيل إلى جيل حتّى انتهى الأمر إلينا حيث نلاحظ اليوم وجود فرق ومسالك مختلفة ومتنازعة بحيث ينفي كلّ واحد منها الآخر مدّعياً انّه هو على الحقّ فحسب وانّ الآخرين جميعاً هم على الباطل.

وفي هذا الخضمّ لا يُلاحظ إلاّ القليل من التحرّك والمحاولة لتمييز الحقّ من الباطل، وكلّ واحد راضٍ بما عنده ومكتفٍ بما نالته يداه. وفي هذه المعركة يكون المؤثّر الأوّل هو التعصّب القوميّ والفئويّ، فكلّ فرقة تتّبع مسلكها وتدافع عنه، وفي نفس الوقت تقوم بتخطئة سائر الفرق والمسالك. بينما لو كان هؤلاء باحثين ـ بصدق ـ عن الحقيقية وراغبين في التقرّب الى الحقّ تعالى لتعيّن عليهم ان يفصلوا الحقّ عن الباطل وان يميّزوا ـ باسلوب صحيح ـ بين الصالح والطالح، حتّى ينقذوا أنفسهم من الضياع والضلالة وحتّى لا يساهموا ـ أيضاً ـ في توفير اسباب إضلال الآخرين وانحرافهم.

تحليل لأسباب الانحراف في باب العرفان

وبنظرة اخرى يمكننا تقسيم الانحراف ودوافعه في مجال المواضيع العرفانيّة

الى ثلاثة أقسام. فأحد أبعاد هذا الموضوع يتعلّق بمؤسّسي هذه الفرق الباطلة والمنحرفة ممّن يحملون أعلامها ويُطلق على كلّ واحد منهم اسم «القطب» اصطلاحاً. والبُعد الآخر يتعلّق بأهداف ودوافع الذين يدافعون عن هؤلاء المؤسّسين، ويسوقون الناس نحوهم بمختلف أنواع الوسائل والمرغّبات الماليّة والإعلاميّة. والبُعد الثالث يتعلّق بكيفية سقوط الأفراد البسطاء والسذّج ـ وهم يتمتّعون بحسن النيّة والدوافع السليمة ـ في الفخّ الذي نصبه اولئك المدّعون الكاذبون والمخادعون المحترفون.

أمّا ما يتعلّق بزعماء هذه الفرق فلابدّ من القول انّ الدافع الأساسّي لهؤلاء هو الدافع الذي وقع في فخّه كثير من المنحرفين وأتباع الشيطان على طول التاريخ، وقد أدّى الى ظهور الأديان والمذاهب المختلفة. فكما أشرنا من قبل ـ والقرآن الكريم يؤيّد هذا الأمر ايضاً ـ فانّ كثيراً من الاختلافات الواقعة في الأديان هي ناشئة من قبل علماء تلك الأديان وقد أحدثوها بدوافع وأهداف شخصيّة ودنيويّة، يقول الله تعالى: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ**﴾[1]. وفي آية اخرى يقول سبحانه: ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ**﴾[2].

وأهمّ الدوافع لهؤلاء الزعماء في ايجاد البدع والتحريفات هي عبارة عن: «المال والثروة» و«الجاه والمنصب» و«اشباع سائر الأهواء النفسانيّة».

انّ كثيراً من الذين قاموا أو يقومون بتأسيس الفرق والمذاهب الجديدة

---

١. سورة آل عمران، الآية ١٩.

٢. سورة البقرة، الآية ٢١٣.

يهدفون الى جذب أموال الناس والاستيلاء عليها. فهم يبذلون قصارى جهودهم ـ وبأساليب وذرائع متنوّعة ـ لجذب الناس ولاسيما أصحاب الثروات إليهم لكي ينتفعوا من تلك الثروات لتحقيق مصالحهم. ومن الواضح انّ هذا الدافع حقير جدّاً وهو موجود عند الأشخاص المتّصفين بغاية اللؤم والدناءة، ولكنّه على أيّة حال يتبيّن من خلال البحث والتقصّي انّ الدافع الرئيسي ـ في موارد متعدّدة ـ لتأسيس الفرق والمذاهب الجديدة هو هذا الدافع الذي مرّ ذكره.

الدافع الثاني وهو «الجاه والمنصب»، ويعدّ أقوى وأشدّ من الدافع الأوّل. ويلاحظ انّ كثيراً من الأفراد يتأثّرون بهذا الدافع فيبادرون الى ايجاد الفرق والمذاهب الجديدة لكي يُرووا عطشهم في الحرص على الزعامة والمحبوبيّة والشهرة، وتكون الثمرة هي ايجاد البدع والتحريف في التعاليم الدينيّة.

انّ حبّ الجاه والمنصب والحرص على الشهرة والمحبوبيّة هي من جملة الغرائز الفعّالة حتّى في النفوس الواصلة الى مراحل راقية من الكمال الانساني، وتعتبر السيطرة عليها من أصعب الامور وأشقّها. فبالنسبة للناس المهذّبين لا يُعدّ الترفّع على الرغبات الحيوانيّة أمراً شاقّاً، بل يمكننا ملاحظة كثير من الأفراد الذين ينفضون أيديهم من هذه الرغبات بسهولة اذا كانت مخالفة للشريعة والأحكام الدينيّة. ولكنّه بالنسبة الى «حبّ الجاه والمنصب» فانّ الأمر مختلف تماماً. فالتسلّط على هذه الغريزة واخضاعها أمر عسير جدّاً بحيث يعترف بصعوبته علماء الأخلاق والسير والسلوك. وقد أورد ابن ابي الحديد هذا النصّ: **«آخر ما يخرج من رؤوس الصدّيقين حبّ الرياسة»**.[1]

فمعظم الناس عادة تكون عندهم السيطرة على الشهوات الحيوانيّة

---

١. شرح نهج البلاغة، لابن ابي الحديد، ج ٢، ص ١٨١.

كالأكل والشرب والنوم والغريزة الجنسية أهون وأسهل من السيطرة على قوّة الغضب. فليسوا قليلين اولئک الذين يوفّقون في السيطرة على قواهم المتعلّقة بالشهوات لكنّهم لا يحرزون نجاحاً كبيراً عندما يستبدّ بهم الغضب فتصدر منهم أعمال غير مناسبة وتنطلق ألسنتهم بكلمات بذيئة جدّاً.

لكنّ الأصعب من هذين هو اخضاع الرغبة والتهالک على جمع المال والثروة. فمن خلال القيام ببعض التمارين وتعويد النفس على بعض الأعمال قد ينجح الانسان في ترويض قوّة غضبه ويصل الى مستوى رفيع بحيث لا يفلت العنان من يده حين الغضب.

وكذا الأمر بالنسبة للشهوات فاذا تقدّم العمر بالانسان وطعن في السنّ ولاسيما في مرحلة الشيخوخة فانّ رغبته في الشهوات تقلّ وتضعف بشكل طبيعي، لكنّ رغبته في المال وحرصه على الثروة يكون على العكس من ذلک، فهو ليس فقط لا يضعف أثناء الشيخوخة وانّما يقوى ويشتدّ كما ورد في بعض الروايات: «**يهرم ابن آدم ويشبّ منه اثنان: الحرص على المال، والحرص على العمر**».[1]

وقد لوحظ وجود أشخاص زحف عليهم الهرم ومع انّهم مصابون بالضعف ولم يكن هناک أمل في استعادة قوّتهم للتمتّع والتلذّذ بثروتهم لكنّهم مع ذلک استمرّوا الى أواخر عمرهم في الاهتمام بجمع المال ومضاعفة الثروة! انّ الحرص على جمع المال يصل عند بعض الأفراد الى حدّ الجنون! ومن هنا يصبح الجهاد ضدّ هذه الرغبة والغريزة الذاتيّة أصعب من الجهاد ضدّ الغريزتين السابقتين: (الشهوة والغضب).

ولكنّه على أيّة حال ينجح البعض في التخلّص من هذه المصيدة أيضاً

١. بحار الأنوار ج ٧٣ ـ ص ١٦١ ـ الباب ١٢٨ ـ الرواية ٧.

فيعرض عن أموال الدنيا وثرواتها ويتحرّر من أسرها، الاّ انّ قليلا من الناس يستطيع ان يتحرّر من قيد حبّ الجاه والمنصب. انّ التهافت على الشهرة والمحبوبية والمنصب هو تعلّق ورغبة متجذّرة في أعماق قلب الانسان وروحه، ويُعدّ قطعها من أصعب الأعمال في مجال تزكية النفس وتربية الذات. وكما مرّت الاشارة اليه فالمشهور بين علماء الأخلاق وأصحاب السير والسلوك هو مضمون النصّ السابق الذي نقله ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة: «**آخر ما يخرج من رؤوس الصدّيقين حبّ الرياسة**». انّ درجة «الصدّيقين» هي من أرفع مراتب الكمال الانساني والرقيّ المعنوي. «الصدّيق» كلمة مأخوذة من الصدق، وهي تعني الشخص الذي يدّعي العبوديّة وقد أثبت ذلك عمليّاً وتصدّى لكي يصبح عبداً صالحاً لله سبحانه. والقرآن الكريم يطلق وصف «الصدّيق» في موارد متعدّدة على بعض أنبياء الله وأوليائه الكبار من أجل تكريمهم وتعظيمهم، ومن باب المثال نذكر هذه الآية الكريمة الواردة في وصف واحد من أنبياء الله الكبار وهو سيدنا ابراهيم عليه السلام، حيث يقول تعالى: ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا**﴾[١]

اذن مع انّ منزلة «الصدّيقين» هي منزلة رفيعة وراقية لكنّه قيل: «**آخر ما يخرج من رؤوس الصدّيقين حبّ الرياسة**» ففي نهاية المطاف يوفّق الصدّيقون لتجفيف منابع حبّ المناصب والزعامة في قلوبهم!

ومن هنا لاينبغي ان نتصوّر انّ هذا الدافع هو المحرّك للأشخاص المبتلين بالهمم الضحلة الذين يفكّرون فقط في إشباع بطونهم وشهوتهم، بل هؤلاء هم أبعد ما يكونون عن القيام بعمل متأثّرين بحبّ الشهرة والرياسة.

انّ الذين قد تحرّروا من مصائد كثيرة مثل الشهوة والغضب والثروة هم

---

١. سورة مريم، الآية ٤١.

المؤهّلون فعلاً للوقوع في مصيدة حبّ الجاه والشهرة والمنصب. فالذي يقع في أسر المنصب والشهرة يكون عادةً قد تحرّر من أسر حبّ المال والثروة، بل هو على استعداد لانفاق أمواله وثروته أيضا ليحقّق لنفسه الشهرة والمحبوبيّة. في بعض الأحيان يلاحظ وجود أفراد يعيشون حياة الزهد حيث يأكلون القليل وينامون قليلاً وتكون حياتهم بسيطة وهم ينفقون أموالهم على الفقراء وسائر أعمال الخير، لكنّ دافعهم للقيام بكلّ تلك الأعمال هو ان يتحدّث الناس بهم وان يكسبوا الشهرة والمحبوبيّة عندهم. وهناك أشخاص مستعدّون للتخلّي عن ثروتهم وراحتهم في الحياة الدنيا من أجل ان يُذكروا بالخير والعظمة والاحترام بعد وفاتهم!

اذن يكون دافع الجاه والمنصب محرّكاً لبعض الناس أحياناً للقيام باختراع الدين أو المذهب أو الفرقة ليجمع حوله أتباعاً ومريدين وأنصاراً ويصبحَ مورد التكريم والتعظيم من قِبل هؤلاء. وبطبيعة الحال كلّما كان احترام وتكريم وتعظيم الأتباع والأنصار أكثر فانّ رغبة وغريزة هؤلاء المخترعين يتمّ إشباعها بشكل أعظم، وذروة إشباع هذه الرغبة تتحقّق عندما يصل هؤلاء الى مقام الالوهيّة في عيون أتباعهم وأنصارهم.

وبناءً على هذا يُعتبر دافع حبّ الجاه أهمّ عامل يدفع الأفراد لاختراع دين جديد أو مذهب حديث او فرقة جديدة أو مسلك حديث. انّ هؤلاء الأشخاص المخترعين يبحثون عن أتباع وأنصار يحترمونهم ويعظّمونهم الى حدّ العبادة. ومَن يُبتلى بمثل هذا الجنون فانّه مستعدّ للتضحية بسعادة الناس من أجل تحقيق رغبته الشيطانيّة هذه. ومن الطبيعيّ ان لا يستسلم للحقّ أمثال هؤلاء بسهولة وان لا يخضعوا للدليل والبرهان. انّ لهم غاية وهدفاً محدّداً بحيث يتعيّن التضحية بكلّ الأدلّة والبراهين من أجل

الوصول إليه. هؤلاء عطشى للمناصب والرئاسة والتكريم والتعظيم، وهم على استعداد للتضحية بجميع الحقائق في مذبح المعبد الذي يريدون ان يشيّدوه ليؤلّههم ويعبدهم فيه الناس.

الثروة والسلطة هما غذاء المحتالين والمدّعين للعرفان

انّ الأساليب التي يستخدمها المخترعون للدين والمذاهب والفرق ليجذبوا بها الناس ويحقّقوا بها غاياتهم هي متشابهة الى حدّ كبير. فهم في البداية يبذلون قصارى جهدهم لاصطياد وجذب أفراد من أصحاب الثروة ورؤوس الأموال. فلكي ينجذب الناس الى مذهب مبتكر لا يمكن التوسّل بالقوّة والضغط، وانّما لابدّ من استخدام طريق التبليغ والتطميع، وطريق التبليغ والتطميع يحتاج قطعاً الى التمتّع بالقدرة الماليّة. ولهذا كان من أهمّ الأعمال التي يبدأ بها المؤسّسون للمذاهب المخترعة هو اجتذاب الأثرياء والأشخاص الذين يتمتّعون بقدرات ماليّة جيّدة.

لكن من أيّة سبيل يمكن الدخول لجذب هؤلاء الأغنياء؟ الجواب هو: من خلال استغلال مشاعرهم الدينيّة والاهتمامات العرفانيّة المغروسة في فطرة الانسان. فكما بيّنا من قبلُ فإنّ البحث عن الله والاتّجاه نحوه والاهتمام بالمسائل العرفانيّة هي امور موجودة بشكل طبيعيّ وفطريّ في أعماق كلّ انسان. وهناك أشخاص يستغلّون هذه الرغبة الفطريّة (وفي الواقع فهم يسيئون استغلالها) من أجل تحقيق مطامعهم. انّ الناس يبحثون ـ بشكل طبيعيّ وفطريّ ـ عن سبل لاشباع هذه الرغبة عندهم، وهنا يأتي دور مخترعي الأديان وهم ملتفتون الى هذا الأمر فيقومون بتأسيس الأديان المخترعة لاشباع الرغبات العرفانيّة والبحث عن الله تعالى وعبادته عند

الناس، ويوظّفون ذلك كلّه في سبيل تحقيق مصالحهم الشخصيّة ومقاصدهم الخبيثة. وفي الواقع فانّهم يشبعون هذه الرغبة الفطريّة بالبديل، ويدفعون الأفراد الى الجهة التي تحقّق للمؤسّسين أهدافهم الشخصيّة.

ومن أهمّ الطرق والأساليب لاشباع الرغبة العرفانيّة ـ بصورة البديل ـ هو ان يقنعوا الناس بأنّه من الممكن الوصول الى درجات عرفانيّة رفيعة من خلال استخدام طرق سهلة جدّاً وبذل جهود بسيطة. والانسان بطبعه طالب للراحة، وهو يتخيّل ـ خيالاً ساذجاً ـ انّه يستطيع الوصول الى أكبر وأفضل نتيجة من خلال قيامه بأقلّ جهد. وهذا الأمر صادق أيضاً في مجال العرفان والظفر بالدرجات العرفانيّة، فهناك مَن يبحث عن سبيل يكون قطعه سهلاً جدّاً بحيث تُحلّ مشكلاته في ليلة واحدة ويصل فيها الانسان الى القمم العرفانيّة الرفيعة! وينتشر هنا وهناك أشخاص انتهازيّون يتصيّدون مثل هذه الفرص ويبحثون عن نقاط الضعف فيسيئون استغلال هؤلاء الأفراد. ويؤكّدون لهم بأنّنا ندلّكم على طريق يوصلكم الى الهدف المطلوب بأقصر زمان ممكن وبأقلّ جهد متيسّر، ويتلخّص ذلك الطريق في ان تقوموا بمبايعة «قطب واصل الى الله» وان تضعوا أيديكم في يده. أجل بهذه البساطة ومن خلال مصافحة يد أو تقبيلها يتمّ حلّ كلّ المشاكل وتنفتح أمامكم جميع ابواب عالم المعنى والملكوت والجنّة! لا حاجة بكم الى انفاق سنوات طويلة في مجال الترويض والتقيّد بالواجبات والمحرّمات والتنفيذ الدقيق للضوابط والأحكام الشرعيّة، وانّما يكفيكم ان تبايعوا القطب وان يمسح بيده المباركة على رؤوسكم! ولا ينبغي ان يستولي عليكم القلق اذا تأخّر وصولكم الى ما تطمحون عدّة أيام، بل كونوا مطمئنّين بأنّكم ستظفرون بالدرجات العرفانية العالية في أقرب فرصة ممكنة!

انّ قطّاع الطريق هؤلاء يحاولون من خلال بثّ مثل هذه الأوهام ان يقنعوا الآخرين بانّ هناك طريقاً سهلاً وقليل المؤونة يوصل الانسان الى الله سبحانه. فأنتم تستطيعون ان تملأوا أوقاتكم بالذنوب والأعمال القبيحة، ثمّ بالتالي يمكن معالجتها وإلغاء آثارها السيّئة ببيعة سهلة للقطب، والبيعة لا مشقّة فيها ولا مؤونة!

اذا كان الانسان يستطيع حقّاً ان يصل ـ بهذه الطريقة وهذه السهولة ـ الى أرفع الدرجات العرفانيّة فانّه ـ عندئذ ـ لا يوجد أحسن من هذا الحلّ!! انّه حلّ يجيز للانسان ان يرتكب كلّ فسق وفجور، ثمّ يعالج القضيّة من خلال القيام ببيعة واحدة! غاية الأمر انّه يساهم في حلقة الذكر التي تقام في ليالي الجمعة ويزور القطب كلّ عام مرّة واحدة لينال منه البركة، ثمّ ينتهي كلّ شيء وتنحلّ كلّ مشكلة ويطمئنّ باله ويستريح من كلّ عناء واضطراب!

لو نجح هؤلاء في إقناع الناس بمثل هذه الأقوال فمن الطبيعيّ ان يكون هؤلاء قد حقّقوا مكسبا ضخماً في مضمار تحقّق غاياتهم المشؤومة. هناك الكثير من أصحاب الثروة الذين جمعوا ثرواتهم عن طريق السرقات والظلم وغصب حقوق الآخرين لكنّهم يلجأون الى حيلة للتقليل من اضطرابهم الروحيّ وعذاب الضمير، فهم يخطّطون للمحافظة على ثرواتهم ويتنازلون عن بعض الفتات منها يقدّمونه للقطب لتصحيح المسيرة وحينئذ يمسك القطب بأيديهم ويلبسهم لباس العرفان ويقطعون في ليلة واحدة مسيرة أعوام طويلة وينالون درجات عالية من العرفان ويصلون الى الحقّ تعالى ويجلس الواحد منهم: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[1]. لو كان هذا حقاً فانّهم لم يخسروا شيئاً بل حقّقوا مكسبا عظيماً من خلال بيعتهم مع القطب وتقديم بعض الهدايا

---

١. سورة القمر، الآية ٥٥.

لتوثيق الأواصر فيظفرون بالدرجات الانسانية الرفيعة، أمّا في عالم الآخرة فسوف يحشرون مع الأنبياء ويجالسون الأولياء! لمّا كانت أيدي هؤلاء قد لامست يد قطب الزمان فانّهم سوف لن يُعانوا من أيّة مشكلة!

ومع الأسف الشديد فانّ هذا الاسلوب كان ناجحاً جدّاً ومؤثّراً بشكل كبير ولاسيّما في مجال فئتين معيّنتين من المجتمع: احداهما فئة أصحاب الثروة الذين مرّ ذكرهم، والثانية هي فئة أصحاب المناصب الذين قضوا أعمارهم في ظلم الناس وهم يبحثون ـ كالغريق ـ عن قشّة يتمسّكون بها لتنقذهم من عذاب الروح وتوفّر لهم ا لسكينة. ويلاحظ وجود هذا الأمر بكثرة ولاسيما في الأزمنة السابقة حيث كان يتسلّط على الناس الاقطاعيّون والزعماء إمّا بواسطة حماية الحكومات وأمّا بالحكم المباشر، وقد يكون في قلوب هؤلاء بصيص من الشعور الدينيّ، فهم يريدون المحافظة على تسلّطهم وزعامتهم ويريدون أيضاً النجاة من عذاب الله ونار جهنّم، واذا توفّر لهم ان يجالسوا أيضاً أولياء الله فانّ ذلك «نور على نور».

لقد بذل المخترعون للمذاهب والمبتكرون للفرق غاية جهدهم ليقتنصوا ما أمكنهم من العطايا السخيّة التي يبذلها لهم أصحاب الثروات وأصحاب المناصب. وقد كان اسلوب هؤلاء المحتالين لتحقيق غاياتهم هو استغلال ما تيسّر لهم من وسائل الاعلام والتلقين المستمرّ لطمئنة بال الاقطاعيّين والزعماء عمّا صدر منهم من ألوان الظلم والجرائم واقناعهم بانّهم اذا بايعوا القطب وتعلّقت قلوبهم به وأجروا على ألسنتهم شيئاً من الذكر فانّ جميع مشكلاتهم سوف تحلّ ويدخلون في زمرة أولياء الله!!

وحينما ينجح هؤلاء المحتالون المزوّرون للدين والمذهب في اجتذاب هاتين الفئتين ـ وهما أصحاب الثروة وأصحاب السلطة ـ يكونون قد حصلوا على

فخّ ممتاز يصطادون به سائر الأفراد. إنّهم يبحثون عن بعض الفقراء ويقدّمونهم لأتباعهم أصحاب الثروة والسلطة ليحلّوا بعض مشاكلهم الماليّة والماديّة، فيُعَدّ هذا الأمر الأرضيّةَ لاجتذاب هؤلاء الأفراد نحوهم. وكذا الأمر بالنسبة لمن كان يعيش تحت سلطة رئيس أو إقطاعيّ فانّه كان يحاول الانتماء الى الفرقة أو المذهب الذي ينتمي اليه ذلك الرئيس أو الاقطاعي لكي يخفّف عن نفسه بعض الأذى والظلم المتّجه اليه منه، أي انّ الاصطباغ بصبغة الرئيس أو الاقطاعيّ يعتبر وسيلة لدرء الشرّ عن نفسه.

وبناءً على هذا فانّ اجتذاب أصحاب الثروة وأصحاب السلطة يعتبر في الواقع مقدّمة وأرضيّة لاصطياد الآخرين وايقاعهم في الشباك.

دور الاستعمار في تزوير العرفان وترويج التصوّف

لو انتهى الأمر في هذه القضية التي بينّاها الى هذا الحدّ لهانت المصيبة وسهل العلاج! ولكنّه مع الأسف الشديد حدثت مفسدة عظيمة أقوى من كلّ ما مرّ ذكره وهي تختفي وراء كلّ هذه المسائل وتشكّل خطراً عظيماً ومشكلة معقّدة. وتتمثّل تلك المفسدة في المخطّط والمؤامرة التي دبّرها المستعمرون لتحقيق أهدافهم من خلال تشجيع وتنمية هذه الحركات. وحسب الشواهد والقرائن المتوفّرة فانّ مؤسّسي المذاهب والفرق المخترعة هم من أنجح الوسائل المستخدمة في أيدي المستعمرين للوصول الى أهدافهم المشؤومة.

لو تأمّلنا في تاريخ القرون المعاصرة في العالم وتاريخ العقود الأخيرة في ايران وبحثنا موضوع ظهور المذاهب والفرق المختلفة لاكتشفنا انّ يد

القوى الاستعمارية دخيلة ـ من وراء الستار ـ في تأسيس كثير من هذه الفرق. انّ دراسة الأسرار الخفيّة لهذه القصّة تبيّن بوضوح عمقَ الخطر المتجّه الينا من هذه الناحية. ونأسف لأننّا لا نستطيع هنا بسط وتفصيل هذا الموضوع لانّه يبعدنا عن الموضوع الأساسيّ لهذا الكتاب، ولو كان هناك مجال لرأينا انّ شرح وتفصيل ما حدث هو في الحقيقة عبرة ويفتح آفاقاً عظيمة لمن يريد ان يعتبر. وسوف تبيّن هذه الدراسة انّ أكثر هذه الفرق الحديثة التأسيس ـ اذا لم نقل كلّها ـ تتغذّى من منبع واحد هو «العرفان الكاذب» وتسيء استغلاله.

وفي هذا السياق نستطيع ان نشير الى شخصية معروفة ـ بعنوان انّه نموذج من الشواهد التاريخيّة ـ يسمّى «كينياز دالغوركي».

لقد كان هذا الأمير الروسي يعيش في ايران في زمان القاجارية، وكان مكلّفاً من قبل الحكومة الملكيّة الطازارية (القيصرية الروسيّة) للقيام باختراع الفرق الدينيّة، وذلك لايجاد الاختلاف بين الناس وللتقليل من سيطرة ونفوذ الاسلام وعلماء الدين الاسلامي بين الطبقات الاجتماعيّة المختلفة. وقد لوحظ انّ هذا الرجل يعلن اسلامه في الظاهر بعد دخوله الى ايران ثمّ ينتمي الى مجموعة طلاّب العلوم الدينيّة ويتفرّغ لكسب هذه العلوم. وقد اشترك هذا الشخص في دروس العلماء الكبار ـ لأعوام طويلة ـ في الحوزات العلمية في ايران وبعد ذلك في العراق ونال درجات عالية في مضمار العلوم الدينيّة. ومن جملة الأساتذة الذين حضر دروسهم دالغوركي هو السيّد كاظم الرشتي. وفي هذا الدرس وجد مبتغاه لتحقيق أهدافه، فالتقى بشخص وطّد معه علاقات الصداقة والمحبّة بشكل متميز. وكان هذا الشخص واحداً من طلاّب السيّد كاظم

الرشتي ويُدعى «السيد علي محمّد الشيرازي» ثمّ اشتهر فيما بعد باسم «السيد علي محمد الباب».[1]

لقد اكتشف دالغوركي انّ هذا الرجل أداة مناسبة جدّاً لتنفيذ أهدافه، ولهذا فقد قرّب نفسه إليه أكثر من أي شخص آخر. ويقال انّ السيّد علي محمد الشيرازي كان يستعمل لوناً من الدخان يسمّى «قليان» وفي بعض الأحيان كان يضيف على جمرته شيئاً من «الحشيشة» وهي من أنواع المخدّرات وبالتالي يشعر بحالة النشوة. وأثناء الشعور بالنشوة كان دالغوركي يلقّن السيّد بعض الأفكار. وشيئاً فشيئاً خاطب السيّد علي محمد قائلاً له: «انّک ممثّل ونائب الامام صاحب الزمان عليه السلام وأنا مطّلع على

---

۱. انّ هذا الشخص هو من مواليد اليوم الأوّل من شهر محرم عام ۱۲۳۵ هـ بدأ السيد علي محمد الشيرازي دراسته في مكتب استاذ يُسمّى الشيخ عابد، ولمّا كان قد فقدَ أباه منذ نعومة أظفاره فقد رافق خاله في الهجرة الى مدينة «بوشهر» وانخرط هناك في العمل التجاري. والى جانب عمله في التجارة اهتمّ بكسب علوم اللغة العربيّة، ولم يعتنِ كثيراً بالعلوم المتداولة في ذلك الزمان، بل انكبّ على قراءة الأدعية والأذكار وألوان الرياضة الصوفية. وفي جوّ بوشهر الملتهب في الصيف كان يصعد الى سطح البيت وينشغل واقفاً في قراءة الأدعية والأوراد. وحسب رأي بعض الكتّاب فانّ عمله هذا قد أدّى الى حدوث خلل فكري عنده. ثمّ غادر بعد ذلك الى مدينة كربلاء وحضر لمدّة عامين في درس السيّد كاظم الرشتي الذي كان يرأس حينذاك طائفة الشيخيّة. وفي هذه الفترة تعرّف على كينياز دالغوركي. وبعد هاتين السنتين ظهرت ادّعاءات من السيّد علي محمد الشيرازي تحت تأثير تلقينات كينياز دالغوركي. وقد بقيت ادّعاءاته مغلّفة بالابهام بسبب الاختلافات الملحوظة في عباراته وكلامه، ولكنّنا اذا تأمّلنا في كتبه ومقالاته فسوف نلاحظ انّه قد غيّر ادّعاءه خمس مرّات على أقلّ تقدير. في البداية ادّعى «الذكريّة»، حيث كان مشهوراً بانّه سيّد الذكر. ثمّ ادّعى «البابيّة»، أي انّه زعم كونه ذا علاقة بالامام صاحب العصر والزمان عليه السلام وهو الباب المؤدّي اليه، وبامكان الناس ان يقيموا ـ عن طريقه ـ علاقة من وراء ستار الغيب مع إمام الزمان عليه السلام. وبعد ذلك وسّع ادّعاءه وزعم «المهدويّة» قائلاً: انّه هو امام الزمان بنفسه. ولم تقتصر ادّعاءاته على هذا المستوى بل ادّعى «النبوّة» بعد ادعائه «المهدويّة» زاعماً انّه يحمل شريعة وكتاباً سماويّاً جديداً. أمّا ادّعاؤه الخامس حسب ما يظهر من بعض كلماته فهو ادّعاء «الالوهيّة» و«الربوبيّة»!!

بدأت ادّعاءاته عام ۱۲۶۰ هـ (۱۸۴۴ ميلاديّة)، وبعد مرور ستّة أعوام وحدوث أحداث خطيرة واضطرابات رافقت تلك الادّعاءات حُكم على السيّد علي محمد الشيرازي بالاعدام من قبل أمير كبير وزير ناصر الدين شاه القاجاري (الذي كان حاكماً على تبريز في ذلك الزمان)، ونفّذ فيه حُكم الاعدام رمياً بالرصاص في تبريز أثناء شهر شعبان عام ۱۲۶۶ هجرية.

منزلتك الرفيعة ومؤمن بها! ونتيجةً لهذه التلقينات وتحت تأثير المخدّرات صدّق السيّد علي محمد بهذا الموضوع، وفي عالم النشوة وحالة السُكر الخفيفة كانت تصدر منه بعض الكلمات والادّعاءات، وبالتالي أدّت هذه الأعمال وانتهت قصّته الى تأسيس فرقة «البابيّة» التي نشأت منها فرقة «البهائيّة».[١]

---

١. البهائية فرقة أسسها أحد أتباع السيّد علي محمد الشيرازي المسمّى ميرزا حسين علي النوريّ والملقّب بـ «بهاء الله». ولد ميرزا حسين علي في اليوم الثاني من شهر محرم عام ١٢٣٣ هـ (الموافق ٢١ / اكتوبر/١٨١٧م) في مدينة طهران، وبناءً على هذا فهو أكبر من السيّد علي محمد بعامين. درس علوم المقدّمات في طهران على يد ميرزا نظر علي حكيم وآخرين من مرشدي الصوفيّة، وعندما كان في العراق في مدينة السليمانيّة واظب لمدّة سنتين على حضور دروس الشيخ عبد الرحمان عارف. يدّعي البابيّون والبهائيّون انّ الباب وميرزا حسين علي لم يدرسا عند أحد، وعلمهما إلهي ولدنّي، كما يقول علي محمد الباب نفسه في «لوح السلطان» الذي كتبه لناصر الدين شاه زاعماً: «أنا لم ادرس شيئاً من هذه العلوم المتداولة بين الناس ولم أدخل مدرسة اطلاقاً». إلاّ أنّه من المقطوع به والمسلّم ـ من الناحية التاريخيّة ـ انّ كلاً من الباب والبهاء قد درسا عند بعض الأساتذة فترة من الزمن، وان لم يصلا الى درجة رفيعة في الدراسة. كان لميرزا حسين علي تعلّق شديد ومحبّة خاصّة للصوفيّة، وأساس ادّعاءاته يصطبغ بصبغة صوفيّة. تعرّف ميرزا حسين علي ـ وقد كان عمره آنذاك ٢٧ عاماً ـ على الباب، وأعجب به وأصبح من أتباعه خلال هذه السنين وفي الوقت الذي كان السيّد علي محمد في السجن. وبعد وفاة الباب أصبح من مريدي اخيه ميرزا يحيى (الملقّب بصبح الأزل) الذي كان قد اوصى السيّد علي محمد الباب بان يصبح خليفته. لكنّ ميرزا حسين علي تمرّد بعد ذلك على ميرزا يحيى ونفض يده من طاعته وادّعى النبوّة والاتيان بشريعة مستقلّة، واعتبر الباب مبشّراً بظهوره، وقال انّ مقصود الباب من كلماته التي زعم فيها انّ هناك «من يظهره الله بعده» هو ميرزا حسين علي (لا يخفى انّ زعم علي محمد الباب في هذا الظهور هو انّه سوف يتمّ بعد ظهوره بـ (٢٠٠١) من السنين، بينما ادّعاء النبوّة من قبل ميرزا حسين علي قد تمّ بعد ظهور الباب بسنوات قليلة)، وقال انّ المقصود من عودة السيّد المسيح الى الدنيا هو أنا.

أمّا قصّة اتّخاذ ميرزا حسين علي لقب «البهاء» فهي كالتالي: اجتمع أتباع ومحبّو الباب في مدينة «بدَشت» التابعة لجرجان فكتب اليهم الباب رسالة منح فيها لعدد من زعماء وشخصيّات هؤلاء المجتمعين ألقابا معينّة، من جملتها: منح ملا حسين بشرويه لقب «باب الباب»، ولمحمد علي البقال لقب «القدّوس» ولزرّين تاج لقب «الطاهرة»، ولكنّه لم يمنح ميرزا حسين علي لقباً. فشعر ميرزا حسين علي بالألم والغيظ من هذه القضيّة وقرّر الانفصال عن هذه المجموعة، إلاّ انّ زرّين تاج التي كان الباب قد منحها لقب «الطاهرة» وكانت تتمتّع بنفوذ كبير في مجموعة «بدَشت» قد قامت بتخفيف الألم عنه ومجاملته ومواساته فقالت له: أنا أيضاً اعطيك لقب «بهاء الله».

وعلى كلّ حال فانّ البهائيّين يعتبرون ميرزا حسين علي النوري نبيّهم ورئيسهم حيث ظهر وادّعى النبوّة في عام ١٢٦٩هـ. وأخيراً توفيّ هذا الشخص في عام ١٣٠٩ هـ عن عمر يناهز السادسة والسبعين في مدينة «عكا» من مدن فلسطين، وقبره موجود هناك.

أجل انّ أساس وجذور ظهور فرقة «البهائيّة» تعود الى أمير جاسوس للقيصريّة الروسيّة، حيث دخل الى ايران بهدف صياغة فرقة واختراع مذهب وبثّ بذور الفرقة بين المسلمين.

ويمرّ على تأسيس هذا الدين الباطل والمفترى ما يقرب من قرنين من الزمان، ولحدّ الآن انخدع به آلاف من الناس، ووقع في شباك هذه الشريعة المزوّرة كثير من المخدوعين. ويلاحظ اليوم انّ البهائيين مبعثرون في كثير من الدول الاوربية والأمريكيّة وغيرها، ولهم مراكز وجلسات، وأحيانا يحاولون ان يجذبوا أتباعاً جديدين لتوسيع الحركة البهائيّة تحت عنوان «الاسلام الحديث».

وبالاضافة الى النشاطات الرسميّة والعلنيّة، تقوم التنظيمات البهائيّة بكثير من نشاطاتها بصورة مخفيّة عن أعيننا، ونحن لا نملك تفصيلات كثيرة عنها.

وأنا بنفسي قد شاهدت نشاط البهائيّة في احدى المناطق النائية في افريقيا، ولم يكن هناك أيّ اثر عن الاسلام أو التبليغ الاسلامي. فقد أوجد هؤلاء محفلاً هناك، وكانوا يدعون الناس فيه الى البهائيّة تحت عنوان «الاسلام الحديث».

كلّ هذه الوقائع كانت نتيجة لنشاط جاسوس روسيّ جاء الى ايران بتخطيط مسبق وبدأ بتحصيل العلوم الدينيّة وحضر درس السيّد كاظم الرشتي وتعرّف فيه على السيّد علي محمد الشيرازي ولقّنه بعض الأمور، وقام بتأسيس شريعة مزوّرة وخرافيّة تسمّى البابيّة ومن بعدها البهائيّة.

و قد كان للسيّد علي محمد الباب زملاء آخرون اشتركوا معه في حضور درس السيّد كاظم الرشتي وكانت لهم نزعات صوفيّة. وقد أسّس هؤلاء

مذاهب اخرى مثل «الشيخيّة»[1] وجذبوا أفراداً هنا وهناك وحوّلوهم الى أتباع ومطيعين لهم.

انّ بعض هذه الفرق أصبحت اليوم منسوخة تماماً وليس لها أثر، وبعضها الآخر لايزال موجوداً وله أتباع بشكل أو بآخر، ومن جملة الفرق التي لها أتباع هنا وهناك هي فرقة «الشيخيّة»، وفي محافظة كرمان الايرانيّة يوجد أنصار وأتباع لهذه الفرقة.

ونظير هذه القضيّة تأسيس فرقة «الاسماعيليّة» وفرقة

---

١. انّ أساس هذه الفئة يرجع الى الشيخ أحمد الاحسائيّ (١١٦٦ـ١٢٤١). يوجد بين الشيعة اختلاف في وجهات النظر حول الشيخ أحمد الاحسائيّ وادّعاءاته ومزاعمه. فالبعض قد كفّره، الاّ انّ هناك بعض العلماء ـ مثل المرحوم الشيخ كاشف الغطاء ـ ممّن يعتقد بعدم جواز تكفيره بسبب وجود كلمات متشابهة في أقواله.

في مجال «العدل» مثلاً كان الشيخ أحمد الاحسائيّ يعتقد انّه من جملة صفات الله تعالى ولا ينبغي ان ترّجح على سائر الصفات بحيث تعدّ من اصول الدين. ومن هنا فأنّه لا يعتبر العدل من جملة اصول الدين. وفي مجال المعاد أيضاً كان يعتقد الشيخ أحمد الاحسائيّ بانّ الانسان لا يتمّ بعثه في يوم القيامة بهذا التركيب وهذه العناصر المكوّنة له حاليّاً، أي انّهُ لا يتمّ إحياؤه بهذا اللحم والجلد الظاهريّين، وانّما يبعث بعنصر يطلق عليه اسم «هِوَر قليايي» وهو تركيب مختلف عن التركيب الفعليّ للبدن. وعلى أساس هذا المبنى يصوغ الشيخ احمد الاحسائيّ وجهة نظره فيما يتعلّق بالامام صاحب العصر والزمان عليه السلام، فيقول: انّ صاحب الزمان عليه السلام قد ذهب الى عالم «هِوَر قليا».

وكان الشيخ يؤمّل الناس بأنّ امام الزمان عليه السلام سوف يظهر في قالب آخر وجسم مختلف. انّ هذه العقيدة ووجهة النظر هي التي أصبحت فيما بعد الملهم الفكريّ للسيّد علي محمد الباب ووضع عليها إصبعه.

و بعد وفاة الشيخ احمد الاحسائيّ عام ١٢٤٢ هجري سار أتباعه على أساس نظريّاته وتمسّكوا بها بقوّة وحرارة. ومن جملة تلامذته كان السيد كاظم الرشتي قد تولّى رئاسة الشيخيّة لفترة استمرّت سبعة عشر عاماً. وكما أسلفنا القول فانّ السيّد علي محمد الباب هو من جملة طلاّب السيّد كاظم الرشتي. ولابدّ من الاشارة ايضاً الى شخص آخر من طلاب السيّد كاظم الرشتي وهو الحاج كريم خان الكرماني، وهو الذي ادّعى خلافة السيّد كاظم في كرمان، وقد أذعن لهذا الادّعاء وصدّق به كثير من طلاّب السيد كاظم. والشيخية الموجودون في كرمان يعتبرون في الواقع أتباع الحاج كريم خان.

«القاديانيّة»[1] وعشرات المذاهب والفرق المبتدعة في الهند، وقد كان

---

١. انّ لفرقة «القاديانيّة» اسماً آخر وهو «الأحمديّة»، ويطلق هذا الاسم على أتباع «غلام أحمد القادياني» (١٢٥٥ ـ ١٣٢٦ هـ). ولد في قاديان من ولاية البنجاب في الهند، وتعلّم العلوم المتداولة في عصره باللغتين الفارسيّة والعربيّة بشكل جيّد. وكانت تبدو عليه حالة التفكّر منذ نعومة أظفاره. وحاول والده إقحامه في خدمة الحكومة الانجليزيّة ولكنّه أبى وآثر العزلة، وكان يعيش من عوائد أملاكه. وفي عمر الأربعين نشر كتاباً سمّاه «البراهين الأحمديّة» فاستقبله الناس باهتمام واحترام. وعندما وصل عمره الى الخمسين أعلن انّه قد اوحى اليه من قبل الله تعالى، وقد أُجيز في أخذ البيعة من الناس لنفسه. وبعد هذه الدعوة مالت أليه فئة من الناس وسارت وراءه. وفي العام اللاحق ادّعى انّه المسيح والمهديّ الموعود و«تارا كريشنا». وبقي الى آخر عمره متورّطاً في معارضة المسلمين والمسيحيّين والهندو له.

وبعد وفاة غلام احمد انقسم أتباعه الى فئتين، وكانوا مختلفين في انّه هل ادّعى النبّوة أم لا، واذا كان قد ادّعاها فماذا كان مقصوده من ذلك؟! وبعد رحيله عن الدنيا انتخب أتباعه مولوي نورالدين بعنوان انّه خليفة له. وبعد موت مولوي (عام ١٩١٤م) انفصل أغلب زعماء الأحمديّة مع أقلّية متأثّرة بالحضارة الغربيّة وشكّلوا مجمعاً ومركزاً في مدينة لاهور أسموه «مركز الترويج الاسلامي للأحمديّة»، وذلك من أجل نشر ما كانوا يعتبرونه تعاليم غلام أحمد، الاّ انّ الغالبيّة من أتباع غلام أحمد استمرّت في نشاطها في قاديان وحافظت على وفائها لمؤسّس هذه الفرقة وعائلته، ويعرف هؤلاء باسم «جماعة الأحمديّة».

انّ جماعة الأحمديّة يطلقون على كلّ فرد منهم أيضا اسم «القادياني» و«الميرزائي». وبعد تأسيس دولة باكستان عام ١٩٤٧م نقلوا مركزهم من قاديان في الهند الى مكان يبعد ١٤٥ كيلومتراً جنوب غربي لاهور في باكستان وسمّوا ذلك ا لمكان «ربوّة»، وانهمكوا هناك في بناء مدينة. وهؤلاء يزعمون انّ عددهم يقترب من نصف مليون انسان. وهم يحاولون جهد إمكانهم فصل الخصومات فيما بينهم حسب الموازين الشرعيّة. ولجماعة الأحمديّة شورى دينيّة تسمّى مجلس التشاور لكنّ السلطة العليا هي في يد رئيس المذهب. وكلّ واحد من أفراد هذه الفرقة مكلّف باعطاء نسبة مئويّة مقدارها ١/٤ في المائة من دخله بعنوان انّها زكاة لهذا التنظيم الدينيّ.

أمّا الفئة الاخرى التابعة لغلام أحمد القادياني فهي أتباع «مركز الترويج الاسلاميّ للأحمديّة»، و هؤلاء لايعتبرون غلام أحمد نبيّاً وانّما يعدّونه مجدّداً. ويقع مركزهم في مدينة لاهور، وعددهم أقلّ بكثير من الفئة السابقة، ولكنّ نشاطهم يفوق نشاط اولئك بدرجات وهم يبذلون غاية جهدهم في بثّ ونشر التعاليم الاسلاميّة في مختلف بقاع العالم. انّ لهؤلاء مبلّغين محترفين ولَبقين وهم يدعون الناس الى الاسلام في الدرجة الاولى، ولهم ترجمات كثيرة للقرآن وحياة وسَيرة نبيّ الاسلامﷺ نشروها باللغات المختلفة.

مؤسّسوها من الأشخاص المخدوعين الذين تحوّلوا الى لعبة بيد الاستعمار ولاسيّما الاستعمار الانجليزيّ الخبيث. فالكلّ يعلم انّ الانجليز ـ قبل أمريكا ـ كانوا يشكلون أوّل وأكبر قوّة استعماريّة في العالم، وكثير من المصائب التي حلّت بالاسلام والمسلمين في مختلف أصقاع المعمورة تعود الى المخطّطات والمؤامرات التي دبّرها هذا الثعلب المتمرّس في الاستعمار. ومن الجليّ انّ الأمريكان جاءوا بعد اولئک وانتزعوا منهم قصب السبق في مجال الاستعمار ونهب ثروات الامم والشعوب والسيطرة على الحكومات والدول، إلاّ انّهم من الناحية العمليّة فقد استمرّوا واستخدموا نفس الأساليب والسياسات الاستعماريّة الانجليزيّة.

وعلى كلّ حال فانّ كثيراً من زعماء هذه الفرق والمذاهب المخترعة قد اختاروا الدول الاوربيّة والأمريكيّة مكاناً للسكن وهم يعيشون هناک حياة رغيدة ومرفّهة جدّاً ويملكون فيها قصوراً لانريد ان نتعمّق في وصفها. ولهؤلاء الزعماء أتباع ومحبّون يسكنون غالباً في العالم الثالث الفقير المنهوب، ويشقى الأتباع كثيراً في جمع أموال بكدح وتعب ويضنّون بها عن أهلهم وأقاربهم ليتيسّر لهم ارسالها الى اولئک الزعماء وهم يشعرون بالفخر والسعادة. أمّا الزعماء فانّهم يمسحون بأيديهم على رؤوس هؤلاء المحبّين المساكين، ويمنّون عليهم بقبول هذه الهدايا المتواضعة! وفي بعض الأحيان كانوا يقومون ببعض الحركات لخداع البسطاء حيث يعيدون بعض الأموال والهدايا الى أصحابها ويشكرونهم عليها. انّ أتباع فرقة «الآقاخانيّة» (وهي من فرق الاسماعيليّة في الهند) يقدّمون في كلّ عام هديّة لرئيسهم وهي تساوي

وزنه من المعادن الثمينة والجواهر النفيسة! فتارة تكون من الذهب وأحياناً من الجواهر الاخرى، حتّى انّهم في احدى السنين قدّموا له بمقدار وزنه من الألماس.

وتنتشر في كثير من الدول الأفريقيّة مراكز للتعليم والتربية وماشابه ذلك وهي تحت تصرّف فرقة الاسماعيليّة، وفي الأعمّ الأغلب تكون مدعومة من قبل الحكومة الانجليزيّة. وأنا بنفسي رأيت عن كثب بعض هذه المراكز في أفريقيا. كان هناك مستشفى تامّ التجهيز وقد سمّي باسم رئيس فرقتهم «آقاخان»،[1] انّهم يشيدون مثل هذه المؤسّسات ثمّ

---

١. يُعدّ «آقاخان» لقباً، أمّا العنوان العام فهو إمام فرقة النزاريّة الاسماعيليّة، وقد مُنح هذا اللقب لأوّل مرّة لحسن علي شاه (آقاخان الأوّل) ابن شاه خليل الله المحلاّتي، حيث تكرّم عليه به فتحعلي شاه ملك القاجار بعد مقتل والده، وتفضّل عليه الملك أيضاً بان زوّجه احدى بناته. ثمّ انّ آقاخان قام بتمرّد في عام ١٢٥٦هـ بتحريض وتآمر من قبل الحاج ميرزا آغاسي وبعض منتسبي البلاط واستمرّ متمرّداً في كرمان فترة من الزمن ولكنّه لم يستطع ان يحققّ شيئاً وبالتالي هاجر الى السند وهناك أعان الانجليز في دفع الغائلة عن السند. وبعد ذلك سعى كثيراً ليعود الى ايران مرّة اخرى ولكنّه لم يفلح. فاضطرّ للذهاب الى بمبي واختارها مكاناً لسكنه. وتحت ضغط الحكومة الايرانيّة لم يجد بدّاً من الابتعاد عن بمبي ففضّل السكن في كلكته، الاّ انّه بعد مرور فترة قصيرة عاد من كلكته الى بمبي واتّخذها مقرّاً لفرقته ونشاطاته. وبعد وفاة آقاخان الأوّل حلّ محلّه ولده علي شاه أو آقاخان الثاني فأصبح إمام الاسماعيليّة، لكنّ امامته لم تستمرّ طويلاً بل حلّ محلّه في عام ١٣٠٣ هـ ابنه سلطان محمدشاه أو آقاخان الثالث و كان ط فلاً لا يتجاوز عمره ثمانية اعوام. وفي عام ١٩٠٦م شكّل نقابة ومجمعاً باسم جميع المسلمين في الهند لكي يجذب تأييد المسلمين الهنود للحكومة البريطانيّة المستولية على ذلك البلد. وقد أصبح في عقد الثلاثينات من القرن العشرين الميلاديّ وبعد ذلك ممثّلاً للهند في مجمع الامم. وقد عمّر كثيرا آقاخان الثالث ونال شهرة واسعة وجاهاً عريضاً وثروة طائله. وأخيراً تُوفّي في جنيف. وصحيح انّه كان قبل وفاته قد اختار ابنه علي خان ليحلّ محلّه وليّاً للعهد، ولكنّه بعد وفاته وحسب وصيّته نصّب مكانه حفيده كريم خان أو آقاخان الرابع.

يقولون انّها هديّة من «آقاخان» للشعب في البلد الأفريقيّ الفلانيّ. وفي هذا المستشفى يتمّ فحص الناس بصورة مجانيّة بل وحتّى يتمّ استقبالهم فيه للعلاج الطويل الأمد. والمريض الذي يدخل الى هذا المستشفى ويعالج فيه عدّة أيّام وتؤمّن له فيه كلّ احتياجاته وبالتالي ينال الشفاء ويستعيد عافيته فانّه عندما يخرج من المستشفى يصبح من أتباع هذه الفرقة بشكل طبيعيّ.

انّ هذا الاسلوب والتعامل الذي تعرضّنا له بصورة مجملة هو اسلوب عالميّ تقريباً ولا يختصّ بفرقة ولا مذهب معيّن. وأغلب هذه الفرق والمذاهب قد اُسّست بأيدي عملاء بريطانيا وأمريكا، ثمّ انتشرت واتّسعت. (قولنا: أغلب هذه الفرق هو من باب الاحتياط، لانّنا لانملك معرفة دقيقة وصحيحة حول بعض هذه الفرق، أمّا تلك الفرق التي نعرفها، وهي مذاهب مبتدعة ـ وغالباً ما تكون منتشرة بين المسلمين ـ فهي تستخدم نفس هذه الأساليب).

لكن ما هو هدف الدول الاستعماريّة كانجلترا وأمريكا من هذا العمل؟

الجواب هو: كما أشرنا من قبل فانّ من جملة الأهداف المهمّة والعامّة في هذه القضيّة هو ايجاد «الاختلاف والتفرقة». انّ ايجاد الاختلاف بين المسلمين ـ حتّى لو كان على مستوى الاختلاف بين مدينتين أو عشيرتين أو طائفتين ـ كان دائماً من الأهداف المهمّة والأساسيّة للمستعمرين.

ونذكر نموذجاً لذلک أحد الاختلافات الذي اوجد سابقاً في ايران ومن دون تعب ومشقّة، وكان منتشراً في جميع مناطق ايران ومدنها تقريباً، وهو

النـزاع بين «الحيدريّة» و«النعمتيّة».[1] انني لم أر مثل هذا الاختلاف وعمري لايقتضي ان أتذكّره لكنّني سمعت قصّته من والدي وبعض أقرانه الذين شاهدوه بأنفسهم. فالمستعمرون قسّموا الناس ـ بواسطة عملائهم ـ في المناطق والمدن الى فئتين: «الحيدريّة» و«النعمتيّة». وكان يتجلّى هذا

---

١. «الحيدريّة» طريقة شيعيّة تتعلّق بالشيخ الصدر وهو من صوفيّة القرن السابع الهجريّ. وقد انتشرت هذه الطريقة من خراسان لتعمّ مختلف مناطق ايران. وحسب نقل الرحّالة ابن بطوطة فانّ الحيدريّة تمتاز بالزهد المفرط، ومن جملة ما اشتهر عنهم هو انّ دراويش هذه الطريقة لا يقدمون على الزواج.

هناك مجموعة من الفتية ـ في مرحلة الصفويّة ـ اتّبعوا طريقة الشيخ صفيّ الدين الأردبيلي، وأصبحوا معروفين باسم الحيدريّة، باعتبار اسم السلطان حيدر، وهو والد الشاه اسماعيل الصفوي (المتوفّي عام ٨٩٨ هـ)، وشكّلوا فئة تسمّى «قزلباش»، وكانوا يعدّون الشاه اسماعيل قطباً لهم و«المرشد الكامل» و«الصوفيّ الاعظم». وتصارعت هذه الفئة في زمان الشاه عبّاس مع أتباع الشاه نعمت الله وليّ الذين كانوا يسمّون بـ«النعمتيّة» وبالتالي قام الشاه عبّاس الصفويّ بتجريد الحيدريّة من السلاح لمنع فئة «القزلباشيّة» من السيطرة على الآخرين.

وامّا طريقة «نعمة اللهيّة» فهي أيضاً شيعيّة ومؤسّسها الشاه نعمت الله وليّ الكرماني وهو صوفيّ وشاعر مشهور في القرن الثامن الهجري. عاش فترة من حياته في سمرقند ويزد وبالتالي أمضى خمسة وعشرين عاماً في «خانقاه» واقعة في قرية «ماهان» قريبة من مدينة «كرمان» ويلاحظ اليوم وجود مرقده في هذه القرية حيث يزوره الناس. كان للشاه نعمت الله وليّ موقع خاص في قلوب عامّة الناس، وهم يسمّونه بالشاه والوليّ، وذلك يعني انّه «ملك العارفين». ومنذئذ فما بعد أطلق هؤلاء على كلّ واحد من شيوخ هذه الطريقة اسم «الشاه» أي الملك.

ومنذ القرن الثامن الهجري ولحدّ الآن تنتشر هذه الطريقة «نعمت اللهيّة» في ايران والهند، وقد انشعبت منها عدّة فروع. وبعد انتصار المذهب الشيعيّ في ايران وصيرورته المذهب الرسميّ للبلد أثناء القرن العاشر الهجريّ وما بعد ذلك فقد اتّسع نفوذ بعض الطرق الصوفيّة الشيعيّة مثل «الحيدريّة» و«نعمة اللهيّة» ولاسيّما في اوساط سكّان المدن. وراح يتنافس أتباع هاتين الطريقتين في مضمار كسب النفوذ بين سكّان البلاد والتّجار والعمّال وأصحاب الحِرَف. وأشار المؤرّخون الايرانيّون والرحّالة والسيّاح القادمون من اوربا خلال ثلاثة قرون هجريّة (العاشر والحادي عشر والثاني عشر) الى انّ السكّان في كثير من المدن الايرانيّة انقسموا الى فئتين: فئة تؤيّد الطريقة «الحيدريّة»، وفئة تناصر الطريقة «النعمتيّة».

الاختلاف ويعطي ثماره المرّة في بعض المناسبات ولاسيّما في اليوم العاشر من المحرّم. فموكب عزاء فرقة «النعمتيّة» له شعار، وموكب عزاء فرقة «الحيدريّة» له شعار آخر. ويتنازع الموكبان ويتصارعان على من هو الذي يدخل قبل الآخر الى مرقد الوليّ الموجود في المدينة أو الى المقرّ الرئيسيّ لاقامة العزاء، وترتفع وتيرة الخلاف الى الحدّ الذي تُسحب فيه العِصيّ ويبدأ الضرب فيما بينهم وتسيل الدماء ويُقتل البعض! على أيّ شيء؟ على انّ موكب «الحيدريّة» يدخل أوّلاً أم موكب «النعمتيّة» يسبق في الدخول الى المقرّ الرئيسيّ في المدينة لاقامة العزاء! ويتجلّى هذا الاختلاف أيضاً في طول السنة، حيث انّ أتباع الحيدريّة وأتباع النعمتيّة يقف بعضهم في وجه بعض على كلّ موضوع اجتماعيّ. وهناك الكثير من هؤلاء ممَّن لا يعلم ما هو معنى «النعمتيّة» و«الحيدريّة»، ومن أين نشأ هذان الاصطلاحان، وهذا الخلاف والصراع على ماذا وما هو الهدف منه!

لقد بثّ الشياطين والمستعمرون دائماً مثل هذه المنافسات بين الناس بعناوين وأساليب مختلفة وجعلوا بعضهم في مواجهة البعض الآخر. والهدف من ذلک هو ان لا يتّجه الناس باتّجاه واحد وأن لا يتحرّكوا في خطّ واحد، وفي ايّ وقت يريدون ان يقوموا بحركة اجتماعيّة فانّ هناک مَن يظهر ليقول انّ هذه الحركة تتعلّق بالحيدريّة لينسحب منها أتباع النعمتيّه ولا يتعاونون معها، أو ليقول انّها تتعلّق بالنعمتيّة حتّى يخالف فيها أتباع الحيدريّة ولا يسايرونها. انّ الصراعات المختلفة الّتي تشبّ بين الأتراک والفرس، بين العرب والعجم، بين أبناء بروجرد وابناء خرم آباد، وأمثالها تصبّ في مجرى واحد وتؤدّي الى هدف واحد وهو ايجاد

الاختلاف والقضاء على وحدة الامّـة، ووحـدة الـشعب، ووحـدة الفئـة، ووحدة المدينة، و.... .

وتعتـبر الاختلافـات الدينيّـة والطائفيّـة مـن أقـوى وأهـمّ أنـواع الاختلافات الّتي تحقّق الأهـداف الـشرّيرة للمـستعمرين، ونموذجهـا البارز هو الاختلاف الواقع بين السنّة والشيعة. انّ الثمرات التي جناهـا ولايزال يجنيها الأعداء من اثارة الاختلاف بين السنّة والشيعة تفوق الحدّ والحصر. ومن الواضح انّ هذا الأمر غير محصور بالاختلاف بـين الـسنّة والشيعة، بل ابتكر المستعمرون ألوانـاً مختلفـة مـن الاختلافـات الدينيّـة والطائفيّـة والفئويّـة. وللمثـال نـذكر الاخـتلاف الـذي اخترعـوه بـين «الشيخيّة» والفئة التي تسمّى «بالاسري» اي «فوق الـرأس»، وقـد كـان شائعاً في محافظات كرمان ويزد والمحافظـات الواقعـة في جنـوب ايـران. فهناك فئة تابعة للـشيخ أحمـد الاحـسائيّ ومؤيّـدة للحـاج كـريم خـان الكرماني وتسمّى بـ «الشيخيّة»، وتوجـد فئـة اخـرى تابعـة لأحـد علـماء الدين وتُسمّى فئة «فوق الرأس». وقد نشأ هذا الاختلاف من اختلاف وجهة نظر عالمين في هذه المسألة وهي: هل يجوز الصلاة في مرقد الامام المعصوم عليه السلام في المكـان الواقـع فـوق مـستوى موقـع دفـن رأس الامـام المعـصوم عليه السلام والمقصود هو انّ الانسان الـذي يـدخل الـى مرقـد الامـام المعـصوم عليه السلام للزيارة فهل يجوز لـه ان يـصلّي في مكـان يتقـدّم علـى موقـع دفـن رأس الامام عليه السلام أو يوازيـه؟ أم يجـب عليـه الوقـوف للـصلاة في مكـان يعتـبر متأخّراً عن مكان دفن الـرأس الـشريف للامـام عليه السلام؟ انّ أغلـب فقهائنـا يقولون: لا ينبغي ان يصلّي الانسان في مكان يتقدّم علـى المكـان المـدفون فيه البدن الطاهر والرأس الشريف للامـام المعـصوم عليه السلام، وذلـک رعايـة

للأدب والاحترام، لكنّ الصلاة في مكان موازٍ لموقع دفن الرأس الشريف لا اشكال فيها. وفي هذا السياق ظهر البعض ليقول انّه لا يجوز الصلاة أيضاً في مكان موازٍ لمكان دفن الرأس الشريف، وأكدّ على انّ الصلاة لابدّ ان تتمّ خلف رأس الامامعليه السلام. انّ هذا الموضوع أصبح منشأ للاختلاف ومدعاة لتكوين الفرق فوجدت طائفتان: هما «الشيخيّة» وطائفة «فوق الرأس»، وجعلت كلّ منهما في مقابل الاخرى.

ومن الجدير بالذكر انّ كثيراً من هذه الاختلافات قد زالت واختفى أثرها ببركة تأسيس الجمهوريّة الاسلاميّة في ايران، ونرجو من الله سبحانه ان تزول سائر هذه الاختلافات التي لا أساس لها ولا فائدة منها، وذلك بفضل زيادة الوعي عند الناس واتّساع ثقافتهم الدينيّة.

اذن من أهمّ أهداف المستعمرين هو ايجاد وتقوية الفرق والمذاهب المختلفة، وإذكاء نار الفتن والنزاع بين الناس وجعل بعضهم في مواجهة البعض الآخر. وهذه في الواقع هي السياسة المعروفة: «فرّق تَسُدْ» التي تنتهجها القوى الاستعماريّة فتوجد الاختلافات قاصدة من ورائها الى تحقيق أكبر قدر ممكن من مصالحهم الدنيئة. وليس من المهمّ عندهم موضوع الاختلاف وانّما المهمّ هو ان يحصل الاختلاف والنزاع والصراع حتّى لا تصبّ الأنهار كلّها في بحر واحد.

ولهذا لابدّ ان نكون حَذِرين جدّاً في مواجهة هذا الموضوع حتّى لا نقع ـ بدون وعي منّا ـ في فخّ العدوّ وحتّى لا نعين العدوّ على أنفسنا فنقوم بنفس الفعل الذي يريده منّا. وفي بعض الأحيان نحن أنفسنا نصبّ الزيت على النار من دون التفات منّا ونعمّق الاختلافات مع أنّنا نقصد الارشاد والهداية. فاذا قمنا بإذكاء نار جديدة للاختلافات تحت عنوان المواجهة

للفرقة الفلانيّة فهذا هو نفس ما يريده أعداء الاسلام والحاقدون على المسلمين. انّ الشياطين يحاولون ـ كيفما كان ـ القيام بعمل يؤدّي الى الصراع والاقتتال بين الناس، ولا يهمّهم كثيراً مَنْ الذي سيكون غالباً ومَنْ سيكون مغلوبا. وكما أشرنا من قبلُ فانّ وجود الاختلاف بنفسه والنزاع والتصادم والتفرّق هو المهمّ بالنسبة اليهم. وكلّ مَن يُقتَل في هذا النزاع ـ ومن أيّ طرف كان ـ فهو لصالحهم.

من هنا فانّ الاشتراك في هذه المعركة وطريقة التعامل في هذا الموضوع لابدّ ان يكون بطريقة ذكيّة جدّاً ومنطقيّة، ويجب الابتعاد تماماً عن الأعمال غير المدروسة وغير المبرمجة والساذجة والعجولة، وفي غير هذه الصورة فسوف لن تؤدّي الاّ الى ضرر أكبر للمجتمع الاسلاميّ، والاّ الى نفع أكثر لأعداء الاسلام.

الدافع الثاني للمستعمرين الى جعل الدين واختراع المذاهب والفرق المزوّرة هو المواجهة للماركسيّة. فنحن نعلم انّ العالم كان يعيش ـ حتّى بداية التسعينات من القرن العشرين الميلادي وخلال سبعين عاماً تقريباً ـ حالة المواجهة والصراع بين قوّتين عظميين في الشرق والغرب، بين المعسكر الماركسيّ الشيوعيّ من ناحية والمعسكر الرأسماليّ من ناحيّة اخرى. فالدول الغربيّة وعلى رأسها الولايات المتّحدة الأمريكيّة ـ وكلّها منتمية الى المعسكر الرأسماليّ ـ تعتبر الماركسيّة عدوّها الأوّل، وكانت تقاومها بكلّ ما اوتيت من قوّه. كانت الماركسيّة ترفع شعار: «الدين افيون الشعوب»، وتعارض بقوّة كلّ ألوان النشاط الدينيّ والمعنويّ. لذا كان ترويج الإلحاد وإلغاء الدين يؤدّي بالتالي لصالح الماركسيّة وضدّ مصالح أمريكا والمعسكر الرأسماليّ، وعلى العكس من ذلك فانّ اهتمام

المجتمعات بالدين كان يعدّ سدّاً محكماً في وجه نفوذ وانتشار الماركسيّة. ولهذا السبب اهتمّت الدول الغربيّة ـ وعلى رأسها أمريكا وانجلترا ـ بتبليغ وترويج الأديان المختلفة للمحافظة على مصالحها ولكي تشكلّ سدّاً يحول دون نفوذ وانتشار سلطة الاتّحاد السوفيتي السابق والمعسكر الشيوعيّ. وكان يكفي لصدّ التيّار الشيوعي ان يذكر اسم الدين فقط وما كانوا يعيرون أهميّة لنوع الدين. نعم لقد كانوا يحاولون ـ وهم حَذِرون جدّاً في هذه المحاولة ـ ان يكون هذا الدين لا ضرر فيه على أمريكا، وهذا هو نفس الموضوع الذي كان يطلق عليه الامام الخمينيّ ﵀ اسم «الاسلام الأمريكيّ»، ونموذجه البارز هو الاسلام المهادِن الذي تتبنّاه بعض الدول العربيّة.

و بناءً على هذا فانّ تأسيس واختراع المذاهب والفرق الدينيّة المختلفة يُعتبر في الواقع وسيلة لمواجهة الاتّحاد السوفيتي الذي كان يعدّ قوّة عظمى، وهو العامل الثاني الذي دفع الدول الغربيّة المستعمرة لكي تقوم بهذا العمل. ومن الواضح انّ هذا العامل قد انتفى في الوقت الحاضر بعد تفكّك الاتّحاد السوفيتي واضمحلال المعسكر الشيوعيّ، لكنّه لاينبغي الغفلة عن دوره المهمّ خلال أكثر من سبعين عاماً. وهذا بخلاف العامل الأوّل (و هو ايجاد الاختلاف) حيث انّه كان موجوداً منذ مئات السنين وهو مستمّر في الوقت الحاضر.

و في هذا المضمار يوجد هدف ثالث أيضاً لاختراع الدين وجعل الفرق والمذاهب الحديثة، والعامل الذي أدّى إليه هو انبعاث الصحوة الاسلاميّة في العقود الأخيرة من القرن العشرين الميلاديّ، ولاسيّما الثورة الاسلاميّة في ايران. انّ انتصار الثورة الاسلاميّة في ايران وانبعاث الصحوة والحركات

الاسلاميّة خلال العقود الأخيرة في العالم الاسلاميّ لَفَتَ نظر أمريكا والدول الغربيّة الى هذه الملاحظة المهمّة وهي انّ الاسلام يمكن ان يشكّل تهديداً كبيراً جدّاً ـ وهو أخطر بكثير من تهديد الشيوعيّة ـ لها. ولهذا استُنفر علماء الاجتماع وسائر العلماء والمنظّرين عندهم وجُعلوا في حالة انذار شديد ليجدوا طريقاً للحلّ وعلاجاً لهذه المسألة الحسّاسة.

ولا ينبغي ان نغفل عن هذه الملاحظة وهي انّ إلغاء الدين ومطاردة أصل الاسلام لم يكن هو طريق الحلّ الذي تبحث عنه أمريكا والدول الغربيّة ولا هو السبيل الذي يمكن ان تختاره، لانّ ذلك كان يعني إعداد الأرضيّة لتقدّم الشيوعيّة وزيادة نفوذها. اذن كان عليهم ان يختاروا طريقاً يُحفظ فيه اسم الاسلام لكنّه اسلام لايثمر خطر ايقاظ الامم وايجاد نهضات اجتماعيّة مثل الثورة الاسلاميّة في ايران. وبهذه الصورة يُستفاد من ممانعة الاسلام إزاء نفوذ الشيوعيّة واتّساعها ويطمئنّ بالهم أيضاً من ناحية انّ الاسلام سوف لن يتحوّل الى خطر يهدّد الرأسماليّة والمعسكر الغربيّ.

انّ الحلّ الذي فكّروا فيه ووضعوا إصبعهم عليه هو انّ الشعور العرفانيّ والدينيّ عند الناس يتمّ إشباعه بصورة «البديل» بواسطة اسلام محرّف، اسلام يركّز فيه الشخص كلّ اهتماماته علىٰ الله وعلاقاته الشخصيّة بالله، ولا يتمتّع بأية صبغة سياسيّة ولا يُقحمه في الشؤون الاجتماعيّة. وأفضل سبيل لتحقيق هذا الأمر هو ترويج الاتّجاهات الصوفيّة، وهي اتّجاهات تلقّن الأشخاص بأن يهتمّوا بتكاملهم المعنويّ الفرديّ، وان لا يشغلوا أفكارهم بالشؤون الدنيويّة، وان لا يعيروا بالاً للمواضيع السياسيّة، واذا توقّف تقدّمهم ـ أحياناً ـ على مهادنة السلطات والحكومات وأصحاب القوّة والثروات فلا مانع من ان يقوموا بذلك!

و في هذا المجال لو تأمّلنا في أحداث ووقائع السنين الخمسين الأخيرة في ايران ـ ولاسيّما منذ عام ١٩٦٣م وما بعده ـ لوجدنا أنّ أغلب ـ ان لم نقل جميع ـ مشايخ المتصوّفة كانوا على علاقات طيّبة مع البلاط الملكيّ أو الذين هم على ارتباط مع اولئک. وخلال هذه الفترة لوحظ انّ المؤيّدين للفرق الصوفيّة المختلفة كانوا من جملة مَن نالوا مناصب رفيعة في الدولة والحكومة، بدءاً من منصب رئيس الوزراء الى ممثّلي البرلمان والوزراء وسائر المناصب المهمّة والحسّاسة. فمنذ عام ١٩٦٣م وما بعده اندفع النظام الملكيّ السابق الى ترويج التصوّف وتشييد مراكز ضخمة للدراويش تسمّى «خانقاه» واحياء الفرق والمذاهب الباطلة ودعم التنظيمات «الماسونيّة»، وتزويدها بالمساعدات الماليّة السخيّة. هناک نماذج كثيرة من هذا القبيل سجّلها التاريخ ووثائقها العينيّة التي لا يمكن التشكيک فيها متوفّرة لمن يطلبها. والدكتور إقبال واحد من هذه النماذج حيث كان منتمياً الى احدى الفرق الصوفيّة المشهورة.[1] وفي زمانه شُيّدت مراكز فخمة في ايران لايواء الدراويش «خانقاه» ونشطت حركة إعلاميّة واسعة تروّج الاتّجاه الصوفيّ. وفي هذه المرحلة التاريخيّة طُبعت ووزّعت ـ بصورة متعاقبة ـ كتب كثيرة تتحدّث عن الصوفيّة. وبعد انتصار الثورة الاسلاميّة

---

١. يقال انّ عائلة إقبال هي واحدة من أربعين عائلة كانت مرتبطة بالبلاط الملكيّ البهلويّ وتتمتّع بنفوذ واسع فيه. والدكتور منوشهر اقبال متخرّج من كليّة الطبّ ويعدّ والده من الاقطاعيّين الكبار وأصحاب الأراضي الواسعة في خراسان. وتتمتّع عائلة إقبال بنفوذ واسع في محافظة خراسان منذ أكثر من قرن من الزمان، وبسبب هذا النفوذ دُعي الدكتور منوشهر اقبال ليصبح ضمن البلاط الملكيّ. لقد بدأ من ممثليّة البرلمان ثمّ تولى مناصب اخرى فأصبح سفيراً ومستشاراً شخصيّاً للملك ورئيساً لجامعة طهران ورئيساً للوزراء ووزيراً للبلاط. وآخر منصب تولاّه هو رئاسة هيئة الادارة لشركة النفط الوطنيّة. وقد استمرّت رئاسته للوزراء ثلاث سنوات ونصف من عام ١٩٥٧م الى عام ١٩٦٠م، وتعتبر هذه أطول فترة تعيشها حكومة في زمان النظام البهلويّ بعد عام ١٩٤١م.

في ايران طبعت مثل هذه الكتب في خارج ايـران طباعـة فـاخرة وبـورق ممتاز ووزّعت داخل ايران حيث جاءوا بها الى الداخل بصورة التهريب. وفي هذا الزمن نلاحظ وجود كتب كثيرة تبلّغ للصوفيّة وهي مطبوعـة في فرنسا وألمانيا وأمريكا وسائر الدول الاوربيّة. وشيوخ وأقطاب الـصوفيّة منبثّون في تلك الدول ويعيشون في قـصور فخمـة وحيـاة رغيـدة جـدّاً، وهـم يطبعون هذه الكتب هناك ثمّ يرسلونها الـى العـالم الثالـث لهدايـة وارشاد الناس المستضعفين! هؤلاء السادة محروقة قلـوبهم علـى الفقـراء وهـم يشعرون بالألم والقلق من أعماق قلوبهم علـى انّ النـاس في الـدول «المتخلّفة!» يعيشون البعد والحرمان من الحقائق والكنوز العرفانيّة، ولهذا فانّهم استساغوا لأنفسهم وهوّنوا عليها تحمّل ألوان المشقّة والـصعوبات فقاموا بتأليف هذه الكتب في ظروف عـسيرة جـداً ثـمّ طبعوهـا وتلطّفـوا فأرسلوها إلينا!

وعلى أيّة حال فانّ الهدف المهمّ للعدّو من ترويج واشـاعة التـصوّف في العقود الثلاثة الأخيرة ـ أي بعد انتصار الثورة الاسلاميّة في ايران ـ هـو تغيير الاتّجاهات الدينيّـة والعرفـانيّـة للنـاس مـن مـسيرها الاسـلامـيّ الصحيح نحو الاعوجاج والانحراف. والسبب في اعتماد هـذه الـسياسة أيضاً هو ما يأتي:

أوّلاً: لقد أثبتت التجربة انّ محاولـة القـضاء علـى الاهتمامـات الدينيّـة والعرفانيّة واجتثاث جذورها لاتحقّق ثمارها.

ثانياً: حتّى اذا فرضنا انّ القضاء عليها ممكن فانّه بالتالي ينتهي لصالح المعسكر الشيوعيّ، وهذا أمر لا يحقّق مصالح أمريكا والمعسكر الغربيّ الرأسماليّ.

اذن كان عليهم ان يختاروا إمّا الاسلام المؤدّي الـى الحيـاة والحركـة

وإمّا الالغاء التّام للاسلام والاتّجاهات العرفانيّة وإمّا ترويج الأديان الملفّقة وألوان العرفان المنحرفة، وقد اختاروا هذا الطريق الثالث وفضّلوه على الأوّلين فراحوا يروّجون للأديان المنحرفة وألوان العرفان المخترعة. ويتطلّب هذا المسير المنحرف ان لا تكون هناك حركة اجتماعيّة يقظة ولا وعي سياسي. وفي مثل هذا العرفان والدين اذا كان هناك مَن يريد الله تعالى فانّه يستطيع ان ينزوي في بيته أو يختار اللجوء الى محفل أو «خانقاه» يحيي الليل فيه الى الصباح مردّداً «يا هو» حتّى ينقطع نفسه ويغيب عن الوعي! ثمّ عندما يفيق صباحاً ويغادر بيته (ولا يهمّ كثيراً انّه أدّىٰ الصلاة أم لم يؤدّها!) فانّه لا ينبغي أن يشغل فكره بما يجري في أرجاء الوطن وماذا تخطّط وتفعل أمريكا وماذا قال العالم الفلانيّ.

في هذا الدين المقلوب والعرفان البديل يتمّ تعريف مجموعة علماء الدين بصورة تبيّن انّهم أشخاص سطحيّون لم يشمّوا رائحة العرفان والمضامين العرفانيّة التي تشكّل روح الدين، وهم قانعون بالقيام بمجموعة من الواجبات والمستحبّات والأحكام الظاهريّة للدين. وتدّعي هذه الجماعة انّ الصراع مع الملوك والحكومات والتدخّل في الشؤون السياسيّة هو من المصاديق الواضحة للانشغال بالدنيا والمواضيع الدنيويّة والغفلة عن الله وذكره! العارف بالله والواصل الى الحقّ هو من بايع شيخ الفرقة وقطب الطريقة وصرف قلبه عن السياسة والسياسيّين وعلماءالدين وكرّس جهده كلّه على حلقات الذكر وترديد «يا هو»!

وعلى هذا الأساس فانّ من جملة الأركان المهمّة لهذا العرفان البديل

ـ بالاضافة الى إبعاد الناس عن الخوض في السياسة والشؤون السياسيّة ـ هو ايجاد الجدران الحائلة بين الناس وعلماء الدين الواعين، وذلك لانّ هؤلاء العلماء اليقظين يشكّلون خطراً كبيراً على القوى الاستعماريّة ومصالحهم غير المشروعة بفضل ما يقومون به من ألوان الهداية والتوعية والارشاد. ومن الواضح انّ أمريكا وبريطانيا وسائر القوى الاستعماريّة كانت ملتفتة من قبل ـ بشكل أو بآخر ـ الى نفوذ علماء الدين وما يشكّلونه من خطر على مصالحهم، الاّ انّ انتصار الثورة الاسلاميّة في ايران بقيادة علماء الدين وعلى رأسهم الامام الخمينيّ قد أثبت هذا الموضوع بشكل أوضح، ومن هنا فقد ضاعف هؤلاء جهودهم لمواجهة هذا الخطر الداهم وابعاد الناس عن علماء الدين أصحاب الوعي واليقظة.

و على أيّة حال يتعيّن علينا ان نكون واعين ومحتاطين جدّاً في سلوك مسير العرفان، لانّ هذا الطريق مزروع بالألغام، وفي كلّ منعطف منه يوجد خطر الانحراف الذي يهدّد السالک كثيراً. ونلاحظ اليوم انّ المستعمرين قد رفعوا عَلَم «التصوّف» بدافع الوقوف في وجه الاسلام، فهم باسم الاسلام والعرفان يحاولون اجتثاث جذور الاسلام الحقيقيّ والعرفان الأصيل. ولابدّ لنا من الاعتراف ـ مع الأسف الشديد ـ بانّ بعض الأشخاص السُذّج قد انخدعوا بأساليب هؤلاء المحتالين ووقعوا في مصيدة أصحاب هذه الألوان من العرفان المبتدع والاسلام المزوّر المنحرف.

الفصل الثالث

ميزات العرفان الاسلاميّ الصادق

أهميّة وضرورة البحث في الميزات

كلّ بضاعة تكون أعلى قيمة فإنّ الغشّ والتزوير يصير أكثر فيها. حجر الألماس ذو قيمة عالية جداً، ولهذا يندر ان يوجد شيء يُصنع بديل له بمقدار مايفعلون مع الألماس. والذهب أيضاً غالي الثمن، ولهذا تُصنع أشياء كثيرة تشبه الذهب. وهكذا الأمر مع سائر الجواهر الثمينة، فيلاحظ في الأسواق وجود بعض المصنوعات وبألوان مختلفة تشبه تلك الجواهر، والأشخاص الذين لاخبرة لهم ينخدعون بهذا المعروض للبيع فيشترون الشيء البديل مكان الشيء الأصيل. الذهب والمذّهب متشابهان في الظاهر، والناس العاديّون لايستطيعون التمييز بينهما، أما الصائغ للذهب والخبير في المعادن فلديه محكّ أو مختبر يميّز بواسطته بين الذهب والمذّهب.

والعرفان أيضاً جوهر ثمين جدّاً، وهناك قطّاع طرق كثيرون جالسون على جانبي الطريق ينتهزون الفرصة ليسيئوا استغلاله ويخدعوا به. يوجد أشخاص كثيرون قاموا بتأسيس فرق ومذاهب مختلفة بهذه النيّة، ويُلاحظ

وجود أناس كثيرين قد انخدعوا باولئك ووقعوا في مصيدتهم، ومع الأسف الشديد فانّ وجود الخبراء الصادقين في هذا المضمار نادر جدّاً. المدّعون للعرفان كثيرون، لكنّ الذين ألمّوا بالجوهر الحقيقيّ للعرفان ونالوا الكمالات العرفانيّة ووفّقوا للتمييز بين الأصيل والبديل، بين الصالح والطالح هم قليلون جدّاً.

لابدّ ان نكون حَذِرين وملتفتين الى انّ حقيقة وأساس العرفان صحيح انّه أمر قيّم ومطلوب لكي يتكامل به الانسان بل هو حقيقة الكمال، لكنّ هذا الأمر لاينبغي ان يدفعنا لنتصوّر انّ جميع مَن يُطلق عليهم هذا الاسم أو يدّعون الاتّصاف به قد نالوا روح العرفان والحقائق المعنويّة. وهذا الوضع صادق أيضاً في مجال القرآن الكريم فهو حقيقة رفيعة ونور خالص، الاّ انّ الذين يقصدون القرآن المجيد ليسوا جميعا بحيث ينتفعون منه، وحتّى الذين ينتفعون منه ليسوا جميعاً متساوين في هذا المجال. والقرآن نفسه يؤكّد هذه الحقيقة حيث يقول سبحانه: ﴿**قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ...**﴾[1].

حسب هذه الآية الشريفة فانّ القرآن وان كان نوراً وموضّحاً لكنّ الجميع لا يستنيرون به ولا ينتفعون بهدايته، وانّما هناك شرط للانتفاع بهذا النور وهو ان يتحرّك الانسان لكي يكسب مرضاة الله تعالى وان يكون من جملة «**مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ**». اذا توفّر هذا الشرط في شخص فانّه يستطيع عندئذ ان يستفيد من نور القرآن، وكلّما تضاعف جهده في اكتساب مرضاة الله سبحانه فانّه يزداد نصيبه من التمتّع بنور القرآن أيضاً. وأمّا اذا لم يتوفّر فيه هذا الشرط فانّه لا يستطيع الانتفاع من نور القرآن، بل في بعض الأحيان يتحوّل

---

١. سورة المائدة، الآيتان ١٥ـ ١٦.

هذا النور ـ الذي هو مفيد ونافع للآخرين ـ الى شيء ضارّ بهذا الشخص، يقول الله تعالى: ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً**﴾[1].

أجل، مع انّ القرآن نور خالص، الاّ انّه بالنسبة الى بعض الناس يؤدّي بهم الى مزيد من الظلمة والعتمة. هؤلاء هم الذين لا يملكون هدفاً إلهيّاً ولا يحبّون ان يتحرّكوا في الصراط المستقيم. وكلّ همّهم هو ان يجعلوا القرآن وسيلة للوصول الى أهدافهم المشؤومة ونيّاتهم الرديئة. انّ اولئك الذين يتّخذون الدين وسيلة للحصول على الدنيا ويسيئون استغلال موضوع الله وأوليائه للوصول الى أهدافهم الدنيويّة المنحطّة لا شكّ أنّهم محرومون من نور القرآن الكريم.

اذن يجب علينا ان نكون حَذِرين جدّاً وان لا تخدعنا الأسماء والعناوين.

أينما ورد اسم العرفان والعارف والسير والسلوك فانّه ليس معلوماً وجود شيء من حقيقة العرفان هناك. فليسوا قليلين اولئك الذين كانوا صادقين في نيّتهم بالنسبة الى السير والسلوك لكنّهم ـ نتيجةً لعدم إلمامهم بمعايير العرفان الحقيقيّ ـ وقعوا في الفخّ الذي نصبه المنحرفون والمدّعون الكاذبون، وبدل السير الى الله تورّطوا في الضلال والانحراف.

و كلّ هذه الامور تبيّن ـ بشكل واضح ـ أهميّة وضرورة البحث عن المعايير والعلامات والميّزات للعرفان الحقيقيّ. ومعرفة هذه المعايير والميّزات يمكنها ان توجد فينا دافعاً أقوى للتحرّك في مسير العرفان، ويمكنها أيضاً ان تحفظنا من الوقوع في مصيدة قطّاع الطرق والمدّعين لألوان العرفان البديل.

---

١. سورة الاسراء، الآية ٨٢.

تاريخ العرفان في المجتمعات البشريّة

انّ المواضيع المتعلّقة بالروح والكمالات الروحيّة ليست لها بداية محددّة في التاريخ، فالتاريخ لا يبيّن بوضوح متى بدأ الانسان في الاهتمام بهذا الموضوع. أمّا اذا قلنا انّ أوّل انسان وضع قدميه على هذه الكرة الأرضية كان نبيّاً ـ كما يستفاد ذلک من ظواهر القرآن والأحاديث الاسلاميّة ـ عند ذاک نستطيع ان نعدّ زمان ظهور أوّل انسان في هذا العالم بداية لانطلاقة هذا الموضوع، وذلک لانّ الاهتمام بالروح والكمالات الروحيّة يحتلّ صدر قائمة تعاليم الوحي، واذا كان أوّل انسان هو نبيّاً مرسلاً من قبل الله أيضاً فمن المؤكّد عندئذ انّ هذه التعاليم قد جعلت تحت تصرّفه بواسطة الوحي، وهو بدوره قد علّمها أيضاً ونقلها الى أولاده. ولكن بغضّ النظر عن هذه الملاحظة فانّ التأمّل في العصور القديمة ذات التاريخ المسجّل والمضبوط ودراسة الآثار التاريخيّة الباقية من الامم القديمة جدّاً تبيّن انّ هذا الموضوع كان مطروحاً امام البشريّة منذ تلک الأزمان البعيدة، وانّ هناک دائماً أشخاصاً قد تصدّوا لاكتساب الفضائل والكمالات الروحيّة.

وبالاضافة الى هذا يوجد في هذا المجال موضوع آخر له تاريخ ممتّد وطويل وقد كان مطروحاً منذ بداية الاهتمام بهذه الشؤون وهو موضوع انّ تقوية الروح ونقل الاستعدادات الروحيّة من حالة القوّة الى حالة الفعل تحتاج ـ بشكل أو بآخر ـ الى ان يغضّ الانسان الطرف عن بعض الجهات الماديّة والجسميّة. ولعلّه يمكن القول انّه منذ بداية التفات الانسان الى هذا الموضوع ـ وهو انّ حقيقة الروح هي غير البدن، وانّ كمالات الروح غير كمالات الجسم ـ فقد كان ملتفتا أيضاً الى انّ سبيل الظفر بهذه الكمالات ـ بصورة أو باخرى ـ متوقّفة على قيامه بالحدّ والتنظيم لجهاته البدنيّة والمادّية

وأبعاد الشهوة فيه وكلّ مايتعلّق بالجسم البشريّ في كيانه. وبعبارة اخرى: فانّ الانسان منذ بداية التفاته الى هذا الموضوع فقد التفت أيضاً الى هذا المعنى وهو انّ التحلّل والاسراف في الشهوات واللذّات المادّية والاهتمامات الجسميّة لا ينسجم اطلاقاً مع الفضائل المعنويّة والروحيّة. ولهذا يمكن اعتبار هذا الأمر ـ من الناحية التاريخيّة وفي هذه الحدود ـ من أقدم المواضيع المقبولة والمعترف بها في هذا المضمار، وكما أشرنا من قبل فانّ هذه المعاني والمفاهيم قد طُرحت لأوّل مرّة ـ حسب الظاهر ـ للناس من قِبل أنبياء الله ورسله.

ولكنّ المواضيع التي طرحها الأنبياء للناس من قبل الله تعالى لم تبق صحيحة سالمة وانّما هي قد تعرّضت ـ في طول التاريخ ـ الى أنواع من التحريف والانحراف، كما مرّت الاشارة الى ذلك. فمع انّ اصول الدين (وهي التوحيد والنبوّة والمعاد، وبعبارة اخرى هي الاعتقاد بالله والأنبياء والعالم الآخر) متماثلة ومتشابهة ولم يطرأ عليها تبديل ولا تغيير منذ بعثة أوّل نبي وحتّى آخر رسول الهيّ، ولم تختلف اطلاقاً في جميع الأديان السماويّة المتعددّة، ولكننّا نلاحظ ـ على طول التاريخ ـ وقوع انحرافات وتحريفات عجيبة وغريبة في هذا المجال. انّ عبادة الله تعالى والاعتقاد بوجود الله الواحد الأحد هو أصل غير قابل للتغيير في جميع الأديان الإلهيّة، الاّ انّ هذا الموضوع المهمّ والأساسيّ في طول التاريخ قد تبدّل الى الشرك وعبادة الأصنام، فتُركت عبادة الله سبحانه واتّجه الكثيرون الى عبادة الأصنام، وهي أصنام عجيبة غريبة يستحي الانسان ان يجري على لسانه أسماء بعضها! والاعتقاد بالأنبياء والاتّباع لهم قد ناله التحريف والانحراف أيضاً وانتهى ببعضهم الأمر الى اعتبار بعض أنبياء الله أبناء الله وصورته المتجسّدة ثمّ عبدوهم! وقد ابتدعوا أيضاً وجعلوا خرافات وأباطيل كثيرة في مجال المعاد والآخرة.

وكما حدث هذا الأمر في موضوع اصول العقائد والمسائل النظريّة فقد جرى ما يماثله أيضاً في مجال الأحكام والقوانين والمسائل العمليّة للأديان الإلهيّة، وفي هذا الجانب أيضاً حدثت باستمرار تحريفات وانحرافات. وفي بعض الأحيان كانت هذه التحريفات والانحرافات تصل الى مستوى بحيث لا يبقى ـ تقريباً ـ من تلك الشريعة الاّ اسمها فتصبح ممسوخة تماماً بحيث يتطلّب ارسال أنبياء لاحقين لكي يبيّنوا للناس الدين الواقعيّ الأصيل.

ولنأخذ بعين الاعتبار الآن انّه اذا كانت الانحرافات الواسعة قد حدثت في مجال الأحكام والمسائل العمليّة للدين وهي امور محسوسة وملموسة فإلى أيّ حدّ يكون احتمال وامكان وقوع التحريف والانحراف في مضمار المواضيع العرفانيّة التي هي غير محسوسة ولا ملموسة ولا تستطيع الألفاظ ان تعكس حقيقتها وواقعها بصورة دقيقة. انّ ألوان الانحراف والاعوجاج الواقعة في هذا البُعد من تعاليم الأديان السماويّة هي عادةً أكثر وأوسع من سائر الأبعاد.

وفي هذا السياق يعتبر الافراط والتفريط ـ وهما أمران يتورّط فيهما الانسان في كثير من المسائل ـ وكذا الأهواء النفسيّة عاملاً مؤثّراً في وقوع هذه الألوان من التحريف والانحراف.

صحيح انّ طريق العرفان واكتساب الفضائل المعنويّة هو بذاته غير منسجم مع الأهواء النفسانيّة، ولكنّنا لا ينبغي ان نغفل عن دور الشيطان اللعين الذي هو سيّد الخداع والإغواء. لقد أقسم هذا العدوّ على إغواء الانسان: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾،[1] وهو استاذ في تنفيذ أهدافه بحيث يبرّر ويفسّر الشيء الذي حقيقته اتّباع لأهواء النفس بشكل يقنع فيه

---

١. سورة ص، الآية ٨٢.

الانسان بانّ هذا هو تكليفه الشرعيّ وهو عين الفضيلة والكمالات المعنويّة والتقرّب الى الله!

اذن لا ينبغي ان ننسى انّ لجهود الشيطان أيضاً دوراً مهمّاً في هذا المجال. لقد حُرم هو ـ بسوء اختياره ـ والى النهاية من الهداية والسعادة، وهو يكرّس غاية جهده ليجرّ الناس جميعاً الى الطريق الذي سبقهم في سلوكه. والذي يحذر منه الشيطان ويبذل أقصى جهوده ليمنع الانسان منه هو الكمالات المعنويّة، وأمّا التقدّم المادّي والتمتّع برَغَد العيش في الدنيا فهو ليس ممّا يقلق الشيطان. انّه يحاول بما يستطيع ان يمنع الانسان من سلوك طريق الله والاهتداء الى الصراط المستقيم: ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.[1]

أجل انّ الشيطان يريد ان يحرم الانسان ممّا قد حرم نفسه منه. ولهذا فهو في محاولات مستمّرة ليمنع الانسان ـ بأيّة صورة ممكنة ـ من ان يخطو في المسير المعنويّ والقرب الإلهيّ، واذا استعصى عليه ذلك فانّه ـ على أقلّ تقدير ـ يحول بينه وبين الظفر بالدرجات والكمالات الرفيعة في هذا المجال.

انّ دراسة وتحليل هذا الموضوع وهو بأيّة وسائل وسبل قد تشبّث الشيطان ـ على طول التاريخ ـ ليحرف الانسان عن المسير الصحيح وليصرفه عن الظفر بالكمالات المعنويّة هو بحث واسع ومتشعّب، ويعتبر إحصاء كلّ هذه الوسائل والسبل أمراً شاقّاً ومعقّداً. ويكفينا في هذا السياق ان نعرف انّ يد الشيطان قويّة وطويلة بحيث امتدّت ـ في طول التاريخ ـ الى بعض الأشخاص فحوّلتهم من عبادة الله الى عبادة أنفسهم فادّعوا الربوبيّة! وبذلك قرّت عين الشيطان، وهي ضلالة ليس فوقها ضلالة.

ومن جملة أعمال الشيطان في هذا المضمار هو انّه في البداية يغوي ويُضلّ

---

١. سورة الأعراف، الآية ١٦.

مجموعة من الناس ثمّ يجعلهم قدوة واسوة لمجموعة اخرى منهم، وبهذه الطريقة يستدرج الكثير الى الانحراف.

وعلى أيّة حال ـ وكما تمّت الاشارة إليه ـ فانّ للاهتمام بالقضايا المعنويّة سابقةً ممتدّة في التاريخ البشريّ، كما انّ هناك اهتماماتٍ مماثلة وقديمة موزّعة بين القوميّات والامم والمذاهب المختلفة. ولعلّ أقدم الكتب التي تملكها البشريّة اليوم هي الكتب الدينيّة، ويبدو انّ أقدمها في هذا المجال هي الكتب الدينيّة للهندو. وتتوّفر في هذه الكتب مواضيع كثيرة تدور حول الروح والكمالات المعنويّة والروحيّة، ولا تفوتنا الاشارة الى انّ أغلب هذه المواضيع قد نالها التحريف لكنّ الباحث يجد أحياناً بعض الامور الرائعة جدّاً منبثّة فيما بينها.

وفي هذا السياق أتذكّر موضوعاً قرأته في أحد هذه الكتب وخطر في بالي كأنّي اقرأ ترجمة لسورة التوحيد: «**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ**». فمع انّ مجموعة الهندو تعبد الأصنام وروح شريعتهم لا تنسجم مع التوحيد، لكنّه مع ذلك توجد أحياناً في كتبهم مثل تلك المواضيع الممتازة. وصحيح انّ مثل هذه المسائل الجيّدة اذا قورنت مع ذلك الكمّ الكبير من المواضيع المحرّفة فانّها تفقد أصالتها الاّ انّ وجودها يدلّ علي انّ أساس هذه الكتب كان صحيحاً ومقتبساً من تعاليم أنبياء الله ولكنّها تعرّضت للانحراف والتحريف تدريجيّاً حتّى انتهىٰ بها الأمر الى ان تتحوّل شريعة موحّدة الى طريقة مشركة قائمة على عبادة الأصنام كما هي اليوم بين أيدينا.

وتوجد في القرآن الكريم أيضاً شواهد تدلّ على هذا الأمر، مثل هذه الآية التي تؤكّد على انّ الله تعالى قد بعث رسولاً أو نبيّاً الى كلّ امّة: ﴿**وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاّ خلا فِيهَا نَذِيرٌ**﴾[1]، ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ**

---

١. سورة فاطر، الآية ٢٤.

اعْبُدُواْ اللهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾[1] . ونحن نعتقد انّ الله سبحانه قد أرسل الى الناس مائة وأربعة وعشرين الف نبيّ، بينما نحن نعرف اسماء ما يقرب من ستّة وعشرين شخصاً منهم ولدينا إلمام مختصر بتاريخهم، وأمّا بالنسبة الى البقيّة فلا نملك معلومات عنهم، فلا ندري في أيّ زمان وأيّ مكان ولأيّة امّة قد بُعثوا. ومن هنا فليس من المستبعد ان يكون بعض الأنبياء قد بعثوا قبل آلاف السنين الى الناس القاطنين في الهند والصين واليابان وسائر أقطار العالم وانّهم قد أبلغوا الناس دين التوحيد، إلاّ انّ دين التوحيد هذا قد تحوّل تدريجيّاً ـ ونتيجةً لألوان التحريف والانحراف ـ الى الشرك وعبادة الأصنام، ونحن نعلم انّ مثل هذا الأمر قد حدث في بعض الموارد كما في شبه الجزيرة العربيّة.

وكمثال على هذا نذكر اليهود، فهم من أشهر الأُمم في العالم في مجال الاهتمام بالماديّات والتفكير الماديّ وعبادة الدنيا، ولكن يوجد بينهم أيضاً عرفاء كبار بذلوا جهوداً جبّارة في الشؤون المعنويّة واشاروا الى معارف راقية في مضمار معرفة الله وصفاته العليا.

ومن الغريب حقّاً وجود مثل هؤلاء الأشخاص في وسط امّة تميّزت بالاهتمام المفرط بالمادّيات واللذّات والشهوات الدنيويّة بحيث تحوّلت هذه الامور لتشكّل طبيعة ثانويّة لهذا الشعب. وهذا يبيّن انّه من المحتمل وجود مثل هذه الاهتمامات في البداية عند الشعب اليهوديّ ولكنّها اضمحلّت بعد ذلك تدريجيّاً فأصبحوا اليوم كما يعرف الجميع. وهناك احتمال آخر أيضاً وهو انّ هذا العدد القليل من اليهود الذين نالوا درجات عالية في العرفان والمعنويّات قد اقتبسوا هذه الامور من سائر الامم والأقوام.

وفي هذا المضمار يعتبر المسيحيّون ارقى من سائر الأُمم وأتباع الأديان

---

۱. سورة النحل، الآية ٣٦.

الاخرى (اذا استثنينا الاسلام والمسلمين) في الاهتمام بالمعنويّات والكمالات الروحيّة والعرفانيّة. والسبب في ذلك هو انّ حياة المسيحيّين قد اقترنت ـ منذ البداية ـ بمحاولات الترويض والرهبانيّة وترك الدنيا. والعامل المهمّ في هذا الموضوع هو انّ الحواريّين من أصحاب عيسى عليه السلام لمّا تعرّضوا لضغوط شديدة من قبل أبناء المجتمع الذي كانوا يعيشون فيه فقد لجأوا الى الجبال والصحارىٰ وعاشوا في ظروف صعبة جدّاً. وهذا اللون من الحياة التي عاشها حواريّو عيسى عليه السلام تحت ظروف قاهرة قد أيّده الله سبحانه ورضي به تلويحاً في قوله تعالى: ﴿**وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إلاّ ابْتِغَاء رِضْوَانِ الله**﴾[1]. ومن هنا فانّ العجب لا يستولي علينا اذا قرأنا أو سمعنا عن المسيحيّين انّ لهم اهتماماتٍ واسعةً بالقضايا المعنويّة والمسائل الروحيّة. ونلاحظ اليوم أيضاً وجود أفراد ـ بشكل أو بآخر ـ بين المسيحيّين وهم يتمتّعون بمثل هذه الآفاق الروحيّة.

وعلى كلّ حال فمن المسلّم تقريباً انّ أصل موضوع الاهتمام بالفضائل المعنويّة والكمالات الروحيّة هو أمر تمتدّ جذوره الى الدين وتعاليم الوحي ويعدّ من جملة ثمراته، ولاسيّما على أساس اعتقادنا الذي يقرن بين ظهور اوّل فرد من الانسانيّة (و هو سيّدنا آدم عليه السلام) وظهور اوّل دين الهيّ، حيث انّ هذين الظهورين قد انطلقا في زمن واحد.

ومن ناحية اخرى فقد ظهرت في هذا السياق وخلال آلاف السنين فِرَق ومسالك ومذاهب متعدّدة. ودراسة وتحليل كلّ فرقة ومذهب من هذه الفرق والمذاهب والتأمّل في تاريخها واهتماماتها وأفكارها وعقائدها وعلاقاتها وماقام به زعماؤها من خدمات وخيانات، أنّما هو بحث مفصّل

---

١. سورة الحديد، الآية ٢٧.

يحتاج الى دراسة مستقلّة، ونحن لا ننوي القيام بهذه المهمّة في هذا الكتاب. والمهمّ بالنسبة إلينا هنا هو معرفة العرفان الاسلاميّ الصحيح والطريق السليم للسير والسلوك نحو الله سبحانه.

و نحن نعلم ـ إجمالاً ـ انّ هناك طوائفَ مختلفة قد ظهرت بين المسلمين وكلّ واحدة منها تدّعي الاسلام والعرفان الحقيقيّ النقيّ من الشوائب. ونحن نحاول هنا ان ندرس ونقدّم المعيار والميزان لتمييز الحقّ من الباطل والصحيح من الخطأ في هذا المجال، وبالتالي نمهّد الأرضيّة الى حدّ مّا للظفر بالعرفان الاسلاميّ الأصيل. وفي هذا السياق نملك القرآن الكريم بعنوان انّه السند المحكم والمصدر الموثوق به بحيث يستطيع ان يصبح لنا المرشد الصادق والأمين. ونحن نستطيع ـ ببركة القرآن ـ ان نهدي طلاّب الحقيقة والذين لا يخفون اهدافاً منحرفة الى الاسلام الواقعيّ وتعاليمه النقيّة.

وممّا تجدر الاشارة اليه في هذا المجال هو انّه لا ينبغي ان نغفل عن انّ كثيراً من الاختلافات تمتدّ جذورها الى الأهواء والرغبات، ولا علاقة لها بالاستدلال والبرهان والمنطق. ومن الطبيعيّ عندئذ انّ مثل هذه الاختلافات لا يتيسّر حلّها بالبحث العلميّ والدليل والبرهان والرجوع الى القرآن والروايات. فالذي لا يريد ان يذعن للحقّ وهو يحبّ العمل حسب أهوائه حتّى لو قُدّم له ألف دليل فانّه سوف لن يستسلم للحقّ بل سوف يجيب كلّ هؤلاء بقوله: «انّ هذه الأدلّة لم تستطع ان تقنعنى»!

وخلاصة القول فنحن نبذل غاية جهدنا لنقدّم ميزات ومعايير العرفان الصحيح ـ من دون ان نتعامل بالعداوة والأغراض الشخصيّة مع أيّة فرقة وأيّ شخص وانّما نقوم بذلك بعنوان القيام بالواجب الإلهيّ ـ ليتيسّر للراغبين ان يحكموا بأنفسهم وان لا يقعوا في مصيدة الأشخاص المنحرفين والفئات الضالّة.

الأسرار الخفيّة

نحن نواجه اليوم طوائف مختلفة بين المسلمين وهي تتحدّث عن العرفان والحقائق العرفانيّة، وتعلن انّ لها آداباً وتقاليد وأساليب خاصّة في هذا المجال أيضاً. وما نلاحظه في الوقت الحاضر هو في الواقع استمرار لحركة متواصلة بدأت منذ عهد صدر الاسلام ثمّ اتّسعت تدريجياً واتّصفت بكثير من حالات الصعود والهبوط. ففي صدر الاسلام كان هناك اشخاص يطلق عليهم اسم «الزهّاد» ويوصفون في بعض الأحيان بصفات اخرى، والجذور الاولى لهذه الحركة تعود الى هؤلاء. وكما هو واضح من الاسم الذي يطلق عليهم فانّ هؤلاء الأشخاص يعتمدون على الزهد والابتعاد عن زخارف الدنيا ولذّاتها. ثمّ بالتدريج اُضيفت اشياء اخرى الى ذلك فظهرت مذاهب وطرق خاصّة تتميّز بآداب وتقاليد معيّنة ويطلق عليها اسم «التصوّف» وأمثال ذلك عند بعض الطوائف من المسلمين. ومن المحتمل جدّاً ان يكون كثير من هذه الآداب والتقاليد مأخوذاً من غير المسلمين. وفي بعض الأحيان يتمسّكون بمبرّر يقول انّ الاسلام لم يعيّن اسلوبا خاصّاً في هذا السياق، ولهذا فانّ من حقّ كلّ أحد ان يختار الطريق الذي يراه مناسباً للوصول الى هذا الهدف. وبالاضافة الى ذلك فقد حاول البعض القيام بألوان من الاستنباط والإستيحاء من بعض الآيات والروايات ثمّ تطبيقها على الأساليب الموجودة عند غير المسلمين. ومن البيّن انّ العلاقات المباشرة مع سائر الامم والقوميّات كان لها شيء من التأثير على ظهور هذه المجموعة.

وعلى كلّ حال فقد تضافرت هذه العوامل وأنتجت مذاهب وطرقاً مختلفة اتّخذت لنفسها اسم «العرفان» أو «التصوّف» في أوساط المسلمين.

والاسلوب والسلوك المهمّ والعامّ لغير المسلمين في هذا المجال هو

إضعاف القوى البدنيّة وعدم الاهتمام بالشؤون الماديّة. وفي هذا العصر نلاحظ أيضا وجود بعض الآداب والتقاليد الخاصّة المنتشرة بين طوائف متنوّعة من الهندو ـ ولاسيّما أصحاب «الجوكى» ـ وأهمّها اسلوب «السيطرة على النفس»، فهم يبذلون قصارى جهدهم ليفرضوا على أنفسهم ألواناً من الرياضة المعنويّة بهدف تقوية قدرتهم الروحيّة.

ونذكر مثالاً على ذلك موضوع الطعام فهؤلاء يقلّلون من تناولهم للطعام الى الحدّ الذي تمرّ عليهم أيّام متعاقبة لا يأكلون فيها شيئاً سوى حبّات معدودات من اللوز. ومن جملة ما يقومون به هو انّهم يقلّلون تدريجيّاً من احتياجهم الى التنفّس ونتيجةً لذلك فهم يتمكّنون من حبس أنفاسهم لفترات طويلة. وهم يعتقدون انّ هذه الأعمال تقوّي أرواحهم وتزيد في قدرتهم الروحيّة. وعلى كلّ حال فانّ للمرتاضين من الهنود مثل هذه الآداب والتقاليد وهم يفرضون على أنفسهم الواناً من الرياضة، وأمّا من الناحية العمليّة فانّهم يظفرون ببعض الآثار والنتائج وينالون شيئاً من القدرات الروحيّة.

ويُلاحظ بين المسلمين أيضاً وجود بعض الطوائف من المتصوّفة والمنسوبين الى العرفان الاسلاميّ وهي قد اقتبست ـ بشكل أو بآخر ـ بعض هذه الآداب والتقاليد، وهم يقترحونها بعنوان انّها طريق للوصول الى المعرفة. ويقدّم هؤلاء تبريراً لهذا الموقف وهو: صحيح انّ الاسلام لم يبيّن هذه المواضيع ولم يقترح هذه الطرق، ولكنّ اتّخاذ مثل هذه الأساليب يشبه «الرهبانيّة» التي اتّخذها حواريّو عيسى ﷺ، فصحيح انّهم أسّسوها وابتدعوها ولكنها لم تهاجَم من قبل الله عزّ وجلّ. وفي بعض الموارد زعم البعض انّ هذه المواضيع قد وردت في الكتاب والسنّة، وحاول هؤلاء

بتفسيراتهم وتبريراتهم حمل بعض آيات القرآن الكريم والروايات الاسلاميّة على هذه المضامين وتطبيقها عليها.

لكن هل يمكن حقّاً ان نصدّق بانّ الاسلام القائل بانّ معرفة الله تتميّز بأعظم شأن وهو يضفي عليها الأهميّة القصوى، وهو مع ذلك لم يبيّن طريقاً محدّداً للظفر بهذه المعرفة وانّما تركها على عاتق الأفراد ليتّخذ كلّ واحد منهم ما يراه مناسباً في هذا المضمار؟! أيمكننا ان نصدّق بانّ الاسلام لا يتمتّع في هذا المجال بأيّ اسلوب وطريق خاصّ، بل أوكَلَ هذا الامر المهمّ الى كلّ شخص ليخترع ايّ طريق يراه مناسباً أو ليقتبسه من الآخرين؟! انّ هذا الموضوع لا يمكن قبوله على الاطلاق.

فهل من المعقول بالنسبة الى الدين الذي توجد فيه احكام متعدّدة للشؤون التفصيليّة في الحياة اليوميّة (مثل: الأكل والشرب والنوم و...) لكنّه بالنسبة الى هذه المسألة التي هي أهمّ المسائل فانّه لم يُعرها أهميّة ولم يتحدّث عنها بشيء؟! الدين الذي اهتمّ بأكثر التفاصيل في الحياة ووضع لها أحكاماً هل يمكن ان يترك أتباعه في أهمّ مسألة بحيث يُحيلهم فيها الى الاقتباس من الآخرين أو العمل بما تمليه عليهم رغباتهم وأذواقهم فيبتدعون ويخترعون طرقاً كما يشاءون؟! ليس الأمر هكذا قطعاً.

وأيضاً لا يمكن التصديق بأنّ مثل هذه المسألة المهمّة قد دسّها بصورة خفيّة وجعلها سرّاً تحت تصرّف بعض الأفراد وأخفاها عن سائر الأفراد.

انّ كثيراً من المتصوّفة يزعم انّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام قد بيّنوا طريق السير والسلوك لبعض الأفراد وبصورة سريّة، وقد نُقلت هذه الأسرار من صدر الى صدر حتّى انتهت الينا.

وللتقريب الى الذهن ـ وبلا تشبيه ـ نقول: كما نعتقد نحن بأنّ الامام

المعصوم يأخذ ودائع الامامة من الامام المتقدّم عليه فانّ الصوفيّة يعتقدون بـ «القطب» ويزعمون انّ القطب يتلقّى الأسرار الالهيّة وطريق السير والسلوك من القطب المتقدّم عليه، ويتعيّن على الآخرين ان يجلسوا الى مائدة القطب ويتناولوا منها ليصلوا الى المعرفة الالهيّة، ولا يوجد أيّ طريق آخر غير هذا.

ومن الواضح انّنا لا ننكر وجود بعض المواضيع التي لايستطيع ان يدركها أيّ انسان، ولهذا يتلقّاها البعض بصورة اسرار، إلاّ انّ هذا الموضوع لا يتعلّق ببيان أصل الطريق، وانّما هو صادق بالنسبة الى بعض درجات ومراتب المعنويّات والكمالات العرفانيّة. فهناك قطعاً بعض المراتب من المعنويّات والشؤون العرفانيّة التي لا يتيسّر فهمها لبعض الأشخاص، واذا حاول البعض ان يبيّنها ويصبّها في قالب الألفاظ فانّ حقيقة تلك المعاني لا تتضّح، ولا يستطيع الأفراد العاديّون ان يفهموا تلك الحقائق من خلال هذه الألفاظ. لكنّ القول بانّ بعض الناس ـ في بداية الطريق ـ لا قدرة لهم على ادراك وفهم بعض المواضيع هو غير القول بانّ تقديم اصل الطريق هو أمر سرّي لا يتيسّر للجميع فهمه وهضمه. فمن أين نبدأ وفي أيّ طريق نسير هو أمر يفهمه الجميع. وفي هذا السياق لا يصحّ القول بانّ طريق السير والسلوك الى الله تعالى يتميّز بآداب وتقاليد سريّة لا يعرفها الاّ «القطب»، وأمّا الآخرون فلابدّ ان ينحنوا أمام القطب لكي يظفروا بشيء من ذلك! ومن حقّ القطب ان يزوّد أيّ أحد بما يراه صالحاً من تلك الأسرار وبالمقدار الذي يراه لائقاً به. لا شكّ انّ اسس وقواعد السير والسلوك الحقيقي قد بُيّنت في الكتاب والسنّة وهي في متناول الجميع، وأيّ شيء من هذا الطريق كأن أهمّ من غيره فانّه قد تمّ التأكيد عليه أكثر من سواه.

أمّا السبب الذي أدّى ببعض المسلمين لكي يتّجهوا الى الآخرين

ويقتبسوا من آدابهم وتقاليدهم فهو بحسب الظاهر انّهم لاحظوا وجود بعض الأحكام والمواضيع في الاسلام وهي تهتّم كثيراً بالشؤون المادّية والدنيويّة. فلا شكّ ولا ريب في انّ هناك قسماً كبيراً من الأحكام والمعارف الاسلاميّة التي تتعلّق بمواضيع من قبيل التجارة والمعاملات والزواج وتنظيم العائلة وآداب السفر والمعاشرة وأمثالها وهي كلّها ترتبط بالشؤون الدنيويّة والماديّة. فالبعض قد برّر وجود مثل هذه المواضيع في الاسلام ـ وهي بذاتها امور ماديّة ودنيويّة وتبدو للناظر انّها تتنافى مع الالتفات التامّ للقلب والروح الى المعنويّات والامور العرفانيّة ـ بأنّها قد نزلت بسبب الضرورة وحسب مقتضيات الزمان وبما يتناسب مع وضع الغالبيّة في المجتمع، وأما المقصود الأصلي للاسلام فهو مواضيع ومسائل اخرى. وتلك المواضيع الأصليّة والأساسيّة أيضاً لمّا كانت غير متناسبة مع وضع وحالة أكثر الناس في المجتمع لذا فقد تمّ بيانها بصورة سريّة لبعض الخواصّ فقط، وفي الوقت الراهن أيضاً هي تحت تصرّف «القطب» فقط، ولابدّ للآخرين ان يلجأوا إليه وان يتلقّوا منه.

وهذه الرؤية للاسلام هي التي دفعت البعض تدريجيّاً للقول بانّ للدين وجهين وبُعدين هما «الشريعة» و«الطريقة»، واطلقوا على «الشريعة» اسم ظاهر الدين وقالوا انّها أُنزلت لعامّة الناس والسطحيّين والمهتمّين بالظواهر، واعتبروا «الطريقة» هي الهدف الأصليّ للدين وقد بُيِّنت للخواصّ وأهل المعنى والباطن. ومن هنا قال بعضهم: اذا تجاوزتَ ظاهر الدين وقشرته ووصلتَ الى باطنه ولُبّه فانّه عندئذٍ لا يتحتّم عليك العمل بالأحكام الظاهريّة للدين ولا أهميّة حتّى لأداء الصلاة أيضاً!

انّ مثل هذه الأفكار الساذجة والباطلة قطعاً هي من المظاهر الواضحة

لمكر الشيطان وخداعه. وقد أشرنا من قبل الى انّ الشيطان يبذل غاية جهده ليصرف الناس ـ بأيّ شكل وبأيّ طريق ـ عن سبيل الله والتعبّد له، ويُعتبر هذا الأمر أيضاً من جملة مصائد الشيطان التي نصبها، وبواسطتها قد ورّط كثيراً من الأفراد وجرّهم الى الضلال.

والحقيقة هي كما انّ الاسلام قد أضفى على معرفة الله أرفع القيم، فانّه أيضاً لم يقصّر ولم يبخل بشيء في مجال هداية الناس للوصول الى هذه المعرفة. فالاسلام العظيم قد أكدّ على الخطوط الرئيسيّة والمهمّة لهذا البرنامج، وكلّ ما كان أكثر أهميّة وضرورة للوصول الى هذا المقام، فقد أكّد عليه الاسلام وأوصى به أكثر. ولم تختصّ هذه الأوامر والتأكيدات بفئة معيّنة وانّما الجميع يستطيعون ان يعلموا بها وان يفهموها وان يعملوا بها. ومن الواضح انّ الاسلام يمتاز بكون برامجه ومعارفه قد نُظّمت بشكل رائع بحيث يستطيع أيّ انسان ان يستفيد منها بمقدار معرفته وأهليّته وظرفيّته وان يقطع شوطاً من مسيرة التكامل الانسانيّ والمعنويّ.

انّ الله سبحانه وتعالى يريد لنا ـ أكثر ممّا نريد نحن لأنفسنا ـ ان نكون طالبين للسعادة والكمال. فهو عزّوجلّ أقرب الينا من أيّ أحد آخر، ومحبّته لنا هي أكثر حتّى من محبّتنا لأنفسنا. وقد ورد في الروايات ان محبّة الله لعبده هي أشدّ من محبّة الأُمّ لولدها. أجل انّ محبّة الأُم لولدها ليست سوى ظلّ بسيط ومحدود للمحبّة الالهيّة اللانهائيّة. وبعثة الأنبياء هي أيضاً نتيجة لمحبّة الله لخلقه، فالله تعالى قد بعث الأنبياء لهداية الناس لفرط محبّته ايّاهم. انّ هذه المحبّة تقتضي ان يبيّن الله سبحانه للناس طريق الوصول الى الكمال بأقرب صورة وأفضل وجه ممكن ويضع ذلك تحت تصرّفهم. فاذا كانت محبّة الله قد اقتضت ان يرسل لهداية الناس أعزّ مخلوقاته، وان يتحمّل هؤلاء ألوان الخطر

والمشقّة من أجل ان يهتدي الناس الى الصراط المستقيم، فانّه من الطبيعيّ جدّاً ان تقتضي تلك المحبّة ان يضع الله جلّ شأنه وبواسطة الأنبياء أفضل ألوان الهداية وأقرب الطرق إليها تحت تصرّف الناس.

فهل هناك ـ معاذ الله ـ بخل في وجود الله جلّت قدرته! أم هل هناك تقصير في ابلاغ الرسالات الإلهيّة من قبل الأنبياء الكرام؟ فهل يمكن ان يتصوّر أحد انّ الله تعالى ـ مع كلّ تلك الرحمة اللانهائيّة والمحبّة العميقة لعباده ـ يبخل في دلالتهم على أفضل وأقصر الطرق المؤديّة الى الهدف الذي خُلقوا من أجله؟ أيّ شيء يمكن ان يشكّل مانعاً من ان يبيّن الله لعباده أفضل وأقرب الطرق المؤدّية الى كمالهم؟ ان يكون الله سبحانه قد بخل ومنع الناس من تلك الأسرار المكتومة واحتفظ بها لأفراد معيّنين انّما هو احتمال لايمكن فرضه بالنسبة الى الذات الالهيّة المقدّسة. فالله تعالى ليس بخيلاً اطلاقاً في الدلالة على الطريق وهداية الناس. وكذا الأنبياء الذين يتحمّلون رسالة إيصال هذه الهداية الى الناس فهم جميعاً معصومون وهم بريئون من أيّ قصور أو تقصير في القيام بهذه الرسالة. فالأنبياء لم يختصّوا بعض العباد ـ بسبب علاقات الصداقة أو القرابة بينهم ـ بالرسالات الالهيّة بحيث يحرمون الآخرين منها!

ومن الواضح ـ كما أشرنا من قبل ـ انّ للمعارف الالهيّة درجاتٍ ومراتبَ مختلفة، وانّ أيّ شخص لا يتمتّع بالأهليّة لادراك تلك الدرجات المتفاوتة للمعرفة. وهذا أمر مسلّم يتمّ بحثه في مجاله، ولكنّ الأشخاص المؤهّلين للوصول الى كمال معيّن فانّه لابدّ ان يوضَع تحت تصرّفهم ـ وبما يتناسب مع مؤهّلاتهم ـ طريقَ الوصول الى ذلك الكمال.

وصحيح انّه قد ورد بالنسبة للأنبياء: «**انّا معاشرَ الأنبياء نُكلّم الناس على**

قدر عقولهم»،[١] لكنّ هذا الكلام لا يعني انّ طرق التقرّب قد أُخفيت عن الناس وانّها قد بُيّنت لبعض الأشخاص فحسب. إنّ الأنبياء قد بيّنوا المواضيع بشكل ينتفع منه كلّ شخص بمقدار فهمه ومؤهّلاته. وبعبارة اخرى، انّهم قد بيّنوا الطريق بشكل يستطيع فيه كلّ أحد ان يتقدّم فيه ويقطع خطوات منه بمقدار همّته. ومن الطبيعيّ عندئذ انّ كلّ مَن يتمتّع بهمّة أعلى وأرفع فهو سوف يحقّق تقدّماً أكبر في هذا الطريق وسوف ينال درجات أسمى وأهمّ في مجال الكمال.

ومن هنا يتّضح السرّ في وجود طائفتين من الآيات والروايات احداهما «محكمة» والاخرى «متشابهة»، وأيضاً يتبيّن السرّ في انّ للقرآن والروايات «ظاهراً» و«باطناً». فالسرّ في هذا الأمر هو انّ هناك افراداً مؤهّلين للتأمّل والدقّة بحيث يستطيعون الانتفاع من تلك المعارف الراقية والعميقة، بينما يوجد أشخاص آخرون يعيشون في مستويات أدنى من اولئك، وهؤلاء قادرون على الانتفاع من ظواهر ومحكمات القرآن والروايات.

وعلى أيّة حال فانّ الله تعالى وأنبياءه الكرام وأولياء الدين لم يقصّروا ولم يبخلوا في الدلالة على أفضل وأقصر الطرق للوصول الى المقصد النهائيّ، وأمّا الدرجات المختلفة للأشخاص في ظفرهم بمدارج الكمال فهي تعود الى اختلافهم في بذل الجهد والهمّة وفي استعمال الدقّة والتأمّل.

تبيين معالم العرفان الصحيح على أساسٍ تحليليّ عقليّ

من أجل تبيين أبرز معالم العرفان الإسلاميّ، سنطرح المسألة في البدء من خلال بيان عقليّ تحليليّ، ومن ثمّ نستعين بالآيات القرآنيّة وبأحاديث المعصومين عليهم السلام وسيرتهم في هذا المجال. لكنّ البيان التحليليّ لأبرز تلك المعالم هو رهن بجملة مقدّمات:

---

١. بحار الأنوار، ج ٢، ص ٢٤٢، الباب ٢٩، الرواية ٣٥.

المقدّمة الأولى: إنّ حقيقة العرفان ـ كما مرّ ذكره في الفصل الأوّل ـ هي عبارة عن الرؤية والمشاهدة القلبيّتين للباري تعالى. وقد قلنا إنّ العرفان هو معرفة الله تعالى، ومعرفة صفاته وأفعاله، وهي معرفة لا تكون عن طريق الفكر والاستدلال، بل تحصل من خلال الإدراك القلبيّ، والتلقّي الباطنيّ، إذ ليس المراد من العرفان هو معرفة الله غيابيّاً، أو عن طريق العقل والبرهان، بل المراد منه هو معرفته من خلال القلب، وبرؤية حضوره في الروح.

كما أنّ العرفان العمليّ هو المنهاج المعدّ لهذا الغرض، حيث تكون الغاية منه هي إيصال الإنسان لمثل هذه المنزلة. وقد اصطلح العرفاء على هذا المقام والمنزلة باصطلاحات شتّى، إلاّ أنّنا لسنا هنا في صدد مناقشة الألفاظ والخوض في الأسماء. كما ورد ذكر هذا المقام في الأدعية والمناجاة المأثورة عن المعصومين عليهم السلام بتعابير نظير «القرب» و«الوصول».

من جانب آخر فقد وُضِّح في محلّه أنّ روح الإنسان هي حقيقة مجرّدة، ولذا فإنّ الشيء الذي من شأنه أن يسهم في كمال النفس الإنسانيّة لابدّ أن تكون له سنخيّة معها؛ أي أن يكون من سنخ المجرّدات.

والنتيجة المستخلصة من هذا البيان هي أنّ كمال الإنسان هو من سنخ العلم والمعرفة، وأنّ تكامل الروح هو رهن بتكامل معرفة الإنسان، لكنّ تلك المعرفة الموجِبة لكمال النفس هي أوّلاً: ليست معرفة حصوليّة، بل هي معرفة وعلم حضوريّان، وثانياً: إنّ المراد من هذه المعرفة الحضوريّة هي المعرفة الحضوريّة بالنسبة لله عزّ وجلّ. من هنا فإنّه كلّما ازدادت معرفة المرء الحضوريّة بالله سبحانه وتعالى، تكاملت روحه بنفس تلك النسبة[١].

---

١. لمزيد من المطالعة في هذا المجال راجع كتاب «معرفة الذات لبنائها الجديد»، ص ٢٧ـ٧٤؛ و«على طريق بناء النفس»، ص٧٩ـ٢٧٨ (بالفارسيّة) لآية الله الشيخ محمّد تقي مصباح اليزديّ.

المقدّمة الأخرى: إنّ الوصول إلى مثل هذه المنزلة ليس هو آخر مراتب الكمال الإنسانيّ فحسب، بل إنّ الهدف النهائيّ الذي ابتغاه الله سبحانه وتعالى من خلقة الإنسان هو هذا أيضاً؛ فالله يصرّح في القرآن الكريم: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[1]. إذن هدف الله تعالى من خلقة الإنسان هو بناء «العبد« أوّلاً، و«عبوديّة» هذا العبد هي المنزل المقصود الذي لابدّ للمرء من الوصول إليه ثانياً. وبالطبع، إنّ صيرورة المرء عبداً هي بحدّ ذاتها مقدّمة «للتقرّب» و«الوصول» إلى الله. ومن هذا الباب فإنّه ليس للعرفان العمليّ غاية غير هذا الهدف النهائيّ للخلقة؛ ألا وهو إيصال الإنسان إلى تلك النقطة التي قصدها الله تعالى من خلقته.

المقدّمة الثالثة: بما أنّ الله سبحانه وتعالى «حكيم»، فإنّ كلّ ما أودعه في وجود الإنسان هو وسيلة لبلوغ الهدف الخاصّ الذي حدّده تعالى لخلقته. وهذه أساساً هي قاعدة عامّة مفادها: عندما يصنع أيّ حكيم مصنوعاً ما لهدف خاصّ فإنّ كلّ ما يأخذه في حسبانه على صعيد تصميمه وكلّ ما يستعمله في صناعته يكون من أجل الوصول لذلك الهدف، ولا يمكن بتاتاً أن يُدخِل فيما صنعه أموراً تكون مجرّدة تماماً من الفائدة والحكمة، أو إنّها زائدة، أو ضرب من اللغو، أو ـ الأسوأ من ذلك كلّه ـ أن يُدخِل في تركيبه أموراً تخرّبه وتعيق تقدّمه. من هذا المنطلق، فإنّ كلّ ما وضعه الله جلّ وعلا ـ وهو الحكيم المطلق، ومنبع الحكمة ـ في متناول الإنسان، وكلّ ما أدخله في تركيبته الوجوديّة فهو حتماً يقع في إطار الأسباب للوصول إلى الهدف النهائيّ لخلقته.

بالالتفات للمقدّمات الآنفة الذكر يصبح من الجليّ أنّ أوّل خصوصيّة لابدّ أن تتوفّر في منهج عرفانيّ جامع ومتكامل هي «شموليّة» هذا المنهج.

---

۱. سورة الذاريات، الآية ٥٦.

وعلى أساس ما قدّمناه من بيان وتحليل فإنّ العرفان الذي عنيناه هو ذلك العرفان الذي يكون حصيلة توظيف المرء لجميع إمكاناته وقابليّاته وقواه. ففي العرفان الذي يتّخذ المسير الصحيح ليست القضيّة بتاتاً أنّ بعض قوى الإنسان ومواهبه وإمكاناته الوجوديّة يتلاءم مع هدف ذلك العرفان، والبعض الآخر يكون غير مناسب له تماماً، أو قد يكون متعارضاً معه.

طبقاً لما سبق ذكره من بيان فإنّ الله الحكيم الذي خلَقَنا لم يُودِع في كياننا الوجوديّ شيئاً إلاّ من أجل أن نستخدمه لبلوغ الغاية. وعلى أساس هذا التحليل لا يعود من معنى لقولنا: إنّ بعض تلك الثروات والقابليّات الوجوديّة التي جعلها الله سبحانه تحت تصرّفنا ليس لها دور إطلاقاً في وصولنا إلى المقصد، أو إنّ وجودها لغْو، أو حتّى إنّ فيه نوعاً من التضادّ، وإنّ علينا إزالتها بالكامل ومحوها من صفحة وجودنا ولوح ضميرنا! هذه المسألة ليست بحاجة إلى آية أو رواية، بل حتّى إذا لم يكن هناك ما يؤيّدها من نصّ قرآنيّ أو حديث شريف فإنّ عقلنا يدرك، بصورة مستقلّة وبالاستناد إلى الحكمة الإلهيّة، أنّ كافّة القوى والإمكانات والملكات التي أودعها الله عزّ وجلّ في كيان الإنسان هي مرتبطة ـ بشكل أو بآخر ـ بكماله النهائيّ وبالهدف المقصود من خلقته، وليس الأمر أنّ بعضاً منها لغو وعديم الفائدة، فضلاً عن أن يكون مضرّاً أو مخرّباً.

إذا ما أردنا تبيان هذا المبحث بلغة العرفان، وباستخدام اصطلاحات العرفاء فنحن نقول: إنّ مقام «الإنسان الكامل» هو مقام «مظهريّة جميع الأسماء والصفات الإلهيّة»، وإنّ الإنسان الكامل ـ الذي هو المقصود النهائيّ للعرفان ـ هو ذلك الإنسان الذي تظهر وتتجلّى فيه جميع أسماء الله وصفاته. وبعبارة أخرى، إنّ كلّ ما أُودِع في وجود الإنسان هو فعل من

أفعال الله تعالى، وإنّ منشأه هو اسم أو صفة من أسمائه أو صفاته عزّ وجلّ. من هنا فإنّ منتهى الكمال الإنسانيّ هو أن يتمكّن المرء من التمتّع بكلّ تلك الأسماء والصفات الإلهيّة التي كانت منشأً لوجوده، ويُصيِّر من وجوده مرآة ومظهراً لها جميعاً. فلو كان المرء محروماً من بعض تلك الأسماء والصفات، ولم يستطع أن يُبرزها ويجَلّيها في وجوده، فهذا في الحقيقة علامة على ضعف ونقص في وجوده، وليس دليلاً على قوّة نفسه وكمالها.

بناءً على هذا، فإنّ أوّل خصوصيّة يتعيّن توفّرها في عرفان صحيح وحقيقيّ هي «**شموليّته**». فإن أغفل أحد المناهج أو إحدى المدارس العرفانيّة بعض قابليّات الإنسان وقواه وجمّدها بالكامل، وعدّ الاهتمام بها ضرباً من اللغو، وأنّه عديم الفائدة، بل واعتبره مضرّاً، ومانعاً لتكامل النفس الإنسانيّة، فإنّ ذلك أمارة على انحراف هذه المدرسة العرفانيّة، وشاهدٌ على ضعف ونقص في المنبع الذي تستقي منه تعاليمها.

ومن هنا نستخلص المَعلَم والخصوصيّة الثانية للعرفان الإسلاميّ الصحيح ألا وهي «**عدم مخالفته للفطرة**»، أو بعبارة أخرى، «**مطابقته للفطرة**». وطبقاً لما قدّمناه من مقدّمات وعرض تحليليّ في تبيين الخصوصيّة الأولى للعرفان الإسلاميّ الصحيح، فإنّ الله تعالى الحكيم، مضافاً إلى تزويده لوجود الإنسان بالقوى والقابليّات والإمكانات، فإنّه قد زرع فيه الميل والرغبة لاستخدام تلك الإمكانات والإفادة منها. بتعبير آخر، إنّ جميع الميول التي أُودعت في طبيعة الإنسان هي ذات صلة ـ بصورة أو بأخرى ـ بكماله وإيصاله إلى الهدف الذي خُلِق من أجله. فالله قد غرس في الإنسان هذه الميول من أجل أن تحفزه على القيام بما ينتهي به إلى الكمال. وبناءً عليه، فإنّ هذه الميول، التي وُجِدت في طبيعة الإنسان على نحو

فطريّ، من شأنها أن تكون دليلاً ومرشداً مناسباً لتحديد وجهة سير المرء صوب كماله الحقيقيّ.

فلو لم يكن لأساس وجود ميلٍ ما (بصرف النظر عن كمّه وكيفه) أيّ صلة بتحقّق الكمال الإنسانيّ، بل وكان على الضدّ منه، ومخالفاً له بالكامل، لاستلزم هذا اللغويّة أو نقض الغرض، وكلاهما بعيد عن ساحة الربّ الحكيم. لذا، لا يمكننا القبول بأنّ أمراً ما يكون مقتضى الفطرة وأنّ فطرة الإنسان تطلبه، وهو في ذات الوقت أجنبيّ عن الكمال الإنسانيّ ومتناقض ومتضادّ معه. من هذا المنطلق، لا يمكن لمنهج عرفانيّ حقّ وصحيح أن يشتمل على تعاليم تخالف الفطرة أو أنّ الفطرة الإنسانيّة لا تطيقها. فإن كان الأمر كذلك فهذا إشعار بأنّ تلك المدرسة العرفانيّة تشكو الانحراف والنقص والضعف.

ممّا لا ريب ولا شكّ فيه أساساً أنّ وجود جميع الميول التي أودعها الله تعالى في طبيعة الإنسان متناسب مع الهدف النهائيّ الذي حدّده الباري عزّ وجلّ لخلقة الإنسان، وليس أنّها عديمة الارتباط ولا هي في تضادّ معه. فإنّ ميول وغرائز الإنسان المختلفة، سواء المادّية منها أو المعنويّة، قد غُرِست في وجوده لحكمة ومصلحة. لذا، فالفكرة القائلة بأنّ الميول والغرائز المادّية والحيوانيّة للإنسان هي من موانع كماله، ولابدّ من السعي لمحوها من صفحة وجوده، هي فكرة غير صائبة على الإطلاق. وعلى سبيل المثال، فالرغبة والغريزة الجنسيّة موجودة في الإنسان على نحو فطريّ وطبيعيّ، ووفقاً للمقدّمة التي أسلفنا فلابدّ من وجود ارتباط بين هذه الرغبة والكمال النهائيّ للإنسان حتّى يودعها الله تعالى في أعماق البشر. من هنا فإنّ محاربة هذه الغريزة والسعي لحذفها وتعطيلها هو قطعاً نمط من أنماط الانحراف، ولو أنّ مدرسة عرفانيّة أوصت أتباعها بمثل ذلك فلا ينبغي أن يساورنا أدنى شكّ ببطلانها. إذ أنّ من

أجلى وأوضح ما يمكن الإشارة إليه من الحِكَم والمصالح وراء وجود الغريزة الجنسيّة هي مسألة استمرار وحفظ النوع البشريّ. بطبيعة الحال من الممكن أيضا إحصاء حِكَم أخرى للغريزة الجنسيّة، وقد تكمن هناك في نهاية المطاف حِكَم ومصالح أخرى لها ممّا لا يتبادر إلى أذهاننا.

إنّه ـ أساساً ـ لو كان للميول والغرائز المادّية منافاة مع كمال الإنسان وسعادته، لما أُشير في العديد من الروايات والآيات القرآنيّة إلى ما يُصطَلَح عليه بالمسائل المادّية تلك، بعنوان كونها من جملة أجر الصالحين وثوابهم، ونتيجة تكاملهم. فوفقاً لنصّ القرآن الصريح فإنّ النتيجة النهائيّة لتكامل عدد هائل من المؤمنين والأجر على أعمالهم الصالحة هي أن يُعطَوا في الآخرة أجوراً من قبيل قصور جميلة، وحدائق غنّاء خضراء تجري فيها المياه، وأزواج كثيرات طاهرات صبيحات الوجه، ومن هنا يصبح معلوماً أنّ نفس تلك الأمور غير ممنوعة ولا ضدّية لها مع كمال الإنسان وسعادته.

نعم، إذا كان هناك بحث أو نقاش فهو يصبّ في موضوع توجيه الميول الفطريّة وتقويمها (وهذا بحدّ ذاته يقودنا إلى الخاصيّة الثالثة للعرفان الإسلاميّ الصحيح). وتوضيح ذلك هو كما يلي:

كلّنا تقريباً قد أدرك بالتجربة أنّ العديد من متطلّباتنا الفطريّة هي عمليّاً متزاحمة مع بعضها ولا يمكن تلبيتها جميعاً في آن واحد. فعلى سبيل المثال، يميل الإنسان فطريّاً إلى الترفيه والتسلية من جهة، وإلى اكتساب العلم وتعلّم المهارات الجديدة من جهة أخرى، وإلى اللذّات الجنسيّة من جهة ثالثة؛ لكن من الواضح أنّه لا يمكن الجمع عادة بين الاهتمام بأيّ من تلك الأمور والاهتمام بالبقيّة، وأنّ كلاًّ منها يشكّل مانعاً لغيره. لهذا فالإنسان مجبَر على اتّخاذ أسلوب التنظيم والتخطيط لأموره، والإفادة ـ من خلال

تحديد الأُطُر والضوابط والحدود ـ من جميع إمكاناته وطاقاته بنحو يكون فيه أعظم وأفضل الأثر في بلوغ الغاية التي من أجلها خُلِق.

بناءً على ما مرّ، فإنّه لا شكّ في الأصل القائل بضرورة وجود نوع من التعديل والتوجيه والتخطيط على صعيد تلبية المتطلّبات والحوائج الفطريّة، بل البحث هنا يدور حول التساؤل القائل: بأنّه اعتماداً على أيّ مرجع، وعلى أساس أيّ ضابطة أو ميزان يمكن القيام بذلك؟

وفي الجواب على التساؤل المذكور يتعيّن القول: إنّ الفطرة الإنسانيّة نفسها يمكنها ـ في بعض الموارد وإلى حدّ ما ـ أن تلعب دور المرجع والمرشد لنا في هذا المضمار. فبعض غرائز المرء وميوله لا تكون فعّالة بشكل طبيعيّ إلاّ في أوقات خاصّة أو في ظروف معيّنة، أمّا في أوقات أخرى فتكون ساكتة وخامدة ولاتقتضي شيئاً، وأبرز مثال على ذلك هو غريزتا الجوع والعطش؛ فالإنسان لا يجد الميل إلى الأكل والشرب في جميع الأوقات وبشكل مستمرّ كي يشغله الأكل والشرب عن تلبية بقيّة أموره ومتطلّباته. كما أنّ الغريزة الجنسيّة ـ وبشكل طبيعيّ ـ تنشط وتثور في مرحلة خاصّة من حياة ابن آدم، لكنّها في مراحل أخرى إمّا أن تكون نائمة تماماً ولا أثر لها، أو تكون ضعيفة وطفيفة للغاية. ففي تلك الموارد ونظائرها يتمّ إنجاز عمليّة التخطيط والتقويم والتوجيه بشكل طبيعيّ وبتوجيه من الفطرة الإنسانيّة نفسها.

لكنّه من الجليّ أنّ دور الفطرة في هذه المسألة محدود للغاية وأنّه في حالات عديدة لا يتمّ الحصول على نتائج مُرضية بالاعتماد على الفطرة في تقويم وتوجيه تلبية الغرائز والميول الفطريّة والتخطيط لها. ففي الكثير من الموارد تكون الغريزة والميل عند الإنسان من الشدّة بمكان بحيث تهمِّش سائر الغرائز وتلقي عليها بظلالها، الأمر الذي يزجّ بالغرائز الأخرى في

دائرة النسيان فيغفل الإنسان عنها. هذا الأمر يصدق أكثر في مجال الغرائز المادّية، ففي الكثير من الحالات تظهر هذه الأخيرة بشكل واضح وبارز فتزيح بالكامل الغرائز والمتطلّبات المعنويّة للإنسان جانباً، وترمي بها في حيّز الغفلة والنسيان. فالغريزة الجنسيّة تكون أحياناً من التلاطم والهيجان بشكل لا يمكن لأيّ شيء ولا لأيّ أحد إيقافها، ممّا يدفع بالمرء إلى إرضائها وهو أعمى وأصمّ لا هدف له ومن دون ملاحظة أيّ مصلحة أو مفسدة أخرى قد تترتّب على ذلك.

على أيّة حال، فقد ثبت لنا من خلال التجربة أيضاً أنّه ليس هناك من جواب واضح ومناسب تقدّمه الفطرة، أو حتّى العقل البشريّ، لتبيين حدّ لإرضاء الغرائز والميول الفطريّة وتقويمها وهدايتها. وفي هذا المضمار تُطرَح مسألة الحاجة إلى الشرع وتعاليم الشريعة، وهنا في الحقيقة تتبلور الخاصّية الثالثة للعرفان الصحيح الإسلاميّ ألا وهي «المطابقة مع الشريعة».

يتّضح ممّا تقدّم أنّنا، ومن أجل توجيه وتقويم ميولنا وغرائزنا، لابدّ لنا من إرشاد الشرع وهدايته. إنّنا، وفي سبيل الاستفادة من كلّ إمكاناتنا ومواهبنا بالصورة التي تؤدّي إلى نيل الهدف المرجوّ من خلقتنا، يتعيّن علينا أن نتشبّث بأذيال خالقنا وصانعنا، فهو خبير بكلّ زوايا وأبعاد وجودنا من جهة، وعلى علم كامل بهدف خلقة الإنسان وطريق الوصول إلى هذا الهدف من جهة أخرى. إنّه هو الذي يجب أن يأخذ بأيدينا ويرشدنا في هذا الطريق، وإنّ الهداية والإرشاد الإلهيّين متحقّقان أيضاً عن طريق إرسال الرسل وإنزال الكتب والشرائع والأديان السماويّة.

بناءً على ما مرّ، وعلى أساس هذا التحليل العقليّ، يصبح من الواضح جدّاً أنّ العرفان والشهود القلبيّ والحضوريّ لله تعالى لا يمكن أن يتحقّق باتّباع

مسير مخالف للدين والشريعة. فالتحرّك في إطار الشريعة، والتقيّد الدقيق بأوامرها وضوابطها هو من المعالم والمستلزمات التي لامناص منها، ولا محيص عنها في منهج عرفانيّ جامع ومتكامل وصحيح. إنّه من غير المعقول ولا المقبول بتاتاً أن يكون هناك عرفان ينتهي بالإنسان إلى الكمال، لكنّه يتنافى مع الشرع الإلهيّ. إنّ عدم ملاحظة أحكام الشريعة وتوجيهاتها، أو وجود أدنى تناف وتضادّ معها يعدّ علامة على انحراف المنهج السلوكيّ والمدرسة العرفانيّة.

خلاصة القول، إنّ النتيجة المنتزعة من البيان العقليّ المتقدّم هو أنّه من أبرز وأهمّ المعالم لعرفان صحيح وجامع وكامل، بعيد عن التحريف والانحراف هي: الشموليّة، ومطابقة الفطرة، وعدم مخالفة الشريعة والتوجيهات والأحكام الإلهيّة.

خصائص العرفان الإسلاميّ في القرآن والسنّة

إنّ ما توصّلنا إليه من خلال التحليل العقليّ من خصائص ومميّزات للعرفان الحقيقيّ تؤيّده الآيات والروايات كذلك إذا ما رجعنا إلى القرآن والسنّة. وسوف نتطرّق في هذا القسم من البحث إلى مناقشة هذا التأييد من حيث الكمّ والنوع.

١. المطابقة للفطرة

لقد قلنا إنّ من ميزات العرفان الصحيح والحقيقيّ هو مطابقته للفطرة البشريّة. في هذا السياق نرى في الالتفات إلى النقطة التالية أمراً بالغ الأهميّة وهي: أنّ أصل حقيقة العرفان وجذره ـ الذي هو «قرب الله» و«رؤية وشهود حضوره» ـ هو في الأساس ميل فطريّ. وقد بُيِّنت هذه المسألة في محلّها وهي أنّ «الاتّجاه إلى الله» و«طلب الله» و«معرفة الله» و«عبادة الله» هي

أمور نابعة من صلب طينة الإنسان وفطرته. من هنا، فإنّ الطريق الذي يوصلنا إلى هذا الهدف لن يكون مخالفاً للفطرة البشريّة.

والحكم المذكور يصدق أيضاً على أصل الإسلام وسائر الأديان السماويّة، وإنّ إحدى علامات الأديان الباطلة هي أنّها تشتمل على أفكار وقوانين لاتتماشى مع الفطرة البشريّة. يقول القرآن الكريم بخصوص انسجام الأديان الإلهيّة مع الفطرة البشريّة: **﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾**[1]. وقد جاء في الخبر تفسيراً لهذه الآية: إنّه خلقهم على فطرة «التوحيد»[2]. فأنْ يحصر الإنسان عبادته بالموجود الذي يدين له بكلّ وجوده فذلك أمر مطابق لفطرة الإنسان وطبيعته.

أجل، فالسرّ في ثبات دين الله واستمراريّته يكمن في مطابقته للفطرة الإنسانيّة، ولمّا كانت فطرة البشر وطبيعتهم أمراً ثابتاً وغير قابل للتغيير، فإنّ الدين والمنهاج الإلهيّ، الذي صيغ على أساس الفطرة الإنسانيّة، بمقدوره أن يبقى ثابتاً ومتواصلاً إلى الأبد. فالدين يقول: كلوا من الطعام الطيّب والحلال واجتنبوا الطعام الملوّث والمدنّس بالحرام، أحسنوا إلى الآخرين خصوصاً إلى الوالدين والأقربين، كونوا عادلين في تصرّفاتكم، لا تظلموا، لا تؤذوا العباد، دافعوا عن حقوقكم، لا تكونوا منافقين، اتّصفوا بالصفاء والخلوص، و... الخ، وكلّ ذلك مطابق لفطرة الإنسان، وإنّ فطرة الإنسان تصادق على كلّ ما ذكر. بناءً على ذلك، فالدين ليس بالأمر المفروض

---

۱. سورة الروم، الآية ۳۰.

۲. عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ **﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾** قال: «**فطرهم على التوحيد**». (بحار الأنوار، ج۳، باب ۱۱، ص۲۷۷، الرواية ٦).

والقسريّ بل إنّه يدعو إلى أمور تطلبها طبيعة الإنسان وفطرته، وإنّ السرّ في خلود واستقامة الدين مخبوء في ذلك التطابق والانسجام أيضاً. وبطبيعة الحال فإنّ العرفان أيضاً ـ بعنوان كونه جزءاً لا يتجزّأ من الدين، وكما سبقت الإشارة إليه ـ هو روح الدين، وثمرته، ومقصده الأساسيّ والنهائيّ، وهو لهذا ليس مستثنى من تلك القاعدة، بل هو واحد من أبرز معالمه وأكثرها أصالة، فهو مطابق مع الفطرة كذلك.

٢. الشموليّة

الخاصيّة الأخرى للعرفان الصحيح الحقيقيّ، والتي توصّلنا إليها من خلال التحليل العقليّ، هي «شموليّته». لقد قلنا إنّ من جملة ميزات العرفان الصحيح هو ارتباطه بكلّ أبعاد وجود الإنسان وجميع شؤون حياته، فهو ليس مختصّاً ببعد أو شأن واحد أو عدّة أبعاد أو شؤون فحسب. وكما مرّ علينا في الخاصّية السابقة فلهذه الخاصيّة أيضاً ما يؤيّدها في الكتاب والسنّة، وتوضيح ذلك فيما يلي:

إنّ الإنسان هو موجود ذو أبعاد مختلفة، فقد مزج الله سبحانه وتعالى في وجوده جهات شتّى فصنع منها خليطاً هو بتعبير العرفاء «مظهر لجميع الأسماء والصفات الإلهيّة». إنّ كلّ واحد من المخلوقات تبرز في وجوده جوانب ونماذج من العظمة الإلهية، فهو تجلّ ومظهر لأسماء وصفات إلهيّة خاصّة، إلاّ أنّ الإنسان هو مظهر لجميع الأسماء والصفات الإلهيّة. على سبيل المثال، فإنّ ملائكة الله الكرام ـ سلام الله عليهم أجمعين ـ هم بحسب التعبير المعروف مظهر لاسم «السبّوح» و«القدّوس»، وإنّ الذكر الذي يجري على ألسنتهم، كما نُقل عنهم في سورة البقرة، هو «سبّوح قدّوس»:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[۱]. فقد كان ادّعاء الملائكة هو: ما دمنا نسبّح ونقدّس، وإنّنا نُظهر سبّوحيّتك وقدّوسيّتك، فنحن أولى بالخلافة. لكنّ الله تعالى أجابهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[۲]. ثمّ ينقل القرآن مسألة تعليم الأسماء لسيّدنا آدمعليه السلام حيث علّمه الله جميع الأسماء ثمّ طلب من الملائكة أن ينبؤوه بها إن كانوا يعرفونها: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَىٰ ٱلْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[۳]؛ أي إنّ معيار خلافة الله يكمن في: ﴿وَعَلَّم آدم الأسماءَ كُلَّها﴾؛ فبما أنّ آدمعليه السلام يعرف جيمع الأسماء فهو إذن خليفة الله. لكن ليست المسألة أنّ الملائكة لا يعلمون أيّ شيء عن الأسماء الإلهيّة، فهم على الأقل يعرفون «السبّوح» و«القدّوس»، لكنّ الخاصّية التي كان يمتاز بها آدمعليه السلام، والتي أهّلته لأن يكون خليفة الله، كانت في تعليم الله له جميع الأسماء: ﴿علّم آدم الأسماء كلّها﴾.

إذن هناك قابليّة في وجود الإنسان بحيث يكون بإمكانه أن يُبرز كلّ الأسماء الإلهيّة فيصير مظهراً لها جميعاً. هذه القابليّة مختصّة بالإنسان، وإذا ما وُجِدت بالفعل في إنسان ما في جميع شؤونه، أي إنّه يكون واجداً «للأسماء كلّها»، عندها سيكون هذا الإنسان «خليفة الله»؛ نظير اعتقادنا بأئمّتنا الأطهارعليهم السلام فإنّنا نقرأ في زيارتهم: «السلام عليكم يا خلفاء الله في أرضه»[٤].

---

۱. سورة البقرة، الآية ۳۰.
۲. نفس الآية السابقة.
۳. سورة البقرة، الآيتان ۳۱ و۳۲.
۴. بحار الأنوار، ج۱۰۰، باب ٤، ص۳٤٤، الرواية ۳۳.

وبطبيعة الحال، فالناس الآخرون الذين لم تبلغ هذه القابليّة عندهم حدّ الفعليّة لن يكونوا خلفاء بالفعل. فقط أولئك الذين يصبحون مظهراً لكلّ الأسماء الإلهيّة، وينالون مقام «علّم الأسماء كلّها»، هم من يبلغ منزلة خلافة الله؛ كأنبياء الله وأوليائه. أمّا الآخرون فإنّه من الممكن أن لا يصلوا إلى هذا المقام، ليس هذا فحسب، بل قد يتسافلون إلى ما دون مستوى الحيوانات! وقد أشار القرآن الكريم في آيات كثيرة إلى هذه الحقيقة، من جملتها قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـٰئِكَ كَٱلأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْغَافِلُونَ**﴾[1]، ومن البديهيّ أنّ من هو أضلّ من الأنعام فهو قطعاً لن يكون «خليفة الله».

على أيّ حال إنّ من مميّزات الإنسان هي قدرته على أن يصير مظهراً لجميع الإسماء الإلهيّة. بعبارة أخرى، إنّ الإنسان هو مزيج من قابليّات متنوّعة لو تحرّكت بمجموعها لوصل إلى المقام المخصّص للإنسان واللائق به. فالإنسان قد يخطو ـ بما يتلاءم وحاله وجهده واختياره ـ خطوة في هذا المضمار، أو عشر خطوات، أو ألف خطوة، أو حتّى فرسخاً أو ملايين الفراسخ، لكنّ الأصل الجامع في جميع تلك الموارد هو انّ كلّ مواهب وقابليّات الإنسان تتحرّك سويّة باتّجاه هذا الكمال. فمن خواصّ الإنسان هي أنّه جامع لكلّ تلك القابليّات والطاقات، وإنّ هذه الصفة بالذات هي ما يميّزه باعتباره إنساناً عن سائر الموجودات. من هذا المنطلق فلو عكف شخص على تنمية بعض تلك المواهب وإيصالها إلى مرحلة الفعليّة وترك البقيّة لحال سبيلها، فلن يكون سيره سيراً إنسانيّاً كاملاً.

---

١. سورة الأعراف، الآية ١٧٩.

ونؤكّد مرّة أخرى فنقول: إنّ ما يميّز الإنسان هو «جامعيّته» لكلّ تلك المواهب والقابليّات. فخصوصيّة الإنسان الكامل هي قدرته على أن يكون مظهراً لكلّ الأسماء والصفات الإلهيّة، وإلاّ فإنّ لله العديد من المخلوقات المختلفة التي هي مظهر لبعض الأسماء والصفات الإلهيّة فحسب، بيد أنّ الإنسان فقط هو الذي باستطاعته أن يكون مظهراً لجميع الأسماء، وهذا الأمر هو ممّا يختصّ الإنسان به. من هنا فإنّ من مميّزات الحركة الإنسانيّة هي كونها حركة في كافة الأبعاد الوجوديّة للإنسان، والتي توصل جميع كفاءاته ومواهبه الإلهيّة إلى حيّز الفعليّة ولا يقتصر الأمر على واحد أو بعض تلك الكفاءات.

إذن لو كانت حركة الإنسان أحاديّة البعد، فلن تكون حركة في المسير الإنسانيّ الصحيح. فمن خصوصيّات الحركة الإنسانيّة هي شموليّتها لكافة القابليّات والأبعاد؛ ذلك أنّ المقصد النهائيّ لخلقة الإنسان هي «مظهريّته لكلّ الأسماء». بناءً على هذا، فإذا تحرّك المرء في اتّجاه واحد ولم يُوصِل جميع إمكاناته إلى حيّز الفعليّة، أو ـ الأسوأ من ذلك ـ عمد إلى إتلافها وتبديدها عمداً، فلن يصل طبعاً إلى ذلك المقام الجامع لجميع أسماء الله.

على هذا فلو دعاك مسلك عرفانيّ إلى تعبئة جميع طاقاتك وقابليّاتك وزجّها في جهة واحدة، ونبذ كلّ الجهات الأخرى، فإنّ هذا المسلك هو مسلك منحرف؛ لأنّ مُدّعاه هو «العرفان» وإيصال الإنسان إلى مقام مظهريّة جميع الأسماء، لكنّ دعوته وسلوكه يفصحان عن التوجّه إلى بعد واحد ليس غير.

من أجل إلقاء المزيد من الضوء على هذا المبحث وتقريبه أكثر إلى الذهن، نضرب لذلك مثلاً: إنّ حركة الإنسان التكامليّة في البعد المعنويّ تشبه حركته التكامليّة في البعد المادّي والجسمانيّ. فالإنسان الموزون المعتدل الجميل المتناسق

الجسم هو الإنسان الذي يكون بين جميع أجزاء بدنه المختلفة تناسب وتناسق وانسجام. فلو نمت بعض أعضاء البدن نموّاً غير متّزن ـ كأن تنمو ذراعه لتصير ضخمة جدّاً، أو تكون ساقه أطول من الحدّ الطبيعيّ، أو يصبح رأسه بالنسبة لباقي أجزاء جسده أكبر من المتعارف ـ فسوف يشكو من انعدام التناسق والاتّزان في بدنه، الأمر الذي يجعل من شكله شيئاً قبيحاً ومضحكاً. كذلك الحال في البُعد المعنويّ، فلو اقتُرِح على المرء مسير أو حركة تنمّي عنده بعض جوانبه المعنويّة بينما تُبقي البعض الآخر ضامراً خاملاً، لأصبح الإنسان المُترَبّي في هذه المدرسة أحاديّ البعد، وهو أشبه بذلك الإنسان الذي يكون رأسه غاية في الضخامة وبدنه شديد الضآلة، أو يكون ذا عينين ضخمتين للغاية وصاحب فم وأذنين بالغة الدقّة والصغر! فمثل هذا الإنسان، الذي لا يكون مسيره وسعيه باتّجاه مظهريّة جميع الأسماء والصفات، لن يكون إنساناً متوازناً.

تأسيساً على هذا، لابدّ أن نبذل غاية جهدنا ليكون تحرّكنا تحرّكاً موزوناً ومنسجماً كي تنمو جميع أبعاد وجودنا نموّاً متناسباً ومتناسقاً. علينا انتخاب الطريق الذي عندما نسير فيه فإنّ كلّ وجودنا يسير باتّجاه الباري جلّ شأنه، لا أن يسير قسم من وجودنا باتّجاه الله، وقسم آخر يتّخذ وجهة الشيطان أو وجهات أخرى، فمثل هذا التحرّك والمسير لن يوصل المرء إلى الله بتاتاً.

من هذا المنطلق، فلو اختارت لك مدرسةٌ طريقاً يكون جُلّ اهتمامه منصبّاً على بُعد واحد من وجود الإنسان، فهو مسلك منحرف.

فعلى سبيل المثال: إنّ في مقدّمة الواجبات الدينيّة هو الجهاد في سبيل الله ضدّ أعدائه، وقد ورد التأكيد عليه في القرآن الكريم والحديث الشريف، وذُكرت للجهاد والمجاهدين في سبيل الله فضائل جمّة. من جملة ذلك نقرأ في سورة النساء ما نصّه: ﴿**لاَ يَسْتَوِي ٱلْقَاعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي ٱلضَّرَرِ**

﴿وَٱلْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاً وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَاهِدِينَ عَلَى ٱلْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾[1]. ونطالع في الروايات في فضيلة الجهاد: «**ما أعمال العباد كلّهم عند المجاهدين في سبيل الله إلاّ كمثل خطّاف أخذ بمنقاره من ماء البحر**»[2]. كما وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**أفضل الأعمال الصلاة لوقتها، وبرّ الوالدين، والجهاد في سبيل الله**»[3]. بل إنّه إذا كان هدف العرفان الرفيع ومُبتغاه هو «لقاء الله»، فإنّ النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله يعبّر في حديث له عن إحدى خصال الشهيد بقوله: «... **والسابعة أن ينظر إلى وجه الله**»[4].

فما حُكْمُنا إذن لو أنّ مسلكاً عرفانيّاً قال لنا: «لا دخل لكم بالحرب والقتال، وعليكم بالجلوس في بيوتكم وتلاوة الأذكار وحسب»؟ هل يمكن لمسلك كهذا أن يقود الإنسان بكلّ أبعاده الوجوديّة نحو الله؟ أليس الجهاد هو واحداً من الشؤون الحيويّة للإنسان، وفي عداد فروع الدين العشرة، حالُه حال الصلاة والصيام، وهو من الأوامر الإلهيّة، ومن واجبات الشرع المقدّس؟ ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وآله: من سلك هذا الطريق فقد تشرّف بلقاء الله؟ إذن فكيف للبعض أن يقولوا: دعوا الجهاد جانباً، واكتفوا بذكر «نادِ عليّاً مظهر العجائب» فهو أصل الجهاد والصلاة وأفضل من ذلك كلّه؟! فلو أن مسلكاً ادّعى مثل هذا الادّعاء فلا ينبغي الشكّ في بطلانه قيد شعرة، ومثل هذا المسلك يعدّ منحرفاً. ونتيجةً لاتّباع مثل هذه التعاليم والمسالك قد يسمو بُعدٌ واحد من وجود الإنسان وهو ذاك المرتبط بالذِكْر وتوجّه القلب إلى الله، لكن

---

١. سورة النساء، الآية ٩٥.

٢. كنز العمال، الرواية ١٠٦٨٠.

٣. بحار الأنوار، ج٧٤، باب ٢، ص٨٥، الرواية ١٠٠.

٤. وسائل الشيعة، ج١٥، الرواية ١٩٩٢٠.

هل يا ترى سينمو في المرء ويبرز للعيان ذلك الجانب من التوجّه إلى الله الـذي لايظهر إلاّ في جبهات القتال، من خلال الجود بالنفس، والإيثار، والتضحية؟

إنّ المسلك العرفانيّ الحقّ هو ذلك المسلك الـذي يوجّـه كافـة شـؤون الإنسان الحيويّة صوب الله تعالى؛ أي ذلك المسلك الذي يوصي مـن يتّبعـه أنْ: اشتغل لله، ادرس لله، اعبد لله، وتزوّج لله. نعم، فحتّى الزواج لـو كـان لله لتحوّل إلى عبادة ولَشَدّ الإنسان إلى قرب الباري عزّ وجلّ. مسلكٌ كهذا يقول للمرء: ساعد زوجك في سبيل الله؛ فمساعدة المرأة كـذلك إن كانـت من أجل الله فهي عبادة، وسير وسلوك إلى الله. بالضبط كـما انّ الحـضور في سوح الوغى لقتـال أعـداء الله هـو سـبيل للتقـرّب إلى الله. فلـيس طريـق الوصول إلى الله منحصراً في الاعتكاف في الصوامع، والتـسبيح بالمـسبحة، وترديد الأذكار؛ فهذا طريق، وذاك طريق أيضاً.

وفي المقابل أيضاً، فأولئك القائلون: بأنّ الإسلام إنّما جـاء لخدمـة النـاس والمجتمع و«لا تتحقّق العبادة إلاّ بخدمة الناس»، فهـم أيـضاً مـن أصـحاب الرؤية المحدودة والسطحيّة. فالإسلام مثلما يؤكّـد عـلى الأُولى فهـو يتـضمّن الثانية. فالإسلام الذي يقول لنا: اشتغلوا، واسعوا وراء لقمة العيش، واحرثوا وازرعوا، وكونوا صانعين مَهَرة، ودرّسوا، وادرسـوا، واذهبـوا للجامعـات، وكونوا على أهبة الاستعداد للحرب والجهاد في سبيل الله، فهو يقول لنا أيضاً: خصّصوا بعض أوقاتكم لعبادة الله ليلاً، بل وفوق ذلك كلّه، عندما تكونـون منشغلين بأعمالكم اليوميّة فلا تنسوا الله أبداً، وكونوا ذاكرين له تعالى عـلى أيّ حال: ﴿الَّـذِينَ يَـذْكُرُونَ اللهَ قِيَامـاً وَقُعُـوداً وَعَـلَىٰ جُنُـوبِهِمْ﴾[1]. وقـد جـاءت التوصية في الحديث أيضاً على ذكر الله حتّى عند الـذهاب لقـضاء الحاجـة:

---

١. سورة آل عمران، الآية ١٩١.

«**لأنّ ذكر الله حَسَن على كلّ حال**»[1]. فحتّى في أكثر حالات المرء وضاعة من الناحية الظاهريّة عليه أن لا يغفل عن ذكر الله فذكر الله فيها ليس عيباً. كلّ هذه الأعمال هي «سير وسلوك» بشرط أن تكون «خالصة لله».

فأيّهما حقّ؟ المسلك الذي يربّي إنساناً يكون مظهراً لجميع الأسماء والصفات؟ أم ذلك الذي يحثّ أتباعه على الجلوس في زاوية من المنزل والانشغال فقط بتلاوة الأذكار، ويقول لهم: لا دخل لكم بالآخرين، ولا بالأمر بالمعروف، ولا بالنهي عن المنكر، ولا تحضروا صلاة الجمعة، ولا تذهبوا إلى الجهاد؟ نعم، لا إشكال في أن تدفعوا لنا بعض أموالكم، لكن لا تشاركوا في تجمّعات المسلمين العامّة، ولا تتدخّلوا بالسياسة والأمور الاجتماعيّة وشؤون المسلمين! نتساءل: أيّ هذين المسلكين يصنع إنساناً جامعاً لجميع الجهات والأبعاد؟

فالإنسان الكامل هو ذلك الذي بإمكانه أن يكون مظهراً لجميع الأسماء والصفات، وإلاّ فالحيوانات أيضاً يمكنها أن تقول اسماً من أسماء الله بعنوان الذكر؛ فالقرآن المجيد يقول: إنّ كلّ شيء يسبّح لله: ﴿**تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَاوَاتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**﴾[2].

فهذا هو الفرق بين مسلكين ونمطين من الذوق: فالنتيجة هي وجود إنسان شموليّ الرؤية وهو ذلك الإنسان الذي تكون جميع أبعاده الوجوديّة في نموّ وتكامل، وهناك إنسان محدود الرؤية سطحيّها فهو ينظر دائماً إلى جهة واحدة فقط ويغفل الجهات الأخرى.

---

١. قال أبو عبد الله عليه السلام: «**إنْ سمعتَ الأذان وأنت على الخلاء فقل مثل ما يقول المؤذنّ ولا تدَع ذكر الله عزّ وجلّ في تلك الحال لأنّ ذكر الله حسن على كلّ حال**». (بحار الأنوار، ج٨٠، باب ٢، ص١٧٥، الرواية ٢١).

٢. سورة الإسراء، الآية ٤٤.

بالطبع، وكما أشرنا إلى ذلك مسبقاً، فإنّ مثل هذه الانحرافات الفكريّة والرؤى السطحيّة كانت موجودة كذلك في زمن النبيّ ﷺ والأئمّة المعصومين عليهم السلام، حيث كانوا يواجهونها في حال اطّلاعهم عليها، وكانوا ينبّهون إلى انحرافها مبيّنين في نفس الوقت ما هو حقّ وصواب. وكنموذج على ذلك تعامل النبيّ الأكرم ﷺ مع عثمان بن مظعون الذي روينا قصّته في الفصل السابق. فبعد نزول آيات في عذاب يوم القيامة وشدائد عالم الآخرة اعتزل عدد من أصحاب النبيّ ـ ومن جملتهم عثمان بن مظعون ـ أهلهم وعيالهم والمجتمع، وعكفوا على العبادة والصيام وقيام الليل. فهؤلاء، وفي سبيل سعادة الآخرة والنجاة من العذاب الإلهيّ، عزفوا عن لذائذ الدنيا، فنبذوا لذيذ الطعام، واعتزلوا معاشرة نسائهم ونكاحهنّ، وصاموا نهارهم وقاموا ليلهم؛ وخلاصة الأمر، فقد حرّموا على أنفسهم الطيّبات، والراحة، والدعة. وعندما سمع النبيّ ﷺ بأمرهم دعاهم إليه وقال لهم: هل تروني، وأنا رسول الله إليكم وقد جعلني الله أسوة لكم، دائماً صائماً نهاري، نابذاً لذيذ طعامي، معتزلاً نكاح نسائي؟ فأنا أقضي ساعة في العبادة وساعة في مجالسة أزواجي، أصوم يوماً وأفطر آخر، وأستمتع بطيّبات الدنيا، فإن كنتم حقّاً من أتباعي والمتديّنين بديني فتأسّوا بسنّتي، واتّخذوا سيرتي أنموذجاً لكم، ولا تبتدعوا منهجاً من عند أنفسكم[١].

على أيّة حال، فعند إمعان النظر في الآيات والروايات وسيرة النبيّ ﷺ والأئمّة المعصومين عليهم السلام نتبيّن التأييد لهذه المسألة وهي أنّ من خصائص

---

١. عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «... **فلمّا دخل رسول الله ﷺ أخبرته عائشة بذلك فخرج فنادى الصلاة جامعة فاجتمع الناس فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: «ما بال أقوام يُحَرِّمون على أنفسهم الطيّبات، ألَا إنّي أنام بالليل، وأنكِح، وأفطر بالنهار فمن رغِب عن سنّتي فليس منّي»** ...». (بحار الأنوار، ج٧٠، باب ٥١، ص١١٦، الرواية ٤).

العرفان الصحيح والحقيقيّ هي جامعيّته وشموليّته وإحاطته بجميع شؤون الإنسان، وليس اهتمامه ببعد معيّن أو ببضعة أبعاد منه دون الأبعاد الأخرى.

۳. عدم مخالفة الشريعة

المَعلَم الثالث للعرفان الصحيح، والذي توصّلنا إليه من خلال التحليل العقليّ حول هذا الموضوع، هو مطابقته للشريعة؛ أو بعبارة أخرى، عدم مخالفته لها. هذه الميزة كذلك قد لاقت تأكيداً كبيراً في القرآن والسنّة، وكما في الميزتين السابقتين فإنّه علاوة على العقل فإنّ الشرع يقرّ بها أيضاً.

لقد ورد التأكيد في آيات قرآنيّة كثيرة على طاعة الله والرسول وعدم اتّباع غير الله والرسول، نستعرض هنا بعض تلك الآيات؛ نظير: ﴿اتَّبِعُواْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾[۱]، و﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾[۲]، و﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[۳]. كما يُلاحَظ، فإنّه قد جاء التأكيد في الآيات المذكورة على اتّباع الله عزّ وجلّ ورسوله صلى الله عليه وآله وكتابه ونُهِي عن اتّباع غير الله.

ففي العرفان ـ يا ترى ـ أليس الشوق إلى لقاء الله هو ما يختلج في قلوبنا؟ ألسنا نصبو إلى الترقّي في درجات محبّة الله ومعرفته إلى الحدّ الذي نصل فيه إلى مقام «الفناء في الله»؟ ففي الآية التي ذكرنا جُعِل شرط محبّة الله والصدق في هذا الادّعاء هو اتّباع الرسول صلى الله عليه وآله. ومن البديهيّ أنّ اتّباع الرسول صلى الله عليه وآله إنّما

۱. سورة الأعراف، الآية ۳۰.
۲. سورة آل عمران، الآية ۳۱.
۳. سورة الأنعام، الآية ۱۵۵.

يتبلور في التحرّك في إطار الشريعة ـ في جميع أبعادها ـ وعدم مخالفة أحكام الشرع وتوجيهاته. هذا الاتّباع هو من الأهمّية والحيويّة بمكان بحيث أنّ الله سبحانه وتعالى في مواضع متعدّدة من كتابه العزيز وجّه هذا الخطاب إلى ذات الوجود المقدّس للنبيّ الكريم صلى الله عليه وآله مباشرة، مؤكّداً على هذا الأمر تأكيداً شديداً؛ من جملة ذلك قوله عزّ من قائل: ﴿ٱتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ ٱلظَّالِمِينَ﴾[2]، و﴿وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[3]، و﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي ٱلأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ﴾[4]. فالقرآن الكريم يشدّد على أنّ الخروج عن طاعة الله والرسول صلى الله عليه وآله واتّباع الهوى والميول الشخصيّة لن تؤول بالمرء إلاّ إلى الضلال والخسران وأنّ سبيل السعادة الوحيد هو الاتّباع لله وللرسول صلى الله عليه وآله والسير ضمن إطار الشريعة: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ ٱللهِ﴾[5]، ﴿هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَٱتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾[6]، ﴿قُلْ لاَ أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾[7]، ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ... وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾[8]، ﴿وَمَنْ يُطِعِ ٱللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[9]،

---

١. سورة الأنعام، الآية ١٠٦.
٢. سورة البقرة، الآية ١٤٥.
٣. سورة المائدة، الآية ٤٨.
٤. سورة الأنعام، الآية ١١٦.
٥. سورة القصص، الآية ٥٠.
٦. سورة الأنعام، الآية ١٥٣.
٧. سورة الأنعام، الآية ٥٦.
٨. سورة النور، الآية ٥٤.
٩. سورة الأحزاب، الآية ٧١.

﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1].

وعلاوة على الآيات القرآنيّة فقد تمّ التأكيد أيضاً على هذه المسألة (ضرورة مطابقة الأعمال للشريعة واتّباع الرسولﷺ والأئمّة المعصومينعليهم السلام) في العديد من أحاديث أهل البيتعليهم السلام، وإنّ ذكرنا لجانب يسير منها من شأنه أن يطيل بحثنا إلى ما يضيق به المقام. لذا سنشير هنا إلى نموذجين منها فحسب من باب التيمّن والتبرّك:

في الصلوات الشعبانيّة المعروفة الواردة ضمن أعمال شهر شعبان والتي تُقرأ عند الزوال من أيام هذا الشهر نقرأ: «**اللهُمَّ صلِّ على محمّد وآل محمّد الفُلْك الجارية في اللُّجَج الغامرة، يأمَن من ركبها، ويغرق من تركها، المتقدّم لهم مارق، والمتأخّر عنهم زاهق، واللازم لهم لاحق**»[2]. كما وقد جاء في زيارة الجامعة الكبيرة، وهي أكثر الزيارات اعتباراً من بين مثيلاتها، جاء في وصف أهل بيت العصمة والطهارةعليهم السلام ما نصّه: «**فالراغب عنكم مارق، واللازم لكم لاحق، والمقصِّر في حقّكم زاهق، والحقّ معكم، وفيكم، ومنكم، وإليكم، وأنتم أهله ومعدنه**»[3].

يُستشفّ من تلك الآيات والروايات بشكل واضح أنّ شرط الوصول إلى المنزل المقصود هو السير ضمن إطار موازين وأحكام الدين والشريعة والاتّباع الكامل وبمنتهى الدقة لله والرسولﷺ والأئمّةعليهم السلام. فإذا أحبّ المرء في أثناء هذه المسيرة أن لا يقع فريسة الحيرة والضلالة، فعليه أن يلازم

---

١. سورة الأعراف، الآية ١٥٧.

٢. مفاتيح الجنان، أعمال شهر شعبان، الصلوات الشعبانيّة

٣. مفاتيح الجنان، زيارة الجامعة الكبيرة.

النبيّ ﷺ والأئمّة المعصومين عليهم السلام ملازمة كاملة وأن يرافقهم في الحركة، وأن لا يتقدّمهم ولا يتأخّر عنهم حتّى بقدم واحد؛ إذ أنّ «**المتقدّم لهم مارق، والمتأخّر عنهم زاهق، واللازم لهم لاحق**».

وعليه، فلو كان مسيرنا وتحرّكنا طبقاً لأذواقنا وابتداعاتنا وأذواق وابتداعات الآخرين فليس مَنْ يضمن أنّ هذا المسير سوف يُتوَّج بالموفقيّة، بل على العكس، سنضلّ الطريق، وسيُحال بيننا وبين بلوغ الهدف الذي نصبو إليه: ﴿**هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ**﴾[1].

كما أشرنا مسبقاً في التحليل العقليّ، فبعد أن اتّضح أنّ السير العرفانيّ الصحيح هو السير الذي يشمل جميع أبعاد وشؤون وجود الإنسان وحياته، يأتي هذا التساؤل ليطرح نفسه: إلى أيّ حدّ لابدّ أن يكون الاهتمام بكلّ واحد من تلك الأبعاد والشؤون؟ ومن باب المثال: ما مقدار الوقت الذي يتحتّم علينا تخصيصه للعبادة، وما مقداره للأمور الاجتماعيّة، وما مقداره لشؤون الأسرة، وما مقداره للنوم والاستراحة؟ وهذه هي ذاتها قضيّة هداية وتوجيه وتقويم الميول والغرائز وتلبية المتطلّبات لدى الإنسان، حيث قد قلنا حينها إنّ علينا في هذا الميدان التشبّث بالشرع واستمداد الهداية والإرشاد منه. والآن نضيف: إنّ الأحكام الشرعيّة ـ التي تشمل الواجبات، والمحرّمات، والمستحبّات، والمكروهات، والمباحات ـ تتضمّن، في الحقيقة، الإجابة على نفس هذا التساؤل وتنطوي على نفس تلك الأنماط من الهداية والإرشاد.

في الشريعة الإسلاميّة، وعلى كافّة الصُعُد ـ بدءاً من الصلاة، ومروراً

---

١. سورة الأنعام، الآية ١٥٣.

بالتعامل والمعاشرة بين الزوج وزوجه في إطار الحياة الزوجيّة، والتعامل مع الأولاد والأقرباء، ومعاشرة الجيران والأصدقاء، وانتهاءً بالعلاقة بين الأمّة والإمام وسائر المسائل الاجتماعيّة ـ هناك سلسلة من «الواجبات» التي يعدّ الاهتمام والعمل بها في المرتبة الأولى من الأهمّية، سواءً ما كان متعلّقاً بالعبادات المصطلحة، كالصلاة والصيام، أو ما كان مرتبطاً بالأبواب الأخرى. وعلى سبيل المثال، فصلاة الصبح واجبة ويتعيّن أداؤها. فإن ختم شخصٌ القرآنَ في كلّ يوم وليلة لألف يوم لكنّه كان يوميّاً يترك ركعتي صلاة الصبح حتّى تصبحا قضاءً، فلن تحلّ كلّ ختمات القرآن هذه محلّ هاتين الركعتين. ولو أنفق جيمع أمواله في سبيل الله محلّ هاتين الركعتين، فلن يكون لها ذلك الأثر الحاصل من أداء هاتين الركعتين. من هذا المنطلق، لا يستطيع شخص القول: اليوم لن أصلّي الصبح، وعوضاً عن ذلك سأتصدّق بجميع أموالي في سبيل الله! فهذا الأمر هو من قبيل تلك البدع والعمل بالميول الشخصيّة وهي من الاشتباهات التي لن يتقبّلها الله سبحانه وتعالى. فما كان واجباً علينا فلابدّ من أدائه في الدرجة الأولى، سواء كان على صعيد العبادة الشخصيّة، أو في ميدان الشؤون الاجتماعيّة، أو القضايا السياسيّة، أو ما كان متعلّقاً بالجبهة والحرب.

لكنّ لابدّ هنا من الالتفات إلى قضيّة وهي أنّ الواجبات لا تتساوى دائماً بالنسبة للزمان والأشخاص. فمثلاً، لو كان عدد الرجال الحاضرين في جبهة القتال كافياً فلن تكون مشاركة النساء واجبة حينها. بل إنّ أصل مسألة وجوب الحضور في ساحة الوغى هي مشروطة أساساً بوجود الحرب؛ فلو لم تكن هناك حرب أصلاً فليس من الواجب علينا إشعال حرب كي يتسنّى لنا العمل بالتكليف الواجب المتعلّق بالحضور في ساحة

القتال! في مثل هذه الظروف عوضاً عن الذهاب إلى جبهات القتال، تكون الأولويّة لسائر المسائل الأخرى. فعندما لا يكون هناك جبهة ولا حرب فما على الذي يريد تحصيل أجر الجهاد إلاّ العمل في خدمة والديه والسعي إلى جلب رضاهما أكثر فأكثر، وقضاء حوائج الأقارب والمتعلّقين به، وتفقّد أحوال عوائل الشهداء وحلّ مشاكلهم، أو تفقّد أوضاع فقراء المحلّة (خصوصاً ليلة العيد)، وإن أمكنه فليداوِ بعض جراحهم وليعمل ما يوجب إدخال السرور إلى قلوبهم.

قال النبيّ الأعظمﷺ: «**جهاد المرأة حُسنُ التبَعُّل**»[1]. على أساس هذا الحديث فإنّ جهاد المرأة هو حبّها لزوجها، وتزيّنها له لجلب رضاه، وأن توفّر في البيت بيئة تُدخِل على قلب زوجها السرور والسكينة كلّما دخل إليه. فمثل هذه المرأة سيكون لها ثواب المجاهدين في سبيل الله.

بناءً على ذلك، فإنّ هناك عواملَ مختلفة لها الأثر في تحديد ما هو واجب علينا. فالزمان، والمكان، والعمل، والحرفة، والمقام، والمنصب، والمكانة الاجتماعيّة، وغيرها الكثير من المسائل لها دخل في تحديد أولويّة عملٍ ما بالنسبة لشخصٍ معيّن. فالمعيار الكلّي هو أن الله، بالالتفات لجميع الظروف والعوامل، هو الذي يحدّد لنا العمل المطلوب منّا أكثر من غيره من الأعمال؛ لكنّ قولنا ـ على سبيل المثال ـ : إنّ العبادات الشخصيّة، أو النشاطات والخدمات الاجتماعيّة دائماً هي المقدَّمة على غيرها، فإنّه لا يوجد دليل على مثل هذه الضابطة أبداً. فمثلاً: الصلاة في أوّل الوقت هي من العبادات البالغة السموّ والرفعة، أمّا لو كنّا مدينين ببعض المال لشخص ما وقد جاء الآن وهو يصرّ على إرجاع دَينه له، فليس لنا الحقّ في تأخير أداء الدَّين،

---

١. بحار الأنوار، ج١٨، باب ١١، ص١٠٦، الرواية ٤.

والانشغال بالصلاة في أوّل وقتها. في مثل هذه الموارد فإنّ تعاليم الإسلام تحتّم علينا أداء دين الناس أوّلاً ومن ثمّ التوجّه للصلاة، وإنْ أوجب ذلك تضييع صلاة أوّل الوقت. فالله تعالى يقول في مثل هذا المورد: تسديد طلب الناس أهمّ من الصلاة في أوّل الوقت. لكنّه ليس الأمر أنّ أداء حقوق الناس هو دائماً مقدّم على الصلاة، فلو اقتربت الشمس من الغروب والصلاة على وشك أن تتحوّل من الأداء إلى القضاء، ففي هذه الحالة لابدّ أوّلاً من الإتيان بالصلاة ومن ثمّ المبادرة إلى أداء الدين.

على أيّة حال، فالمِلاك العامّ في هذه المسألة هو أنّه يتعيّن على «العبد» «العبوديّة» لله تعالى، أي أن ينظر ما يطلب الله تعالى منه، فينجز هذا الأمر ليس غير.

البعدان المادّي والمعنويّ للإنسان؛ متعارضان أم متقاربان؟

من جملة الانحرافات والاشتباهات الأساسيّة والمهمّة الموجودة منذ القدم على صعيد المسائل العرفانيّة هي تصوّر أنّ الإنسان يتشكّل من بعدين متضادّين ممّا يستلزم عدم إمكانيّة الجمع بينهما. فبين صفوف العديد من أهل العرفان وأتباع المذاهب والمسالك العرفانيّة المختلفة في الماضي والحاضر يمكن ملاحظة العقيدة التالية: وهي أنّ الإنسان مؤلَّف من قطبين وعنصرين متضادّين؛ أحدهما أرضيّ والآخر سماويّ، أو بتعبير آخر: أحدهما جسمانيّ وناسوتيّ، والآخر روحانيّ وملكوتيّ، بحيث إنّ السير التكامليّ لكلّ من هذين البعدين هو مخالف ومعاكس تماماً للآخر من حيث الاتّجاه.

على أساس هذه الرؤية، فإنّه بالمقدار الذي نلتفت فيه إلى البدن المادّي ونقوّيه، فإنّ التفاتنا إلى الروح وتقويتها سينقصان بنفس النسبة. وعلى العكس، فإن أردنا أن نقوّي الروح والجوانب المعنويّة للإنسان، لاستلزم ذلك تضعيف جسمه وبُعدِه المادّي وإهمالها. وطبقاً لهذه الرؤية أيضاً، فإنّه بالدرجة التي يزداد فيها التوجّه نحو الدنيا والمسائل الدنيويّة، فإنّ الآخرة والمسائل المعنويّة ستُنسى وسيقلّ الالتفات إليها بنفس تلك الدرجة. والعكس صحيح، فإن أردنا رفع وتقوية التفاتنا إلى المعنويّات والمسائل الأخرويّة لتعيّن علينا الابتعاد عن الماديّات والمسائل الدنيويّة. وبعبارة أخرى، فإنّ أصحاب هذا الرأي يعتقدون بأنّ مقتضى التوجّه للآخرة والترقّي في المدارج الروحيّة والمعنويّة هو الانزواء عن الدنيا والجوانب المادّية. هذا وإنّ القصص المرويّة عن الانزواء والجلوس في الدَّيْر والصومعة واختيار كنز العزلة لبعض الأشخاص والجماعات من اليهود والنصارى وسائر المذاهب الأخرى هي وليدة أمثال هذا التفكّر، وإنّ هذا الطراز من الرؤية والعمل يكثُر العثور عليه بين أوساط أتباع الديانة المسيحيّة.

وممّا يؤسَف له أنّ مثل هذا الفهم والإدراك الخاطئين والمنحرفين يُشاهَد هنا وهناك عند بعض الأفراد والجماعات من المسلمين منذ صدر الإسلام وحتّى يوم الناس هذا. ففي صدر الإسلام كان لأتباع الديانات الأخرى الذين اعتنقوا الإسلام، ونخصّ بالذكر المسيحيّين وأولئك الذين كانوا يدينون بالمانَويّة، دور جوهريّ في طرح مثل هذه الأفكار. فقد عمد هؤلاء إلى تفسير التعاليم الإسلاميّة وفقاً لرؤاهم الخاصّة متأثّرين في ذلك بمرتكزاتهم الذهنيّة السابقة، والترسّبات الفكريّة والثقافيّة الخاصّة التي ورثوها عن آبائهم.

على كلّ حال، فقد شهد تاريخ الإسلام منذ العقود والقرون الأولى ظهور أشخاص باسم «الزهّاد» و«المتصوّفة» الذين كانوا يتعبّدون ويعملون على أساس هذا التفكّر المذكور، بل ويدعون إليه ويروّجون له أيضاً. لقد كان هؤلاء يعتقدون أنّ الإنسان إذا أراد بلوغ الكمالات الروحيّة والمعنويّة، ونيل السعادة الأخرويّة، فما عليه إلاّ أن ينسى المسائل الدنيويّة والمادّية، وأن يغضّ الطرف عن لذائذ الدنيا وعالم المادّة. كانت توصيات هؤلاء تتلخّص في أنّه من أجل أن يكون للمرء سير معنويّ وأخرويّ فإنّ عليه أن يعتزل الدنيا والناس والمجتمع بشكل كامل، وأن يأوي إلى ركن بعيد منشغلاً بقضايا الآخرة وحالاته المعنويّة.

وفقاً لوجهة نظر هذا المسلك فإنّ التمتّع بالنعم المادّية ينبغي أن لا يتجاوز حدّ الحاجة والضرورة وبالمقدار الذي يحفظ الإنسان على قيد الحياة وحسب، وحتّى انّه من الممكن ـ كما يوصى بذلك أيضاً ـ أن يصل المرء من خلال الرياضات الروحيّة إلى درجة لا يحتاج فيها من الطعام إلى أكثر من حبّة لوز أو تمرة واحدة أو ما شابه ذلك كلّ أربعين يوماً!

أجل، هكذا يتعيّن الشطب على الدنيا والتمتّع بالمواهب المادّية! بل الأدهى والأمرّ من ذلك، لابدّ من أن نصنع بأنفسنا ما يوجب تنفّر الآخرين منّا، كي يتركونا وشأننا، ولا ينغّصوا علينا خلوتنا! لقد كان ولا يزال بعض المرتاضين والمتصوّفين ممّن يتعمّد القيام ببعض التصرّفات التي من شأنها أن تُبعِد الآخرين عنهم، فلا تعود لهم الرغبة في التقرّب منهم وتكوين علاقة معهم، من أجل أن يتركوهم وشأنهم، لينشغلوا هم

بخلوتهم وأعمالهم[١]. لم يكونوا وليسوا الآن قلّة أولئك الذين يعتبرون أنفسهم سائرين على طريق العرفان والمعنويّات بينما أفكارهم واعتقاداتهم مبنيّة على عدم إمكانيّة الجمع بين هذين الاثنين (المادّية والمعنويّة، الدنيا والآخرة، والاهتمام بالجسم والروح) في آن واحد.

هؤلاء يؤمنون بالعقيدة القائلة بأنّه: لا يمكن للإنسان أن يكون نظيفاً ومعطّراً، ويختار شريكة لحياته، ويتّخذ منزلاً لنفسه، وقد يشارك في الأمور الاجتماعيّة والحرب والجهاد أحياناً، ويكون في الوقت ذاته من أهل المعنويّات والعرفان. فالالتفات إلى هذه الأمور يوجب تشتّت الفكر والذهن، والحال انّ من أهمّ شروط العرفان وسالكي هذا الطريق وأكثرها

---

١. تسمّى هذه الطائفة اصطلاحاً بـ «الملامتيّة» أو «الملامتيين». المدرسة الملامتيّة لها تاريخ موغل في القدم يرجع إلى القرن الأوّل الإسلاميّ. كان مركزها الأوّل «نيشابور» ومن أشهر الملامتيّة القدماء هم: أبو حفص النيسابوريّ، وحمدون بن أحمد (المعروف بحمدون القصّار النيسابوريّ)، وأبو عثمان الحيريّ. وكان حمدون القصّار شيخ الملامتيّة والناشر لطريقتهم. والمدرسة الملامتيّة مبنيّة على الأسس التالية:

على الشخص أن يُخفي فضائله وحسناته ويتظاهر بأعمال وتصرّفات بحيث يكون محطّ انتقاد الناس ومذمّتهم، لئلاّ يغترّ بأعماله الصالحة فيُبتلى بصفة العُجْب الذميمة.

تعتقد هذه الطائفة أنّ الله خبير بحسناتنا وسيّئاتنا ولا داعي على الإطلاق أن يطّلع أبناء جنسنا على حسناتنا. فقد كان أتباع حمدون لا يعيرون أهمّية للرأي العام، ولم يكونوا في الظاهر ليهتمّوا بالأصول الدينيّة والطقوس الاجتماعيّة. وعلى الرغم من أنّ الناس كانوا يطردونهم من المحافل العامّة، لكنّهم لم يكونوا هم ليتنازعوا مع أحد قطّ، وكان اعتقادهم يتلخّص في أنّ هذه الطريقة هي الأنجع في الغلبة على النفس الحيوانيّة.

يقول محيي الدين بن عربيّ في الباب الذي خصّصه للتعريف بالملامتيّة: لكنّه لابدّ من الاستثناء فيما إذا تعرّضنا لاهتمام الخلق وإقبال العامّة. وهنا يتعيّن إيهام الخلق وإبعادهم عنّا؛ فعند مجاورتي للقدس الشريف أقبل الناس عليّ شيئاً فشيئاً ولم يتركوني وحالي. فملأتُ يوماً كأساً بلّوريّاً أحمرَ بالماء وجلستُ على مرتفع على مرئى من الخلق ومسمع وأنا أشرب منه فخاله الناس خمراً فتفرّقوا عنّي متنفّرين. (الناقل: عبد الرفيع حقيقت (رفيع)، «تاريخ عرفان وعارفان ايرانى» (تاريخ عرفان إيران وعرفائها، فارسيّ)، ص٧٩ـ٨٦).

جوهريّة هو التركيز ونفي الخواطر المبعثرة. كما لا بدّ من الالتفات ـ على وجه الخصوص ـ إلى أنّ زجّ المرء لنفسه في الأمور السياسيّة أو التدخّل فيها يُعدّ من الذنوب الكبيرة في طريق السير والسلوك العرفانيّين، وهي للسالك سمّ مهلك وذنب لا يُغتفر!

من هذا المنطلق فإنّنا نشاهد أنّ الذين لهم مثل هذه الرؤية في العرفان لا يتزوّجون، وأنّهم يشكون من بدن عليل ونحيل، وأنّ علاقاتهم الاجتماعيّة محدودة للغاية، وهم يجهدون قدر الإمكان في أن ينزووا عن الناس والمجتمع، ويجانبوا المسائل الاجتماعيّة، وأن لا يكون لهم تدخّل في السياسة والأمور السياسيّة بالذات. وفيما يخصّ وضعهم الظاهريّ فإنّ من علاماتهم المميّزة أنّ لهم هيئة وشعراً قذرين وغير مرتّبين، فشعور رأسهم ولحيتهم وشاربهم طويلة وكثّة وشعثاء، ولباسهم مندرس جدّاً بل وخشن أحياناً.

بالعودة إلى التوضيحات التي أوردناها للعرفان الحقيقيّ فإنّه من الجليّ أنّ مثل هذه الرؤية غير صائبة وهي خاطئة قطعاً، ولا تنسجم مع التعاليم الإسلاميّة. فالإسلام لا يقول بأنّ للإنسان وجهتين متضادّتين بحيث أنّ السير في أيّ منهما يكون مخالفاً للسير في الأخرى ولابدّ من الفصل بينهما. والإسلام لا يعتقد بأنّ على المرء إمّا أن يعيش حياة مادّية وإمّا حياة معنويّة ويستحيل الجمع بين الاثنين. والإسلام لا يعلّمنا بأنّ لنا بُعداً مادّياً هو منفصل بالكامل عن البعد المعنويّ ولذا ينبغي علينا إمّا السعي لتنمية البعد المادّيّ لوجودنا، أو المثابرة في ترقّي الجانب المعنويّ له. وبعبارة أخرى، فالإسلام لا يقول بأنّ الوجهين المادّي والمعنويّ للإنسان هما من قبيل «مانعة الجمع» وإنّ الاهتمام بكليهما معاً أمر محال؛ إذ لم يتمّ أبداً استخلاص النتيجة التالية من المعارف الإسلاميّة وهي أنّ قوانين الجسم والروح

وأحكامهما منفصلة عن بعضها بشكل كامل، ولا ارتباط بينهما قطّ، وأنّه يتحتّم على الإنسان إمّا أن يتّبع القوانين والأحكام والتعاليم المرتبطة بالقضايا المادّية والدنيويّة حصراً، وإمّا أن يهتمّ فقط بما يتعلّق بالمسائل المعنويّة والأخرويّة من توجيهات وأحكام.

كما قد أسلفنا وبيّنا مسبقاً، فإنّ الإسلام يعلّمنا أنّ للإنسان أبعاداً شتّى، كلّها مرتبطة مع بعضها، وهناك تأثير وتأثّر متبادل فيما بينها، وأنّ الإنسان لا يكمُل ولا يصل إلى الهدف الذي خُلِق من أجله إلاّ إذا ترقّى واكتمل في كافّة تلك الأبعاد وعلى جميع الصُّعد. هذه السمة هي من المشخّصات الجوهريّة والمهمّة للغاية التي يمتاز بها العرفان الإسلاميّ وطريقة السير والسلوك الإسلاميّة عن الطرق والمدارس العرفانيّة الأخرى.

بتعبير آخر، إنّ الإسلام يقبل فكرة أنّ للإنسان بعدين كلّيين: وهما عبارة عن مادّي ومعنويّ، ناسوتيّ وملكوتيّ، وأنّ له سنخين من الميول: حيوانيّة وإنسانيّة، إلاّ أنّه لا يقبل بفكرة أنّ هذين الأمرين متعارضان حتماً، وأنّ من لوازم التوجّه والاهتمام بأحدهما نفي الآخر والنأي عن تكامله. على سبيل المثال: ليس الأمر أنّ الإنسان لو تناول الطعام فإنّه سيتخلّف عن ركب المعنويّات، أو أنّه لو عاشر الجنس الآخر واهتمّ بإشباع غريزته الجنسيّة فإنّ ذلك سيؤدّي حتماً إلى الابتعاد عن المعنويّات والكمالات الروحيّة. بل على العكس من ذلك، فإنّ الإسلام يقدّم هذين البعدين على أنّهما بعدان متناسقان ومنسجمان يكمّل أحدهما الآخر، وهو يعتبر أنّ الإنسان الكامل هو ذلك الشخص الذي يسعى إلى جعل مسيرته مسيرة شاملة، ونموّه نموّاً متوازناً وذلك من خلال هداية وتوجيه ميوله وغرائزه المختلفة، المادّية منها والمعنويّة.

إنّ ما يطرحه الإسلام في جميع الأمور، ماديّها ومعنويّها، وما يعتبره مؤثّراً في المسيرة التكامليّة للإنسان هو مسألة «النيّة» و«الدافع». فالمهم في الأمر هو: هل إنّ دافع الإنسان وبغيته من أعماله وتصرّفاته، سواء على الصعيد المادّي أو المعنويّ، هما «الله» أم «نفسه»؟ فالتزاحم ليس هو بين الأمور المادّية والمعنويّة، ولا هو بين الشؤون الدنيويّة والأخرويّة، بل إنّ التزاحم يكمن في هل إنّ الإنسان محبّ لذاته ولهواه عابد لهما؟ أم هو عابد لله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[1]؟ فعبادة الله لا تعني أن يعتزل المرء الناس والمجتمع، ويترك الممارسات الاجتماعيّة، ويعزف عن الدنيا، ولا ينتفع بالمواهب والنعم واللذائذ المادّية، بل إنّ هذه الأمور إذا ما مورست بدافع طاعة الله، والسير في الصراط الذي عيّنه سبحانه له، فستكون من موجبات القرب والكمال. ومن جانب آخر أيضاً، فلو كان الدافع من وراء عباداته، وقيامه بالليل، وعزلته، ورياضاته الروحيّة، هو غير الله عزّ وجلّ، فلن تكون لها أدنى قيمة، بل ستتحوّل إلى ما يستوجب سقوطه وتسافله. فإن كانت الرياضة والعبادة في سبيل الشهرة مثلاً، أو لاكتساب بعض القدرات الروحيّة، والقيام بالأعمال الخارقة للعادة، فلن تساوي قرشاً، ولن تؤثّر قيد شعرة في الكمال الحقيقيّ للإنسان وتقرّبه إلى الله. بطبيعة الحال من الممكن أن ينال الإنسان ـ نتيجة تلك الرياضات ـ بعض القدرات الروحيّة والقابليّة على إنجاز بعض الأعمال الخارقة للعادة، إلاّ أنّ تلك الأمور ليست علامة على كمال الإنسان، أو محبوبيّته عند الله سبحانه وتعالى، أو قربه منه.

إنّ ما يوجّه عمل الإنسان ويجعله ذا قيمة، أو شيئاً عديم القيمة ـ أو

---

١. سورة الجاثية، الآية ٢٣.

حتّى انّه يحوّله إلى شيء مضادّ للقيمة ـ هو «النيّة» من وراء العمل والدافع له. من هذا المنطلق، إذا كان ظاهر العمل مادّياً ودنيويّاً لكنّه يؤدّى بنيّة نيل رضى الله، والسير ضمن الأُطر المحدّدة من قبل الشريعة، فلا يمكن اعتباره مخالفاً للعرفان أو في تضادّ مع الكمال الإنسانيّ للنفس. فإن كان انتخاب الزوج وتشكيل الأسرة ـ على سبيل المثال ـ بدافع الانقياد لأحكام الشرع، ولتطبيق الوصيّة النبويّة القائلة: «**النكاح سنّتي فمن رَغِب عن سنّتي فليس منّي**»[1]، لم يكن هذا العمل اهتماماً بالمادّيات ولا ابتعاداً عن المعنويّات، ليس هذا فحسب، بل هو عين التقرّب إلى الله والسير في جادّة التكامل الإنسانيّ. فالعرفان الإسلاميّ هو أن يكرّس الإنسان جميع حركاته وسكناته وأبعاد حياته لله وفي طاعة الله، وأن تكون نيّته فيها والمحفّز لها هما الله وجلب رضاه فحسب. فإن كانت القضيّة بهذه الكيفيّة فالأمران سيّان اشتغل الإنسان بصلاة الليل، أم انشغل بالكسب والتجارة. أجل، فبحسب العرفان الإسلاميّ الصحيح حتّى الكسب والعمل لو كانا بنيّة خالصة وصحيحة لله فهما عين العبادة وموجبان لتكامل النفس والقرب إلى الله؛ وهذا الكلام لا هو قول بلا دليل ولا هو نابع من الذوق، ولا هو فهم وتفسير للمعارف الإسلاميّة، بل هو نصّ كلام الرسول الأعظمﷺ حيث قال: «**الكادّ على عياله كالمجاهد في سبيل الله**»[2].

جواب الإمام الباقر عليه السلام

إنّ كلام الإمام الباقر عليه السلام في ردّه على محمّد بن المنكدر يفصح بوضوح عن هذه

---

۱. بحار الأنوار، ج۱۰۳، باب ۱، ص۲۲۰، الرواية ۲۳.
۲. بحار الأنوار، ج۱۰۳، باب ۱، ص۱۳، الرواية ۵۹.

المسألة؛ ألا وهي أنّ التعامل مع الأمور الدنيويّة ـ وفقاً للعرفان الإسلاميّ الصحيح ـ لا يعني لزوماً الابتعاد عن الآخرة والمعنويّات، بل لو أُنجزت تلك الأمور بنيّة صحيحة وإلهيّة لكانت نمطاً من انماط العبادة، وطاعة من طاعات الله عزّ وجلّ، ولأصبحت تماماً في طريق القرب إليه سبحانه.

خرج محمّد بن المنكدر في يوم من الأيّام، وكان يعدّ نفسه في عداد العبّاد الزهّاد التاركين للدنيا، إلى أطراف المدينة. كان الفصل صيفاً والنهار قائظاً والشمس ترسل بأشعّتها اللاهبة على المدينة وبساتينها ومزارعها. وفجأة وقعت عينه على رجل ضخم الجثّة بدين نسبيّاً كان واضحاً أنّه قد خرج في مثل هذه الساعة لتفقّد أحوال مزارعه، وحيث انّه كان متعباً من شدّة الحرّ وممّا فيه من البدانة فقد اتّكأ على غلامين كانا برفقته يعينانه على المسير. فتساءل محمّد بن المنكدر في نفسه: ياترى من يكون هذا الرجل الذي شغل نفسه بطلب الدنيا في مثل هذا القيظ؟ وعندما دنا منه أكثر ازداد تعجّبه إذ لاحظ أنّ الرجل هو الإمام الباقر عليه السلام. فقال في نفسه: أيسعى مثل هذا الرجل الشريف في طلب الدنيا هكذا؟! أرى أنّ عليّ أن أعظه وأردعه عن ذلك.

فدنا منه وسلّم عليه. فردّ الإمام عليه السلام سلامه لاهثاً والعرق يتصبّب منه. فقال محمّد بن المنكدر: «أصلحك الله. شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة على هذه الحال في طلب الدنيا! أرأيت لو جاءك أجلك وأنت على هذه الحال ما كنتَ تصنع؟»؛ أمن اللائق أن يسعى رجل شريف مثلك في طلب الدنيا، في هذا الوقت من النهار، وفي هذا القيظ، لاسيّما مع هذه السمنة التي من المؤكّد أنّها تزيد في عنائك؟! أيّ أحد يعلم ساعة موته؟ قد يأتيك الموت في هذه اللحظة. فلو جاءك الموت ـ لا سمح الله ـ وأنت على هذه الحال ما كنت صانعاً؟ فلا يليق بك أن تخرج مع هذه البدانة وفي هذه

الساعة الحارّة من النهار في طلب الدنيا وتحمّل نفسك هذه المشقّة والعناء. كلاّ، فهذا لا يليق بك بتاتاً.

فرفع الإمامعليه السلام يديه عن الغلامين وأسند نفسه إلى جدار وقال: «**لو جاءني الموت وأنا على هذه الحال جاءني وأنا في طاعة من طاعة الله عزّ وجلّ أكفّ بها نفسي وعيالي عنك وعن الناس وإنّما كنت أخاف أن لو جاءني الموت وأنا على معصية من معاصي الله**»؛ أي لو أتاني الموت وودّعت الدنيا وأنا على هذه الحال، فإنّني سأترك الدنيا وأنا في حال من العبادة وأداء للتكليف، ذلك أنّ هذا العمل هو عين الطاعة والعبوديّة لله. أتخال أنّ العبادة مقتصرة على الذكر والصلاة والدعاء؟ إنّ لديّ أسرة وعيالاً وعليّ أن أنفق عليهم، فإن لم أعمل ولم أكدّ، لاضطررت إلى تكفّفك وتكفّف أمثالك. فأنا أسعى في طلب الرزق كي لا أحتاج إلى الناس. إنّما ينبغي أن أخاف من الموت إذا أتاني وأنا عاص لله آثم متخلّف عن طاعة أمره، لا حينما أكون في طاعة لأمر الحقّ سبحانه الذي كلّفني أن لا أكون عالة على غيري، وأن أسعى بنفسي في طلب رزقي.

يقول محمّد بن المنكدر: ففهمت من جواب الإمام الباقرعليه السلام أنّ الذي كان بحاجة للموعظة والإرشاد في الحقيقة هو أنا. نعم أنا الذي كنت أعتقد حتّى هذه اللحظة بتلك الفكرة الخاطئة؛ «فقلتُ: صدقتَ يرحمك الله أردتُ أن أعظك فوعظتني»[١].

جواب الإمام الصادقعليه السلام لأصحاب الفكر العرفانيّ المنحرف

إنّ فكرة الفصل بين الدنيا والآخرة والتصوّرات الباطلة والمنحرفة المتمثّلة

---

١. راجع بحار الأنوار، ج٤٦، الأبواب المتعلّقة بحياة الإمام الباقرعليه السلام؛ باب ٦، ص٢٨٧، الرواية ٥؛ وباب ٩، ص٣٥٠، الرواية ٣.

في «النزعة الأحاديّة الجانب» و«ترك الدنيا من أجل نيل الآخرة» تعدّ من أخطر الانحرافات والبدع التي وجدت طريقها إلى العرفان الإسلاميّ. إنّ من المؤسف أنّ هذا التفكير الموغل في القدم، والذي يعود إلى العقود الأولى من صدر الإسلام، لا زال إلى يومنا هذا يظهر بوضوح في مجال الفكر الإسلاميّ، وله عدد مُعتَدّ به من المؤيّدين والأتباع. هذا في حين أنّ من أهمّ معالم العرفان الإسلاميّ الأصيل، كما أسلفنا، هو «الشموليّة» والاهتمام بجميع أبعاد الإنسان الوجوديّة على طريق الكمال الإنسانيّ والسير إلى الله.

في أوائل القرن الثاني للهجرة ظهرت طائفة من المسلمين أطلقوا على أنفسهم اسم «الزهّاد» و«المتصوّفة». كان لهؤلاء طراز خاصّ في الحياة وكانوا يدعون الآخرين إلى الاقتداء بهم ويدّعون بأنّ طريقتهم هي المنهج الصحيح للدين الإسلاميّ. كان هؤلاء يعتقدون بضرورة مجانبة النعم الدنيويّة، وأنّ الإنسان المؤمن لا ينبغي أن يرتدي ما حسُن من الثياب، ويتناول ما طاب من الطعام ويعيش في مسكن جيّد ومريح. وعندما كانوا يواجهون المنتفعين من المواهب الدنيويّة فإنّهم يوبّخونهم ويلومونهم بشدّة، ويعتبرونهم من أهل الدنيا ومن البعيدين عن الله عزّ وجلّ وعن المعنويّات.

بطبيعة الحال إنّ مثل هذه الطريقة وهذا المسلك كانا شائعين قبل الإسلام في بلدان كالهند والصين واليونان، لكنّ جماعة من المسلمين أضفوا عليهما صبغة إسلاميّة وأقحموهما في المجتمع الإسلاميّ. وقد انتقل هذا الطراز الفكريّ إلى الأجيال اللاحقة، ويالأسف فقد انتشر واستشرى بشكل مذهل فيهم. على طول هذه الحقبة الزمنيّة لم يكن تغلغل هذا الفكر وانتشار هذا المسلك مقتصراً على الطبقات التي كانت تسمّى رسميّاً بـ«الصوفيّة»، بل لقي رواجاً في سائر الطبقات والفرق الإسلاميّة الأخرى،

حتّى بين من كانوا يعدّون أنفسهم مخالفين للصوفيّة[1]. لقد وجّه هذا النمط الفكريّ على طول تاريخ الإسلام ضربات موجعة إلى المجتمعات الإسلاميّة، يتعذّر أحياناً تدارك أضرارها أو إصلاح آثارها، وممّا لا ريب فيه أنّه لابدّ من التعامل مع هذه الظاهرة كمرض اجتماعيّ خطِر ينبغي مكافحته والسعي إلى اجتثاثه من أصوله.

على أيّ حال فبالنظر إلى أهمّية هذا البحث نرى من المناسب هنا أن نشير إلى مجريات اللقاء الذي جمع الإمام جعفر الصادق عليه السلام وجماعة من المتصوّفة والمناظرة التي جرت بينهم. ولمّا كانت تلك المناظرة مفيدة كلّ الفائدة، ومن جميع الجوانب، لبحثنا الحاليّ، وقد طُرحت فيها بحوث مهمّة على لسان شخصيّة كبيرة كالإمام الصادق عليه السلام، فسوف نذكرها بشكل مفصّل. كما ونلفت عناية القارئ العزيز مسبقاً إلى أنّ التمعّن في تفاصيل المناظرة والتدقيق الكامل فيها من شأنه أن يكون مفتاحاً موصلاً، وحجّة قاطعة لكلّ طالب للحقيقة وباحث عن العرفان الإسلاميّ الحقيقيّ الأصيل. وهذا هو نصّ الرواية:

دخل سفيان الثوريّ [وكان يقطن المدينة] على أبي عبد الله عليه السلام فرأى عليه ثياباً بيضاً كأنّها غِرقِئُ البَيض[2]، فقال له [معترضاً]: إنّ هذا اللباس ليس من لباسك! [فلا ينبغي لك أن تدنّس روحك بزخرف الدنيا وزبرجها! فكلّ ما يُنتظَر منك هو الزهد والتقوى والإعراض عن الدنيا]. فقال له: **«اسمع منّي وعِ ما أقول لك فإنّه خير لك عاجلاً وآجلاً إن أنت**

---

۱. بالضبط كما انّه لم يكن لجميع من أطلق عليهم صفة «المتصوّفة» في التاريخ نفس هذا المسلك والطراز الفكريّ.

۲. الغِرقِئ: القشرة الرقيقة التي تفصل بين بياض البيض وقشرته.

متَّ على السُنَّة والحقّ ولم تمُت على بدعة؛ أُخبرك [إن كنت تنظر إلى وضع النبيّ ﷺ وأصحابه في ذلك الزمان وتخال أنّ تكليف المسلمين إلى يوم القيامة هو الاقتداء بتلك الحضرة والعيش في فقر دائم] **أنّ رسول الله ﷺ كان في زمان مُقفِر جَدب** [حُرِم أكثر الناس فيه من ضروريّات العيش، وكان وضع النبيّ ﷺ الخاصّ ووضع أصحابه يحاكي وضع ذلك العصر] **فأمّا إذا أقبلَت الدنيا فأحَقّ أهلها بها أبرارها لا فجّارها، ومؤمنوها لا منافقوها، ومسلموها لا كفّارها، فما أنكرتَ يا ثوريّ؟! فوالله إنّني لَمع ما ترى ما أتى عليّ مُذ عَقَلتُ صباح ولا مساء ولله في مالي حقّ أمرني أن أضعه موضعاً إلاّ وضعتُه».**

[فلم يحر سفيان جواباً أمام منطق الإمام عليه السلام فخرج من عنده مطأطئ الرأس مغلوباً على أمره. فذهب إلى أصحابه وأهل طريقته فقصّ عليهم ما جرى، فقرّروا أن يذهبوا جميعاً إلى الإمام عليه السلام لمناظرته]، قال: فأتاه قوم ممّن يظهرون الزهد ويدعُون الناس أن يكونوا معهم على مثل الذي هم عليه من التقشُّف فقالوا له: إنّ صاحبنا حَصِر عن كلامك ولم تحضره حجَجُه. قال لهم: «**فهاتوا حجَجَكم**» فقالوا له: إنّ حججنا من كتاب الله. فقال لهم: «**فأدلُوا بها فإنّها أحقّ ما اتُّبع وعُمِل به**». فقالوا: يقول الله تبارك وتعالى مخبراً عن قوم من أصحاب النبيّ ﷺ: **﴿وَيُـؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾**[1]؛ فمدح فعلهم. وقال في موضع آخر: **﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾**[2]، فنحن نكتفي بهذا. فقال رجل من الجُلَساء: إنّا ما رأيناكم تزهدون في

---

١. سورة الحشر، الآية ٩.
٢. سورة الإنسان، الآية ٨.

الأطعمة الطيّبة ومع ذلك تأمرون الناس بالخروج من أموالهم حتّى تتمتّعوا أنتم منها؛ [أي إنّنا لا نخالكم معتقدين بما تقولون، فإنّكم تتّخذون من أمركم للناس بعدم التعلّق بأموالهم وسيلة كي يعطوكم أموالهم فتتمتّعون أنتم بها، فأنتم عملياً لا تزهدون في الطعام الطيّب]. فقال أبو عبد الله عليه السلام: **«دعوا عنكم ما لا تنتفعون به. أخبروني أيّها النفر ألَكُم علم بناسخ القرآن من منسوخه، ومُحكَمِه من متَشابِهه الذي في مثله ضلّ من ضلّ وهلك من هلك من هذه الأمّة»**. فقالوا له: أو بعضه فأمّا كلّه فلا. فقال لهم: **«فمِن هنا أُتِيتُم، وكذلك أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله** [أي إنّ هذا هو سبب ضلالتكم وزيغكم. كما أنّ أحاديث النبيّ صلى الله عليه وآله تحتاج لنفس القدر من المعرفة والاطّلاع كما هو الحال مع آيات القرآن الكريم]. **فأمّا ما ذكرتم من إخبار الله عزّ وجلّ إيّانا في كتابه عن القوم الذين أخبر عنهم بحُسن فعالهم فقد كان مباحاً جائزاً، ولم يكونوا نُهُوا عنه، وثوابُهُم منه على الله عزّ وجلّ، وذلك أنّ الله جلّ وتقدّس أمر بخلاف ما عملوا به فصار أمرُه ناسخاً لفعلهم** [أي ليس في الآيات التي ذكرتم دلالة على حرمة التمتّع بالنعم الإلهيّة، بل إنّها جاءت في الإنفاق والعطاء والإيثار. فهي تمتدح قوماً لأنّهم قدّموا غيرهم على أنفسهم في ظروف خاصّة وزمان خاصّ، ووهبوا من باب التعطّف والإحسان ما هم بحاجة إليه من مال محلّل لهم إلى غيرهم تاركين أنفسهم في ضيق وفاقة. فلو أنّهم ما فعلوا ذلك لم يأثموا عليه، فالله لم يأمرهم بذلك، وهو تعالى لم ينههم عنه أيضاً حتّى ذلك الحين، فآجرهم الله على عملهم ذاك.

إذن تلك الآيات لا تنطبق على مدّعاكم؛ فأنتم تلومون الناس على استمتاعهم بمالهم وبما وهبهم الله من نعم وتمنعونهم منها، والحال أنّه لا دلالة في الآيات المذكورة على ذلك.

علاوة على ذلك، فإنّ هذا العطاء يتعلّق بزمان خاصّ، وظروف خاصّة، وقد نزل بعد ذلك أمر إلهيّ كامل وجامع عيّن الحدود لهذا العمل. فهذا الأمر الذي جاء بعد فعلهم ذاك يعدّ في الحقيقة ناسخاً لفعلهم ونحن في الوقت الحاضر علينا اتّباع هذا الأمر لا ذاك الفعل].

وكان نهي الله تبارك وتعالى رحمة منه للمؤمنين، ونظراً لكيلا يُضِرّوا بأنفسهم وعيالاتهم منهم الضَّعَفَة الصغار، والولدان، والشيخ الفاني، والعجوز الكبيرة، الذين لا يصبرون على الجوع. فإن تصدّقتُ برغيفي ولا رغيف لي غيره ضاعوا وهلكوا جوعاً.

فمن ثَمّ قال رسول الله ﷺ: «خَمس تمرات أو خمس قُرَص أو دنانير أو دراهم يملكها الإنسان وهو يريد أن يُمضِيَها فأفضلُها ما أنفقه الإنسان على والديه، ثمّ الثانية على نفسه وعياله، ثمّ الثالثة على قرابته الفقراء، ثمّ الرابعة على جيرانه الفقراء ثمّ الخامسة في سبيل الله وهو أخَسُّها أجراً». وقال رسول الله ﷺ للأنصاريّ حين أعتَق عند موته خمسة أو ستّة من الرّقيق ولم يكن يملك غيرهم وله أولاد صغار: «لو أعلمتموني أمْرَه ما تركتُكم تدفنونه مع المسلمين؛ يترك صبية صغاراً يتكفّفون الناس!». ثمّ قال: «حدّثني أبي أنّ رسول الله ﷺ قال: «إبدأ بمن تَعُول الأدنى فالأدنى»، ثمّ هذا ما نطق به الكتاب ردّاً لقولكم ونهياً عنه مفروضاً من الله العزيز الحكيم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَاماً﴾[1]. أفلا ترون أنّ الله تبارك وتعالى قال غير ما أراكم تدعون الناس إليه من الأثَرَة على أنفسهم وسمّى مَن فعل ما تدعون الناس إليه مسرفاً، وفي غير آية من كتاب الله يقول: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[2]؛ فنهاهم عن

---

١. سورة الفرقان، الآية ٦٧.

٢. سورة الأنعام، الآية ١٤١؛ والأعراف، الآية ٣١.

الإسراف، ونهاهم عن التقتير، ولكن أمر بين أمرين؛ لا يعطي جميع ما عنده ثمّ يدعو الله أن يرزقه فلا يستجيب له للحديث الذي جاء عن النبيّ صلى الله عليه وآله:

«إنّ أصنافاً من أمّتي لا يُستجاب لهم دعاؤهم؛ رجل يدعو على والديه، ورجل يدعو على غريم ذهب له بمال فلم يكتب عليه ولم يُشهِد عليه، ورجل يدعو على امرأته وقد جعل الله عزّ وجلّ تخلِيَة سبيلها بيده، ورجل يقعد في بيته ويقول: ربّ ارزقني ولا يخرج ولا يطلب الرزق فيقول الله عزّ وجلّ له: عبدي ألم أجعل لك السبيل إلى الطلب والضرب في الأرض بجوارح صحيحة فتكون قد أُعذِرتَ فيما بيني وبينك في الطلب لاتّباع أمري ولكيلا تكون كَلاًّ على أهلك فإن شئتُ رزقتك وإن شئتُ قتّرت عليك وأنت غير معذور عندي، ورجل رزقه الله مالاً كثيراً فأنفقه ثمّ أقبل يدعو يا ربّ ارزقني فيقول الله عزّ وجلّ: ألم أرزقك رزقاً واسعاً فهلاّ اقتصدت فيه كما أمرتك ولم تسرف وقد نهيتك عن الإسراف، ورجل يدعو في قطيعة رحم».

ثمّ علّم الله عزّ وجلّ نبيّه صلى الله عليه وآله كيف ينفق، وذلك أنّه كانت عنده أوقيّة من الذهب فكره أن يبيت عنده فتصدّق بها فأصبح وليس عنده شي وجاءه من يسأله فلم يكن عنده ما يُعطيه فلامه السائل واغتمّ هو حيث لم يكن عنده ما يعطيه وكان رحيماً رقيقاً فأدّب الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وآله بأمره فقال: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً﴾[1]؛ يقول إنّ الناس قد يسألونك ولا يعذِرونك فإذا أعطيتَ جميع ما عندك من المال كنت قد حَسَرتَ من المال.

فهذه أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله يصدّقها الكتاب، والكتاب يصدّقه أهله من المؤمنين.

---

١. سورة الإسراء، الآية ٢٩.

... ثمّ مَن قد علمتُم بعده في فضله وزهده سلمان وأبو ذرّ رضي الله عنهما؟ فأمّا سلمان فكان إذا أخذ عطاءه رفع منه قُوتَه لسَنَته حتّى يحضُر عطاؤه من قابِل، فقيل له: يا أبا عبد الله، أنت في زهدك تصنع هذا وأنت لا تدري لعلّك تموت اليوم أو غداً! فكان جوابه أن قال: «ما لكم لا ترجون لي البقاء كما خفتم عليّ الفناء! أما علمتم يا جَهَلَة أنّ النفس قد تَلتاثُ على صاحبها [تتثاقل وتقصّر في طاعة الحقّ] إذا لم يكن لها من العيش ما يعتمد عليه فإذا هي أحرزت معيشتها اطمأنّت؟».

وأمّا أبو ذرّ فكانت له نوَيقات وشوَيهات يحلبها ويذبح منها إذا اشتهى أهلُه اللحم، أو نزل به ضيف، أو رأى بأهل الماء الذين هم معه خَصاصَة نَحَر لهم الجزور أو من الشياه على قدر ما يَذهب عنهم بِقَرَم اللحم فيقسمه بينهم ويأخذ هو كنصيب واحد منهم لا يتفضّل عليهم.

ومَن أزهد من هؤلاء وقد قال فيهم رسول الله ﷺ ما قال ولم يبلغ من أمرهما أن صارا لا يملكان شيئاً البتّة كما تأمرون الناس بإلقاء أمتعتهم وشيئهم ويؤثرون به على أنفسهم وعيالاتهم؟!

واعلموا أيّها النفر أنّي سمعت أبي يروي عن آبائه عليهم السلام أنّ رسول الله ﷺ قال يوماً: «ما عجبت من شيء كعجبي من المؤمن إنّه إن قُرِّض جسدُه في دار الدنيا بالمقاريض كان خيراً له، وإن مَلَك ما بين مشارق الأرض ومغاربها كان خيراً له، وكلّ ما يصنع الله عزّ وجلّ به فهو خير له»؛ [فليس خير المؤمن وسعادته في الفقر والفاقة فحسب، فخيره إنّما يكمن في روح العقيدة والإيمان التي عنده، ذلك أنّه في أيّ حال كان من الفقر والفاقة أو الثروة والغنى فهو يعلم أنّ في ذمّته تكليفاً وعليه أداؤه على أحسن وجه].

فليت شعري هل يحيق فيكم ما قد شرحتُ لكم منذ اليوم أم أزيدكم؟ أما علمتم أنّ الله عزّ وجلّ قد فرض على المؤمنين في أوّل الأمر [في صدر الإسلام عندما كان المسلمون قلّة] أن يقاتل الرجل منهم عشَرة من المشركين ليس له أن يولّي وجهه عنهم ومَن ولاّهم يومئذ دُبُرَه فقد تبوّأ مقعده من النار. ثمّ حَوّلهم عن حالهم [بعدما توفّرت إمكانات أكثر] رحمة منه لهم فصار الرجل منهم عليه أن يقاتل رجلين من المشركين تخفيفاً من الله عزّ وجلّ للمؤمنين، فنسخ الرجلان العشرةَ.

وأخبروني أيضاً عن القُضاة أجَوَرَة هم حيث يقضون على الرجل منكم نفقة امرأته إذا قال إنّي زاهد وإنّي لا شيء لي؟ فإن قلتم جَوَرَة، ظلّمكم أهل الإسلام، وإن قلتم بل عدول، خَصَمتُم أنفسكم؛ [أي فيما يتعلّق بالقضاء إذا وقف أحدكم بين يدي القاضي ليحكم عليه بأداء نفقة زوجته، فماذا سيصنع؟ فإن اعتذر بالقول: إنّي زاهد معرض عن الدنيا وليس عندي من متاعها شيء لأنفقه على زوجتي، فهل عذره هذا مقبول؟ وهل ترون أنّ حكم القاضي هذا حقّ وعادل أم ظالم وجائر؟ فإن قلتم هذا ظلم، فقد كذبتم ونسبتم بتهمتكم الباطلة تلك الظلمَ والجورَ لجميع أهل الإسلام، وإن قلتم هذا عدل وصحيح، كان عذر هذا الشخص باطلاً ولأقررتم بذلك ببطلان طريقتكم ومنهاجكم].

وحيث تَرُدُّون صدقة مَن تصدّق على المساكين عند الموت بأكثر من الثلث أخبروني لو كان الناس كلّهم كالذين تريدون زهّاداً لا حاجة لهم في متاع غيرهم فعلى مَن كان يُتَصدّق بكفّارات الأيمان والنذور والصدقات من فرض الزكاة من الذهب والفضّة والتمر والزبيب وسائر ما وجب فيه الزكاة من الإبل والبقر والغنم وغير ذلك إذا كان الأمر كما تقولون: لا

ينبغي لأحد أن يحبس شيئاً من عرَض الدنيا إلاّ قدّمه وإنْ كان به خَصاصة؟! [أليس فرض تلك الصدقات هو من أجل أن ينعم المعوزون والفقراء بحياة أفضل ويتنعّموا بمواهبها؟ إنّ هذا بحدّ ذاته لَينبئ عن أنّ الهدف من الدين والغرض من تلك الأحكام هو نيل مواهب الحياة والانتفاع بها. فإن كان غرض الدين هو العيش في حالة من الفقر، وكانت أسمى مراتب التربية الدينيّة للبشر هي في إعراضهم عن متاع الدنيا والعيش في فقر وفاقة ومسكنة، لكان الفقراء سبّاقين في الوصول إلى هذه الغاية السامية، ولَمَا كان من الواجب إعطاؤهم من الصدقات شيئاً يحرمهم ما هم فيه من سعادة! كما لا ينبغي لهم من جانبهم أيضاً أن يقبلوا بتلك المساعدات لأنّهم غارقون في سعادة عظمى؛ اي لن يعود هناك محلّ للزكاة أساساً]. **فبئسما ذهبتم إليه وحمّلتم الناس عليهِ من الجهل بكتاب الله عزّ وجلّ وسنّة نبيّه** صلى الله عليه وآله **وأحاديثه التي يصدِّقها الكتاب المُنزَل، وردّكم إيّاها بجهالتكم، وترككم النظر في غرائب القرآن من التفسير بالناسخ من المنسوخ، والمُحكَم والمتشابه، والأمر والنهي.**

وأخبروني أين أنتم عن سليمان بن داوود عليه السلام **حيث سأل الله مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعده** [حيث: **﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْلِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْوَهَّابُ﴾**[1]] **فأعطاه الله جلّ اسمه ذلك، وكان يقول الحقّ ويعمل به، ثمّ لم نجد الله عزّ وجلّ عاب عليه ذلك ولا أحداً من المؤمنين** [بأنّه لِمَ طلبت من الله مثل هذا الملك في الدنيا]. **وداوود النبيّ** عليه السلام **قبله في مُلكه وشدّة سلطانه. ثمّ يوسف النبيّ** عليه السلام **حيث قال لملك مصر:**

١. سورة ص، الآية ٣٥.

﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ ٱلأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[١] فكان من أمره الذي كان أن اختار مملكة المَلِك وما حولها إلى اليمن، وكانوا يمتارون الطعام من عنده لمجاعة أصابتهم، وكان يقول الحقّ ويعمل به، فلم نجد أحداً عاب ذلك عليه. ثمّ ذو القرنين عبدٌ أحبَّ اللهَ فأحبّهُ الله وطَوى له الأسباب ومَلّكه مشارق الأرض ومغاربها. وكان يقول الحقّ ويعمل به، ثمّ لم نجد أحداً عاب ذلك عليه.

فتأدّبوا أيُّها النفَر بآداب الله عزّ وجلّ للمؤمنين، واقتصروا على أمر الله ونهيه، ودَعوا عنكم ما اشتبَه عليكم ممّا لا عِلم لكم به، ورُدّوا العلم إلى أهله تؤجَروا وتُعذَروا عند الله تبارك وتعالى، وكونوا في طلب علم ناسخ القرآن من منسوخه، ومحكمه من متشابهه، وما أحلّ الله فيه ممّا حرّم، فإنّه أقرب لكم من الله، وأبعد لكم من الجهل، ودَعوا الجهالة لأهلها فإنّ أهل الجهل كثير وأهل العلم قليل، وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[٢]»[٣].

نلاحظ أنّ الإمام عليه السلام يؤكّد في غير موضع من هذه الرواية الشريفة على هذه النقطة وهي أنّ طريق العرفان والوصول إلى الله والتقرّب منه تعالى ليس هو في اعتزال الدنيا والشؤون الدنيويّة، وأنّه لا تعارض بين الأمرين ذاتاً. كذلك يشير عليه السلام في الرواية إلى أنّ الرؤية القائلة بضرورة مجانبة الدنيا هي رؤية ناشئة عن الجهل، وفقدان المعرفة الكافية بالمعارف القرآنيّة والإسلاميّة، وعدم تلقّي تلك المعارف من معينها الزلال الصافي ألا وهو أهل البيت عليهم السلام.

---

١. سورة يوسف، الآية ٥٥.

٢. سورة يوسف، الآية ٧٦.

٣. الكافي، ج٥، باب المعيشة، ص٦٥ـ٧٠، الرواية ١.

على أيّ حال، فبالرجوع إلى القرآن الكريم، وسيرة النبيّ الكريمﷺ والأئمّة المعصومينعليهم السلام، وكلام هؤلاء العظام يتّضح بجلاء أنّه، وحسب المعارف الإسلاميّة، لا يوجد تضادّ ولا فصل بين الدنيا والآخرة، ولا بين الانتفاع من المواهب المادّية ونيل المقامات المعنويّة والعرفانيّة. فطريق الآخرة في العرفان القرآنيّ والنبويّﷺ وعرفان أهل البيتعليهم السلام، وهو ذلك العرفان الأصيل الصحيح، ليس في اعتزال الدنيا والإعراض عنها، ذلك أنّ فكرة «ترك الدنيا من أجل نيل الآخرة» ما هي إلاّ فكرة ساذجة تنمّ عن جهل، حاكها البعض من الجُهّال الغرباء عن المعارف الإسلاميّة الحقّة من عند أنفسهم ناسبين إيّاها إلى الإسلام. فطريق العرفان الإسلاميّ الصحيح طريق متوازن يجد فيه كلّ من الدنيا والآخرة نصيبهما ومنزلتهما، ومنهاجه يتبلور بشكل واضح وصريح في هذا الكلام الموجز والنورانيّ: **«ليس منّا من ترك دنياه لدينه، أو ترك دينه لدنياه»**[1].

الإمام الخمينيّ تجسيد للعرفان الحقّ

ممّا لا شكّ فيه أنّه في عصرنا الحاضر لابدّ من النظر إلى مؤسّس الجمهوريّة الإسلاميّة، الإمام الخمينيّرحمه الله كأفضل أنموذج وأسوة للعرفان الإسلاميّ الحقّ الأصيل. فقد عرف هذا الرجل العظيم الإسلامَ حقّ معرفته، ووقف على حقيقة مؤدّاها أنّ الدين الإسلاميّ مشتمل على أبعاد فرديّة كما هو مشتمل على أبعاد اجتماعيّة، وكان يهتمّ في تعاليمه وإرشاداته بالأمور الدنيويّة كاهتمامه بالمسائل المتعلّقة بالآخرة. واستلهاماً من وحي التعاليم الإسلاميّة لم يكن سماحتهرحمه الله ليرى أيّ تضادّ بين الشؤون الفرديّة وتلكم

---

١. بحار الأنوار، ج٧٨، باب ٢٥، ص٣٢١، الرواية ٣.

الاجتماعيّة، ولا بين الأمور الدنيويّة ومثيلاتها الأخرويّة المعنويّة، وكان يبحث مهما كانت الأحوال والظروف عن التكليف الذي أمره الله عزّ وجلّ به وطلبه منه كي ينجزه دون غيره.

وكما أشرنا من قبل فالمهمّ هو «دافع» المرء و«نيّته» من وراء ما يقوم به من عمل. فإن كان الدافع إلى العمل دافعاً إلهيّاً وكانت النيّة منه استدرار رضا الله عزّ وجلّ وتحقيق ما يطلبه من العبد، أصبح العمل مدعاة لكمال الإنسان وسموّه الروحيّ وعلوّ درجاته المعنويّة والعرفانيّة، وأمّا ظاهر العمل، سواء كان دنيويّاً أو أخرويّاً، فإنّه لا تأثير له في هذه القضيّة. لقد أدرك الإمام الراحل‌ﷺ هذه المسألة أفضل ما يكون الإدراك، والأهمّ من ذلك فإنّه «اعتقد» بها أقوى ما يكون الاعتقاد. من هنا، فبالنسبة لظاهر العمل وقشوره كان الأمر لديه سيّان، فرديّاً كان العمل أم اجتماعيّاً، دنيويّاً كان أم أخرويّاً، وإنّ ما كان يستحوذ على اهتمامه هو أنّ العمل المنجز لابدّ أن يكون مطلوباً من قبل الله تعالى، وأن يؤدّى في إطار «أداء التكليف الإلهيّ» وحسب.

لقد جسّد الإمام الراحل‌ﷺ هذا المعنى بجلاء في كلّ جانب من جوانب حياته، وعمل على تطبيقه على أرض الواقع. فعندما كان التكليف يحتّم عليه الدراسة وتحصيل العلم، كان جادّاً كلّ الجدّ في درسه وتعلّمه، إلاّ أنّه كان يفرّغ نفسه للعبادة أيضاً بالمقدار الواجب عليه منها، فلم يكن أيّ من عبادته ودرسه ليلهيه عن الآخر. وعندما كان الزمان يتطلّب الاطّلاع على المسائل السياسيّة كان يبادر إلى تعلّمها والاطّلاع عليها، وحينما آن أوان التحرّك والنهوض، انبرى لمقارعة الظلم والجور بكلّ ما أتيح له من الوسائل والسبل، فلم يرعبه أيّ شيء في هذا السبيل، بل كان تفكيره واهتمامه

منصبّين في العمل بالتكليف والقيام بما أمر الله عزّ وجلّ به، حتّى ذهب في هذا المضمار إلى حدّ المخاطرة بنفسه.

عرفان الإمام الراحل كان تبلوراً للعرفان الحقّ «الإلهيّ المحور»؛ فقد كان يقول: «لم أخش في حياتي أحداً غير الله»، ولقد ترجم ذلك وأثبته عمليّاً أيضاً مراراً وتكراراً. أجل، لقد كان عارفاً نزيهاً لا يضع غير الله نصب عينيه وكان مصداقاً جليّاً ناصعاً للآية الشريفة: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ ٱللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ ٱللهَ﴾[1].

وقد اشتمل عرفان الإمام على «الجهاد الأكبر» مثلما اشتمل على «الجهاد الأصغر»؛ ففي عرفان هذا الرجل نشهد العبادة، وصلاة الليل، والصيام، وأداء التكاليف الإلهيّة الفرديّة من جانب، كما نشهد السياسة، وإنجاز المهمّات والمسؤوليّات الاجتماعيّة من جانب آخر أيضاً.

العرفان الحقيقيّ هو أن يتمكّن المرء من أن يُحِلّ روح العبوديّة لله محلّ روح الأنانيّة وحبّ النفس ويُجليها في جميع مظاهر حياته، وأن يدوس على «الأنا» و«الهوى» في كلّ موضع وكلّ عمل ليتحوّل إلى إنسان «أحاديّ المحور» مناطه وميزانه «الله» وحسب، والإمام الخمينيّ﵀ كان يتمتّع بهذه الروحيّة بأعلى درجاتها. لكنّ القيام بهذا العمل أمر صعب للغاية وإنّه من هذا المنطلق أُطلق على الحرب والجهاد الظاهريّ مع أعداء الله وأعداء الدين «الجهاد الأصغر»، وسُمّي جهاد النفس بـ «الجهاد الأكبر»؛ ذلك أنّ الجهاد الأصغر لا يتحقّق إلاّ في ظروف خاصّة وأوقات معيّنة ولا يقتضي تضحية الإنسان والجود بنفسه إلاّ في تلك المرحلة وحسب، لكنّ جبهة الجهاد الأكبر قائمة على الدوام في كلّ يوم، وفي كلّ ساعة، وفي كلّ لحظة، وعلى

---

١. سورة الأحزاب، الآية ٣٩.

المرء أن يكون دائماً شاهراً لسيفه بوجه نفسه ونزواتها الغير المشروعة، ليقدّم هواه قرباناً تحت قدمي الأوامر والقوانين الإلهيّة.

المهمّ في مسيرة العرفان هو أن يتمكّن الإنسان من إضفاء «الصبغة الإلهيّة» على جميع أعماله، وأن ينجز كلّ عمل بدافع أنّ «الله يريده»، فإن وصل إلى تلك المرحلة فلا فرق بين أن يكون عمله هذا صلاة الليل، أو الذهاب إلى ميدان القتال، أو الكدّ لتأمين معيشة الأهل والعيال، أو الانخراط في المسائل السياسيّة والاجتماعيّة. فإن استوجب التكليف الإلهيّ أن يؤدّي الإنسان دوراً في مجال سياسيّ أو اجتماعيّ، فلا ريب في وجوب المبادرة إلى تأدية هذا الدور، وإلاّ فأنّى له أن يدّعي العبوديّة لله والعمل على جلب رضاه؟ كيف يمكن أن يكون المرء عبداً لله إذا كان لا يطيع الله إلاّ في الصلاة والصيام والذكر والدعاء، ويتهرّب من المسؤوليّة والطاعة عندما يأتي الدور إلى الجهاد والقيام بالمسؤوليّات السياسيّة والاجتماعيّة؟! فإن كان المرء فعلاً يسعى لنيل محبّة الله واستدرار رضاه، فما الفرق بين أوامر الله ونواهيه الفرديّة وأوامره ونواهيه الاجتماعيّة، أو أوامره ونواهيه العباديّة ومثيلاتها السياسيّة؟! وإن كان العبد مهتمّاً بالعبوديّة حقّاً فعليه اتّباع جميع أوامر ونواهي مولاه وصاحبه، لا أن يُعمِل رأيه وذوقه فيطيع بعضها ويعرض عن بعض.

على أيّ حال فالعارف الحقيقيّ الكامل هو من يضع جميع أبعاد حياته ـ فرديّها واجتماعيّها، ماديّها ومعنويّها ـ في سبيل الله، وصوب الله، وإنّ الإمام الراحل رحمه الله قد أثبت عمليّاً أن هذا الأمر ممكن. بطبيعة الحال إنّ الإمام الراحل رحمه الله قد تعلّم هذا المنهج في واقع الأمر من النماذج الكاملة والفريدة من نوعها للعرفان؛ ألا وهي الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله والأئمّة الطاهرون عليهم السلام، فقد جسّدت هذه الشخصيّات العظيمة، لاسيّما أمير المؤمنين عليه السلام، الأنموذج

الكامل لهذا المضمون وطبّقته في ميدان العمل. فقد كان أمير المؤمنين عليه السلام من هؤلاء العرفاء المشاركين نهاراً بكلّ جِدّ في الأمور المتعلّقة بالدنيا والنشاطات السياسيّة والاجتماعيّة، والضاربين بالسيف، والمقاتلين ببسالة في سوح الوغى، من جهة، والمستغرقين ليلاً بكلّ وجودهم وبعشق وولـه في المناجاة مع الحبيب. أجل فهذه هي حقيقة العرفان وهؤلاء هم العرفاء الحقيقيّون[1].

الردّ على تساؤل

قد يتبادر إلى الذهن هنا تساؤل أو إشكال حول طريقة بعض الأشخاص المعروفين على صعيد العرفان والسير والسلوك وهو أنّه: لماذا كان نهجهم غير هذا النهج، وطريقتهم غير تلك الطريقة، وكانوا يؤكّدون ـ في هذا

---

١. ننقل هنا قصّتين عن الإمام الخمينيّ رحمه الله والثورة بما يناسب المقام:

يقول آية الله الحاج الشيخ عبّاس القوتشانيّ رحمه الله (وكان الوصيّ الرسميّ للمرحوم آية الله العظمى السيّد عليّ القاضيّ رحمه الله في مسائل الطريقة والأخلاق والسلوك العرفانيّ)، يقول: كنّا في النجف الأشرف نعقد جلسات مع المرحوم القاضي وغالباً ما كان بعض الأفراد يشاركون في تلك الجلسات بتنسيق مسبق حيث كنّا نعرف بعضنا. كنت في إحدى الجلسات يوماً عندما ورد على جلستنا فجأة سيّد شابّ، فقطع المرحوم القاضي بحثه، مبدياً احتراماً فائقاً للزائر الجديد، ثمّ قال له: أيّها السيّد روح الله! لابدّ من الوقوف بوجه السلطان الجائر والحكومة الظالمة، لابدّ من المقاومة، لابدّ من مقارعة الجهل. وكان هذا في وقت لم تُشَمّ فيه بعد أيّ رائحة للثورة الإسلاميّة. يقول المرحوم آية الله القوتشانيّ: لقد تعجّبنا كثيراً حينها، لكنّنا أدركنا بعد قيام الثورة الإسلاميّة بعد سنوات طوال قصد المرحوم السيّد القاضي ممّا قاله في ذلك اليوم وسبب احترامه للإمام.

كما يروي آية الله الحاج نصر الله الشاه آباديّ قائلاً: قبل نفي الإمام الخمينيّ إلى النجف الأشرف رأيتُ فيما يرى النائم أنّ حرباً نشبت في خوزستان قُطعت فيها رؤوس النخيل. وعندما قدم الإمام إلى النجف رويت له المنام، فقال: سوف أقول لك أمراً عليك أن لا تبوح به لأحد ما دمتُ حيّاً، ثمّ قال: عندما كنتُ مشتغلاً بالسير والسلوك تحت رعاية والدك آية الله الشاه آباديّ قال لي سماحته يوماً: ستقوم بثورة، وسيكون النصر حليفك، وستنشب في ذلك الزمان في خوزستان حرب ينال فيها أحد أرحامي (أي أرحام آية الله الشاه آباديّ) الشهادة. (نقلاً عن كتاب: «اسوه عارفان» (أسوة العارفين)، ص٩٢ و٩٣، وهو بالفارسيّة).

المضمار ـ على الجانب الفرديّ، والانزواء عن المجتمع، والابتعاد عن المسائل الاجتماعيّة، وخصوصاً الحذر من التدخّل في الشؤون السياسيّة؟ ومن أجل أن يتّضح أصل السؤال لابدّ هنا من بعض التوضيح:

في وادي العرفان وضمن كوكبة مدّعي العرفان والسير والسلوك على مدى التاريخ فإنّ من الواضح ـ بحسب ما بيّناه من معايير للعرفان الإسلاميّ الصحيح ـ أنّ مسلك طائفة من الأشخاص والجماعات هو مسلك منحرف وباطل وهذا لا يستوجب البحث أصلاً. كما انّ هناك طائفة ثانية ممّن كان السبب في عدم خوضهم في القضايا الاجتماعيّة والسياسيّة هو عدم توفّر الفرصة المناسبة لهم، فهم معذورون من هذه الناحية؛ مثلاً كونهم عاشوا في بيئة ملؤها التشنّج السياسيّ والقمع، أو قضوا عمرهم في السجون تحت وطأة الضغط والمراقبة الشديدين من قبل الأعداء وحكومات الجور. لكنّنا نجد من بين هؤلاء طائفة ثالثة نكاد نقطع أنّ دافعهم كان دافعاً إلهيّاً، وأنّ جهودهم ومساعيهم كانت حقّاً من أجل نيل رضا الله، وأداء التكليف الإلهيّ وحسب، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كان الجمع بين تأدية التكاليف الفرديّة والقيام بالوظائف الاجتماعيّة والسياسيّة عندهم أمراً ممكناً بحسب الظاهر. في الحقيقة إنّ السؤال المطروح هو بخصوص هذه الطائفة وهو أنّه: لماذا نجد أنّ سيرة هؤلاء وطريقتهم في العرفان مبنيّة على الاهتمام بالجوانب الفرديّة والعباديّة وعدم الاكتراث بالمسائل السياسيّة والاجتماعيّة؟

قبل الإجابة على هذا التساؤل لابدّ من الالتفات إلى حقيقة أنّ البحث حول أفراد بعينهم، وإصدار الأحكام بحقّهم، وإدراك الظروف وطبيعة الحقبة الزمنيّة التي عاش فيها كلّ منهم أمر عسير للغاية. ففي حياة أيّ فرد

تتداخل عوامل وظروف شتّى لا يمكن في العادة إدراكها وتصويرها جميعاً. بل إنّنا ليس باستطاعتنا حتّى أن نفهم على وجه الدقّة الظروف الخاصّة الحاكمة على حياة بعض الأشخاص المعاصرين لنا والذين لا تفصلنا عنهم فترة زمنيّة كبيرة، فما بالك بالماضين الذين قد تفصلنا عنهم مئات السنين، ولم يصلنا إلاّ النزر اليسير من تاريخهم وخفايا حياتهم وشخصيّاتهم. من هذا المنطلق فإنّ الخوض في أسماء أشخاص بعينهم، والبحث بشأنهم، وإصدار الحكم عليهم لا يبدو أمراً صائباً، ولابدّ ـ للإجابة على التساؤل المذكور ـ من البحث الكلّي وبيان المعيار العامّ.

بشكل عامّ يمكننا هنا إيراد معيارين اثنين فيما يتعلّق بعدم خوض بعض الشخصيّات المقبولة على صعيد العرفان والسير والسلوك، في القضايا الاجتماعيّة والسياسيّة:

الأوّل: هو أنّ الظروف المحيطة بهم لم تمنحهم فرصة الانخراط في مثل هذه النشاطات.

والثاني: هو أنّ تشخيصهم للأمور، أو كما يقال: رأيهم وفتواهم فيها، كان هكذا، وهو يختلف عن رأي الآخرين. بالطبع إنّ الاختلاف في التشخيص قد يرجع إلى الحكم الكلّي، أو إلى المصداق ذي العلاقة. ولمزيد من التوضيح نقول:

ورد في الأحاديث الإسلاميّة تأكيد شديد على حفظ حرمة دم ونفس المسلم والمؤمن، وقد بولغ في الاحتياط والتحفّظ في هذا المجال. وفي الفقه الإسلاميّ عندما يصل الأمر إلى حياة المؤمن ونفسه نجد أنّ الشارع يتعامل مع القضيّة ببالغ الدقّة والحذر لئلاّ يُراق هدراً ـ لا سمح الله ـ دمٌ لمسلم. فإنّ منزلة وعظمة «المؤمن» عند الله تعالى هي على جانب من الرفعة بحيث انّنا نقرأ في

الروايات: «**المؤمن أعظم حرمة من الكعبة**»[1]. كما أنّ القرآن الكريم يعتبر قتل النفس الغير المشروع على قدر من الخسارة والفداحة بحيث يقول: ﴿**مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعاً**﴾[2]. من هذه الجهة فإنّ علماءنا يبالغون في الاحتياط عندما يتعلّق الأمر ولو بروح مؤمن واحد، فكيف إذا كانت المخاطرة بحياة المئات، أو الآلاف، بل وأحياناً الملايين من المؤمنين والمسلمين؟ على هذا الأساس فإنّ الرأي السائد لبعض علمائنا منذ القدم هو أنّ التدخّل في الأمور السياسيّة والاجتماعيّة، ومقارعة الظالمين في زمان غيبة الإمام صاحب الزمان عجّل الله تعالى فرجه الشريف يعتبر أمراً غير جائز إذا أدّى إلى إراقة الدماء وتهديد أرواح أفراد المجتمع الإسلاميّ.

من ناحية أخرى، من الممكن تفسير عدم تدخّل أمثال هؤلاء الأشخاص في المسائل السياسيّة والاجتماعيّة بأنّه راجع إلى «الاختلاف في تشخيص المصداق»؛ أي إنّهم وإن كانوا نظريّاً وبشكل عامّ قائلين بإمكانيّة التدخّل في الشؤون السياسيّة والاجتماعيّة، لكنّ تشخيصهم انتهى إلى تجنّب ذلك فيما يتعلّق بقضيّة أو مسألة أو حركة معيّنة؛ كما هو الحال في بعض الحركات والثورات التي قامت في عهد بني أميّة أو بني العبّاس والتي امتنع الأئمّة عليهم السلام عن تأييدها أو دعمها أو مجاراتها لاعتقادهم بأنّ الغرض من ورائها لم يكن إلهيّاً. على كلّ حال، فهناك دوماً إمكانيّة أن يوجد أشخاص يرجّحون عدم الخوض في سياسة تيّار خاصّ أو حركة معيّنة والامتناع عن دعمها استناداً إلى أسباب تعتبر حجّة شرعيّة عندهم على الأقل.

هناك حركات قام بها بعض العلماء في مقاطع من التاريخ ـ سواء على

---

١. بحار الأنوار، ج٦٨، باب ١٥، ص١٦، الرواية ٢٠.

٢. سورة المائدة، الآية ٣٢.

صعيد التاريخ الإسلاميّ بشكل عامّ أم تاريخ بلادنا [إيران] بشكل خاصّ ـ كان مآلها أن استغلّها أرباب السياسة فحوّلوها إلى أداة لتلبية مطامعهم فلم تُؤت أُكلها في نهاية المطاف. إنّ وجود مثل هذه التجارب تجعل الشكّ يساور بعض العلماء والعظماء أنّه هل ستكون لتحركاتهم نتيجة تذكر أم لا؟ إنّ خوف هؤلاء يكمن في أن يبدأوا بحركة تُراق بسببها دماء المسلمين ثمّ يأتي في نهاية المطاف شرذمة من الساسة المتصيّدين في الماء العكر فيبادرون لقطف ثمارها.

وعلى كلّ حال يمكن تبرير الأمر باحتمال أنّ هؤلاء، بسبب عدم امتلاكهم الرؤية السياسيّة والاجتماعيّة الثاقبة، لم يكونوا قادرين على تشخيص المصاديق على نحو صائب وبالتالي لم يكن التكليف منَجَّزاً بالنسبة لهم في هذا الخصوص.

الرجوع إلى التعاليم العرفانيّة للطرق والمدارس الأخرى

من جملة الأسئلة المطروحة على بساط البحث في ميدان العرفان سؤال يقول: لماذا لا يمكننا ـ على صعيد العرفان ـ الإفادة من تجارب الآخرين، وإن كانوا أجانب وغير مسلمين؟ وما يرمي إليه هذا السؤال في الواقع هو: لماذا لا نستطيع ـ من باب التقرّب إلى الله ـ انتهاج «المناهج العمليّة» لبعض الفرق الغير الإلهيّة؟ على سبيل المثال: من أجل تقوية الذهن والتركيز يوصى في العرفان الهنديّ والجوكيّ بأن تسمّر عينيك على شيء ما، كأن يكون شعلة شمعة، وأن تسعى جاهداً لتفريغ بالك من أيّ عامل أو تصوّر أو شيء آخر، وأن تركّز جميع حواسّك على الجسم المذكور فحسب. وبالمواظبة على هذا الأمر لفترة معيّنة سوف تتولّد لديك القدرة على التركيز

الفكريّ، وبالاستمرار في هذا التمرين وإطالة مدّته ستتقدّم بشكل ملحوظ على صعيد التركيز الذهنيّ وبعض القدرات الروحيّة. والسؤال هنا هو: ما الإشكال في أن نستفيد نحن أيضاً من مثل هذه الطرق كي نتمكّن أكثر فأكثر من جعل أذهاننا وأرواحنا ملتفتة إلى الباري تعالى فقط وننقطع عن كلّ ما سواه؟ إذ من البديهيّ أنّ مَن له قدرة أكبر على تركيز الذهن فإنّ نيل الهدف السامي للعرفان، ألا وهو «الانقطاع إلى الله» و«التوجّه الكامل لحضرة الحقّ تعالى»، سيغدو بالنسبة له أيسر وأسهل.

قبل الخوض في الإجابة على هذا السؤال لابدّ لنا من الالتفات إلى قضيّة مهمّة وهي أنّه في هذه الأيّام تبرز بين الفَينة والأخرى في أطراف بلدنا وأكنافه بعض المساعي والحركات الثقافيّة المختلفة التي تتخفّى خلف عناوين شتّى وتصبّ جميعها في هدف واحد ألا وهو محاربة الثقافة والقيم والمعارف الإسلاميّة الأصيلة. هذه الحركات، التي تتّخذ أحياناً الطابع السرّي والخفيّ وأحياناً أخرى تبرز للعيان بشكل علنيّ، هي تيّارات وحركات مدروسة وممنهجة. وقد شاهدنا من جملة ذلك افتتاح مراكز في بعض المدن في البلاد تحت شعار التبليغ للعرفان والمسائل المعنويّة والترويج لها، سعت من وراء الستار لاجتذاب الناس إلى المذاهب البوذيّة والجوكيّة وأمثالها ملقية ـ باسم العرفان والتصوّف ـ آدابَ وطقوسَ تلك المدارس في أذهانهم وعقولهم. بل ووصل الأمر إلى عقد مؤتمرات في الخارج ودعوة أشخاص لها على أنّهم من خرّيجي تلك المدارس. وبعد اجتيازهم لدورات في تعاليم العرفان البوذيّ والهنديّ، واكتسابهم ألقاباً وسمات ورياسات خاصّة، يعودون إلى البلاد لممارسة نشاطات غير إسلاميّة.

في الحقيقة إنّ أعداء الإسلام في صدد إضلال الناس وخداعهم من خلال

اللجوء إلى مثل هذه الحيل والألاعيب. إنّ من السذاجة والحماقة بمكان أن يتصوّر المرء أنّ بإمكانه ـ من خلال ممارسة التمارين الجوكيّة ـ الوصول إلى حقائق في العرفان والسير إلى الله ممّا لا يمكن نيله بالعمل بتعاليم الإسلام الحنيف. فمثل هذا التوهّم يكون جوابه: إنّ الله ذاته هو من يجب أن يدلّنا على الطريق إليه سبحانه، وإنّ الله تعالى قد قام بهذا الأمر البالغ الأهمّية من خلال إرسال الأنبياء وإنزال الكتب السماويّة. فعندما يكون في أيدينا كتاب محكم وموثّق كالقرآن الكريم، فأيّ داع ـ من أجل طيّ سبيل التكامل ـ إلى التمسّك بطرق ووسائل ابتدعها الشيطان وهي قطعاً مُعدّة وتعدّ بإشارة وإلقاءٍ من هذا العدوّ اللدود للإنسان؟!

بطبيعة الحال من الممكن أحياناً أن نعثر على بعض عناصر الحقّ في تعاليم وطرق مثل تلك المدارس العرفانيّة، لكنّنا أشرنا سابقاً إلى أنّه لا وجود عادة للباطل المحض في مثل هذه المسائل أو أنّه نادر جدّاً. بل إنّ منهجيّة الشيطان في إيجاد الانحرافات الفكريّة تتمثّل في خلط الحقّ مع الباطل ليلتبس الأمر على البشر. يقول أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الصدد: «**فلو أنّ الباطل خَلَص من مِزاج الحقّ لم يَخْفَ على المُرتادين، ولو أنّ الحق خَلَص من لَبْس الباطل انقطعت عنه ألسن المعاندين، ولكن يؤخَذ من هذا ضِغثٌ ومن هذا ضغث فيمزَجان، فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه**»[1]. من هنا لعلّنا نجد بعض عناصر الحقّ بين العناصر المختلفة لتلك المذاهب والمدارس الباطلة، إلاّ أنّ هذا لا يعدّ دليلاً على حقّانيّة تلك الطرق والمذاهب. المهمّ هو أنّ عناصر الحقّ تلك غير مختصّة بها وأنّه من الممكن أن نجد ما هو أفضل وأكمل منها في الإسلام وتعاليمه. فلماذا نمدّ يد الحاجة

١. نهج البلاغة، الخطبة ٥٠.

والعوز لمسلك نجد بين كلّ مائة من العناصر التي يتشكّل منها ۹۹ عنصراً باطلاً؟! فإذا كانت بين أيدينا وَصْفة هي أكمل وأسمى من تلك بمرّات لاتحصى ولا تعدّ، فلماذا اللجوء إلى الآخرين؟

أمّا لماذا يُعثَر في تلك المذاهب الغير الإلهيّة والباطلة على عناصر حقّة وصحيحة هنا وهناك، فهذا يرتبط بمسألة قد أشرنا إليها سابقاً؛ وهي أنّ للمسائل المعنويّة والعرفانيّة عادة جذوراً في الأديان والتعاليم السماويّة والإلهيّة، غاية ما في الأمر أنّ تلك الأديان والتعاليم قد وصلت بمرور الزمان إلى الشكل الذي نراها عليه اليوم بسبب التحريفات التي تعرّضت لها. وبناءً على ذلك فمن المحتمل أن تكون العناصر الباطلة لهذه المذاهب هي تلك الأجزاء المحرّفة من الأديان السماويّة وأنّ عناصرها الحقّة هي ما لم تنلْه يد التحريف منها بعد.

أساساً إنّ تحريف دين ما لا يعني بالضرورة صيرورته باطلاً بأكمله. على سبيل المثال، بالرغم من اعتقادنا من أنّ النصرانيّة واليهوديّة منسوختان وأنّ الإنجيل والتوراة الموجودين حاليّاً هما محرّفان إلاّ أنّه في نفس الإنجيل والتوراة المحرّفين هذين توجد مسائل ومواضيع مذكورة بحذافيرها في القرآن الكريم. ومن باب المثال، يقول الله في القرآن الكريم إنّ من جملة الأحكام التي أنزلناها على بني إسرائيل في التوراة هي حكم القصاص: ﴿**وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ**﴾[1]؛ فهذا الحكم مُشَرّع في الإسلام بهذه الكيفيّة وهو موجود أيضاً في التوراة الحاليّة المحرّفة.

---

١. سورة المائدة، الآية ٤٥.

بناءً على هذا، فليس المراد من تحريف الدين أنّه قد قُلب بكامله رأساً على عقب على نحو لا يمكن العثور فيه حتّى على جملة واحدة يكون فيها شيء من الصحّة، بل تبقى بعد ذلك عادة بعض العناصر ممّا لم يمسّه التحريف. وبغضّ النظر عن الأديان السماويّة التي لها منزلتها الخاصّة، فإنّه حتّى الأديان الموجودة في عصرنا الحاضر والتي تشكّل عبادة الأوثان العمودَ الفقريّ فيها فإنّ لها جذوراً في أحد الأديان السماويّة السالفة ولكنّها بمرور الزمان ونتيجة تعرّضها للتحريفات المستمرّة آلت إلى هذه الكيفيّة. من هذا المنطلق، فنحن حتّى وإن وجدنا اليوم مثلاً أنّ أصحاب الديانة البوذيّة يعبدون التماثيل والأصنام التي يحتفظون بها في معابدهم، إلاّ أنّ هذا لايعني أن لا وجود لأيّ كلمة حقّ وصحيحة في دينهم. فالبوذيّون يعتبرون الصدق قيمة من القيم. فهل يمكننا القول: إنّه ما دام هذا الأمر وارداً في البوذيّة، فالصدق إذن أمر سيّئ؟ أم على العكس من ذلك؛ نقول: لمّا كانت الديانة البوذيّة تعتبر الإنسان الصادق صالحاً، فهي إذن ديانة حقّة وصحيحة؟ من الواضح أنّ كلا الحُكمين عارٍ عن الصحّة. كذلك، فإنّ الشعار الأساسيّ للديانة الزردُشتيّة الحاليّة هو هذه الكلمات الثلاث المعروفة: القول الحسن، والسلوك الحسن، والظنّ الحسن، وهو شعار حقّ وصواب والكلّ، بما فيهم الإسلام، يؤيّده؛ فالقول الحسن هو دائماً جيّد، والسلوك الحسن هو جيّد دائماً أيضاً، والظنّ الحسن كذلك. لكنّ وجود مثل تلك الأمور في الديانة الزردشتيّة لا هو مدعاة للقول بأنّ تلك الأمور باطلة، ولا هو سبب للحُكم على الديانة الزردشتيّة الحاليّة بالحقّانيّة والصحّة.

على أيّ حال، فخلاصة القول في بحثنا هذا هي: أنّنا لا نعارض في مجال الأخذ من الآخرين وتعلّم ما هو حقّ منهم، لكنّ ذلك لا يكون إلاّ في حال

كوننا نحن نشكو النقص والعجز. أمّا عندما يكون لدينا نحن دينٌ جامع وكتاب وكامل وهما على حقّ وصحّتهما موثّقة، فما الداعي لأن نقتفي أثر أمر مشكوك لا نعلم صحّته من سقمه؟ إنّنا لو تريّثنا وتأمّلنا في الأمر قليلاً لرأينا أنّ هذا العمل غير صائب ولا ينمّ عن عقل.

هل العرفان حِكر على علماء الدين؟!

من البحث السابق نستشفّ جواباً لتساؤل آخر يُطرح أحياناً في هذا المجال، وهو: لماذا يجب أن تختصّ مسألة معرفة الحقّ وتبيين المسائل العرفانيّة والمعنويّة بعلماء الدين؟

والجواب هو: لا وجود لأيّ تخصيص واحتكار. فعلماء الدين يودّون لو عرف الناس أجمع طريق الحقّ على أتمّ وجه، وطووا مدارج الكمال والمعنويّات والسير إلى الله، الواحد تلو الآخر، ونالوا أعلى المقامات، فيصل علماء الدين أنفسهم بشفاعة هؤلاء إلى منازل تصبح العلياء فيها من نصيبهم. وأنا من جانبي لا يوجد عندي أيّ إباء في أن يتقرّب شخص عاديّ إلى الله، وينال لديه من الوجاهة ما يمَكّنه من أن يأخذ بيدي أيضاً يوم القيامة ويقودني إلى جنّة الخلد. إنّ مثل هذا الأمر مدعاة لتفاخرنا ومباهاتنا، فليس لنا من تعصّب لملابسنا وسلكنا. لكن لا ينبغي الغفلة عن القاعدة الكليّة والعقلائيّة التي تقول: يتعيّن معرفة الطريق من سالكيه، ولابدّ من تلقّي المعرفة من أهلها.

فهل يلجأ من يريد بناء منزل إلى عالِم الذرّة لرسم الخارطة وتهيئة الوسائل الهندسيّة للبناء؟! أيجوز القول: بما أنّ المقام العلميّ لعالم الذرّة أهمّ وأرفع من ذلك الذي لمهندس البناء، فإنّه يتعيّن علينا استشارته في المسائل المتعلّقة بالبناء؟!

فهذه قاعدة عامّة وعقلائيّة تماماً وهي أنّ المتخصّص في مجال معيّن هو الذي يجب أن يبدي رأياً فيه. فالمتخصّص في الذرّة لا يفهم في مسائل البناء والإنشاء، إذ ليس لديه معرفة بها. لكنّ احترامه محفوظ في محلّه ولابدّ من الانتفاع من تخصّصه في الموضع المناسب، إلاّ أنّ هندسة البناء هي فنّ وتخصّص ومجال آخر. وعلى أساس هذه القاعدة أيضاً فنحن نراجع الطبيب من أجل علاج أمراضنا. بل حتّى العلماء والمجتهدون فهم يراجعون الطبيب لمداواة مرضهم ولا يخدش هذا الأمر شأنهم العلميّ إطلاقاً.

وتطبيقاً لهذه القاعدة، ففي الأمور الدينيّة كذلك كلّما خطر في بالنا سؤال أو أشكل علينا أمر فعلينا الذهاب إلى المتخصّص في المسائل الدينيّة والمعارف الإسلاميّة. وهؤلاء المتخصّصون هم من نصطلح عليهم حسب العرف السائد في مجتمعاتنا بـ «علماء الدين».

فلو قيل إنّ الناس إذا مرضوا وجب عليهم استشارة إمام الجمعة أو عالم الدين في منطقتهم لكان هذا الكلام كلاماً فارغاً ويدعو إلى السخرية والضحك؛ فمن الجليّ أن لا دخل لإمام الجمعة بوجع البطن والصداع. لكن لابدّ من الالتفات إلى أنّ العكس هو صحيح أيضاً؛ فلو لجأت في حلّ معضلة في مجال المعارف الإسلاميّة إلى شخص ليس هو بخبير في الشؤون الإسلاميّة، وليس لديه ـ على سبيل المثال ـ سوى شهادة دكتوراه في الأدب أو التاريخ أو الفلسفة، لكان عملك هذا فارغاً ومضحكاً بنفس الدرجة. فهل من المعقول أن نرجع في القضايا الفلسفيّة والعرفانيّة إلى من ليس لديه أدنى تخصّص في العلوم الإسلاميّة، ولا يحمل إلاّ شهادة دكتوراه في اللغة الفرنسيّة أو الأنجليزيّة مثلاً؟! هل ـ حقيقةً ـ يعدّ هذا التصرّف تصرّفاً حكيماً وسليماً؟!

فمثلما أنّ الجميع، ومن جملتهم العلماء والمجتهدون ورجال الدين

يراجعون مهندس البناء لتشييد منزل لهم، والطبيب لمداواة أمراض أبدانهم، فإنّ على المهندسين والأطبّاء وسائر الناس أيضاً مراجعة العلماء ورجال الدين ليبيّنوا لهم المسائل الدينيّة والمعارف الإسلاميّة. فمن الطبيعيّ جدّاً القول: إنّ ما يتعلّق بالإسلام وتبيين الحقائق الإسلاميّة يجب أخذه من «الخبراء في الإسلام». وإن قلنا: إنّ علينا مراجعة علماء الدين للاستشارة حول خارطة البناء أو معالجة أمراض الجهاز الهضميّ لكان كلاماً غير منطقيّ وبعيداً عن الصحّة، ولكان محلاً للإشكال والاستفهام أيضاً، وإن قيل: إنّ علينا اللجوء إلى رجال الدين لتصليح الطائرات، فلابدّ من القول إنّ هذا الكلام ينمّ عن جهل وقلّة خبرة بل هو مدعاة للسخرية. لكن لو قلنا: إنّ علينا استشارة علماء الدين من أجل التعرّف على الإسلام وتعلّم المسائل والحقائق الإسلاميّة، فهل يكون قولنا جزافاً، واقتراحنا غير معقول ويعوزه المنطق؟!

بالطبع عندما نقول: «الخبراء في الإسلام»، فإنّنا نعني أولئك الخبراء الحقيقيّين، والثقاة. وإن قلنا: لابدّ من الرجوع إلى رجال الدين من أجل التعرّف على الإسلام والاطّلاع على حقائقه، فليس المقصود هو كلّ من وضع على رأسه العمّة وارتدى خلعة رجال الدين. فقد عرّف الإمام الخمينيّ الراحل خبراء الإسلام الحقيقيّين وأوصانا بمطالعة كتبهم ومقالاتهم. أجَل، فالمقصود من «رجال الدين» هم أهل الخبرة في الإسلام من أمثال الشهيد العلاّمة مطهّري الذي يقول الإمام في وصفه: لقد كان بضعة منّي، وحصيلة عمري.

إذن بإيجاز نقول: أوّلاً: نحن لسنا متعصّبين إلى حدّ القول: لابدّ للشخص من أن يكون متلبّساً بلباس رجال الدين واضعاً للعمامة ومرتدياً للعباءة كي يكون مؤهّلاً لأن نأخذ منه المسائل الدينيّة، والحقائق المعنويّة،

والطريق القويم للوصول إلى الله. فالمهمّ هو أن يتمتّع بالتخصّص اللازم والعلم الكافي في هذا المجال. ثانياً: ليس المقصود من رجل الدين هو كلّ من تزيّا بزيّ العلماء، بل المراد هو أولئك الخبراء بالإسلام والعلماء الملتزمون والحقيقيّون.

على أيّ حال، فإنّنا نشدّد على ضرورة الاحتياط التامّ في أخذ المسائل الإسلاميّة المختلفة لاسيّما المسائل العرفانيّة والمعنويّة، ويتعيّن علينا الحذر من الوقوع فريسةً لمصائد المحتالين والضالّين، وأن لا نتلقّى زلال المعارف الإسلاميّة من المنابع الملوّثة والمُضلّة.

تساؤل حول «شموليّة» السير العرفانيّ

في ختام هذا الفصل نتطرّق إلى الإجابة على التساؤل الذي يُطرَح في مجال «شموليّة» السير الى الله.

كما سبقت الإشارة إليه في هذا الفصل فإنّ من أبرز معالم العرفان الحقيقيّ والإسلاميّ، وأكثرها جوهريّة هو كون الاهتمام في هذا المسير يشمل جميع أبعاد وجوانب وجود الإنسان، وقد تمّ توضيح هذا الموضوع بإسهاب ولسنا ننوي التكرار هنا. إلاّ أنّ هناك تساؤلاً غالباً ما يُطرح في هذا الصدد مفاده: إذا لم يتمكّن الإنسان من السير نحو الله بجميع أبعاده الوجوديّة، فما الذي سيحصل؟ وماذا عليه أن يصنع؟

وفي معرض الإجابة على هذا السؤال لابدّ من القول: إنّ أساس هذا الكلام هو تلقين شيطانيّ. فعدم قدرة الإنسان على التوجّه إلى الله بتمام أبعاد وجوده هو بمعنى أنّه لا يستطيع العمل بكلّ أحكام الإسلام! فتوجّه المرء إلى الله بتمام أبعاده إنّما هو العمل بجميع أحكام الشرع ليس إلاّ. فالنظرة

الشموليّة، والالتفات إلى كلّ أبعاد الإنسان الوجوديّة في عمليّة السير العرفانيّ هو في الواقع تأكيد على الاهتمام والعمل بكلّ أوامر الشرع وأحكامه، في مقابل الالتفات إلى بعض تلك الأحكام والعمل بقسم منها وغضّ الطرف عن البعض الآخر. فهل من الممكن التوجّه عمداً إلى قسم من الأوامر الإلهيّة فحسب وتجاهل القسم الآخر والتهرّب من العمل به؟! إنّ بطلان مثل هذا التفكّر أمر غاية في الوضوح والبداهة. وإنّنا من هذا المنطلق نقول إنّ السؤال المطروح آنفاً ليس هو إلاّ تلقيناً شيطانيّاً.

فالمراد من السير العرفانيّ الشموليّ هو أن يختار المرء شريكة حياته في الوقت المناسب، ويسعى لأن يرزق الذرّية، ويجتهد لتربية أولاده، ويصلّي في أول الوقت قدر الإمكان، ويصوم، ويصل رحمه، وينفق في سبيل الله، وإن سنحت له الفرصة وأعانته قدرته فليؤدِّ النوافل اليوميّة، ويقوم في جوف الليل ليناجي ربّه ويصلّي صلاة الليل، ويهتمّ بالأدعية والأذكار الواردة عن المعصومين عليهم السلام، ويجهد للحصول على الذكر والتوجّه القلبيّ، و... الخ. فلو أمعنّا النظر بعض الشيء لرأينا أنّ الذي ذكرناه ما هو إلاّ أوامر وتوصيات الشريعة الإسلاميّة المقدّسة، وإنّ العمل بتلك الأوامر بأجمعها هو ما نُطلق عليه «النظرة الشموليّة» في عمليّة السير إلى الله. بناءً على ما مرّ، ليس لنا أن نقول: إنّه من غير الممكن أن تكون لنا حركة شموليّة نحو الله تعالى، وذلك لأنّ قولنا هذا سوف يعني أنّنا معذورون من إطاعة بعض الأوامر الإلهيّة!

نعم إذا كان الشخص حقيقة لا يستطيع العمل بأحد التكاليف أو إطاعة أحد الأوامر، فهو معذور، لأنّ الاستطاعة شرط عامّ لجميع التكاليف. فإن لم يستطع شخصٌ الصومَ بسبب مرض في أمعائه أو كليته أو أيّ مرض آخر، لم يجب عليه الصوم في هذه الحالة. لكن الظاهر أنّ محلّ

البحث والمقصود من السؤال ليس هو ذلك، بل أُريدَ منه أنّه لّما كانت الحركة والسير الشموليّان أمراً عسيراً وشاقّاً ويتطلّب المزيد من المثابرة والاستقامة، فإنّنا نكتفي بالسير في إطار أحد الأبعاد. والكلام في هذه الحالة هو ذات الكلام، وهو أنّه لا ينبغي لمشقّة السير الشامل نحو الله أن يدعونا لأن نُعفي أنفسنا منه. أساساً إنّ طيّ مسير التكامل الإنسانيّ، والوصول إلى ذروة الإنسانيّة، وصعود القمم الرفيعة للمقامات المعنويّة والعرفانيّة ليس هو بالأمر السهل، وبتعبير أحد العظماء: إنّ طيّ هذا الطريق هو بمثابة حفر الجبال بأهداب العين! فهل من الممكن أن يصل المرء بيسر وسهولة ومن دون تجشُّم أيّ عذاب أو مشقّة إلى مقام أولياء الله وينال مقاماً هو أقرب ما يكون لمقام الأنبياء؟! فمن وضع نصب عينيه نيل مثل هذه المقامات المنيعة وصعود تلك القمم الرفيعة، لابدّ أن يهيّئ نفسه لمشاقّ ومصاعب هذا الطريق؛ فالشاعر يقول:

وما نيلُ المطالبِ بالتمنّي ولكن تُؤخذ الدنيا غِلاباً
وما استعصى على قوم منالٌ إذا الإقدامُ كان لهم رِكاباً[1]

إذن فإنّ طرح مثل هذه المسألة؛ وهي أنّنا لا نستطيع في مضمار السير العرفانيّ والتقرّب إلى الله الالتفات إلى جميع الأبعاد، هو تلقين شيطانيّ خاطئ. إنّ الالتفات إلى جميع الأبعاد وإن كان أمراً صعباً وشاقّاً، إلاّ أنّه ليس أمراً مستحيلاً وخارجاً عن نطاق قدرتنا، وإنّ بإمكاننا نيله بالجدّ والمثابرة.

نسأل الله العليّ القدير أن يرينا، نحن المساكين المفتقرين، بألطافه وعناياته الخاصّة جانباً من تلك المقامات واللذّات المعنويّة، آمين ربّ العالمين.

---

١. هذان البيتان للشاعر أحمد شوقي وهما إشارة للبيت الفارسيّ للشاعر الإيرانيّ سعدي:
نابرده رنج گنج ميسر نمی‌شود مزد آن گرفت جان برادر كه كار كرد

الفصل الرابع

السبيل إلى نيل المقامات العرفانيّة

«يا ابن آدم أنا غنيٌّ لا أفتقر؛ أطعني فيما أمرتُك أجعلك غنيّاً لا تفتقر. يا ابن آدم أنا حيّ لا أموت؛ أطعني فيما أمرتُك أجعلك حيّاً لا تموت. يا ابن آدم أنا أقول للشيء كُن فيكون؛ أطعني فيما أمرتك أجعلك تقول للشيء كن فيكون»[1].

بحثٌ عن الطريق

النتيجة التي توصّلنا إليها لحدّ الآن هي أنّ العرفان ـ إصطلاحاً ـ يُطلَق على معرفة الله تعالى من دون واسطة؛ أي المعرفة التي يعثر من خلالها الإنسان على الله بمجامع قلبه وتمام وجوده، وليس المعرفة الحاصلة من خلال الفكر والمعنى والمفهوم. هذه المعرفة هي تلك التي أشارت إليها الآيات والروايات بتعابير شتّى؛ من قبيل: **«تدركه القلوب بحقائق الإيمان»**[2] وما شابه ذلك.

إنّ لهذه المعرفة مراتبَ جمّة، قد نال بعض عباد الله الصالحين ـ وعلى رأسهم نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام ـ أعلى مراتبها.

---

١. عدّة الداعي، ص٢١٩.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ١٧٩.

وكما أسلفنا في الفصل الأول من هذا الكتاب، فإنّ «العرفان» بمدلوله العامّ والكلّي الذي يطلِق عليه المتشرّعون اسم «قرب الله»، هو ميل فطريّ مودع في كيان جيمع البشر. بالطبع نحن قد نوّهنا في ذلك الحين إلى أنّه، نظراً لبعض الأسباب، ليس بالضرورة أن يعي كافّة البشر وفي كلّ مراحل حياتهم هذا الميل الفطريّ في باطنهم.

كما وقد اتّضح من خلال الأبحاث السابقة أنّ هذا الميل (الميل إلى الله والسعي للتقرّب من ذاته المقدّسة) هو من أكثر سمات الإنسان أصالة، وهو في الحقيقة الدافع الذي يقود الإنسان إلى أسمى هدف وأعلى درجات الكمال الإنسانيّ، وبناءً عليه فإنّ من أثمن وأنفس الدوافع والحوافز الفطريّة لدى الإنسان هو هذا الدافع والحافز.

الآن وبعد قبول أصل إمكان حصول مثل هذه المعرفة بالله (المعرفة التي لا تتدخّل فيها المفاهيم والفكر، والحاصلة بشكل حضوريّ وقلبيّ)، يأتي البحث ليناقش كيفيّة نيل مثل هذا المقام السامي، وأيّ مراحل لابدّ من اجتيازها للوصول إلى تلك الحقيقة النورانيّة النفيسة؟ في الواقع إنّ الاختلاف الأساسيّ في باب العرفان يكمن هنا؛ بمعنى: أيّ السبل لابدّ من سلوكها للحصول على هذه المعرفة؟ وعلى الرغم من أنّ البعض قد اعتقدوا ـ جرّاء ضيق الأفق لديهم ـ بعدم إمكانيّة الحصول على مثل تلك المعرفة أساساً! وكما أشرنا في الفصل الأوّل من هذا الكتاب، فنحن نعتقد أنّ حصول مثل هذه المعرفة للإنسان ليس ممكناً فحسب، بل إنّ الهدف الغائيّ والنهائيّ لله المتعال من خلقة الإنسان كان أساساً وصول الإنسان إلى هذا المقام. وقد آن الأوان الآن لدراسة وتحليل سبيل الظفر بهذه المعرفة وخصوصيّاتها ومميّزاتها.

الإفادة من العقل والنقل لمعرفة الطريق

إنّ الوجهة العامّة للسير العرفانيّ، الذي هو نفسه «السير إلى الله»، هي «القرب إلى الله». وهذا السير، بالنسبة لأيّ إنسان، يبدأ من مبدأ، هو وضع الإنسان الحاليّ، ويُختتم بمنتهى، وهو ذلك المقام الذي يُعَنوَن بعناوين شتّى مثل: «عند الله»، و«لقاء الله»، و«الفناء في الله»، ...الخ. بالطبع إنّ لجميع هذه التعابير معاني متشابهة، وليس للناس والمؤمنين العاديّين الوقوف على حقيقتها، فما لم يصل الإنسان لتلك المرحلة لن يكون باستطاعته إدراك حقيقة تلك المقامات. أشخاص كهؤلاء ليس بمقدورهم إلاّ أن يتصوّروا في أذهانهم، بالاستعانة بالمفاهيم، صورةً معقولة تشير عن بُعد لذلك المقام. وعلى أيّ حال، فإنّ بين هذا المبدأ وذلك المنتهى طريقاً لابدّ من سلوكه كي يصل المرء من وضعه الفعليّ الناقص والغير المناسب إلى وضع كامل ومناسب. بطبيعة الحال فإنّ هذه المطلوبيّة وهذا الكمال هما أمران نسبيّان ولهما مراتب تستعصي على الإحصاء. والبحث هنا يدور حول مسألة: كيف يمكن للإنسان طيّ هذا المسير الممتدّ بين المبدأ والمنتهى للوصول إلى الكمالات والمقامات العرفانيّة؟

وكما قد أشرنا سابقاً، فإنّ الميول العرفانيّة، والميل إلى القرب الإلهيّ لدى الإنسان هي ميول فطريّة، الأمر الذي يقودنا إلى استخلاص قاعدة عامّة هي أنّه: لا يمكن لطريق الوصول إلى العرفان ونيل قرب الله أن يخالف الفطرة الإنسانيّة في شيء. وانطلاقاً من هذه القاعدة نقول: إذا قُدِّم في مسلك معيّن منهاج وبرنامج، بعنوان أنّه طريقة للسير والسلوك والعرفان العمليّ، وهو لا ينسجم مع الفطرة الإنسانيّة، كان ذلك دليلاً على بطلان هذا المسلك وهذه الطريقة. وهذه القاعدة تنطبق كذلك على أصل الإسلام، حيث يشير الله سبحانه وتعالى إلى هذه الحقيقة في القرآن الكريم

بقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ ٱللهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾[1].

إنّ مَن علامات الأديان الباطلة هي اشتمالها على تعاليم وشرائع لا تنسجم مع الفطرة الإنسانيّة. وعلى هذا الأساس أيضاً فإن وُجدت من بين المسالك والفرق المنتسبة للإسلام فرق تخالف عقائدُها وطرقها ومناهجها فطرةَ الإنسان، فإنّ ذلك دليل على انحراف تلكم الفرق وبطلان عقائدها.

على أيّ حال، فإنّه للتعرّف على الطريق، ومراحله، ومنازله، وكيفيّة قطعه بالنسبة للأشخاص الذين لم يصلوا المقصد بعد، يمكن أن نتصوّر طريقين هما: الطريق النقليّ، والطريق العقليّ. بالطبع ليس المقصود من ذلك أنّ هناك طريقين للوصول إلى الله، بل هو طريق واحد ليس إلاّ وهو نفسه «الصراط المستقيم»، إلاّ أنّ هناك سبيلين لمعرفة هذا الطريق.

المراد من الطريق النقليّ هو الاستعانة بأولئك الذين ساروا في هذا الطريق ووصلوا إلى المقصد. بالطبع إنّ هذا الطريق لن يكون محطّ قبول واعتماد من كلّ جهاته وجوانبه إلاّ إذا كان مصدَره القرآن الكريم، والنبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومين عليهم السلام. فنحن في شكّ من الآخرين هل إنّهم حقّاً وصلوا إلى حقيقة العرفان ومقاماته العالية، أم التبس عليهم الأمر، وانطلت عليهم الخدعة، فأخطأوا طريقهم، وتجسّد لهم شبحٌ خالوه الحقيقة، أم إنّهم يكذبون عالِمين عامدين، وإنّ مزاعمهم كلّها مبنيّة على الكذب.

لابدّ من الالتفات فيما يخصّ الطريق النقليّ إلى أنّه على الرغم من كون جميع الأنبياء ـ بحسب مقتضيات الزمان، وبما يتناسب وقدرة أممهم على الإدراك والفهم ـ قد بيّنوا للبشر طريق الوصول إلى القرب الإلهيّ، إلاّ أنّه

---

١. سورة الروم، الآية ٣٠.

ـ وللعلل التي أشرنا لبعضها في البحوث السابقة ـ قد تعرّضت أصول الأديان من جهة، والمناهج التي رسمها الأنبياء من جهة أخرى، إلى تحريفات وأُوجدت فيها اختلافات. ومن هذا المنطلق فإنّ إحدى أهمّ الوظائف التي اضطلع بها الأنبياء على مرّ التاريخ كانت تقويم الزيغ والانحراف في الديانات السابقة، حتّى جاء النبيّ الخاتم، الرسول الأكرم محمّد صلى الله عليه وآله، للبشر بكتاب قد ضُمِن حفظه من الزيغ وصيانته من التحريف. بالطبع لم يكن في الوسع تفصيل وبيان كلّ ما أراده الله عزّ وجلّ ورسوله الكريم صلى الله عليه وآله ضمن الحجم المحدود للقرآن الكريم، والفترة القصيرة لرسالة النبيّ صلى الله عليه وآله، لذا فقد أوكل النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله مهمّة تفصيل وتبيين مواضيع ومباحث الدين للأئمّة الأطهار المعصومين عليهم السلام من بعده. بناءً على هذا، فإنّ ما يحتاجه البشر لبلوغ سعادة الدارين، يوجد أساسه في القرآن الكريم، وتفصيله في سنّة النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة الأطهار عليهم السلام.

وأمّا المراد من الطريق العقليّ فهو التوصّل إلى معرفة المعالم والأمارات الكلّية لطريق الحقّ بالاستعانة بالعقل والتحليل العقليّ، وتحديد المقاييس والمعايير التي يمكننا من خلالها التمييز بين الطريق الصحيح والطريق الباطل.

هنا قد يخطر في الذهن الإشكال التالي: وهو أنّ الكلام هو في «العرفان» الذي هو مسألة قلبيّة وشهوديّة، في حين انّ أدوات العقل هي المفاهيم والتفكّر والاستدلال، والمعرفة العقليّة والاستدلاليّة هي في مقابل المعرفة القلبيّة والشهوديّة؛ فكيف يمكننا استخدام العقل في معرفة طريق العرفان؟

والجواب هو: لابدّ من الالتفات إلى أنّ استخدام العقل هنا هو من أجل معرفة الطريق لا طيّه. وبعبارة أخرى، إنّ الغاية من استخدام العقل هي تبيين الطريق لنا لا إيصالنا إلى الهدف؛ فإنّ ما ينبغي أن يوصلنا إلى الهدف، في حقل

العرفان، وما يتعيّن علينا طيّ الطريق بواسطته هو القلب طبعاً، أمّا العقل فوظيفته إعانة القلب على معرفة الطريق والمقصد، كما أنّ النقل كذلك بإمكانه تأدية نفس الدور. وكما هو الحال في الطريق النقليّ، حيث إنّ نقل الصادقين من سالكي الطريق هو الذي من شأنه أن يعيننا على معرفة الطريق، كذلك نحن ننتظر من العقل في الطريق العقليّ أيضاً أن يكشف الطريق أمامنا.

بتعبير آخر، إنّ التعرّف على خصوصيّات العرفان والطريق الذي يجب السير فيه للوصول إليه يتأتّى إمّا من طريق النقل أو من طريق العقل؛ إذ لو كان من الضروريّ حصول تلك المعرفة أيضاً عن طريق العرفان؛ بمعنى أنّه لابدّ أوّلاً من سير عرفانيّ من أجل معرفة العرفان نفسه! لاستلزم ذلك الدَّوْر والتسلسل.

بالطبع إنّ الذين يزعمون السلوك العرفانيّ، والفرق المختلفة التي تنتهج السير والسلوك والتصوّف والعرفان يستندون إلى الطريق النقليّ؛ أيّ إنّهم يقولون: إنّ فلاناً من العظماء هو الذي أوصى بممارسة العمل الفلانيّ من أجل الوصول إلى المقام الكذائيّ. وكما قد عرفنا سلفاً فإنّ هذا الأمر لا يكون ذا قيمة واعتبار إلاّ إذا نُقل عن شخص ثقة. ومن البديهيّ أنّه لا يمكن الاطمئنان بكلام أيّ أحد في أمثال هذه الأمور المهمّة فالكلّ، ما خلا المعصومين عليهم السلام، هم عرضة للخطأ والاشتباه، ولا يتسنّى لنا القبول بكلام أحد من دون قيد أو شرط إلاّ إذا كان هذا الشخص معصوماً ومصوناً من العثرات والزلاّت.

والأخذ من المعصوم عليه السلام يمكن أن يكون مباشراً ومن دون واسطة، أو غير مباشر ومع الواسطة. فلو تشرّفنا بأنفسنا بالحضور في خدمة المعصوم عليه السلام وأخبرنا بشيء حول طيّ طريق العرفان، فأيّ سعادة هي تلك، وأيّ غنيمة هي بالنسبة لنا. لكنّ من الجليّ أنّ هذا الأمر ليس متيسّراً لنا إلى حدّ ما في زماننا

الحاضر الأمر الذي يدعونا إلى الاكتفاء بالنقل الغير المباشر الذي يأتينا عبر الواسطة. وفي هذه الحالة لن يكون النقل معتبراً بالنسبة لنا إلاّ أن يكون الوسائط الناقلون للخبر أشخاصاً ثقاتٍ، أو أن يكون الخبر متواتراً[١].

في هذا المضمار، نرى أنّ العديد من فرق المتصوّفة يزعمون أنّهم أخذوا تعاليمهم عن الأئمّة الأطهار عليهم السلام. بل إنّ العديد من فرق التصوّف من أصحاب المذهب السنّي تدّعي أخذ مناهجها عن أمير المؤمنين عليه السلام، فليسوا قلّة هم فرق التصوّف السنّية التي يحتّل عندهم عليّ عليه السلام مركز الصدارة في سلسلة مشايخهم. كما أنّ من بين فرق المتصوّفة الشيعة أيضاً العديد ممّن يُرجعون سلسلة مشايخهم إلى الإمام الرضا عليه السلام، كما ويضع البعض الآخر الإمام الصادق عليه السلام على رأس سلسلة المشايخ لديهم.

وبعيداً عن أيّ تعصّب، علينا الإذعان بحقيقة أنّ الفِرَق التي لها مثل هذه المزاعم لا يرقى كلامها ولا ترقى أسانيدها إلى ما يبعث على اليقين لدى المنصفين من الناس، أو يدفع المرء للوثوق بها. فهم حتّى وإن دوّنوا سلسلة أساتذتهم ومشايخهم كما يفعلون أحياناً وكان لديهم ـ كما يسمّونه ـ «شجرة المشايخ»، فإنّ جميع هؤلاء هم في دائرة التشكيك، وليس لدينا من يقين بأنّ هذا الاتّصال محفوظ إلى المعصوم عليه السلام، أو أنّ كافة الأشخاص المذكورين في الشجرة هم من الثقات. بل وإنّنا نعرف في زماننا الحاضر بعضاً ممّن يسمّونهم «الأقطاب» أو «المشايخ» عندهم ممّن نشهد في أسلوب حياتهم وأحوالهم وتصرّفاتهم، كما ويطرُق أسماعنا عن ذلك، أموراً تبعث على الشكّ والريبة في كونهم من الثقاة. فالعديد من هؤلاء هم من طلاّب الجاه

---

١. تطلق كلمة «المتواتر» اصطلاحاً على الخبر الذي يصل عدد ناقليه إلى حدّ يحصل فيه الاطمئنان عادة من صحّته وصدقه.

والمنزلة الاجتماعيّة ومن أهل الدنيا وهم يستخدمون تلك العناوين والمقامات وسيلة وغطاء للوصول إلى ما يصبون إليه من جاه ومنزلة ودنياً.

من هذا المنطلق لا يمكن الاعتماد على أمثال هذا النقل؛ لاسيّما أنّه أوّلاً: هناك بَون شاسع واختلافات فاضحة بين ما يروونه من طرق وسبل عرفانيّة. وثانياً: لا يحصل الاطمئنان بكلّ رواتهم. على أنّه قد يُعثر أحياناً في سلسلة الرواة على بعض الثقات، لكن يكفي وجود شخص واحد مشكوك وغير ثقة في سلسلة السند لسقوطه من حيّز الاعتبار. هذا ناهيك عن أنّ بعض التعاليم التي توصي بها مثل هذه الفرق لا تنسجم مع الكتاب والسنّة.

الطريق النقليّ في متناول العامّة

فلنشر الآن، والحديث عن الطريق النقليّ، إلى بعض النقاط الأخرى في هذا الصدد.

بعد استنتاج أنّه من أجل نيل الهدف السامي للإنسانيّة، وهو القرب من الله المتعال، فإنّ هناك سبيلاً صحيحاً تطلبه فطرة البشر، وأنّ جهود كافّة الأنبياء كانت تصبّ في إيصال الناس إلى ذلك المقصد، يأتي السؤال التالي ليطرح نفسه: ما هو هذا السبيل؟ وما سماته وخصوصيّاته؟ والجواب الكلّي على هذا السؤال هو أنّه ذات السبيل الذي أمر الله عزّ وجلّ به، وأرسل أنبياءه من أجل تبيينه للناس.

إنّ من الثوابت والمسلّمات أنّ الله تعالى طالِبٌ لكمالنا وسعادتنا قبل أن نطلبها نحن أنفسنا، وهو تعالى أقرب إلينا وأرأف بحالنا من أيّ شخص آخر، وإنّ محبّة الله لنا تفوق محبّة الأمّ لولدها، وليست محبّة الأمّ سوى شعاع ضئيل وباهت من النور الغير المتناهي للمحبّة الإلهيّة. بل إنّ العلّة من بعث الأنبياء في الحقيقة هي شدّة محبّة الله سبحانه وتعالى للإنسان. وبعبارة

أخرى، إنّ المحبّة الإلهيّة هي التي اقتضت أن يبيّن الله للناس أقرب الطرق لبلوغ الكمال، وعلى أفضل وجه ممكن، ويضعه في متناول أيديهم.

تأسيساً على ذلك، فقد اقتضت محبّة الله تعالى لعباده أن يبعث لهم أشرف مخلوقاته وأعزّ عباده من أجل هدايتهم والأخذ بأيديهم؛ هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، فإنّ أنبياء الله تحمّلوا صنوف الآلام وأنواع المخاطر لكي يعرّفوا البشر بأقرب وأفضل السبل للوصول إلى «مقصد الخلقة» ألا وهو «القرب إلى الله».

هل بوسعنا حقيقةً تصوّر أنّ الله عزّ وجلّ مع كلّ هذه الرحمة العظيمة بعباده والمحبّة الفائقة لهم قد بخل في أن يبيّن لهم أقرب وأفضل الطرق للوصول إلى مقصد الخلقة؟! أيّ مانع ياترى من شأنه أن يصدّ الله عن تبيين هذا الطريق لعباده؟ إنّ احتمال أنّ الله قد تصرّف ببخل وشُحّ في إظهار مثل هذا الطريق للناس، أو أنّه جعله من جملة أسراره التي ادّخرها لبعض أوليائه الخاصّين هو قطعاً غير وارد.

طبعاً لا شكّ أنّ للمعارف الإلهيّة مراتب ودرجات مختلفة وأنّه لا يمتلك أيّ شخص كان القابليّةَ والظرفيّة لإدراك أيّ معرفة كانت، وهذا من البحوث المسلّمة في محلّه. لكنّه فيما يتعلّق بمراتب الكمال المختلفة، فإنّ الهداية وإراءة الطريق من جانب الله تعالى لابدّ وأن تكون بالشكل الذي يسمح لأيّ إنسان أن يصل إلى درجة ومرتبة من الكمال بما يتلاءم مع ظرفيّته وقابليّاته. ومن هذا المنطلق فإنّ هداية الله تعالى هي بشكل بحيث يتسنّى لكلّ أحد، بحسب استعداده وظرفيّته، أن ينتفع منها. ولا يمكن، كما ذكرنا، تصوّر أيّ بخل أو شحّ من قبل الله عزّ وجلّ في هذا الصدد.

من جانب آخر فإنّ أنبياء الله المكلّفين من قبله جلّ شأنه بإبلاغ تلك

الهداية معصومون وليس هناك أيّ نقص من جانبهم في إبلاغ تلك الرسالة. فلم يحدث أن خصّ الأنبياء أفراداً خاصّين بجانب من الرسالات الإلهيّة بسبب ما يربطهم بهم من علاقات صداقة أو قرابة، وحرموا الآخرين منها! مع أنّه لابدّ من التأكيد هنا على أنّ أنبياء الله لم يكن بوسعهم أن يُفهِموا أيّاً كان بكُنه أيّ رسالة إلهيّة وقد قالوا في ذلك: «**إنّا معاشر الأنبياء نكلّم الناس على قدر عقولهم**»[1]. ومع ذلك فإنّهم لم يكونوا ليمنعوا عامّة الناس من سبل الوصول إلى قرب المولى، بل إنّهم بيّنوا الأمور بحيث يستطيع كلّ شخص أن يغترف منها بحسب ظرفيّته وفهمه. وبعبارة أخرى، لقد بيّنوا الطريق بشكل يستطيع كلّ إنسان أن يخطوا فيه خطوات على قدر ما أوتي من وسع وهمّة. وبطبيعة الحال فالشخص الذي يمتلك همّة أعلى وقابليّة أكبر، فسيتقدّم أكثر في هذا المضمار، ويرتقي مدارج أعلى وأسمى، أمّا الذي له همّة أدنى، فسينال كمالات أدنى وأقل. إنّ السرّ في احتواء القرآن الكريم والروايات على مضامين متشابهة اصطلاحاً، أو كما يقال بأنّ لها ظاهراً وباطناً (أو حتّى عدّة بطون) هو من أجل أن يتمكّن الأشخاص المتمتّعون بالصلاحيّة اللازمة من أن ينهلوا من بطونها ومن معارفها العميقة والعالية، ويستفيد مَن هم في درجات أدنى من ظواهرها ويتعلّموا الطرق المناسبة لهم. إذن ليست القضيّة هي أنّ الله سبحانه وتعالى وأنبياءه وأولياءه قد بخلوا على الناس أو قصّروا في تبيين أقصر وأفضل الطرق للوصول إلى المقصد النهائيّ.

ضرورة الأخذ من أهل البيت عليهم السلام للعثور على طريق العرفان القويم

حسب اعتقادنا نحن الشيعة، فإنّ الطريق النقليّ المعتبر في هذا العصر ينحصر

---

١. بحار الأنوار، ج٢، باب ٢٩، ص٢٤٢، الرواية ٣٥.

في القرآن الكريم وأحاديث النبيّ الأكرمﷺ والأئمّة الأطهارعليهم السلام. في هذا الإطار رفعت جماعة كثيرة نسبيّاً من المسلمين شعار «حسبنا كتاب الله»، وحسب اعتقاد هؤلاء فإنّ القرآن وحده كاف لإيصال الإنسان إلى المنزل المقصود. ومع قليل من التأمّل يتّضح بجلاء بطلان مثل هذا الرأي؛ إذ يقول الله عزّ وجلّ في كتابه العزيز: ﴿**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**﴾[1]. فلقد صرّح في هذه الآية الكريمة بأنّ القرآن لابدّ أن يكون مشفوعاً بتبيين وتفسير النبيّﷺ له. ومن هنا، وعلى أساس هذه الآية، فإنّ مجرّد نزول القرآن من دون توضيح النبيّ الأكرمﷺ وتبيينه غير كاف، هذا أوّلاً. وثانياً: إنّ ما قاله النبيّﷺ في معرض شرحه وتوضيحه للقرآن الكريم هو حجّة لنا مثل القرآن، وإنّ اعتباره بالنسبة لنا كاعتبار القرآن نفسه.

الآن وقد أصبح كلام النبيّ الأكرمﷺ لنا حجّة كالقرآن وعلينا اتّباعه، فلنلتفت إلى أنّ من جملة ما أمرنا به النبيّﷺ هو الرجوع إلى أهل البيت، والأئمّة الأطهارعليهم السلام من بعده؛ حيث وردت في هذا الصدد عدّة أحاديث عنهﷺ، ومن أشهرها هو الحديث المعروف بحديث «الثقلين» الذي رواه الشيعة والسنّة بأسانيد متعدّدة. في هذا الحديث الشريف يقول النبيّﷺ: «**إنّي تارك فيكم الثَّقَلَين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وإنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا**»[2]؛ وحسب أمثال هذه الروايات يكون الأئمّة المعصومونعليهم السلام ـ بالإضافة إلى النبيّ الأعظمﷺ ـ أيضاً مبيّنين ومفسّرين للقرآن، فيكون حديثهم ـ تبعاً لذلك ـ حجّة علينا، كما هو الحال في مجال حديث النبيّﷺ.

---

١. سورة النحل، الآية ٤٤.

٢. بحار الأنوار، ج٣٥، باب ٤، ص١٨٤، الرواية ٢.

من هنا يتّضح أنّ الإسلام ـ وحسب ما ادّعينا من أمور ـ قد بيّن كلّ ما يحتاجه البشر إلى يوم القيامة. أساساً لو أنّنا حاولنا أن نجعل محور ومنهج مسيرتنا وحياتنا على أساس القرآن وحسب، وأن نصرف النظر عن سنّة النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة الأطهار عليهم السلام من بعده، لوقفنا مكتوفي الأيدي أمام أهمّ أوامر الدين وأحكامه وأكثرها ضروريّة ألا وهي الصلاة، ولعجزنا عن معرفة تكليفنا في هذا الصدد. فما جاء به القرآن حول الصلاة لا يتعدّى أصل الأمر بها مضافاً لبعض أحكامها بينما معظم أحكام الصلاة قد أغفلها القرآن الكريم، فلم ترد في القرآن التفاصيل التي لها أهميّتها الخاصّة كعدد الفرائض اليوميّة وكم ركعة في كل فريضة. بناءً على ذلك، وكما تمّت الإشارة إليه، فلو أنّنا أردنا الاكتفاء بالقرآن، والالتزام بشكل جدّي وحقيقيّ بشعار «حسبنا كتاب الله»، لوقفنا عاجزين حتّى أمام أداء أكثر التكاليف الدينيّة وضوحاً وهي الصلاة.

كما لابدّ من الالتفات أيضاً إلى أنّ الاقتصار على سنّة النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله في مسألة التبيين والكشف عن الأحكام والمعارف الإسلاميّة من دون الرجوع إلى أهل البيت عليهم السلام، لن يمثل حلاً شاملاً. فبعيداً عن سنّة الأئمّة الأطهار عليهم السلام وإيضاحاتهم، سوف يبقى الكمّ الهائل من أحكام الإسلام مستوراً عنّا، وسوف نظلّ في كثير من القضايا في حيرة من أمرنا ولن تلبّى متطلّباتنا على صعيد المسائل الإسلاميّة. هذا الأمر سوف يتّضح أكثر عندما نعلم أنّ عدد الروايات التي يرويها أهل السنّة عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله لا يبلغ حتّى الألف رواية! ومن البديهيّ أنّنا لن نبلغ أيّ هدف بألف رواية ولن تجد مشاكلنا ومسائلنا الحلولَ الناجعة لها؛ كما هو حال أهل السنّة الذين كانوا وما زالوا يواجهون هذه المعضلة.

نحن الشيعة نعتقد أنّه بعد وفاة النبيّ الأعظمﷺ اضطلع خلفاؤه الأئمّة الإثنا عشر عليهم السلام على مدى ٢٥٠ عاماً بمهمّة هداية الناس، فرسّخوا أسس الدين، وبيّنوا أصوله وتفاصيل أحكامه. لقد قام هؤلاء العظماء في أحلك الظروف، من خلال تدبيرهم والتسديدات الإلهيّة لهم، بنشر أحكام الإسلام بين الناس، وحفظها بواسطة أصحابهم المقرّبين، ممّا أدّى إلى أن ينعم الشيعة اليوم بميراث ضخم من علوم الوحي ممّا لا يقتصر على القرآن والأحاديث النبويّة، بل يتضمّن الروايات المرويّة عن الأئمّة عليهم السلام أيضاً. وبالاعتماد على تلك المنابع الثرّة يمكننا تلبية المتطلّبات المختلفة للمجتمع في كلّ عصر وزمان. في حين أنّ سائر الفرَق الإسلاميّة محرومون من ميراث تعاليم أهل البيت عليهم السلام الملقاة إلينا خلال ٢٥٠ عاماً، بل وليس هناك ما يضمن بشكل كامل وصحيح ما في أيديهم من الكمّ المحدود من أحاديث النبيّﷺ. ناهيك عن أنّ أهل السنّة أنفسهم يختلفون فيما بينهم في نقل العديد من الأمور، ويشاهَد هذا الاختلاف حتّى في المسائل التي مارسها النبيّﷺ لسنين على مرأى من الناس ومسمع. فلطالما توضّأ النبيّﷺ أمام أعين الناس لسنوات طوال، لكن بمجرّد أن توفّيﷺ نشب الاختلاف بين المسلمين في كيفيّة وضوء النبيّﷺ! كما أنّهﷺ كان يصلّي أمامهم لأعوام، إلاّ أنّهم اختلفوا بعد رحيله في هل انّه كان يتكتّف أثناء الصلاة أم يُسبِل؟! أجل، فقد عانت مسائل غاية في البساطة والتي هي مورد ابتلاء عامّة الناس من مثل هذا الوضع، فكيف بالمسائل التي لا تخطر إلاّ على ذهن المتخصّصين وأهل الفنّ، ولا يدركها إلاّ ذوو العقول الوقّادة والمواهب الخارقة.

من هذا المنطلق فإنّ أهمّية وجود الإمام المعصوم عليه السلام تأتي من جانب أنّه متمّم لوظيفة النبوّة. فلولا الأئمّة المعصومون، لم تكن رسالة النبيّ الأكرمﷺ

لتبلغ الغاية المنشودة. وإنّ ممّا يثبت المزيد من الأهمّية لهذا الأمر هو أنّ تمتّعهم بميزة «العصمة» يجعلهم لا يخطئون في فهم كلام النبيّ صلى الله عليه وآله ونقله.

كما أنّ «العلم المفاض من قِبل الله» هو من السمات المهمّة الأخرى للأئمّة المعصومين عليهم السلام فقد جعلهم، إلى جانب «العصمة»، قادرين على حفظ وتدعيم أسس الشريعة والسنّة النبويّة، فتمكّنوا من خلق بيئة زادت في تثبيت وترسيخ دعائم الإسلام الأساسيّة على نحو يجعله قادراً على الاستمرار والبقاء بين الناس لآلاف السنين. بطبيعة الحال لم يقف الشياطين في هذه الأثناء مكتوفي الأيدي فقد ساهموا ـ من خلال دسّ الأخبار والأحاديث المزيّفة والسعي لبث الفُرقة بين المسلمين ـ في توجيه ضربات موجعة للكيان الإسلاميّ، ولكن لم يرقَ فعلهم هذا إلى اقتلاع أصول الدين وحرفه عن مسيره الأصليّ؛ فإن وُجِدت بعض الأخطاء، وعُثِر على بعض النقص والعجز فهو غالباً في بعض المسائل الفرعيّة والجزئيّة ممّا لا يخلّ بأساس الدين وأصله.

على أيّ حال، إذا رغبنا في العثور على أفضل الطرق للتقرّب إلى الله المتعال فلابدّ من الرجوع للكتاب والسنّة. فأيّ سبيل آخر نختاره على صعيد معرفة الدين وتكامل الإنسان وتعاليه فسيقودنا إلى طريق مسدود أو إلى الانحراف عن جادّة الصواب. فعندما تكون الآيات النورانيّة للقرآن الكريم، والروايات والكلمات النفيسة للنبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومين عليهم السلام في متناول أيدينا، فأيّ داع يبقى للاستناد إلى كلام فلان من العلماء، أو زيد من المؤرّخين، أو عمرو من المستشرقين، ممّن يكنّون أحياناً العداء للإسلام أيضاً؟! ومع وجود هذه المصادر القيّمة والموثّقة والمعتبرة، فما حاجتنا بعدها إلى المصادر الأجنبيّة؟! لكنّه ـ مع بالغ الأسف ـ وعلى الرغم من أنّ هذه المسألة هي غاية في الوضوح ولا تشوبها أدنى شائبة، فقد ساهمت الغفلة وما حصل في المجتمع الإسلاميّ

من أحداث وقضايا على امتداد تاريخ الإسلام في حجب عدد هائل من المسلمين عن العثور على الصراط المستقيم وطيّه.

المانع المهمّ للسير إلى الله

«السير والسلوك» في اللغة هما بمعنى «طيّ الطريق». وكما في غيره من أنواع السير فإنّ لهذا السير مبدأً ومقصداً. والمقصد هنا هو الذات المقدّسة لله عزّ وجلّ، وسالك هذا الطريق ينال في نهاية المطاف «المعرفة الشهوديّة» لله سبحانه وتعالى. وبطبيعة الحال فإنّ لهذه المعرفة مراتبَ ودرجاتٍ لا تحصى ولا تعدّ، وبوسع مختلف الأشخاص نيل درجات متفاوتة منها. وإنّ المبدأ، كما أسلفنا، هو الوضع الموجود لكلّ فرد. لذا نقول كخلاصة: إنّ السير العرفانيّ هو سير الإنسان من وضعه الفعليّ الموجود نحو قرب الله تعالى.

من الجليّ أنّ هذا السير ليس هو سيراً مادّياً أو حركة مكانيّة لأنّ الله جلّ شأنه ليس جسماً، وليس له مكان وجِهة من أجل أن نسير نحوه. نعم لقد جعل الله لنفسه بيتاً رسميّاً هو «الكعبة» وأسماه «بيت الله» ودعى الناس لأن يؤمّوا هذا البيت، ويطوفوا حوله، ويؤدّوا شعائر الحجّ، إلاّ أنّ هذا السير والطواف ليس ممّا يوصِل الإنسان إلى الله، فكثير من الذين يسكنون مكّة، حرم الله الآمن، هم في الحقيقة أعداء لله وليس لهم من سيرهم وطوافهم سوى الابتعاد عن الله!

فالسير الذي يوصل الإنسان إلى الله هو قضيّة قلبيّة تتحقّق في باطن الإنسان، وإنّ الذي يتحرّك في هذا السير هو روح الإنسان التي تصل، بطيّ مراتب الكمال، إلى مرتبة يعبّر عنها القرآن الكريم بـ «عند الله»: ﴿فِي مَقْعَدِ

صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾[١]. على هذا الأساس لابدّ، حال السير والسلوك، من الالتفات إلى القلب والنظر إليه. فإنّ ما يقترب إلى الله أو يبتعد عنه هو قلب الإنسان، لا جسمه، ونتيجة السير العرفانيّ هو تقرّب القلب من الله ووصاله معه.

أمّا ما هي حقيقة ما يحدث للقلب عندما يقترب إلى الله ويتّصل به، فذلك أمر لابدّ أن يذوقه الإنسان ويجرّبه بنفسه.

بالطبع من الممكن تحليل هذا المعنى عقليّاً إلى حدّ ما، إلاّ أنّ العرفان الحقيقيّ لا يُنال إطلاقاً من خلال أمثال هذه البحوث أو التحليلات، بل هي لا تعدو أن تكون سبيلاً للتعرّف على العرفان وما يحدث للسالك في سيره وسلوكه.

إذا نظر الله سبحانه وتعالى إلى قلب امرئ اجتذبه نحوه، لكن من المؤسف أنّ أكثرنا نعيش في وضع نكون فيه بعيدين نسبيّاً عن الله، وهناك حُجُب بيننا وبينه عزّ وجلّ. فلو أُزيحت تلك الحجب، واقترب القلب من الله، ولم تعد هناك واسطة بين الإنسان وربّه، لتغيّر وضعنا تماماً نحو الأحسن.

مهما كان، فما دام أصل هذا الحال، كما قلنا سابقاً، ممكن المنال، وأنّ على الإنسان أن يعثر عليه بنفسه من أجل أن تُكشف له حقيقته، إلاّ أنّه من الممكن إصابة بعض من آثاره وعلاماته من قريب أو بعيد من خلال الآيات والروايات وبعض التحليلات العقليّة. ونحن نقول إجمالاً إنّ المرء لن يرى لنفسه في ذلك المقام وتلك المنزلة أيّ استقلاليّة تُذكر. وقد أطلقوا على ذلك المقام اسم «الفناء في الله»، و«البقاء بالله»، و«مقام المَحْو»، وما إلى ذلك.

لكن لا ينبغي لنا أن نقع في شَرَك تلك الاصطلاحات ونفرح ـ كبعض

---

١. سورة القمر، الآية ٥٥.

الذين لا حظّ لهم إلاّ من العرفان النظريّ ـ بتعلّم بعض الاصطلاحات. فلن يحصل أيّ تحرّك بتعلّم الألفاظ والمفاهيم والمقولات المطروحة في العرفان النظريّ بل قد يشكّل ذلك أحياناً حجاباً آخر يضفي على بُعد الإنسان عن غاية السير والسلوك المزيد من البُعد؛ كما قد قالوا: العلم هو الحجاب الأكبر. فبتعلّم هذه المفاهيم لن تُحلّ أيّة مشكلة، فما هي إلاّ مفاهيم تشغل ذهن الإنسان وتحجبه عمّا يتحتّم عليه الوصول إليه.

على أيّ حال، فإنّ ما نفهمه عن حقيقة مقام «القرب» هو أنّ الإنسان عندما ترتفع من أمامه الحجب، ونتيجةً لتعلّق خاطره بالمحبوب والمعشوق الحقيقيّ للعالم سوف يكون له وضع وحال لا يرى فيه أيّ استقلال لنفسه، فضلاً عن أن يتعلّق بالزوج والأولاد والثروة. بل الإنسان في هذا المقام حتّى لا يعتبر ولا يرى أنّ حياته، وعلمه، وأمثال تلك الأمور هي من ذاته.

فما هي حقيقة هذا المقام وهذه الحالة ياترى؟ إنّنا لا نستطيع من خلال الألفاظ والمفاهيم، مهما أجهدنا أنفسنا، إلاّ أن نكوّن من بعيد صورةً مبهمة ضبابيّة عن ذلك المقام، وهي في حكم الثمرة التي لم نذق طعمها إلى الآن. فمهما بذلنا من جهد لن نستطيع أن ننال حقيقة ذلك. إنّنا في وضع نخال فيه أنّ «وجودنا» من ذاتنا، وأنّنا مستقلّون في وجودنا. فعلى الرغم من أنّ وجود كلّ موجود ـ حسب الظاهر ـ هو من ذاته، بيد أنّ الحقيقة هي أنّنا لا نملك أساساً أيّ شيء بما في ذلك وجودنا. إنّ هذه لحقيقة يقوم عليها البرهان القطعيّ والمسلّم، غير أنّ هذا هو حكم العقل ليس إلاّ بينما شعورنا العاديَّ هو غير ذلك. إنّنا نرى، حسب شعورنا وإحساسنا، أنّ وجودنا مستقلّ، ونتصوّر أنّنا معتمدون على أنفسنا، لكنّ مثل هذا التصوّر إنّما هو تصوّر كاذب تماماً وهو محض خيال، وإنّ بُعدنا ناشئ في الحقيقة من هذا التخيّل الكاذب.

إنّ الدليل العقليّ والبرهان الفلسفيّ يثبتان أنّنا لا نملك شيئاً من ذاتنا؛ لا الحياة، ولا العلم، ولا السلطة، ولا الحركة، ولا أيّ شيء آخر. إنّ كلّ ما لدينا هو من موجودٍ آخر، وإنّ كلّ وجودنا وتعلّقاتنا مدينة له. هذا المبحث واضح وجليّ بشكل كامل بالنسبة للمطّلع على المباحث الفلسفيّة والبراهين العقليّة الدقيقة. فيقال في الفلسفة اصطلاحاً إنّ الإنسان وكلّ موجود آخر ليس هو «فقيراً» بل هو «عين الفقر»، وليس هو «وجوداً مرتبطاً بالله» بل هو «عين الربط» بالذات الإلهيّة المقدّسة. **إلاّ أنّ كلّ ذلك هو إدراك عقليّ** وفلسفيّ ليس إلاّ ولا علاقة له بالإدراك القلبيّ والتصديق الباطنيّ. وإنّه من هذا المنطلق ينشأ باستمرارٍ تضادٌّ بين العقل والقلب، والقول والعمل. فالعقل يقول: ليس هناك استقلال على الإطلاق، بل المسألة هي «عين الربط»، أمّا قلبنا فيشعر بالاستقلاليّة وعدم الارتباط. يجب أن لا ننسى أنّ عامّة الناس ممّن ليس لهم اطّلاع كاف على هذه التأمّلات العقليّة والفلسفيّة لا يدركون عدم الاستقلاليّة هذه جيّداً حتّى بعقولهم؛ لكنّه على كلّ حال، فحتّى إذا أدرك العقل ذلك وصدّق به، تبقى مشكلة الإدراك القلبيّ والتصديق الباطنيّ قائمة لدى معظم الناس.

أجل، فالواقع انّ معظمنا لا يصدّق قلباً إلى الآن أن ليس هناك موجود مستقلّ ولا موجوديّة مستقلّة سوى الذات الإلهيّة المقدّسة؛ وكشاهد على هذا المدّعى نقول: إنّنا نخاف من كلّ شيء ما خلا الله! وكأنّنا نقرّ بالقدرة والفاعليّة والتأثير لكلّ شيء ما عدا الله! مع أنّ النبيّ ﷺ والأئمة عليهم السلام يقولون: «**من خاف الله، أخاف الله منه كلّ شيء، ومن لم يخف الله، أخافه الله من كلّ شيء**»[1]. فالعرفاء الحقيقيّون والعباد الصالحون على العكس منّا

---

١. أصول الكافي، ج٢، ص٦٨، الرواية ٣.

تماماً. فهؤلاء لا يخشون أيّ شيء على الإطلاق ما خلا الله تعالى. فهؤلاء آمنوا واعتقدوا حقيقةً أن لا مؤثّر ولا منشأ للأثر في عالم الوجود سوى الله عزّ وجلّ، وأنّ كلّ الوجود هو منه، وفي قبضته، وما لم يشأ هو فلن تنمو حتّى ورقة في شجرة، ولن تسقط ورقة من شجرة. فلو بلغ شخص هذه المعرفة وهذا الإيمان كان أثرهما الواضح هو عدم الخشية إلاّ من الله وحده؛ وإذا وصل شخص حقيقةً إلى درجة عدم الخوف إلاّ من الله، أودع الله له هيبة ومهابة في قلوب الآخرين.

لقد شهدنا هذا الأمر في عصرنا الحاضر بأمّ أعيننا متجسّداً في الإمام الخمينيّ الراحل‏. فقد كانت قوى التسلّط العظمى والاستكبار العالميّ في رعب من شيخ عجوز نحيف تجاوز عمره الثمانين عاماً. فعلى الرغم من حيازة قوى الغرب والشرق الاستكباريّة على أكثر وسائل التقنية والتسلّط العسكريّة والاقتصاديّة والسياسيّة تطوّراً، كانوا يصابون بالهلع وترتعد فرائصهم من اسم جماران[1] والإمام الخمينيّ، هذا في وقت كان الإمام الراحل يقول فيه: أقسم بالله إنّني لم أخش شيئاً حتّى هذه اللحظة! أجل، فلأنّه كان حقيقة لا يخاف من أيّ شيء ومن أيّ أحد ما عدا الله، كانت القوى العظمى في الشرق والغرب تخاف منه.

علاوة على ذلك، فإنّ الشخص الذي لا يخاف من أيّ شيء أو أيّ أحد سوى الله، لن يتعلّق قلبه إلاّ بالله، ولن يختار محبوباً ولا معشوقاً سوى الله. وإذا مال مثل هذا الشخص إلى شيء أو أحد غير الله أو أحبّه فهو لأنّ محبوبه

---

١. اسم محلّة في شمال العاصمة طهران سكنها الإمام الخمينيّ بعد انتصار الثورة الإسلاميّة حتّى رحيله عن هذه الدنيا، وهو أيضاً اسم الحسينيّة الملاصقة لبيت سكناه حيث كان الإمام يوجّه منها خطاباته إلى الشعب الإيرانيّ والعالم.

(أي الله) أراد ذلك وأجازه له. بطبيعة الحال مثل هذه المحبّة لغير الله لن تنجرّ إلى الهيام والوَلَه حتّى يفلت الشخص عنان نفسه ويسلّم زمام أموره وحياته لغير الله. ففي هذه الحالة تكون محبّة الآخرين في طول محبّة الله وإنّ المحبوب والمعشوق الحقيقيّ للمرء ليس من أحد سوى الله، وإنّ العلّة وراء ما يكنّه للآخرين من مودّة هي مشيئة الله ورغبته بذلك.

الإنسان الذي يكون فقط مع الله وليس له من محبوب سوى الله تراه يعدّ الثواني واللحظات حتّى تحين ساعة العبادة. إنّه يظلّ يرمق السماء من حين شروق الشمس منتظراً اللحظة التي تستقرّ بها الشمس في كبد السماء معلنة عن وقت صلاة الظهر. وفي الليل عندما يأوي إلى الفراش ينتابه السُهاد كمن يترقّب قدوم محبوب، وإذا ما غلب عليه النوم ينتبه من نومه بين الفينة والأخرى من دون أن يشعر منتظراً وقت السحر، وقت مناجاة الليل، مناجاة العشّاق مع الحبيب. وهو ينظر إلى الساعة اللحظة تلو الأخرى مترقّباً قدوم وقت نافلة الليل، ولحظات خلوته مع المحبوب. فكلمة «التهجّد» أساساً تعطي هذا المعنى؛ أي الاستيقاظ من النوم ثمّ العودة إليه بشكل متكرّر. النبيّ الأعظمﷺ كان كذلك، فكان يستيقظ من نومه عدّة مرّات لصلاة الليل؛ فكانﷺ يقوم من فراشه بعد منتصف الليل بقليل ليصلّي أربع ركعات ثمّ يعود للفراش. وبعد استراحة بسيطة يعود ليستيقظ ثانية، ويتوضّأ ويصلّي أربع ركعات أخرى ثمّ يستريح مرّة أخرى. وفي النهاية يستيقظ مرّة ثالثة قبل طلوع الفجر ليشتغل بصلاتي «الشفع» و«الوتر»، والمناجاة حتّى أذان الصبح. المهمّ في الأمر أنّ النبيّﷺ لم يكن يجبر نفسه على هذا العمل بمشقّة وتكلّف، بل كان يقوم به بوَلَه واشتياق، ولم يكن ليحتاج إلى رنين جرس منبّه ساعة ليوقظه من مضجعه! كم يمكننا

العثور على أمثال هؤلاء من بيننا أو من بين مدّعي العرفان؟ هذه هي إحدى سمات من نالوا حقيقة العرفان ومقام قرب الله.

العارف الحقيقيّ هو الشخص الذي تتساوى عنده جميع ثروات العالم وجبال من الذهب والجواهر مع تلّ من التراب، وإنّ كل ما يشغل باله في هذا الصدد هو صرف هذه الثروة في ما يرضي الله عزّ وجلّ. فلو قال من يعيش حياة بسيطة ويكتفي في منزله ببساط متواضع، لو قال: ليس لي تعلّق بالدنيا، فنحن نستطيع أن نصدّقه؛ لكنّ من يملك ثروة بالملايين وله جيران فقراء لا يجدون حاجات يومهم ثمّ يدّعي اتّباع عليّ عليه السلام والعرفان والتصوّف، فإنّه لا يمكن تصديقه حتّى لو أقسم ألف قسم.

خلاصة القول، إذا نال شخص حقيقة العرفان والمعرفة الحضوريّة لله تعالى، فإنّ الحجب بينه وبين الله جلّ شأنه تُرفَع، ثمّ لا يعود يرى أيّ استقلال لنفسه ولا لأيّ موجود آخر. مثل هذا الإنسان يكون الله مبدأ كلامه ومنتهاه، وتزول «الأنا» من قاموس وجوده ويحلّ محلها «الله». العارف الحقيقيّ يتصرّف كالإمام الخمينيّ رحمه الله الذي لم يقل «أنا» قطّ. لقد كان هذا الرجل العظيم ينسب جميع الأمور لله سبحانه وتعالى فيقول: الله هو الذي نصر هذا الشعب، الله هو الذي أوصل هذه الثورة إلى الفتح، الله هو الذي حرّر خرّمشهر. فإن قيل في مثل هذا الشخص أنّه كان دائم التوجّه والالتفات إلى الله، أمكن تصديق هذا القول وقبوله. أمّا من يجلس على كرسيّ السلطة ويأتي الناس يقبّلون يديه وقدميه، فيلوّح لهم بيده مردّداً بعض الأذكار، لكنّه في مواضع أخرى تراه مهتمّاً بالدنيا والمنصب والدعة والراحة ورغد العيش له ولمن يرتبط به عسى أن ينالوا من بعده سلطة، ويبلغوا مقام «القطبيّة»، فهل يمكن القول في حقّه: إنّه غير متوجّه لشيء سوى الله؟!

الموحّد باللفظ، والمشرك بالعمل!

لقد أصبح معلوماً أنّ غاية العرفان والمقام الذي يتحتّم على الإنسان بلوغه هو مقام يرى الإنسان فيه نفسه شعاعاً من النور الإلهيّ، ولا يرى أيّ استقلاليّة لذاته أبداً. فحقيقة السير إلى الله هي نفي الاستقلال عن النفس وعن سائر الموجودات الأخرى. فنحن في الوقت الحاضر نقرّ بالاستقلاليّة للموجودات والأشياء المحيطة بنا؛ وبعبارة أدقّ: إنّنا جعلنا من كلّ الأشياء أصناماً يخضع أمامها مختلف الأشخاص ويعبدونها كلّ على شاكلة خاصّة. لذا يتعيّن تحطيم جميع تلك الأصنام والركوع والخضوع بين يدي الذات الإلهيّة المقدّسة فحسب؛ إذ ليس من موجود غير «الله» يستحقّ العبادة. العرفان الواقعي هو أن نطبّق حقيقة «لا إله إلاّ الله» في حياتنا ووجودنا. لكنّنا عندما نمعن النظر في أعمالنا وحياتنا اليوميّة نلاحظ أنّنا نعتقد بآلهة كثيرة وأنّ الشرك يدنّسنا بأنحاء شتّى. فمعظمنا يتفوّه بعبارة «لا إله إلاّ الله» بلسانه فقط، لكنّنا في الواقع اتّخذنا من أهوائنا معبوداً لنا: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**﴾[1]. فكيف لمن اتّخذ هواه إلهاً أن يقول: «لا إله إلاّ الله»؟! ولهذا السبب أيضاً يقول القرآن الكريم: ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ**﴾[2]. فالشخص الذي ﴿**اتّخذ إلهه هواه**﴾، حسب التعبير القرآنيّ، يمكنه أن يقول «لا إله إلاّ الله» بلسانه، لكنّه في الواقع يقول بقلبه: لا إله إلاّ أنا! فتصرّف هذا الشخص يفصح عن أنّه يعُدّ نفسه إلهاً ويتّبع نزوات نفسه. ولا فرق بين أن تكون نزوة الإنسان وهواه متعلّقة ببطنه، أو بمقامه، أو بماله، أو بغريزته الجنسيّة، أو بمحبوبيّته وشهرته بين الناس؛ فكلّ واحد من هذه الأمور هو نوع من عبادة الهوى وإنّ أسوأ أنواعه هو أن

١. سورة الجاثية، الآية ٢٣.

٢. سورة يوسف، الآية ١٠٦.

يضع المرء نفسه موضع الربّ ويُكرِه الناس على عبادته بالخداع والحيلة منادياً: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ ٱلأَعْلَىٰ﴾[1]!

فلو استطعنا ـ في سبيل التخلّص من عبادة النفس والهوى ـ أن نفعل ما يحرّرنا من تسلّط شهوة البطن، وأن نمسك بعنانها بأيدينا، بحيث لا نتناول إلاّ الأطعمة التي حلّلها الله عزّ وجلّ لنا، فقد نجحنا في تحطيم صنم البطن. والصنم المهمّ الآخر هو صنم الشهوة الجنسيّة؛ فالله تعالى يأمر: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾[2]، فيجب أن تكون الشهوة تحت هيمنة الإنسان بشكل كامل. بطبيعة الحال ليس المراد من الهيمنة إخماد الغريزة الجنسيّة تماماً، بل المراد هو أن نفعل كما أمرنا الله تعالى. فقد تكون ممارسة الغريزة الجنسيّة واجبة أحياناً، وفي هذه الحالة لن تكون غير مذمومة فحسب بل هي نوع من أنواع العبادة، وطاعة لله، ومن موجبات التقرّب إلى الباري جلّ وعلا. إنّ الممارسة الجنسيّة وإن كانت عملاً حيوانيّاً في الظاهر، لكن لمّا كان لها في مثل هذه الموارد دافع إلهيّ، ولمّا كانت الشهوة هنا هي أسيرة الإنسان في الحقيقة [لا العكس]، وهو يسيطر عليها بإرادة إلهيّة، فإنّها تصبح عبادة. ومهما كان فبهذه الطريقة يكون صنم الشهوة قد تحطّم أيضاً.

لكنّه لم تنته المهمّة بإنجاز هذه المرحلة، فهناك أصنام كثيرة لابدّ من تحطيمها؛ مثل صنم الغضب، وصنم المقام، وصنم الثروة، وصنم الشهرة، و... الخ. فالعديد من الناس بإمكانهم السيطرة على شهواتهم، لكنّهم لا يتحمّلون إهانة من أحد. فهؤلاء هم أسرى الغضب. إذ على المؤمن أن لا يُستفزّ إذا ما أُهين من قبل الآخرين، حتّى وإن كان ظلماً، بل لابدّ أن يكون حليماً.

---

١. سورة النازعات، الآية ٢٤.

٢. سورة النور، الآية ٣٠.

خلاصة الأمر، لو أُطيح بهذه الأصنام القابعة في معبد النفس الشيطانيّ، ولم يعد في وجود الإنسان من حاكم غير الله جلّ شأنه، عندها يستطيع المرء أن يقول بكلّ صدق: «لا إله إلاّ الله»، وإلاّ كانت شهادته ممزوجة بأنواع من الشرك والشوائب.

من أجل أن تتجلّى حقيقة «لا إله إلاّ الله» وحقيقة التوحيد في أعمال وممارسات الإنسان اليوميّة لا يكفي أن تثبت وحدانيّة الله بالعقل وحسب، بل المهمّ هو إذعان القلب لهذا التوحيد. إنّ السبيل لحلّ كلّي هو أن نسلب أنواع التسلّط والاستقلاليّة من إرادتنا وأصنامنا ونسلّمها لباريها وخالقها؛ وبتعبير آخر، إنّ لهذا الطريق الطويل من أوّله إلى آخره عنواناً واحداً ليس غير وهو «العبوديّة» و«صيرورة المرء عبداً». فمشكلتنا هي أنّنا لسنا عبيداً، بل إنّنا نصّبنا أنفسنا آلهة وطفقنا نعبدها. فمن هذه الزاوية نحن لسنا «عبيداً»، في حين أنّ السبيل الوحيد لنيل المنازل العرفانيّة هو الخلوص في العبوديّة: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾[1]. فعلينا أن نثابر لنكون عبيداً خالصين بكلّ معنى الكلمة؛ وإلى هذا المقام أوصل الله تعالى أقرب وأعزّ أوليائه: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَىٰ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَىٰ ٱلَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَا﴾[2]؛ فالنبيّ ﷺ عندما عُرِج به إلى السماء واُطلِع على الآيات الإلهيّة الخاصّة كان ملقّباً بـ«العبد». وفي الصلاة أيضاً؛ فإلى جانب توصيف الله بالوحدانيّة، فإنّنا نأتي على ذكر النبيّ ﷺ بوصفه «عبداً» عندما نقول: «أشهد أن لا إله إلاّ الله وحده... وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله».

---

١. سورة الزمر، الآية ٣.

٢. سورة الإسراء، الآية ١.

نُقل عن أحد كبار العرفاء أنّه سُئل: كم هو الطريق بين الإنسان وربّه؟ فقال في جوابه: قدم واحد. قيل: عجباً! كيف يكون قدماً واحداً؟! قال: ما عليك إلاّ أن ترفع قدمك وتدوس بها على نفسك، عندها ستصل إلى الله سبحانه.

أجل، ففي مسير العرفان الحقيقيّ هناك معضلة واحدة ليس غير وهي دوران الأمر بين أن تطيع نفسك أو أن تطيع ربّك. فحجابنا هو أنفسنا. فإن وطأنا أنفسنا بأقدامنا لن يعود هناك حجاب بيننا وبين الله عزّ وجلّ. وإذا مارسنا العبوديّة لله، وصلنا إلى الله، أمّا إذا وضعنا أنفسنا في مقابل الله، فقد ابتعدنا عن الله. إنّنا نقرأ في دعاء أبي حمزة الثماليّ: «**وأنّك لا تحتجب عن خلقك إلاّ أن تحجبهم الأعمال دونك**»[1]؛ فإنّ أعمالنا القبيحة هي التي تحجبنا عن الله، وإلاّ فالله ليس بخيلاً ليمنع الناس جيمعاً من التقرّب منه، وليس هو غير بخيل فحسب، بل إنّه قد أرسل أعزّ عباده لهذا الغرض، وإنّ العديد من خيرة عباده (وهم الأنبياء عليهم السلام) قد استشهدوا في سبيل الهدف ذاته. لكنّ المهمّ هنا هو أنّه لابدّ لهذا التقرّب أن يحصل باختيار الناس أنفسهم لا أن يُجبَروا عليه. فإن سُلِب من الإنسان اختياره وحلّ محلّه الجبر، لم يعد الإنسان إنساناً، ولن يصل إلى هذا المقام وهذه المنزلة.

مراحل السير والسلوك

مع أنّ الطريق باختصار هو كلمة واحدة، وقدم واحد، ومفهوم واحد، وعنوان واحد، وهو «ممارسة العبوديّة»، بيد أنّه من الممكن

---

١. مفاتيح الجنان، أعمال سحر شهر رمضان المبارك، دعاء أبي حمزة الثماليّ.

تقسيم تلك القدم وذلك العنوان إلى مراحل ومنازل بحسب الحالات المختلفة لقرب المرء وبعده. لقد تجشّم بعض الأعاظم العناء في هذا المضمار فحدّدوا منازل ومراحل للسير والسلوك تبدأ منذ شروع الإنسان بالسير نحو الله وتنتهي بالوصول إلى الكمال النهائيّ. ولعلّ من أشهر الآثار في هذا المجال كتاب «منازل السائرين»[١] الذي حدّد مائة منزل لهذا المسير.

المرحلة الأولى في هذا الدرب هي مرحلة «اليقظة»؛ وهي بمعنى الانتباه والاستيقاظ، وهي في مقابل «الغفلة». فعلى المرء بادئ ذي بدء أن يتخلّص من الغفلة، وإلاّ فما دام غافلاً عن كونه في مشكلة وأنّه يشكو النقص والعجز فلن يتحرّك ولن يسير طبعاً. فعندما يخرج المرء من الغفلة ويبلغ مرحلة اليقظة والانتباه، فسوف يتقدّم تدريجيّاً قدماً تلو قدم وتتولّد لديه «حالات» معيّنة. هذه الحالات سترسّخ تدريجيّاً حتّى تصبح «ملَكَة» في النفس ثمّ تتحوّل إلى «مقام». وعلى الوتيرة نفسها، عندما يجتاز الإنسان المقام الأوّل، فإنّه تتولّد عنده حالات جديدة، تثبت شيئاً فشيئاً. ونتيجة للتكرار ترسّخ في النفس لتصبح ملكة ثمّ تتحوّل إلى مقام ثان. وهكذا يستمرّ السير على هذا النحو.

على أيّ حال فقد تجشّم عظماؤنا عناء جمع وتحديد تلك المنازل والمراحل التي لابدّ من اجتيازها لطيّ طريق العرفان والسير إلى الله. لكن ينبغي الالتفات إلى أنّ هذه المنازل ليست وحياً مُنزلاً بحيث تأبى التغيير. فليس الأمر أن يقال: هذا هو الحلّ وليس هناك أيّ حلّ آخر. فإذا حدّد كتاب منازل السائرين مائة منزل، فقد حدّدها عرفاء آخرون بأربعين منزلاً، بينما قلّصها

---

١. هذا الكتاب من مؤلّفات العارف المشهور الخواجة عبد الله الأنصاريّ.

آخرون إلى سبعة منازل ومراحل ليس غير[1]. على أيّ حال فالمراد من هذا

---

١. من جملة التقسيمات المشهورة جداً في مباحث العرفان والتصوّف، هو التقسيم «السباعيّ» لمقامات ومراحل العرفان والسير والسلوك، وهو على النحو التالي:

١. مقام التوبة: وهو الشعور بالذنب والندم على المعصية والعزم الراسخ على تركها.

٢. مقام الورع: وهو تجنّب السالك لظلم الناس إلى حدّ لا يخاصمه أحد على شيء ولا يدّعي عليه شيئاً.

٣. مقام الزهد: وهو مذمّة الدنيا وعدم الاكتراث بعبّاد الدنيا أو الخوف منهم.

٤. مقام الفقر: وهو التأقلم مع الحدّ الأدنى من احتياجات المعيشة والتفرّغ للفرائض والإكثار من النوافل.

٥. مقام الصبر: وهو تحمّل الشدائد والبلايا والمكاره من دون شكوى.

٦. مقام التوكّل: وهو ترك تدبير النفس، وعدم الاعتماد على قدرة الذات وقوّتها، وإيكال جميع الأمور لله كي يصنع ما يشاء.

٧. مقام الرضا: وهو اطمئنان وسكينة القلب لأوامر الله وأحكامه وموافقته فيما يحبّ وما اختاره له.

وقد يقال لِما يجب على السالك طيّه من منازل «أحوال»، وإنّ من أشهر الأحوال السبعة ما يلي:

١. حال القرب: وهو تقرّب السالك لربّه بوسيلة الطاعة والمداومة على الذكر في السرّ والعلن.

٢. حال المحبّة: وهو عبارة عن ترسّخ صفات المحبوب في صفات المحبّ؛ أي غلبة ذكر المحبوب على قلبه.

٣. حال الخوف: وهو عبارة عن الخوف من العذاب في الدنيا والآخرة؛ وهو يتحقّق في البداية بالهروب من كلّ شيء، وفي النهاية باللجوء تحت ظلّ الله.

٤. حال الرجاء: وهو عبارة عن تعلّق القلب بالمحبوب الذي سيتمكّن من بلوغه في المستقبل، آملاً رحمة الله الواسعة سواء بجني النفع أو دفع الضرر.

٥. حال الشوق: وهو شوق قلب العاشق المحبّ أثناء ذكر المحبوب وطلب لقائه؛ وهو يعتمد على مقدار محبّة المحبّ، وحجز الأعضاء والجوارح عن الشهوات.

٦. حال المشاهدة: وهو عبارة عن الوصال والقرب، والوصل بين الرؤية العينيّة والقلبيّة؛ أي يرى المحبوبَ بقلبه وكأنّه أمام عينيه.

٧. حال اليقين: وهو المكاشفة، وسعادة العبد بما قسمه الله له.

وقد يعبّرون عن السير والسلوك بـ«السفر». يقول ابن العربيّ في تعريف السفر: «السفر عبارة عن القلب إذا أخذ في التوجّه إلى الحقّ تعالى بالذكر». كما ويقول الجرجانيّ في تعريفه للسفر: «السفر لغةً: قطع المسافة، وعند أهل الحقيقة عبارة عن سير القلب عند أخذه إلى التوجّه إلى الحقّ بالذكر». وفي العادة تقسم الأسفار إلى أربعة حسب الترتيب التالي:

١. السفر من الخلق إلى الحقّ: الذي بدايته التوبة؛ أي الرجوع من الحيوانيّة إلى الإنسانيّة الحقيقيّة والإلهيّة، ونهايته الاتّصال بالملكوت وظهور السكينة والطمأنينة.

٢. السفر من الحقّ إلى الحقّ: الذي بدايته الملكوت ونهايته الاتّصاف بالأوصاف الإلهيّة والوصول إلى مقام الربوبيّة.

←

الكلام هو إلفات النظر إلى قضيّة أنّه: ماهي الأمور التي ينبغي على الإنسان الإعراض عنها، وماهي تلك التي ينبغي له اكتسابها، وأيّ مجهود عليه بذله لبلوغ الكمالات والمقامات الإنسانيّة والمعنويّة. بطبيعة الحال إنّ لكلّ مقام درجات، ويمكن اعتبار مراتب مختلفة له بحسب الشدّة والضعف.

نحن لا نبغي هنا ذكر تلك المراحل بالتفصيل بكلّ خصوصيّاتها والمباحث المتعلّقة بها. لكن في الوقت ذاته علينا أن نثمّن الجهود التي بذلها هؤلاء العظماء في هذا المجال. فقد أنفق هؤلاء ساعات وأيّاماً بل أعواماً في التأمّل في هذا الموضوع، وأعمَلوا كلّ ما لديهم من فكر وذهن، نسأل الله أن

---

٣. السفر في الحقّ: في هذا السفر لا يرى السالك سوى الله، وينسب كلّ شيء لله، وفيه يتلبّس السالك بصفات الجمال والأسماء الحسنى ويحوز عليها.

٤. السفر بالحقّ في الخلق: هذا السفر هو ـ بنحو من الأنحاء ـ استمرار للسفر الأوّل، وخاتمة له؛ بمعنى، أنّ السالك عندما يتّصف بصفات الله وأسمائه، يعود إلى حالته الأولى، فيرجع نحو الخلق لإصلاح المجتمع، وهذا شبيه بمرتبة النبوّة والرسالة.

بالطبع لقد ذكروا هذه الأسفار بأشكال أخرى إلاّ أنّ روح الجميع هي واحدة تقريباً.

كما أنّ من جملة التقسيمات المعروفة في باب مراحل السير والسلوك هو التقسيم السباعيّ لعطّار النيشابوريّ الذي يشير إليه الشاعر جلال الدين مولوي في بيته المعروف «هفت شهر عشق را عطار گشت   ما هنوز اندر خم يك كوچهايم» (إنّ عطّاراً جاز سبعاً من بلدان العشق ولا زلنا نحن في أوّل زقاق). كما أنّ عطاراً نفسه يعبّر عن تلك المراحل بـ «الوديان السبعة»:

گفت ما را هفت وادی در ره است	چون گذشتی هفت وادی درگه است
هست وادیّ طلب آغاز کار	وادی عشق است از آن پس بی کنار
پس سیُم وادی از آنِ معرفت	هست چارم وادی استغنا صفت
هست پنجم وادی توحید پاك	پس ششم وادیٌ حیرت صعبناك
هفتمین وادی فقر است وفنا	بعد از این وادی روش نبود تو را
در کَشش افتی روش گم گرددت	گر بُوَد یك قطره قلزم گرددت

وملخّصها: أنّ للسير والسلوك سبعة أودية ينال سالكها الدرجات إن طواها؛ وهي: الطلب، والعشق، والمعرفة، والاستغناء، والتوحيد، والحيرة، وأخيراً وادي الفقر والفناء، فالذي ينحرف عن هذا الطريق يضيّعه فتصير القطرة بالنسبة له كالبحر. (نقلاً عن كتاب علي أصغر الحلبيّ (بالفارسيّة)؛ «مبانی عرفان واحوال عارفان» (أسس العرفان وأحوال العرفاء)، ص١٩٧ـ ١٩٩).

يثيبهم على عملهم هذا ويشكر مساعيهم تلك، فالمباحث التي قدّموها تعدّ متاعاً جيّداً لمن يريد أن يخطو في هذا الطريق. لكنّنا نشدّد هنا على أنّه ليس من الضروريّ أن يكون كلّ ما قاله هؤلاء العظماء صحيحاً ومطابقاً لتوصيات المعصومين عليهم السلام. فهذا التبويب إلى مراحل، والتقسيم إلى منازل بالصورة التي ذكروها هو قطعاً أمر اعتباريّ، ولم يرد في كلام النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله والأئمّة الأطهار عليهم السلام بهذه الكيفيّة. فالمرء بوسعه أن يقسّم اعتباريّا منازل ومراحل السير والسلوك بطرق شتّى بحسب المقاييس التي استخدمها، والفواصل التي حدّدها؛ وهذا بالضبط كما لو استخدمنا وحدات قياس مختلفة في قياس طول طريق معيّن فنقول: طوله «ثلاثة» فراسخ، أو «ثمانية عشر» كيلو متراً، أو «عشرة» أميال؛ فالعدد المذكور يتبع وحدة القياس المستخدمة. وفي تحديد مراحل ومنازل السير العرفانيّ يكون الأمر أيضاً بهذا الشكل. بناءً عليه، لا تناقض بين أقوال العظماء في ذكر أعداد مختلفة للمنازل والمراحل، فالأمر يتوقّف على أيّ أساس قُسّمت هذه المنازل والمراحل.

ومهما كان، فلو أردنا استعراض تقسيمات تلك المنازل لطال بنا المقام، خصوصاً إذا رغبنا أيضاً في التطرّق إلى نقدها. من هذا الباب، سنذكر هنا تقسيماً هو أكثر التقسيمات اختصاراً وهو ما أشار إليه كبار العرفاء أيضاً، وسنشفعه ببعض الشرح والتوضيح.

التوحيد الأفعاليّ، والصفاتيّ، والذاتيّ في العرفان

ذكرنا فيما سبق أنّ السبيل الجامع للخلاص من «عبادة النفس» والوصول إلى المعبود والمعشوق الحقيقيّ، هو أن يصير الإنسان «عبداً»، وينفي كافّة أنواع الاستقلال، ويرى أنّ كلّ ما لديه وما للموجودات الأخرى هو لله.

ولتحقّق هذا الأمر فأوّل ما على المرء صنعه هو أن يجعل إرادته تبعاً لإرادة الله عزّ وجلّ بشكل كامل. لكنّ هذه المرحلة غاية في الطول وتنطوي على متاعب ومشاقّ جمّة.

بعد اجتياز هذا المنزل، تأتي المرحلة التالية وهي التي يتعيّن على المرء فيها أن ينفي عن ذاته كلّ ما لديه من صفات وكمالات وملَكات وينسبها إلى الله تعالى كافّة. وليس المراد هنا هو النسبة اللفظيّة، بل أن يعثر حقيقةً على هذا المعنى ويشهده بنفسه؛ وهو أنّ الوجود الأوحد المستقلّ في حيازته على الصفات والكمالات هو الباري جلّ وعلا.

المرحلة الثالثة هي أن يرى أنّ وجوده ووجود كلّ الموجودات من الله؛ وما يُراد هنا أيضاً هو نيل هذا المعنى وشهوده، وليس التوصّل إليه بالاستدلال والبرهان وفي قالب الألفاظ والمفاهيم. على هذا الأساس، من الممكن اعتبار ثلاث مراحل كلّية وجامعة للسير والسلوك، وقد سمّاها العرفاء الكبار بـ«التوحيد الأفعاليّ»، و«التوحيد الصفاتيّ»، و«التوحيد الذاتيّ» بالترتيب.

ومن الجدير بالذكر أنّ هذه الاصطلاحات الثلاثة هي غير التوحيد الأفعاليّ والصفاتيّ والذاتيّ المستعملة في علم الفلسفة والكلام. فالتوحيد الذاتيّ في الفلسفة والكلام هو بمعنى أنّ الله واحد، لا ثاني له، ولا شريك له ولا مثيل. كما أنّ المراد من التوحيد الصفاتيّ هو أنّ جميع صفات الله هي عين ذاته، لا كالإنسان وسائر الموجودات حيث تكون زائدة على الذات. أمّا التوحيد في الأفعال فهو أنّ الله لا يحتاج إلى معين ومساعد في القيام بأفعاله، بل إنّه جلّ شأنه ينجز أفعاله بنفسه ولوحده. هذا التقسيم، وهو تقسيم علماء الفلسفة والكلام، مختلف عمّا نقوله في العرفان من حيث المعنى والترتيب. فاختلاف المعاني عمّا سبق ذكره واضح. أمّا من حيث الترتيب، ففي الفلسفة

والكلام يبدأ من التوحيد الذاتيّ، ليصل إلى التوحيد في الصفات، ومن ثمّ يختم بالتوحيد في الأفعال؛ أمّا في العرفان فعلى السالك أن يبتدئ أوّلاً بالتوحيد الأفعاليّ، ثمّ يمرّ بالتوحيد الصفاتيّ، لينال في نهاية المطاف التوحيد الذاتيّ.

إنّ الهدف من الوصول إلى التوحيد الأفعاليّ في العرفان والسير والسلوك هو أن يشهد الإنسان أنّ أساس جميع الأفعال، من حيث الوجود والتحقّق، هو الله جلّ شأنه، وأنّه تعالى هو في الواقع من يقوم بكلّ عمل، ولو عن طريق الأسباب الخاصّة التي من جملتها الإنسان نفسه، وإنّ لسان القرآن الكريم يشير إلى هذا المعنى في قوله: ﴿**لله مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ ٱلذُّكُورَ**﴾[1]. فعندما يهب الله أحداً صبيّاً أو بنتاً لا يكون ذلك من دون تدخّل للإنسان فيه، بل إنّه يحصل عن طريق الزواج والأسباب الطبيعيّة. لكن في الوقت ذاته فإنّ هذا الأمر منسوب إلى الله في المرتبة العليا. وشبيه لهذا المعنى مذكور في موارد كثيرة في القرآن الكريم حيث ينسب الله عزّ وجلّ لنفسه وقائع يبدو وكأنّها حصلت بتدخّل من الأسباب الظاهريّة؛ نظير هطول الأمطار، ونموّ النباتات، وإنزال الرزق على العباد؛ حيث يقول سبحانه: ﴿**وَأَنْزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي ٱلأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ * فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ**﴾[2]، أو يقول: ﴿**قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ ٱللهُ**﴾[3]، ويقول في موضع آخر: ﴿**هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ ٱللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلأَرْضِ**﴾[4].

---

١. سورة الشورى، الآية ٤٩.
٢. سورة «المؤمنون»، الآيتان ١٨ و١٩.
٣. سورة سبأ، الآية ٢٤.
٤. سورة فاطر، الآية ٣.

إذن مسألة أنّ جميع الأمور، من حركة السحب، ونزول المطر، وإنبات النباتات، إلى إيصال الرزق للإنسان ولسائر الموجودات، وإحيائها وقبض أرواحها جميعاً، تستند إلى الله تعالى ولا تحصل إلاّ بإرادته سبحانه أمر قابل للإثبات بالبرهان وباستطاعة العقل إدراكه وفهمه والقبول به أيضاً، إلاّ أنّ المشكلة هي في الإيمان بهذه المسألة قلبيّاً وشهودها وجدانيّاً وحضوريّاً.

إنّ أعمالنا وتصرّفاتنا توحي بأنّنا حتّى إذا اعتقدنا بالتأثير والفاعليّة لله تعالى فإنّنا نراها في عرض الأسباب والعوامل الأخرى؛ وكأنّنا نؤمن بأنّ تلك الأسباب هي أيضاً منشأ للأثر، وعامل لوقوع الأحداث والقضايا المختلفة في العالم بشكل مستقلّ، إلى جانب الله جلّ وعلا! فلو وقعنا في ضائقة ماليّة وجاء في تلك الأثناء أحد الأصدقاء وأعطانا بعض المال وانفرجت به ضائقتنا، فإنّ الإحساس الكامن في أعماقنا يقول بأنّ هذا الصديق هو الذي حلّ مشكلتنا وأخرجنا مما نحن فيه. ولو كان لدينا بعض التشرُّع والتأدّب، لقلنا إنّ الله هو الذي سدّ حاجتنا بواسطة هذا الرجل. إنّ قول هذا الشيء، وهو «أنّ الله هو الذي حلّ المشكلة»، لساناً هو أمر، وإنّ الاعتقاد حقيقةً بأنّ «الله هو الذي حلّ المشكلة» هو أمر آخر.

فنحن عندما ينتابنا المرض ونراجع الطبيب للتداوي ونُشفى من المرض، فإنّ ما نشعر به في داخلنا هو أنّ الدواء أو الطبيب هو الموجب لشفائنا، وننسب بُرأنا من المرض لهما. بالطبع، وإنْ كانت هذه النسبة صحيحة أيضاً، وإنّ من الواجب علينا شكر الطبيب والصيدليّ وبائع الدواء وكل من كانت له يد في شفائنا، لكن على مستوى أعلى لابدّ أن يكون اعتقادنا الراسخ أنّ الله هو الذي شفانا من المرض. هذه هي سيرة أولياء الله؛ فهم حقيقةً يشاهدون اليد الإلهيّة في كلّ وقائع العالم وأحداثه.

في هذا الصدد وعلى سبيل المثال فلننظر إلى تصرّف النبيّ إبراهيم ـ على نبيّنا وآله وعليه السلام ـ . ففي ردّه على نمرود وأتباعه، عرّف إبراهيم الخليل عليه السلام إلهه بهذه الكيفيّة: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾[1]. هذا الكلام صدر عن فتىً يافع لم يتجاوز الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من العمر، والذي كان حتّى ذلك الحين يسكن في غار، ولم يكن قد اختلط بالناس، أو تتلمذ على يد أستاذ، أو شاهد مدرسة. لقد شاهد هذا الفتى أنّ الخبز والطعام يُعدّ بأيدي آخرين، لكنّه يعلم أنّ هؤلاء ليسوا هم المطعمين. فإبراهيم الخليل عليه السلام يعلم أنّ الشافي والمعافي الحقيقيّ هو الله، ولقد تغلغل في قلبه الاعتقاد القائل بأنّ ذات الذي يحيي ويميت ويغفر ذنوبنا يوم القيامة، هو من يطعمنا ويسقينا ويشفينا من أسقامنا.

نحن أيضاً بإمكاننا تلفّظ هذه الكلمات والجملات، لكنّنا نعلم أنّها مجرّد ضرب من المجاملة والشكليّات، وأنّنا لا نعيش هذا المعنى بقلوبنا وأرواحنا، بل ولا نعثر عليه أصلاً. إنّ مقام التوحيد في الأفعال هو أن يرى الإنسان ـ كما كان النبيّ إبراهيم عليه السلام ـ حقيقةً وبشكل ملموس أنّ الذي يسقي ويطعم ويشفي هو الله تعالى. فالذي وصل إلى هذا المقام ـ الصعب المنال للغاية ـ سوف يكتشف للتوّ أنّه في المرحلة الأولى والمنزل الأوّل للتوحيد ولا زال أمامه منزلان غاية في الصعوبة.

على أيّ حال، فإنّ السبيل للوصول إلى هذه المرحلة من التوحيد هو أن نجتثّ أنانيّتنا من أصولها كلّما ظهرت، وكلّما نسبنا الأمور إلى أنفسنا،

---

١. سورة الشعراء، الآيات ٧٨ـ٨٢.

وبتعبير آخر، أن نجعل إرادتنا تابعة لإرادة الله عزّ وجلّ. إنّ ما أوجد الحجاب بيننا وبين الله سبحانه وتعالى هو ذات أعمالنا وممارساتنا النابعة من أنانيّتنا. فإنّ «أنا أريد» هي التي تعيق رؤيتنا لله، ولا تتيح لنا الفرصة لأن نشعر ونرى أنّ العمل هو عمله سبحانه. فنحن نقوم ونقعد مع «الأنا» ونقول: أنا أكسب المال، أنا أعمل، أنا أخترع، أنا أدرّس، أنا... الخ. فإن استطعنا حذف «الأنا» في مقام العمل، وجعلنا إرادتنا تابعة لإرادة الله، وعندما تقول لنا «الأنا»: إفعل هذا، نسحقها قائلين: الله لا يجيز لنا القيام بذلك، عندها فقط نكون قد اهتدينا إلى مرحلة التوحيد الأفعاليّ.

فإن قالت «الأنا» في شهر رمضان: كُلْ، فأجبناها: إنّ هذا العمل غير مجاز لأنّ الله لا يريد، عندها ستُكسَر «الأنا» وستُخلَع من منصب الحكومة والرئاسة على قلب الإنسان وروحه. وإن أرادت «الأنا» أن ننظر إلى الأجنبيّ، فلابدّ أن نقف بوجه إرادتها ونقول: إن إرادة الله تقتضي عدم فعل ذلك. فإن فعلنا ذلك، فسيهوي صنم الأنانيّة من عرش الألوهيّة ليستقرّ في موضعه المعدّ له.

لكن لابدّ من الالتفات إلى أنّ هذه الإرادة هي غير تلك الإرادة التي يتعيّن تقويتها وإعطاؤها زمام الحكم. فإنّ تقوية تلك الإرادة العالية لا تتحقّق إلاّ بكسر وتضعيف هذه الإرادة الذاتيّة. إنّ ما يجب تضعيفه ومحوه هو الإرادة الشيطانيّة والنفسانيّة، وإنّ ما يتعيّن تقويته وتفعيله هو الإرادة التي تكون في سياق الإرادة الإلهيّة ومنقادة لمراد حضرة الحقّ تعالى. فمن أجل ظهور هذه الإرادة الربّانيّة والملكوتيّة في وجود الإنسان، لابدّ من كسر شوكة تلك الإرادة الحيوانيّة والناسوتيّة وإزالتها.

فإذا تمكّن الإنسان من السيطرة الكاملة على إراداته الحيوانيّة، ولم تستطع هذه الأخيرة توجيه لجام الإنسان المنفلت إلى حيث شاءت، فسوف

تظهر القدرات والقوى الحقيقيّة للنفس الإنسانيّة. على سبيل المثال، إذا تمكّن الإنسان من التحكّم بنظره، وافلح دوماً في تجنّب النظر إلى ما لا ينبغي النظر إليه، فسوف تظهر له آثار وبركات جمّة. هذا الموضوع جرّبه أولياء الله ونقلوه بكثرة. فمن جملة الآثار التي تنقل في هذا الصدد مشاهدة الرؤى الصادقة في المنام حيث يتاح للشخص عن طريقها فهم بعض الحقائق والتنبّؤ ببعض الأحداث والوقائع. ومن آثارها الآخرى أن يتمكّن المرء من تفسير الرؤى الصادقة للآخرين وتبيين حقائقها. فقد نقل لي شخصيّاً بعض الأفراد قائلين إنّنا نرى في المنام مسبقاً ما سيقع في اليوم التالي. وقد شهدنا في مواطن كثيرة تحقّق وصدق تنبّؤات بعض أولياء الله الصالحين هؤلاء. كلّ ذلك مرتبط بالآثار الدنيويّة لهذا العمل، أمّا آثاره الأخرويّة فهي متروكة لمحلّها وهي أسمى بكثير من الآثار الدنيويّة.

على أيّ حال، فإنّ هذه المراقبات، وعدم مدّ اليد إلى أموال الناس، وأكل الطعام الحلال، ومراقبة النظر والسمع واللسان وما إلى ذلك،... الخ توجب التقرّب إلى الله تعالى، وبلوغ مرحلة التوحيد الأفعاليّ. فبالمقدار الذي يستطيع المرء فيه محو إرادته في هذا البعد وهذا المسير الخاصّ، وجعلها تابعة لإرادة الله؛ وبتعبير آخر، قتل الإنسان لذاته، وسحقها تحت قدميه، سوف يدنوا أكثر من التوحيد في الأفعال. فإن حكّم الإنسان إرادة الله في جميع أفعاله، فسيؤدّي هذا الأمر بحدّ ذاته إلى سطوع نور البصيرة في باطنه، فيشاهد عياناً بصمات اليد الإلهيّة في جميع أمور العالم.

من الضروريّ هنا الالتفات إلى مسألة أنّ التوحيد الأفعاليّ لا يتنافى مع اختيار الإنسان، وسببيّة العوامل الأخرى في حدوث وقائع العالم. فالعارف، في مقام التوحيد الأفعاليّ، يرى البصمات الإلهيّة في جميع أمور

العالم، من دون قطع ارتباطها بالأسباب الطبيعيّة، أو لزوم الجبر وسلب التخيير من الإنسان. وهذه القضيّة قابلة للإثبات من وجهة النظر العقليّة والفلسفيّة أيضاً.

وبمعزل عن تدبير الموجودات المختارة، هناك تدبير علويّ يهيمن على عالم الوجود برمّته، وينظّم جميع أمور العالم ـ من حركة الالكترون حول نواة الذرّة، إلى حركة أكبر وأبعد الأجرام السماويّة والمجرّات الكونيّة ـ في نظام واحد، ويديرها بأجمعها. الناس العاديّون والأشخاص الذين لم ينالوا المقامات العرفانيّة والمعنويّة قد يشاهدون بالعيان ذلك التدبير العلويّ. فلقد حدث معنا مراراً أن خطّطنا للقيام بعمل ما، ورتّبنا له برنامجاً معيّناً، لكنّ مجرى الأمور قد اتّخذ مسيراً آخر يختلف تماماً عمّا خطّطنا له وحصلنا في نهاية الأمر على نتائج أهمّ بكثير وأفضل ممّا كنّا نصبوا إليه. الأشخاص الذين شاركوا في جبهات الحرب المفروضة أثناء السنين الطويلة للدفاع المقدّس قد شاهدوا أمثلة جمّة من هذا القبيل.

إنّ الشخص الواصل إلى مقام التوحيد الأفعاليّ تراوده حالة، وتتولّد لديه رؤية يرى فيها جميع الكون على هيئة صورة واحدة منسجمة ومترابطة الأجزاء بشكل كامل. فكلّ شيء في هذا العالم، بنظر العارف الحقيقيّ، هو في موضعه الذي لابدّ أن يكون فيه على وجه الدقّة، وإنّ كلّ حركة تصدر من أيّ موجود، بدءاً من خروج الالكترون من مداره في الذرّة، ومروراً بظهور المذنّب في السماء، وانتهاءً بالانفجار الحاصل في نجم ضخم في أعماق الكون السحيقة، هي خاضعة تماماً لإرادة ونظام ومنهاج موحّد. إنّ جميع تلك الأمور في نظر العارف هي أجزاء ومكوّنات لوحة فنّية واحدة رسمها رسّام بارع بمنتهى المهارة والجمال. فالواصل لمقام التوحيد الأفعاليّ يرى بوضوح أنّ هناك دقّة

عالية، وظرافة متناهية قد أُعمِلَتا في انتخاب ألوان هذه اللوحة ورسم مختلف أجزائها. ليس هناك من جبْر في هذه المجموعة الموحّدة، وكلّ موجود مختار يتمتّع بما أُوتي من اختيار ضمن الحيّز الخاصّ به، في ذات الوقت الذي تكون فيه إرادة واحدة تسمو وتهيمن على الجميع، وتربط كافة تلك الأفعال والحركات والسكنات مع بعضها البعض، لتجمعها في إطار نظام واحد.

لقد جاءت في القرآن الكريم والأحاديث تعاليم بخصوص الاعتقاد بالقضاء والقدر والمشيئة الإلهيّة وما إلى ذلك، وكلّها بمثابة إعانة للإنسان يستعين بها للسير نحو هذا المقام، ليحوز على تلك الرؤية والبصيرة؛ وهي أنْ لا موجود على الإطلاق هو خارج ـ حتّى قيد أنمُلة ـ عن نطاق تدبير وإرادة الباري عزّ وجلّ، لكن من دون أن يستلزم ذلك أيّ جبر.

إنّ وصف تلك المسائل وتوضيحها لأمرٌ صعب، لكن إذا حصل ولمسها المرء شهوديّاً، لفاق استمتاعه وتلذّذه بشهود هذا المنظر، استمتاع صاحب أرفع ذوق في العالم بمشاهدة أروع لوحة. فلوحة الرسم مهما حازت من جمال وبداعة، فهي تعكس الفكر المحدود والضيّق لرسّامها الذي رسمها في أبعاد محدودة؛ مثلاً، اثنين في ثلاثة، بَيد أنّ الإنسان الذي أشرف على مقام التوحيد الأفعاليّ، يشاهد لوحة رسم تتّسع لكلّ الوجود اللامتناهيّ، التي، على الرغم من عظمتها وأجزائها التي لاتنتهي، تحكمها وحدة وانسجام غاية في الكمال، وإنّ كلّ شيء فيها قد صُمّم ورُسم في أفضل موضع يمكن أن يكون فيه. إنّ التفرّج على مثل هذه اللوحة المنقطعة النظير تمنح العارف من البهجة واللذّة ما تتساقط أمامها إلى حدّ التلاشي والنسيان كلّ لذّات العالم ومباهجه.

إنّ مشاهدة جمال الطبيعة بالنسبة للأشخاص الذين يتمتّعون بروح شفافة وإحساس مرهف يمنحهم من اللذّة ما يذهلهم وينسيهم كلّ شيء

للحظات ودقائق. فهؤلاء عندما يشاهدون ـ على سبيل المثال ـ لوحة فنّية، أو يداعب أسماعهم تغريد جميل لبلبل، تصيبهم حالة من الوَجْد وينبهرون به إلى حدّ ينسيهم كلّ ما حولهم. تصوّروا لو أنّ مثل هذا الشخص المرهف الحسّ قد عثر على أثر أو أمارة لمعشوقه، فأيّ حال سيطرأ عليه حينها؟! فالمكتوي بنار فراق محبوبه المسافر لأيّام وأسابيع وأشهر، أيّ لذّة وبهجة سيصيب يا ترى إن وقعت في يده رسالة أو كلمات كُتبت بيد محبوبه أو صورة له؟! أمن الممكن يا ترى مقارنة تلك اللذّة بلذائذ أخرى نظير الأكل والشرب والنوم؟! إنّ اللذّة العارمة التي تستحوذ على العارف والسالك الولهان عند مشاهدته هذا الكون المترامي الأطراف، الذي لا يشكّل في نظره إلاّ أثراً لأنامل محبوبه الفاتن، لَتصل إلى حدّ يقترب فيها من الهلاك؛ إذ: «**لولا الأجل الذي كتب الله عليهم لم تستقرّ أرواحهم في أجسادهم**»[1].

مهما كان، فالشخص الواصل إلى هذا المقام لم يجتز إلاّ مرحلة واحدة من مراحل السير والسلوك، ولم يُصِب بعدُ إلاّ «التوحيد الأفعاليّ»، حيث كلّ ما يراه أنّ المدير والمدبّر الأوحد لعالم الوجود هو الله سبحانه وتعالى. السالك في هذه المرحلة، وإن كان يرى جميع أفعال العالم وحركاته وسكناته منسوبة حقيقةً لله عزّ وجلّ، إلاّ أنّه لا زال يرى أنّ العلم، والسلطة، والجمال، والشجاعة، والموهبة، والذكاء، وسائر الملكات الأخرى هي من ذات الموجودات، فهو ينسبها إلى ذاته وذات سائر الأشخاص والموجودات، لذا لابدّ ـ انطلاقاً من هذ الحقيقة ـ من طيّ مرحلة أخرى هي مرحلة «التوحيد الصفاتيّ». فمضافاً إلى أنّ السالك يعتقد ويرى أنّ جميع الأفعال هي لله، فإنّ عليه أن يعتقد ويرى أنّ جميع الأوصاف الوجوديّة

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٩٣.

وصفات الجمال والكمال هي أيضاً لله تعالى، وأن لا يشعر باستقلاليّة أيّ صفة لأيّ موجود عن الله، أو انقطاعها عنه. كما أنّه في هذه المرحلة لا يرى استقلاليّة لعلم أيّ عالم، أو قوّة وسلطة أيّ صاحب سلطة عن الله المتعال، بل يعتقد بأنّ كلّ علم وكلّ سلطة وقوّة ما هي إلاّ نفحة من معين العلم والسلطة الإلهيّ الذي لا ينضب. وهو بالنتيجة يرى أنّ كلّ حُسن وجمال فهو من الله تعالى، وهو يشاهد بمعيّة كلّ وصف، الخالق والمالك الحقيقيّ لذلك الوصف؛ ألا وهو الذات الإلهيّة المقدّسة. فإن أصاب السالك مثل هذه البصيرة والشهود، نال مقام «التوحيد الصفاتيّ».

لكن، علاوة على التوحيد في الأفعال والصفات هناك أيضاً مرحلة أخرى يتحتّم على السالك اجتيازها؛ ألا وهي مرحلة «التوحيد في الذات». والسالك في هذه المرحلة لا يرى أنّ جميع الأفعال والصفات لله وحسب، بل هو يرى أنّ كلّ الموجودات أصلاً ما هي إلاّ رشحات وأنوار وأشعّة من الموجود المستقلّ الواحد الأحد في عالم الوجود:

أجول بناظري برّاً وبحراً　　أراك ولا أرى فيها سواكا
وفي كلّ البلاد وفي البوادي　　ترى عيني جمالَك لا عداكا
فكلّ صغيرة في الكون تحكي　　معالمَ قدّك الجذّاب ذاكا[1]

من أجل تقريب الموضوع إلى الأذهان بعض الشيء، حاول بعض العظماء تشبيهه بالبحر ورطوبته، أو البحر وأمواجه، أو الظلّ وصاحب الظلّ؛ إلاّ أنّ جميع تلك التشبيهات هي من باب تشبيه المعقول بالمحسوس، وهي غير معبّرة

١. في إشارة إلى البيتين الفارسيّين:

به دريا بنگرم دريا تو بينم　　به صحرا بنگرم صحرا تو بينم
به هرجا بنگرم كوه ودر ودشت　　نشان از قامت رعنا تو بينم

إطلاقاً، وليس بمقدورها إيصال حقيقة المعنى. فالأمواج والرطوبة وما شابهها هي حالات لجسم، وأمور تعرض على الجوهر، لذا فهي لا تحكي العلاقة بين «الخالق» و«المخلوق» ولا يمكن توضيح هذا الأمر من خلالها. فكلّ ما قيل في هذا الباب لا يتخطّى حدّ التشبيه والاستعارة والمجاز. فما من عارف باستطاعته بيان هذه العلاقة بأيّ لسان أو بيان كان. ليس العارف فحسب، بل ليس باستطاعة أيّ نبيّ أو إمام بيان هذا المعنى في قالب من الألفاظ والكلمات، ذلك أنّ هذه الحقيقة هي فوق اللفظ والمفهوم. فهذا الأمر وجدانيّ وما لم يصل المرء إلى هذه المرحلة وهذا المقام، فإنّه لن يستطيع إدراك حقيقتها.

في هذه المرحلة يتعثّر بعض الأشخاص، فعندما يشاهدون أنّ سائر الموجودات باهتة اللون وهي غاية في التعلّق والارتباط حتّى كأنّها لا وجود لها أصلاً، يعبّرون بأنّه لا وجود أساساً لغير الله، وأنّ كلّ شيء هو «الله»! وقد تصدر منهم بعض التعابير الفضّة ممّا توحي - في ظاهرها على الأقلّ - بالجرأة وتبدو مخالفة للأدب؛ نظير ما ينقل عن بعض العرفاء قولهم: **ليس في جبّتي إلاّ الله!** أو قول البعض منهم: **أنا الحقّ!**

بطبيعة الحال نحن لا نمتلك معرفة دقيقة عن هؤلاء الأشخاص ولا نستطيع الجزم بأنّهم هل شاهدوا حقائق أم لا؟ إلاّ أنّهم يتفوّهون بتعابير قاصرة في بيانهم لهذه الحقائق، ولعلّ فهمهم لها ناقص وقاصر من الأساس. على أيّ حال، إن شئنا أن ننتفع، في هذا المجال، من أحد فمن الأنسب أن نأخذ من أولياء الله المعصومين عليهم السلام ممّن عصمتُهم ثابتة ومُسَلّمة، وما من شكّ ولا ريب في مقاماتهم، ونيلهم للحقائق، بل وفي أقوالهم وكلماتهم. إنّ من الواضح بمكان أنّ الذي غايته الانتفاع حقّاً، لن يلهث وراء ما هو مشكوك من المصادر والأشخاص مع وجود الأئمّة المعصومين عليهم السلام والمصادر القطعيّة والمسلّمة.

مهما كان، فعلى أساس هذا الكلام، يمكن اعتبار ثلاث مراحل للسير والسلوك؛ تبتدئ من التوحيد الأفعاليّ وتنتهي بالتوحيد الذاتيّ. وكما قد سبقت الإشارة إليه فإنّ الروح الجامعة لكلّ هذه المراحل هي «العبوديّة». فعلى الإنسان أن يبذل جهده من أجل ردّ ذاته وذات سائر الموجودات إلى الصاحب الأصليّ للوجود، ألا وهو الله تعالى، وأن لا يؤمن ولا يعدّ أيّ شيء هو من ذاته أو من باقي الموجودات. طبعاً لابدّ من الالتفات هنا أن هذا الكلام لا يعني إلقاء اللائمة في ما يخصّ القبيح من أفعالنا على غيرنا والتخلّي بذلك عن المسؤوليّة. ولو انّ الذي يصل إلى مرحلة التوحيد الأفعاليّ، لن يصدر منه القبيح أساساً كي ينسبه إلى غيره. فلو اقترف ـ والعياذ بالله ـ الواصل إلى هذه المرحلة سيّئة، فإنّ عقابه سيكون أشدّ لرفعة مقامه، وسيُعلّق في هاوية جهنّم.

أساساً لا ينبغي تصوّر أنّ كلّ من تكلّم بضع كلمات عن العرفان، والسير والسلوك، والتوحيد الأفعاليّ، وأمثال تلك الأمور فقد نال مقاماً وبلغ منزلة ما؛ فمن الممكن أن يكون المرء عارفاً للألفاظ والمصطلحات، ويتكلّم ويكتب في هذا المضمار إلاّ أنّ مأواه في جهنّم! أمن السهل يا ترى منح هذه المقامات لأيٍّ كان؟! فكلّما كان الشيء أنفس وأندر كان الوصول إليه أصعب وأكثر مشقّة. قد يكون الوصول إلى قمّة دماوند[1] أمراً مطلوباً لبعض الناس، ومبعثاً للغبطة، ومثاراً للذكريات، لكن للوصول إلى هذه القمّة العالية لابدّ من توطين النفس على تحمّل المزيد من المصاعب والمشاقّ والآلام. والمسائل المعنويّة على هذا المنوال أيضاً، فمن أجل نيل مقامات معنويّة، لابّد من تجشّم ضروب العناء والمتاعب، وكلّما علا المقام الذي يصبو إليه المرء، اشتدّت صعوبة الوصول إليه بنفس النسبة. فالتوحيد الأفعاليّ والصفاتيّ والذاتيّ هو

---

١. أعلى قمّة جبليّة في إيران.

من أسمى المقامات المعنويّة، وإنّ بلوغ تلك القمم الشاهقة يتطلّب أعواماً من مراقبة النفس، والجهد المضني الذي لا يعرف الكلل.

ونعيد التأكيد هنا على أنّ الخطّ الأساسيّ للحركة في عمليّة السير إلى الله هي «العبوديّة»، التي يمكن تقسيمها إلى ثلاث مراحل: العبوديّة في الأفعال، والعبوديّة في الصفات، والعبوديّة في الوجود، ولطيّ كلّ مرحلة منها يتعيّن القيام ببعض الأعمال والتمرينات المناسبة لتلك المرحلة.

التقوى في ظلّ المشارطة، والمراقبة، والمحاسبة

بعدما أصبح من الجليّ أنّ الروح الأساسيّة لعمليّة السير والسلوك، وطيّ مراحل العرفان هي «العبوديّة»، يتبادر إلى الذهن السؤال التالي: ما هي الخطوة (أو الخطوات) العمليّة لنيل العبوديّة؟ وللإجابة على هذا السؤال يتعيّن الالتفات إلى أنّ «العبد» يُطلق اصطلاحاً على الشخص الذي تكون جميع شؤونه بيد «مولاه»، وهو مطيع لمولاه تماماً، ولا يقوم بأدنى تصرّف من دون إذنه. من هذا المنطلق لا تتحقّق العبوديّة لله عزّ وجلّ إلاّ أن يصبح الإنسان مطيعاً لله بالكامل ولا يخطو حتّى خطوة واحدة خلافاً لأمره ونهيه؛ هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، فإنّ العامل الذي من شأنه أن يضع قدم الإنسان في هذا الطريق هو «التقوى».

تأسيساً على هذا الكلام، فإنّ أوّل مرحلة للعبوديّة في مقام العمل هي أن يصبح الإنسان متّقياً، ويتحلّى بـ«مَلَكة التقوى»؛ والتقوى هي أن يقوم الإنسان بكلّ ما أُمر به من الواجبات الإلهيّة، وينتهي عن كلّ ما نُهي عنه من المحرّمات. وللتوفيق في تحصيل وتحقّق مَلَكة التقوى هناك أمور يتحتّم على كلّ سالك الالتفات إليها كشرط لتحقّق العبوديّة؛ وهي «المشارطة»، و«المراقبة»، و«المحاسبة».

على الإنسان عندما يستيقظ كلّ صباح أن يتأمّل ويقول: إنّ الله قد وهبني عمراً جديداً ووضع تحت تصرّفي ثروة وفرصة أخرى. فكثيرون هم أولئك الذين آووا إلى فراشهم ليلاً ولم يفيقوا من نومهم ثانية، فمن الممكن أن يحدث هذا لأيّ أحد؛ فالقرآن الكريم يقول في هذا الصدد: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]. من هنا لابدّ من الالتفات إلى أنّ الاستيقاظ صباحاً من النوم هو بمثابة حياة أخرى، ونعمة من الله، وثروة جديدة أودعت في أيدينا، وباستطاعة الإنسان أن يستغلّ هذه الثروة لنيل سعادة الدنيا والآخرة، أو أن يجعل حظّه منها الخسران والشقاء في الدنيا والآخرة.

حينما يتأمّل السالك في هذا الأمر سيشترط مع نفسه أن يضع هذه الثروة في الموضع المناسب. فنحن هنا وكأنّنا نضع النفس شريكاً لنا ونسلّمها رأس المال لتتّجر به، ثمّ نشترط عليها جني الربح وتجنّب الخسارة. هذا العقد مع النفس له تأثير روحيّ مهمّ ومن الممكن أن يدفع الإنسان خلال يومه إلى الالتفات أكثر إلى إنجاز تكاليفه وفرائضه وأن لا يقع فريسة للغفلة. على هذا الأساس، فإنّ أوّل عمل يتعيّن على السالك القيام به في مطلع كلّ يوم هو «المشارطة»؛ والمشارطة وإيقاع العقد مع النفس مبنيّان على عدم اقتراف المرء لأيّ ذنب، وأداء كلّ التكاليف والواجبات طيلة اليوم.

بعد المشارطة يأتي دور «المراقبة»؛ فبعد أن اشترط السالك وقرّر بينه وبين نفسه في مطلع اليوم أن يؤدّي الواجبات ويكفّ عن ارتكاب المحرّمات والآثام، عليه أن يتذكّر ذلك الشرط على الدوام ويراقب نفسه كي لا يبدر منه أيّ تصرّف بخلافه. ولقد جاء اصطلاح المراقبة في بعض الروايات والأدعية؛

---

١. سورة الزمر، الآية ٤٢.

نذكر منها ما ورد في المناجاة الشعبانيّة: «**إلهي وألحِقني بنور عزّك الأبهج، فأكون لك عارفاً وعن سواك منحرفاً ومنك خائفاً مراقباً**»[١]. فالسالك هنا ـ كربّ العمل الذي لا يفتُر في مراقبة عامله كي ينجز عمله بدقّة ـ يراقب نفسه على مدار الساعة كي تستقيم على شرطها وعهدها الذي قطعته معه ولا تحيد عنه. هذه المراقبة والإشراف يُعينان الإنسان كثيراً حتّى لا تصدر منه عثرة فينحرف عن مسير طاعة الله تعالى وعبوديّته.

في المرحلة الأخيرة، وبعد انتهاء المراقبة، يصل الدور إلى «المحاسبة»؛ والمراد منها أن يتفرّغ الإنسان قبل الإيواء إلى الفراش ليلاً ليفكّر هنيهة في أعماله وتصرّفاته في يومه المنصرم، ويتذكّر أفعاله في ذلك اليوم واحداً واحداً فيحاسب نفسه؛ تماماً كصاحب رأس المال حين يراجع الحسابات مع شريكه الذي أودع ماله لديه للتجارة. فالإنسان المؤمن السالك عليه، في نهاية كل يوم، أن ينظر في أفعال أعضائه وجوارحه هل انّها قامت بما كُلّفت به على نحو صحيح وجيّد، أم صدر منها بعض التقصير والمخالفة؟

بعد هذه المحاسبة على المرء أن يشكر الله عزّ وجلّ على ما أنعم عليه من توفيق لإنجاز ما عليه من التكاليف وإظهار العبوديّة؛ وإذا ما بدر منه أيّ تقصير أو زلّة ـ لا سمح الله ـ فعليه أن يستغفر الله لذلك، وأن يسعى لجبران ما فاته قبل فوات الأوان؛ فلقد ورد في الخبر أنّ المؤمن إذا أخطأ صبرت الملائكة الموكّلة بتسجيل أعماله سبع ساعات، فإن تاب في غضون تلك الفترة فلن يكتب الملائكة عليه شيئاً[٢]. من هذا المنطلق، فإنّ على الإنسان أن ينظر في أعماله

---

١. مفاتيح الجنان، أعمال شعبان المشتركة، المناجاة الشعبانيّة.

٢. عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال: «**العبد المؤمن إذا أذنب ذنباً أجّله الله سبع ساعات فإن استغفر الله لم يُكتَب عليه شيء** ...». (أصول الكافي، ج٢، ص٤٣٧، الرواية ٣).

ويحاسب نفسه عليها كلّ يوم، كي يتوب من فوره كلّ ما زلّ وأخطأ، وإن استلزم الأمر أحياناً القضاء، أو دفع المال، أو عملاً آخر بادر إلى القيام به[1].

---

١. في هذا الصدد يقول الإمام الخمينيّ ﷺ في كتابه «الأربعون حديثاً» ما يلي:

«فالمشارط» هو الذي يشارط نفسه في أوّل يومه على أن لا يرتكب اليوم أيّ عمل يخالف أوامر الله، ويتّخذ قراراً بذلك، ويعزم عليه. وواضح أنّ ترك ما يخالف أوامر الله ليوم واحد أمر يسير للغاية، ويمكن للإنسان بيسر أن يلتزم به. فاعزم وشارط وجرّب، وانظر كيف أنّ الأمر سهل يسير.

ومن الممكن أن يصوّر لك إبليس اللعين وجنده أنّ الأمر صعب وعسير. لكنّ هذه هي من وسوسة هذا اللعين، فالعنه قلباً وواقعاً، وأخرج الأوهام الباطلة من قلبك، وجرّب ليوم واحد، فعند ذلك ستصدّق هذا الأمر.

وبعد هذه المشارطة عليك أن تنتقل إلى «المراقبة»؛ وكيفيّتها هي أن تنتبه طوال مدّة المشارطة إلى عملك ليكون وفقها، فتعتبر نفسك ملزماً بالعمل وفق ما شارطت. وإذا حصل ـ لا سمح الله ـ حديثٌ لنفسك بأن ترتكب عملاً مخالفاً لأمر الله، فاعلم أنّ ذلك من عمل الشيطان وجنده، فهم يريدونك أن تراجع عمّا اشترطته على نفسك، فالعنهم واستعذ بالله من شرّهم، وأخرج تلك الوساوس الباطلة من قلبك، وقل للشيطان: «إنّي اشترطت على نفسي أن لا أقوم في هذا اليوم ـ وهو يوم واحد ـ بأيّ عمل يخالف أمر الله تعالى، وهو وليّ نعمتي طول عمري؛ فقد أنعم وتلطّف عليّ بالصحّة والسلامة والأمن وألطاف أخرى، ولو أنّي بقيت في خدمته إلى الأبد لما أدّيت حقّ واحدة منها. وعليه فليس من اللائق أن لا أفي بشرط بسيط كهذا». وآمل ـ إن شاء الله ـ أن ينصرف الشيطان، ويبتعد عنك، وينتصر جنود الرحمن.

والمراقبة لا تتعارض مع أيّ من أعمالك كالكسب والسفر والدراسة. فكن على هذه الحال إلى الليل ريثما يحين وقت المحاسبة.

وأمّا «المحاسبة» فهي أن تحاسب نفسك لترى هل أدّيت ما اشترطت على نفسك مع الله، ولم تخن وليّ نعمتك في هذه المعاملة الجزئيّة؟ إذا كنت قد وَفَيت حقّاً، فاشكر الله على هذا التوفيق، واعلم أنّك خطوت خطوة إلى الأمام وأصبحت موضعاً لرحمة الله، وإن شاء الله سبحانه ييسّر لك التقدّم في أمور دنياك وآخرتك. وسيكون عمل الغد أيسر عليك من سابقه، فواظب على هذا العمل فترة، والمأمول أن يتحوّل إلى مَلَكة فيك بحيث يصبح هذا العمل بالنسبة إليك سهلاً ويسيراً للغاية، وستحسّ عندها باللذّة والأنس في طاعة الله تعالى وترك معاصيه، وفي هذا العالم بالذات، في حين أنّ هذا العالم ليس هو عالم الجزاء لكنّ الجزاء الإلهيّ يؤثّر ويجعلك مستمتعاً وملتذاً بطاعتك لله وابتعادك عن المعصية.

واعلم أنّ الله لم يكلّفك ما يشقّ عليك به، ولم يفرض عليك ما لا طاقة لك به ولا قدرة لك عليه، لكنّ الشيطان وجنده يصوّرون لك الأمر وكأنّه شاقّ وصعب.

وإذا التفتّ في أثناء المحاسبة إلى حدوث تهاون وفتور ـ لا سمح الله ـ في ما اشترطت على نفسك، فاستغفر الله واطلب العفو منه، واعزم بكلّ شجاعة على الوفاء بالمشارطة غداً، وكن على هذه الحال كي يفتح الله تعالى أمامك أبواب التوفيق والسعادة، ويوصلك إلى الصراط المستقيم للإنسانيّة. (كتاب «الأربعون حديثاً»، تعريب السيّد محمّد الغرويّ، ص٣٢ـ٣٣).

هذه الأمور الثلاثة؛ المشارطة والعزم في أوّل النهار، والمراقبة والإشراف طوال اليوم، والمحاسبة في آخره، مستمرّة في جميع مراحل السير والسلوك[١]، وإن اختلفت شدّةً وضعفاً أو تفاوتت في بعض الخصوصيّات اعتماداً على مرتبة السالك والمقام الذي هو فيه، وسنوضح فيما بعد بعض ما يخصّ هذا الاختلاف والتفاوت.

مراتب المراقبة

بعد عرض المراحل الثلاث؛ المشارطة والمراقبة والمحاسبة، نودّ أن نسهب أكثر فيما يخصّ مرحلة المراقبة.

إنّ أهمّ قضيّة في مرحلة المراقبة هي مراقبة السالك نفسَه في فعل الواجبات وترك المحرّمات لتتولّد ملَكة التقوى عنده حيث ستتحوّل ـ على ضوئها ـ مهمّة فعل الواجبات وترك المحرّمات إلى عادة لديه، فلا يعود بحاجة إلى تأمّل وعزم من أجل ترك كلّ ذنب يعرض له. وهذه المرتبة من المراقبة (فعل الواجبات وترك المحرّمات) هي غاية في الأهمّية والضرورة لطيّ السير العرفانيّ، ومراحل السير والسلوك، وقد ورد التأكيد المبرم عليها سواء في الأحاديث أو في أقوال عظماء الأخلاق والسير والسلوك. فالذنب يذهب بأعمال الإنسان الصالحة وآثارها، وإنّ إتيان العبادات وصالح الأعمال جنباً إلى جنب مع ارتكاب المعاصي هو أشبه ما يكون

١. بالطبع كما يشير سماحة الأستاذ مصباح اليزديّ ـ دام ظلّه ـ في كتابه «وصايا الإمام الصادق عليه السلام لأتباعه الصادقين» (بالفارسيّة: پندهاى امام صادق به رهجويان صادق، ص٢٧) فإنّ بعض علماء الأخلاق يذكرون مرحلة رابعة في هذا البحث وهي «المعاتبة»؛ والمقصود منها هو أنّ الإنسان إذا ما التفت في مرحلة المحاسبة إلى عثراته وأخطائه، فإنّه يوبّخ نفسه من أجل جبرانها؛ كأن يُلزِم نفسه بصوم اليوم التالي، أو إنفاق مبلغ من المال، أو القيام بعمل خير لجبران زلّته.

بالجيب المشقوق؛ فكلّما وُضعت فيه نقود سقطت من الشقّ فلا يبقى فيه شيء. إنّ الذنوب والآثام والصفات الرذيلة للمرء تزيل جوهر الإيمان عنده، وتمحو أعماله الصالحة. وقد وردت في الروايات الإسلاميّة في هذا الباب مباحث جمّة وشتّى؛ فعلى سبيل المثال نقرأ في باب الحسد: «**إنّ الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النارُ الحطبَ**»[١]، أو في باب الغيبة: «**من اغتاب امرأً مسلماً بطُل صومه ونُقِض وضوؤه**»[٢]، و«**من اغتاب مسلماً أو مسلمة لم يَقبَل الله صلاتَه ولا صيامَه أربعين يوماً وليلة**»[٣]. بطبيعة الحال عند ملاحظة أمثال هذه العبارات الواردة في مورد الغيبة وغيرها من الذنوب، حيث التصريح بعدم قبول عبادات المرتكب لها، لابدّ من الالتفات إلى أنّ أداء تلك العبادات يُسقِط التكليف عن المرء، ولا تحتاج بعد ذلك إلى قضاء، إلاّ أنّها لن تُقبَل منه، ولن يكون لها الأثر المطلوب والفائدة المرجوّة للإنسان. على كلّ حال، فإنّ مراعاة التقوى، وأداء الواجبات، وترك المحرّمات، هي من شروط الموفقيّة في المراحل اللاحقة من السير والسلوك أيضاً.

مهما كان، فعند الحصول على هذا المستوى من ملَكة التقوى يأتي الدور لمرتبة من المراقبة أعلى من ذلك. فنحن إلى هذه اللحظة راقبنا أنفسنا في فعل الواجبات وترك المحرّمات، لكن في هذه المرتبة سنحاول الكفّ عن ارتكاب «المشتبهات» أيضاً. والمشتبهات هي تلك الأعمال التي لا يقين للمرء بكونها من الذنوب، بيد أنّ الشبهة في كونها من الذنوب موجودة؛ على سبيل المثال، عندما لا يكون هناك دليل على حرمة عمل قبل القيام به، لكن هناك احتمال

---

١. بحار الأنوار، ج٧٣، باب ١٣١، ص٢٤٤، الرواية ٢.

٢. نفس المصدر السابق، ج٧٥، باب ٦٦، ص٢٤٧، الرواية ١٠.

٣. نفس المصدر السابق، ج٧٥، باب ٦٦، ص٢٥٨، الرواية ٥٣.

أنّنا سنلتفت إلى عدم جوازه بعد فعله. فالشخص الذي يهتمّ بتحصيل رضا الله التام، وطاعته بالكامل، سوف يحاول اجتناب مثل هذه الأمور.

بعد المرحلتين الآنفتي الذكر (فعل الواجبات وترك المحرّمات، واجتناب المشتبهات) يصل السالك إلى المرحلة التالية وهي القيام ببعض المستحبّات، والكفّ عن بعض المكروهات.

بالطبع إنّ باب المستحبّات واسع جدّاً بحيث لو أنّ الإنسان اشتغل بالمستحبّات ليل نهار لم يستطع الإتيان بها جميعاً. علاوة على ذلك، فبالنظر للظروف التي نعيشها في الوقت الراهن، [لاسيّما] في جمهوريّتنا الإسلاميّة، فإنّ التكاليف الواجبة الملقاة على عاتقنا تصل إلى حدّ بحيث لا تترك مجالاً للإتيان بالمستحبّات. مع ذلك فهناك مستحبّات لا تزاحم الفرائض، ويمكن ممارستها جنباً إلى جنب معها؛ وكمثال على ذلك الصلاة لوقتها، الذي هو من أعظم المستحبّات، ومن أكثر الأعمال التي ورد التأكيد عليها، وهو غالباً لا يعارض التكاليف الواجبة. فالصلاة في أوّل وقتها لا تحتاج إلى فترة أطول من فترة أدائها في وسط الوقت أو آخره. من هنا فإنّ باستطاعة الإنسان أن يسعى لأداء فرائضه اليوميّة لأوّل وقتها، كي يكون قد عمل بمستحبّ هو غاية في الأهمّية والفائدة أثناء أدائه للواجب. لقد عُدّت الصلاة لوقتها في بعض الروايات من أعظم وأسمى الأعمال؛ إذ «سأل معاوية بن وهب أبا عبد الله عليه السلام عن أفضل ما يَتقرّب به العباد إلى ربّهم، فقال: **ما أعلمُ شيئاً بعد المعرفة أفضل من هذه الصلاة؛ ألا ترى أنّ العبد الصالح عيسى بن مريم قال: ﴿وَأَوْصَانِي بِٱلصَّلاةِ﴾. وَسُئل النبيّ صلى الله عليه وآله عن أفضل الأعمال، قال: الصلاة لأوّل وقتها**»[١].

---

١. بحار الأنوار، ج٨٢، باب ١، ص٢٢٥، الرواية ٥٠.

وكما يقول أحد كبار علم الأخلاق وأساتذة هذا الفنّ في هذا المضمار: إذا تعهّد المرء أن يصلّي فرائضه اليوميّة في أوّل وقتها، فأنا أضمن له بلوغ مقامات في العرفان هي غاية في الرفعة[١].

ومن المستحبّات الأخرى التي لا تحتاج إلى وقت إضافيّ هي حضور القلب أثناء الصلاة، ممّا لو رُوعِي فإنّه ـ مضافاً إلى عدم احتياجه إلى أيّ وقت آخر غير وقت الصلاة الواجبة ـ يضاعف قيمة الصلاة مئات المرّات.

من المستحبّات الأخرى العظيمة الأهمّية والتي لا تحتاج إلى وقت إضافيّ أيضاً هو التأدّب في محضر الوالدين؛ فبعض كُبرائنا لا يجلسون في محضر والديهم ما لم يأذنوا لهم بذلك.

على كلّ، هناك المزيد من المستحبّات غير ما ذكرنا أيضاً ممّا يحتاج القيام به وقتاً مستقلاً وخاصّاً. ومن المناسب جداً أن يستشير الإنسان مربّياً أو أستاذ أخلاق ثقة وذا تجربة ووعي بخصوص الاصطفاء من هذه المستحبّات، كي يختار من بينها للممارسة ما يناسب حاله. فالنوافل اليوميّة؛ لاسيما صلاة الليل، وقراءة القرآن، وأدعية الصباح والمساء المختلفة، وتعقيبات الصلوات، والأذكار المختلفة؛ خصوصاً التسبيحات الأربع، وذكر «لا إله إلاّ الله» الشريف، وما إلى ذلك، كلّها مستحبّات مهمّة وذات فائدة عظيمة، بيد أنّه قد يكون لبعضها الأولويّة

---

١. يبدو أنّ مراد الأستاذ المؤلّف ـ دام ظلّه ـ هنا هو الإشارة إلى وصيّة العارف الكبير المرحوم السيّد عليّ القاضيّ. ففي كتاب «در محضر بزرگان» (في حضرة العظماء) وهو باللغة الفارسيّة (ص٩٩) نقل هذا الموضوع عن لسان الأستاذ مصباح اليزديّ بهذه الكيفيّة: ينقل المرحوم العلاّمة الطباطبائيّ وآية الله بهجت عن المرحوم القاضيّ أنّه كان يقول: إذا التزم شخص بالصلاة في أوّل وقتها ولم يصل إلى مقامات عالية، فليلعنّي! أو قال: ... فليبصق في وجهي!

والرجحان بما يتناسب مع حال المرء ووضعه وظروفه. لكنّ المهمّ في هذا المجال، وما ورد التأكيد عليه في الروايات الإسلاميّة أيضاً، هو أنّنا حينما نختار لأنفسنا منهجاً عباديّاً معيّناً، فلابدّ من المداومة عليه، وإلاّ فَقَد الأثر المرجوّ منه. في كتاب «أصول الكافي» الشريف خُصِّص باب لهذا الموضوع ونُقلت فيه روايات في هذا الصدد، نذكر هنا بعضها كنموذج:

ـ عن أبي جعفر عليه السلام قال: **«أَحَبّ الأعمال إلى الله عزّ وجلّ ما داوَم عليه العبد وإنْ قلّ»**[1].

ـ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: **«كان عليّ بن الحسين عليه السلام يقول: إنّي لأحِبّ أن أُداوِم على العمل وإن قلّ»**[2].

ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: **«إذا كان الرجل على عمل فليَدُم عليه سنة ثمّ يتحوّل عنه إن شاء إلى غيره»**[3].

إنّ ما ورد التأكيد عليه في السير والسلوك في هذا الجانب هو أن يتمّ في البدء انتخاب المناهج السهلة التنفيذ، وأن يُداوَم على العمل المنتخب ـ كما جاء في الروايات الآنفة الذكر ـ سنة على الأقل. أمّا بعض الأعمال ـ مثل الصلاة لأوّل الوقت ـ فعلى الإنسان المداومة عليها حتّى تصبح ملَكة له، وأن لا يتركها إطلاقاً ما دام في قيد الحياة. أمّا العلامة على صيرورتها ملَكة فهي انزعاج المرء إذا ما فاته العمل ولو صدفة، فقد روي عن رسول الله صلّى الله عليه وآله [ما مضمونه] أنّ العمل الصالح يولّد عند

---

١. أصول الكافي، ج٢، باب استواء العمل والمداومة عليه، ص٨٢، الرواية ٢.

٢. نفس المصدر السابق، الرواية ٤.

٣. نفس المصدر السابق، الرواية ١.

المؤمن عادة خاصّة بحيث أنّه لو تركه يوماً واحداً اغتمّ حتّى كأنّه أضاع شيئاً، أو اقترف ذنباً.

من السير الجوارحيّ إلى السير الجوانحيّ

دارَ حديثنا لحدّ هذه اللحظة عن العمل، وما يجب فعله ويتحتّم تركه من أجل نيل الكمالات المعنويّة والمقامات العرفانيّة، وقد بلغنا الآن مرحلة أعلى وأسمى، لا تنفكّ هي الأخرى عن المشارطة، والمراقبة، والمحاسبة. وفي هذه المرحلة فإنّ جُلَّ التفات الإنسان يكون متوجّهاً إلى قلبه، ونيّاته القلبيّة. ففي الوقت الذي يكون فيه الجسم والروح قد قوِيا على فعل الواجبات وترك المحرّمات إلى درجة حصول ملَكة التقوى، بحيث لا يصدر من أيّ عضو أيّ انحراف أو زلّة إطلاقاً، عندها يكون السير العرفانيّ ـ في الحقيقة ـ قد بدأ للتوّ؛ إذ كلّ ما يتعلّق بالعمل إنّما يصدر من الأُناس العاديّين الذين لا حظّ لهم يُذكَر من المعرفة، أمّا ما يمُتّ إلى العرفان بصلة أكثر، وما يتعلّق به السير والسلوك الحقيقيّان فهي تلك الأمور التي ترتبط بقلب الإنسان.

هذه المرحلة تبتدئ عندما يزيّن المرء عمله بنيّة خالصة، وتكون نقطة البداية فيها من الواجبات؛ بمعنى أن يجاهد السالك لئلاّ تلوِّث شائبة «الرياء» أو «السمعة» أيّ فريضة من فرائضه. والرياء يعني حبّ الظهور؛ وهو أن يؤدّي المرء عمله بمرأى ومنظر من الآخرين كي يرَوه ويعلموا أنّه يؤدي هذا العمل الحسن. كما أنّ السمعة هي شعور المرء بالغبطة والارتياح عندما يسمع الناسُ بعمله وإن كان يقوم به بمنأى عن أنظارهم. ففي مسير العرفان والسير والسلوك من الأهمّية بمكان أن يتجنّب السالك تلك

الملوّثات[١]؛ وعليه أن يجهد لأن يؤدّي الواجبات لله، ويتورّع عن اقتراف المعاصي أيضاً طاعة للأمر الإلهيّ، لا خشية من الناس.

---

١. يقول الإمام الخمينيّ في هذا المقام: إذن، أيّها العزيز! كن دقيقاً في أعمالك وحاسب نفسك في كلّ عمل، واستنطقها عن الدافع في الأعمال الخيّرة، والأمور الشريفة، فما الذي يدفعها إلى السؤال عن مسائل صلاة الليل، أو إلى ترديد الأذكار؟ هل تريد أن تتفهّم أحكام صلاة الليل أو تتعلّمها قربة إلى الله؟ أم تريد أن توحي إلى الناس بأنّك من أهل صلاة الليل؟ لماذا تريد أن تخبر الناس بأيّ أسلوب كان عن الزيارة للمشاهد المشرّفة، وحتّى عن عدد الزيارات؟ لماذا لا ترضى أن لا يطّلع أحد على الصدقات التي تعطيها في الخفاء، وتحاول أن تتحدّث عنها ليطّلع عليها الناس؟ إذا كان ذلك لله، وتريد أن يتأسّى بها الناس، باعتبار أنّ **«الدالّ على الخير كفاعله»**، فإنّ إظهاره حسن، واشكر الله على هذا الضمير النقيّ والقلب الطاهر.

ولكن ليكن الإنسان حذراً في المناظرة والجدال مع النفس، وأن لا ينخدع بمكرها، وإظهارها له العمل الذي يؤدّى رياءً بصورة عمل مقدّس، فإن لم يكن لله، فتركه أولى، لأنّ هذا من طلب «السمعة» وهو من شجرة الرياء الملعونة. ولن يقبل الله المنّان عمله، بل يأمر بإلقائه في سجّين. ويجب علينا أن نستعيذ بالله تعالى من شرّ مكائد النفس، فإنّ مكائدها خفيّة جداً. ولكنّنا نعلم إجمالاً أنّ أعمالنا ليست خالصة لله، وإلاّ لو كنّا عباداً لله مخلصين، فلماذا تكون للشيطان علينا هذه السيطرة وبهذا القدر؟ مع أنّه أعطى لربّه عهداً أن ليس له سلطان على «عباد الله المُخلَصين»، وأنّه لا يمدّ يده إلى ساحتهم المقدّسة، وعلى حدّ قول شيخنا الكبير [المرحوم آية الله الشاه آبادي] ـ دام ظلّه ـ: فإنّ الشيطان كلب أعتاب الحضرة الإلهيّة، فلا ينبح في وجه من كانت له معرفة بالله ولن يؤذيه، وكلب الدار لا يطارد معارف صاحب الدار، ولكنّ الشيطان لا يسمح بالدخول لمن ليست له معرفة بصاحب الدار. إذن، إذا رأيت أنّ للشيطان شأناً معك، وسيطرة عليك، فاعلم أنّ أعمالك غير خالصة. وأنّها ليست لله تعالى.

ولو كنتَ مخلصاً فلماذا لا تجري ينابيع الحكمة من قلبك على لسانك، مع أنّك تعمل أربعين «سنة» قربة إلى الله حسب تصوّرك؟ في حين أنّه ورد في الحديث الشريف عن الرضا عن آبائه أنّه قال: **«قال رسول الله: ما أخلص عبد لله عزّ وجلّ أربعين «صباحاً» إلاّ جرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»**. إذن فاعلم أنّ أعمالنا غير خالصة لله، ولكنّنا لا ندري، وههنا الداء الذي لا دواء له!

ويل لأهل الطاعة والعبادة والعلم والديانة الذين عندما يفتحون أبصارهم، ويقيم سلطان الآخرة قدرته، يرون أنفسهم من أهل كبائر المعاصي، بل وأسوأ من أهل الكفر والشرك، بحيث أنّ صحيفة أعمالهم تكون أشدّ سواداً من صحائف الكفّار والمشركين.

ويل لمن يدخل بصلاته وطاعته جهنّم. الويل لمن تكون صورة صدقته وزكاته وصلاته أبشع ممّا يمكن تصوّره.

أيّها المسكين المرائي، أنت مشرك، أمّا العاصي فموحّد! إنّ الله يرحم بفضله العاصي إن شاء، لكنّه يقول إنّه لن يرحم المشرك إذا رحل من الدنيا من دون توبة. (كتاب «الأربعون حديثاً»، تعريب السيّد محمّد الغرويّ، ص٧٢ـ٧٤).

بطبيعة الحال إنّ إخلاص النيّة في العمل أمر غاية في الصعوبة، غير أنّه ممكن وقابل للتحقّق. بل، في مراحل السير والسلوك، إنّ الأمر ـ أساساً ـ يشتدّ ويشقّ مرحلة بعد مرحلة، إلاّ أنّ الله بلطفه وعناياته بعبده، يهوّن عليه تلك المصاعب وييسّرها ويجعلها سائغة له. فإذا استقام المرء في المراحل الأولى، وخرج من الامتحانات الإلهيّة مرفوع الرأس، أعطاه الله من السرور واللذّة بحيث إذا ترك العمل الصالح ليوم واحد فإنّه يُصاب بغمّ وانزعاج عظيمين.

كما لابدّ من الالتفات إلى أنّ حصول النيّة الخالصة ليس أمراً آنيّاً ودفعيّاً، ولا يتيسّر للمرء نيله فوراً متى ما شاء وأراد. فللوصول إلى خلوص النيّة يتعيّن القيام بالمقدّمات اللازمة، والاستمرار في المراقبات، ومواصلة التوجّهات حتّى يحصل الإنسان على المطلوب بشكل تدريجيّ. فالذي يودّ ـ طبقاً للعادة والطبيعة ـ أن يكون محبوباً لدى الناس، وأن يُكنّ له الجميع الاحترام، فإنّ الشوائب سوف تتسلّل إلى نيّته، شاء أم أبى. فالذي بإمكانه إخلاص النيّة في عمله، هو ذلك الشخص الذي أخرَج حبّ الجاه من قلبه بشكل كامل.

من أجل الاحتراس من الرياء والسمعة فإنّ على الإنسان أن ينجز أعماله في الخفاء ما أمكن. بالطبع حتّى في هذا الدرب علينا أن نحذر من بعض الزلاّت والعثرات. فبدافع أداء العبادة في الخفاء يمتنع البعض من المشاركة في صلاة الجماعة، وذريعتهم: إنّنا نريد أن نصلّي خفية حتّى لا تلوّث صلاتَنا شوائبُ الرياء والسمعة. لكنّ هذه في الحقيقة واحدة من حبائل إبليس، فإنّ من القضايا التي تستوجب الحذر الشديد ـ على صعيد العرفان والسير والسلوك ـ هي الانتباه إلى مراعاة توجيهات الشارع المقدّس بحذافيرها. فإن دعا مذهب أو مسلك عرفانيّ إلى ترك صلاة الجمعة أو الجماعة، فهناك حتماً خلل في هذا المسلك. فلا ينبغي أن يخدعنا الشيطان بألاعيبة فنلقي بالتعاليم الإلهيّة وراء

ظهورنا بحجّة عدم الوقوع في الرياء. نعم، من الممكن القيام ببعض العبادات، أمثال التصدّق ومساعدة المحرومين، بطرق شتّى بحيث لا ينتبه إليها الآخرون، أمّا العبادات التي لها بعد اجتماعيّ والتي ورد التأكيد على تأديتها بشكل جماعيّ فلا ينبغي تركها واختيار الخلوة لأدائها بذريعة اجتناب الرياء.

من جملة التعليمات المفيدة والمؤثّرة في هذه المرحلة هي تعويد القلب على الأنس بالله سبحانه وتعالى. فإنّنا إن فعلنا شيئاً لإرضاء ميولنا المادّية ونزواتنا النفسانيّة، كان ذلك لأنّ نفسنا تميل إلى هذا العمل وتحبّه. وإذا ما أنجزنا عملاً من أجل صديق لنا، كان الوازع لذلك هو أنّ لنا أُنساً مع هذا الصديق ومحبّة تجاهه. إذن فلن يكون بمقدور المرء القيام بعمل بدافع محبّة الله لهذا العمل إلاّ عندما يُودِع محبّة الله في قلبه محلّ كلّ أنماط المحبّة الأخرى؛ إذ نحن نقرأ في المناجاة الشعبانيّة ما نصّه: «**إلهي لم يكن لي حول فأنتقل به عن معصيتك إلاّ في وقت أيقظتني لمحبّتك**»[1]؛ أي عندما سطع شعاع محبّتك على قلبي أصبح اجتناب المعصية سهلاً يسيراً عليّ. فإن استطاع الإنسان تنمية عشق الله في قلبه، هانت عليه جميع المشاكل والمصاعب.

فإذا وَجدَتْ محبّة الله عزّ وجلّ وعشقه مكاناً لهما في قلب الإنسان، فإنّ الاستيقاظ في السحر لن يكون سهلاً عليه فحسب، بل سيكون بالنسبة له لحظة وصال المحبوب ولقاء المعشوق. فأيّ لذّة ومتعة أكبر وأعظم من خلوة المرء مع معشوقه يتجاذبان أطراف الحديث؟! فإن أحتلّ مثقال ذرّة من محبّة الله موضعاً من قلب الإنسان، فلن يعود أيّ شيء في هذه الدنيا أحبّ إليه وأكثر متعة له من أن يجلس مع محبوبه يناجيه في الأسحار حيث غُلِّقت الأبواب، ونامت الأعين، وهدأت الأصوات.

---

١. مفاتيح الجنان، أعمال شهر شعبان المشتركة، المناجاة الشعبانيّة.

إنّ من أفضل السبل الرامية لظهور محبّة الله تعالى في القلب هي أن يتعرّف الإنسان على النعم والآلاء التي أغدقها الله عليه، وأن يتأمّل في قيمتها وأهمّيتها. فإن أعطانا أحدهم واحدة من تلك النعم، لأصبحنا مدينين له شاكرين لإنعامه ما دمنا أحياء. وإن فقد المرء نعمة واحدة ليس غير، كأن تكون العين، أو الأذن، أو اللسان، أو اليد، أو الرجل، أو ... الخ، فأيّ شيء يمكن أن يعوّضها؟! إذن، ألا ينبغي لنا أن نعشق هذا الإله الرؤوف الرحيم، الذي وهبنا ـ مجّاناً ـ كلّ هذه النعم مضافاً إلى الآلاف غيرها، ونجهد ليل نهار لأداء حقّ شكره؟

مراقبة أعلى: تمرين الأنس

على أيّ حال فمن أجل الوصول إلى خلوص النيّة علينا أن نفعل ما يُودِع في قلوبنا محبّة راسخة تجاه الله جلّ وعلا. كما وأنّه من أجل ترسيخ هذه المحبّة ينبغي لنا زيادة معرفتنا بالله و«الأنس» به. فالمحبّة المتأصّلة بين بني الإنسان تتأتّى أيضاً بهذه الكيفيّة؛ أي إنّها لا تنشأ من لقاء واحد أو نظرة واحدة، بل هي تأتي نتيجة الأُنس والألفة. فإنّنا إذا ما التقينا بشخص ما لبضع دقائق، فلن نشعر تجاهه بمحبّة كبيرة، لكن لو أنِسنا لساعات وأيّام طوال مع شخص يتمتّع بشخصيّة مميّزة وأسلوب وخصوصيّات وتصرّفات إيجابيّة، لتولّدت في قلوبنا تجاهه محبّة راسخة نسبيّاً. والقضيّة فيما يتعلّق بالله تشبه هذه تماماً.

إنّ أساس محبّة الله موجود في قلوبنا عادة، ذلك أنّ الله هو منبع كلّ الخيرات والفضائل، ونحن ندين له بكلّ ما لدينا من نعم. لكن من أجل ترسيخ هذه المحبّة وتعميقها يتحتّم علينا تنميتها، وإنّ السبيل لتنميتها هو معرفة الله تعالى، والأنس به أكثر فأكثر.

والسؤال هنا: كيف السبيل للأنس مع الله عزّ وجلّ كي تصير محبّته راسخة في قلوبنا؟ والجواب هو: علينا أن نحاول جاهدين، ليلاً ونهاراً، وفي أيّ حال، لكي نتوجّه إلى الله جلّ وعلا بزاوية من قلوبنا، وأن يكون الله ـ بشكل أو بآخر ـ دائم الحضور في قلوبنا. قد يكون تصوّر هذا الأمر صعباً بعض الشيء، لكنّ مثالاً بسيطاً من شأنه أن يوضّح المسألة:

إذا أصيب المرء بمصاب جلل كفقدان شخص عزيز عليه فمن الطبيعيّ أن يستولي الغمّ والحزن على قلبه، ومثل هذا الغمّ والحزن لن يكون مجرّد حزن آنيّ وعابر، بل سيشغل باله وذهنه لأيّام وأسابيع، وقد لا يغيب هذا المصاب عن باله حتّى في النوم. ففي هذه الفترة يكون جانب من قلب الإنسان دائم التوجّه لهذه المصيبة، وستتجسّد دوماً أمام ناظريه ولن تغيب عن مخيّلته سواء في الدائرة أو البيت أو السوق أو الشارع حتّى في أثناء اشتغاله بأعماله اليوميّة.

في مثل هذه الموارد، يحصل الانشغال الذهنيّ والتوجّه القلبيّ بشكل طبيعيّ، وهو ردّ فعل طبيعيّ للإنسان تجاه حوادث من هذا القبيل. لكن من الممكن اكتساب هذا الأمر من خلال التمرين والممارسة، بحيث تتولّد لدى الإنسان حالة من الانشغال الذهنيّ والالتفات الدائميّ في المواطن التي لا يتوجّه فيها الإنسان عفويّاً وبحسب ما تقتضيه الفطرة والطبيعة إلى شيء ما. فالتوجّه لله سبحانه وتعالى بشكل دائميّ، وحضور الله المستمرّ في نفس الإنسان وذهنه هو من هذا القبيل. في العادة، يكون التفات الأشخاص العاديّين طوال اليوم مركّزاً بشكل تامّ على ما يحيط بهم ويدور حولهم من أمور وأحداث، ولا يلتفتون إلى الله تعالى. مثل هؤلاء الأشخاص عندما يريدون بلوغ درجة يكون فيها الله عزّ وجلّ، دائماً وفي جميع الحالات، حاضراً

في أذهانهم، فمن الطبيعيّ أنّهم سيحتاجون إلى تمرين. أمّا أولئك الواصلون إلى مقامات العرفان العالية، ودرجات السير والسلوك السامية، حيث أشرق ضياء محبّة الله في أعماق قلوبهم، وسخّرت جاذبيّة الجمال الإلهيّ إرادتهم، فهم قد وصلوا إلى المقصد، ولم يعودوا بحاجة إلى التمرين؛ فهؤلاء لا تخلو قلوبهم بتاتاً من التوجّه إلى الله، فهم يرونه بشكل دائميّ ومع كلّ شيء.

إذن، فللتمرّن على التوجّه إلى الله يتعيّن على الإنسان أن يفكّر دائماً بهذا الأمر؛ وهو أنّه في حضور الله، وأنّ الله مشرف على أعماله. يجب على الإنسان أن يلقّن نفسه منذ الصباح عندما يستيقظ من النوم أنّ الله يراه في كلّ لحظة وفي جميع الأحوال، وإن كان هو لا يرى الله. ففي وصيّته لأبي ذرّ، يقول النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله في هذا المجال: «**أُعبد اللهَ كأنّك تراه، فإن كنتَ لا تراه فإنّه يراك**»[1].

إنّ الالتفات إلى هذه المسألة (وهي أنّ الله يراقب الإنسان ويرى عمله) لا يحتاج إلى التخطيط، والانزواء، والإقلاع عن سائر الأعمال، فهذا التوجّه هو أمر قلبيّ، وهو من مراحل الذكر، وعندما يصل إلى حدّ الملَكة في النفس، يشعر الإنسان شيئاً فشيئاً أنّ قلبه أخذ يأنس بالله. ونتيجة هذا الأنس، كما سبق أن أسلفنا، هي تزايد محبّة الله في قلب الإنسان. ومع ازدياد محبّة الله في القلب، تزداد رغبة الإنسان في العبادة وإظهار العبوديّة؛ لاسيّما المناجاة، والصلاة، والدعاء وقراءة القرآن.

ألا يحبّ المرء يا ترى أن يقرأ رسالة محبوبه؟ فعندما يكون حبيب الإنسان بعيداً عنه وتصله رسالة منه، فإنّه سيقرأها بدل المرّة مرّات، وكلّما مرّت فترة فسيعود لقراءتها مرّة أخرى بلوعة واشتياق كبيرين. فالقرآن هو كلام الله جلّ

---

١. بحار الأنوار، ج٧٧، باب ٤، ص٧٦، الرواية ٣.

وعلا، وهو ـ إذن ـ أثر للمحبوب. فعندما تبزغ محبّة الله في القلب يشتاق الإنسان إلى تلاوة كتاب الله مرّات ومرّات، ويستمتع بتلاوته.

إذن فهذه المرحلة من «المراقبة» هي بهذه الكيفيّة؛ وهي السعي لإيجاد التوجّه القلبيّ إلى الله سبحانه وتعالى بواسطة التمرين، وإيصاله إلى حدّ المَلَكة. فإن أوجَد الإنسان هذه الملكة في نفسه، فسوف تتولّد لديه ـ شيئاً فشيئاً ـ حالة وكأنّه يرى الله فيها. ومن ثمّ يصل بالتدريج إلى مكانة ليس أنّه يرى الله ناظراً لأعماله ومشرفاً عليها فحسب، بل إنّ نافذة تُفتَح باتّجاه قلبه، فيناجي الله من خلالها بقلبه وروحه. لعلّ هذه الحالة حصلت لمعظمنا ولو بشكل عابر وقصير. فجميعنا قد نستشعر في بعض الأوقات حالة من الأُنس والتوجّه القلبيّ أثناء دعائنا أو صلاتنا بحيث نشعر للحظة بأنّنا نرى الله أمامنا، ونتحدّث إليه بشكل مباشر من دون حجاب. من الممكن تنمية هذه الحالة وزيادتها أكثر فأكثر من خلال التمرين والممارسة حتّى تصبح ملكة، ويصل الإنسان إلى درجة يشعر فيها وكأنّه يرى الله، ويتكلّم معه بشكل مباشر كلّما صلّى أو دعا أو ناجى. فإن بلغ الإنسان هذه المرتبة يكون قد خلّف وراءه مرحلة أخرى من المراقبة، ووضع قدمه على أعتاب مرحلة أعلى منها.

مراقبة الأولياء والأنبياء

مع إيجاد حالة الأنس بالله، وما يتلوها من اشتداد المحبّة والشوق إليه سبحانه، تبدأ الحُجُب الموجودة بين الإنسان وربّه بالارتفاع تدريجيّاً الواحد تلو الآخر، ليبدأ المرء ـ من هنا فصاعداً ـ بالتوجّه إلى الله بشوق ولذّة خاصّين، ويغمره السرور من إحساسه بحضوره، وإذا ما غفل عن الله، ولو للحظة، شعر وكأنّه افترق عن معشوقه. في هذه المرتبة يشقّ الفراق على

السالك كثيراً، ولا يطيقه أبداً، بل ويعدّ الغفلة عن الله إثماً بالنسبة له، فيستغفر عن ذلك.

أجل، فاستغفار أولياء الله، واستغفار أشخاص أمثال النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة الأطهار المعصومين عليهم السلام ليس هو استغفاراً من الذنوب، ولا حتّى من المكروهات، بل هو من جهة إحساسهم بعدم تمتّعهم بما ينبغي التمتّع به من مرتبة التوجّه إلى المقام الربوبيّ بما يتناسب مع كونهم في محضر الله عزّ وجلّ. فأولياء الله يعتبرون هذا الضعف في التوجّه من أكبر الآثام وأعظمها. فعلى الرغم من أنّ الإنسان، شاء أم أبى، مضطرّ ـ بمقتضى ما لديه من بعد ماديّ، وحياته في هذه الدنيا ـ لأن يعير الأمور المادّية وما سوى الله بعضاً من اهتمامه، إلاّ أنّ أولياء الله يشعرون بالذنب والخجل حتّى من هذا المقدار من عدم الالتفات إلى الله والاهتمام بغيره؛ فأمثال هؤلاء لا ينصرف التفاتهم إلى غير الله بشكل كامل، إلاّ أنّ نفس هذا الالتفات الجزئيّ إلى الغير هو في نظرهم إثم، فترى الحزن بادياً عليهم لأنّ التفاتهم لم يكن مركّزاً بشكل تامّ على المقام الربوبيّ، والذات الإلهيّة المقدّسة.

على أيّ حال، فالمراقبة في هذه المرحلة من السير والسلوك والمقامات العرفانيّة هي أن يحرص السالك في جميع الأوقات على أن يكون تمام توجّهه والتفاته منصبّاً على الله تعالى وحده. وبطبيعة الحال، فإنّ استغفار هذه المرحلة من السير والسلوك لن يكون استغفاراً من الذنوب العاديّة والمتعارفة، بل إنّ البكاء والاستغفار هنا هما نتيجة لأيّ غفلة عن الذات المقدّسة للربّ عزّ وجلّ. إذن، وكما أشرنا، فلابدّ ـ استناداً إلى هذه القاعدة ـ من حمل بكاء وأنين وتأوّه أصحاب المقامات الرفيعة والسامية، من أمثال النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومين عليهم السلام، على هذا المعنى، وإلاّ فمن البديهيّ

والمسلّم به أنّ عظماء كهؤلاء لا يخالفون أيّ أمر أو نهي إلهيّ، وأنّهم مبرّءون ليس من الذنوب فحسب بل ومن ترك الأَولى أيضاً.

مهما كان، فإن بلغ الإنسان هذه الدرجة من الكمال، وأصبح التفاته القلبيّ منصبّاً على الساحة الإلهيّة المقدّسة، فستسطع الأنوار الإلهيّة البهيّة على قلبه، وتجذبه من حضيض المراتب الدنيويّة الدنيّة، إلى أعلى منازل الإنسانيّة، وهي المراتب العليا للقرب الربوبيّ؛ وهذا هو عين مقام الانقطاع إلى الله والنور الذي يشير إليه أمير المؤمنين وأولاده المعصومون عليهم السلام في مناجاتهم الشعبانيّة؛ إذ يقولون: «**إلهي! هَب لي كمال الانقطاع إليك، وأَنِر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتّى تَخرِق أبصارُ القلوب حُجُب النور، فتصل إلى مَعدِن العظمة، وتصير أرواحنا معلّقةً بعزّ قدسك**»[١].

إذا وصل الإنسان إلى هذا المقام وهذه الدرجة من المعرفة، فلن يمارس العبادة بمشقّة وعناء بعد ذلك، بل ستكون العبادة في نظره تقديماً لما يفرضه الأدب في حضرة محبوب هو أعزّ عليه من روحه، وإنّ اللذّة التي يشعر بها ويستغرق فيها أثناءها تصل إلى حدّ يُنسيه الدنيا برمّتها بكلّ ما تحويه من لذائذ. إنّه ليصعب على مثل هذا الشخص أشدّ ما تكون الصعوبة أن يمارس بعض الأمور أو اللذائذ الدنيويّة، حتّى من باب أداء التكليف الشرعيّ، وإذا ما مارس مثل تلك الأمور فهو يمارسها امتثالاً للأمر الإلهيّ وأداءً للتكليف ليس غير، لا من باب ميله لها. بالطبع من الصعوبة بمكان على أمثالنا، الذين تفصلهم آلاف الفراسخ عن هذا المقام، تصوّر مثل هذه الحالة. فلتتخيّلوا شخصاً في فصل صيف قائض تائهاً لساعات في صحراء محرقة وهو يكاد يهلك من فرط العطش، وفجأة يقدّم له، وهو على هذه

---

١. مفاتيح الجنان، أعمال شهر شعبان المشتركة، المناجاة الشعبانيّة.

الحال، كأس من ماء بارد زلال. فكيف يمكن تصوّر أنّه سيشرب هذا الماء طلباً لرضا الله وحسب، وأن لا يُداخله مثقال ذرّة ـ ولو بنسبة واحد من ألف مليار ـ من دافع الإلتذاذ بشربه؟!

أجل، فإنّ نيل مقام كهذا يوصل الإنسان إلى منزلة يصير فيها ترك أحلى وألذّ الذنوب عليه أمراً غاية في اليسر والسهولة. فلنستحضر المأزق الذي وقع فيه النبيّ يوسف ـ على نبيّنا وآله وعليه السلام ـ في قصر عزيز مصر. لقد كانت الظروف صعبة حقّاً وإلى أبعد الحدود؛ فهذا شابّ جميل بلغ مبلغ الرجال، قويّ البنية، في أشدّ مراحل نموّه، وأوج قوّته الجنسيّة والشهوانيّة، في قصر فخم، تدعوه ملكة جميلة في خلوة إلى الخطيئة. إنّ الامتناع عن الوقوع في الإثم في وضع كهذا سهل على اللسان، لكنّه من أصعب ما يكون في مقام العمل ومن أكثر أمور الدنيا حرجاً. إلاّ أنّ مَن له أنس مع محبوب أسمى، وله علاقة مع معشوق أجمل وأكثر جاذبيّة بكثير، وإنّ قلبه متعلّق به، يكون عدم التدنّس بالخطيئة في مشهد كهذا أمراً يسيراً جدّاً عليه. إنسان كهذا عندما تتوجّه حواسّه لمعشوقه تتلاشى عنده جاذبيّة الأشياء الأخرى من حوله، وتصبح كالعدم. بالنسبة لهؤلاء الأشخاص يصبح ممّا يثير السخريّة جدّاً أن يتناول المرء طعامه ـ على سبيل المثال ـ لمجرّد الإلتذاذ، أو يمارس بعض الأمور المادّية من أجل التمتّع؛ فهذه الأعمال بالنسبة لهم أشبه ما تكون بلعب الأطفال. فلماذا لا يميل الكبار إلى لُعب الأطفال ولا يرغبون في اللعب بها؟! ذلك لأنّهم أدركوا لذّات أكبر منها بكثير إلى حدّ صارت متع الأطفال خالية من أيّ جاذبيّة لهم وهي في نظرهم خاوية ومدعاة للسخريّة. فأولياء الله هم هكذا مقارنة بأمثالنا؛ فاللذائذ المادّية التي تحتلّ أهمّية بالغة في قلوبنا هي بالنسبة لهم خاوية، بل وهي نمط من السخرية واللهو واللعب! فحيث إنّ قلوب هؤلاء جرّبت الأنس

بالله، وشاهدوا تجلّيات جمال الحقّ بأعينهم، فلن يلتذّوا بأيّ شيء آخر سوى جماله تعالى. ومن أجل تقريب المبحث للذهن فنحن مضطرّون لأن نضرب مثلاً مادّياً أيضاً، وإن كان شديد القصور:

لو أنّ إنساناً حضر مجلساً تجلس فيه حبيبته على مقربة منه، لكنّ الخِمار أو البُرقع يغطّي وجهها فهو في حجاب عنه، إلاّ أنّ الفتاة كانت تعمد، كلّما غفل الآخرون عنها، إلى رفع طرف من خمارها مبدية من الإشارات والإيماءات ما يعبّر عن العشق، وموحية له أنّها هي أيضاً تبادله مشاعر الحبّ! أيّ حال يا ترى سينتاب هذا العاشق الولهان في موقف من هذا النوع؟! ألا يكون بودّه أن يمتلك أجنحة ويطير فرحاً في تلك اللحظة؟! إنّه سوف لن يستمتع بطعام ولا بشراب ولا بسائر اللذّات الأخرى في هذا المجلس، بل سيكون غارقاً في لذّة تلك الإشارة التي تلقّاها من المحبوب.

فالله جلّ وعلا أيضاً له من هذه الإشارات مع أوليائه وأحبابه الكثير؛ وهي إشارات لا يراها الآخرون ولا يدركونها أصلاً. إنّهم لا يعرفون شيئاً عمّا يفعله الله بقلوب أحبّائه! كما أنّ أولياء الله وأحبّاءه لا ينبُسون ببنت شفة في هذا المجال، ولا يُفشون تلك الإسرار للغير. ونحن عندما ننظر في وجوههم نتخيّل أنّهم مشغولون بالمطالعة أو التفرّج على الجبال والبساتين والأنهار والبحار، لكنّهم هم فقط الذين يعلمون ماذا يرون ويشاهدون! ففي الوقت الذي نخالهم فيه جالسين يمعنون النظر في بستان أو زهرة، فإنّهم في منتهى الوَجْد والسعادة من مشاهدة تجلّيات محبوبهم الأمر الذي يُنسيهم كلّ ما حولهم وكلّ من يحيط بهم!

نسأل الله العليّ القدير أن يرينا ومضات من تلك الحقائق، وأن يعمر قلوبنا بمحبّته حتّى لا يبقى فيها متّسع لمحبّة الدنيا أو محبّة أيّ من الأغيار.

الأعمال والأذكار الخاصّة في السير والسلوك

بالنسبة للآداب والأعمال التي تُطرح في مجال السير والسلوك فإنّ المعيار العامّ والكلّي فيها هو ضرورة موافقتها للتعاليم الشرعيّة وعدم انحرافها عن أحكام الشرع المقدّس قيد أنمُلة. بعد القبول بهذه الضابطة العامّة لا يعود من المُشكل العمل بما يوصي به بعض علماء الأخلاق والسير والسلوك من توصيات وتوجيهات خاصّة. وعلى هذا الأساس يمكن القبول بأن يوصي أستاذ من أساتذة الأخلاق والسير والسلوك أحداً بالالتزام بذكر أو عمل معيّن؛ فقد يشخّص أستاذ الاخلاق ـ اعتماداً على خبرته وإحاطته بالمسائل الأخلاقيّة واستناداً إلى ظروف وخصوصيّات مَن يشرف عليه والذين يخضعون لتربيته من تلامذة ـ أنّ بعض الأذكار والأعمال المستحبّة أكثر مناسَبَة وأعظم فائدة لهم من غيرها. من هذا المنطلق فإنّه من المقبول أن يرى أستاذ أنّ من مصلحة هذا السالك أن يلتفت إلى صفة من صفات الله أكثر من غيرها، أو يشتغل بتلاوة ذكر أكثر من سواه، بل ولا إشكال حتّى إذا حدّد وعيّن عدداً خاصّاً لذكر أو عمل معيّن ليقوم به تلميذه؛ ذلك أنّه ورد في الشريعة المقدّسة بخصوص هذه المسألة ما هو كُلّي وعامّ، ومن الممكن قبول أمر ووصيّة هذا الأستاذ كمصداق وكفَرْد من ذلك الكلّي. فعلى فرض أنّ أستاذاً أوصى أحداً بتلاوة الذكر الشريف «لا إله إلاّ الله» يوميّاً بمقدار محدّد، فليس لنا اعتبار هذا الأمر مخالفاً للشرع أو أن نعيبه؛ لأنّ أصل الذكر هو من المستحبّات المؤكّدة جدّاً، وأنّ ترديد هذا المقدار المعيّن من «لا إله إلاّ الله» في يوم واحد هو ـ في النتيجة ـ ذكر أيضاً، وليس خارجاً عن هذا العنوان حتّى نعته بمخالفة الشرع والأحكام الشرعيّة. فالقرآن الكريم يطرح مسألة ذكر الله ويؤكّد عليها في آيات عديدة؛ مثل: ﴿يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْراً

كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾[١]، و﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٢]، و﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾[٣]. كما جاء التأكيد الشديد في الأحاديث أيضاً على هذه المسألة، ونكتفي هنا بذكر رواية واحدة عن الإمام الصادق عليه السلام في هذا الموضوع: «**ما من شيء إلاّ وله حدّ ينتهي إليه إلاّ الذكر فليس له حدّ ينتهي إليه؛ فرض الله عزّ وجلّ الفرائض فمن أدّاهنّ فهو حدّهُنّ، وشهر رمضان فمن صامه فهو حدّه، والحجّ فمن حجّ فهو حدّه، إلاّ الذكر فإنّ الله عزّ وجلّ لم يرضَ منه بالقليل، ولم يجعل له حدّاً ينتهي إليه**». ثمّ تلا هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾، فقال: «**لم يجعل الله عزّ وجلّ له حدّاً ينتهي إليه**» قال: «**وكان أبي عليه السلام كثير الذكر؛ لقد كنتُ أمشي معه وإنّه لَيذكر الله، وآكلُ معه الطعام وإنّه ليذكر الله، ولقد كان يحدّث القوم وما يشغلُه ذلك عن ذكر الله، وكنت أرى لسانه لازقاً بحَنَكه يقول: لا إله إلاّ الله، وكان يجمعنا فيأمرنا بالذكر حتّى تطلع الشمس، ويأمر بالقراءة من كان يقرأ منّا، ومن كان لا يقرأ منّا أمره بالذكر ...**»[٤].

من هنا، إذا قال المربّي وأستاذ الأخلاق لتلميذه والمتربّي على يده، مثلاً: ردّد الذكر الفلانيّ ألف مرّة، فمن غير الممكن عدّه مخالفاً للشريعة وخارجاً عن إطار الأوامر الشرعيّة، فما بالك إذا كانت بعض الأذكار الخاصّة التي يوصي بها الأساتذة وعلماء الأخلاق قد رُويت على نفس الشاكلة في روايات أئمّتنا عليهم السلام. وكنموذج لذلك، نشير في هذه الفقرات لبعض منها:

---

١. سورة الأحزاب، الآيتان ٤١ و٤٢.
٢. سورة الجمعة، الآية ١٠.
٣. سورة الإنسان، الآيتان ٢٥ و٢٦.
٤. أصول الكافي، ج٢، كتاب الدعاء، باب ذكر الله عزّ وجلّ كثيراً، ص٤٩٨ـ٤٩٩، الرواية ١.

- **«مَن لم يقدر على ما يُكفّر به ذنوبه فليكثر من الصلاة على محمّد وآله فإنّها تهدِم الذنوب هدماً»**[١].

- عن أبي عبد الله عليه السلام قال: **«لا تَدَع أنْ تدعو بهذا الدعاء ثلاث مرّات إذا أصبحتَ وثلاث مرّات إذا أمسيت: «اللهمّ اجعلني في درعك الحصينة التي تجعلُ فيها مَن تريد»، فإنّ أبي عليه السلام كان يقول: هذا من الدعاء المخزون»**[٢].

- عن أبي حمزة الثمالي قال: استأذنت على أبي جعفر عليه السلام فخرج وشفتاه تتحرّكان، قال: **«وبُهِتَّ لذلك يا ثُماليّ؟»** قال: قلت نعم جُعلتُ فداك. قال: **«إنّي والله تكلّمتُ بكلام ما تكلّم به أحد قطّ إلاّ كفاه اللهُ ما أهمّه من أمر دنياه وآخرته»**. قال: فقلت له: جعلَني الله فداك! فأخبرني به. قال: **«نعم، مَن قال حين يخرج من منزله: «بسم الله الرحمن الرحيم حسبيَ اللهُ، توكّلتُ على الله، اللهمّ إنّي أسألك خيرَ أُموري كلِّها، وأعوذُ بك من خِزيِ الدنيا وعذابَ الآخرة»، ليُقضَى ما أَحَبَّه»**[٣].

على أيّ حال، فمن غير الممكن اعتبار بعض الأعمال والأذكار الخاصّة التي يوصي بها بعض العلماء، والعظماء الثقاة والعاملين بالشريعة على أنّها مخالِفة للشرع وأنّها لا أساس لها. فكما أكّدنا في عدّة مواطن، فإنّ أساس العرفان والسير والسلوك هو أمر واحد لا ثاني له ألا وهو «التوجّه إلى الله»، وإنّه اعتماداً على هذا الأساس، ومن أجل تقوية توجّه السالك إلى الله، فإنّ أساتذة فنّ العرفان، وعلماء الأخلاق والسير والسلوك يوصون بالقيام ببعض الأعمال المستحبّة أكثر من غيرها. في الحقيقة إنّ الغاية من هذه

---

١. بحار الأنوار، ج٩٤، الباب ٢٩، ص٤٧، الرواية ٢.

٢. نفس المصدر السابق، ج٨٦، الباب ٤٥، ص٢٩٦، الرواية ٥٧.

٣. نفس المصدر السابق، ج٩٥، الباب ١٠٨، ص٢٨٣، الرواية ٨.

الأفعال والأذكار هي حصول قلب السالك على الأُنس بالله أكثر وأكثر، فيتمكّن من المحافظة على ذكر الله في كافّة المراحل.

نعم، قد تُطرح أحياناً، تحت شعار آداب العرفان والسير والسلوك، مسائل وتعاليم ممّا هو مذموم، أو حتّى انّه محرّم شرعاً أو هو من جملة البدَع التي ليس لها أيّ أصل أو أساس في الشريعة. فإن أوصى أحد بمثل تلك الأمور فهي غير مقبولة بأيّ حال من الأحوال، ومن المسلّم أنّ العرفاء الحقيقيّين السائرين على الصراط المستقيم لا يوصون بمثل ذلك على الإطلاق.

الذكر اللفظيّ والذكر القلبيّ

من جملة القضايا المهمّة التي تُبحث في باب العرفان والسير والسلوك هي بحث «الذكر»، وتوضيحه فيما يلي:

طبقاً لما أسلفنا فإنّ حقيقة العرفان هي «التوجّه إلى الله»، وإنّ أسمى مراتب العرفان هي أن لا يغفل السالك عن الله عزّ وجلّ طرفة عين، وأن يكون تمام التفاته إلى حضرة الحقّ تعالى، وأن يصل إلى «مقام الانقطاع»؛ كما يقول المعصوم عليه السلام: «**إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك**»[1].

إنّ «التوجّه إلى الله» ـ الذي هو حقيقة العرفان وغايته ـ هو في الواقع ما عُبّر عنه في آيات القرآن الكريم وأحاديث أهل البيت عليهم السلام بـ«الذكر». وإنّ ما يقابل حالة الذكر والتوجّه هي «الغفلة»؛ كما نقرأ في القرآن الكريم: ﴿**وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا**﴾[2]، ويقول عزّ من قائل في موضع آخر:

١. مفاتيح الجنان، أعمال شهر شعبان المشتركة، المناجاة الشعبانيّة.

٢. سورة الكهف، الآية ٢٨.

﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ ٱللهِ﴾[1]. بناءً على ذلك، فإنّ المراتب والمقامات العرفانيّة تُصنّف وتُبوّب ـ في الواقع ـ على أساس درجة «التوجّه» و«الذكر»، وإنّ «الانقطاع الكامل إلى الله» هو بمعنى أن يكون الإنسان دائماً وفي كلّ حال «ذاكراً» لله عزّ وجلّ، وأن لا يغفل عنه حتّى للحظة واحدة.

لكنّ من الأسئلة الحسّاسة التي تُطرح في باب الذكر ما يلي: هل الألفاظ هي التي تنهض بالدور الجوهريّ في إيجاد حالة التوجّه إلى الله، وإنّ المهمّ هو «الذكر اللفظيّ»؟ أم إنّ حقيقة الذكر هي التوجّه و«الذكر القلبي»؟

قد يبدو، للوهلة الأولى، أنّ الجواب على هذا السؤال واضح جدّاً؛ وهو أنّ حقيقة الذكر هي الذكر القلبيّ، وإلاّ فمجرّد لقلقة اللسان وإدارة المسبحة بين الأصابع لن تحلّ مشكلة ولن تفكّ عقدة، وإذا كان للذكر اللفظيّ قيمة أساساً فهي من جهة أنّه المقدّمة والسبيل إلى التوجّه والذكر القلبيّ.

لكنّ هذا الجواب المقتضب يبدو أنّه غير كاف، وإنّه من المناسب إخضاع هذا الموضوع للمزيد من البحث والتحليل.

إذا سلّمنا أنّ حقيقة الذكر هي الذكر القلبيّ، فإنّ أوّل سؤال يتبادر إلى الذهن هو: إذن، لأيّ هدف تمّ هذا التبيين لكلّ تلك الأذكار اللفظيّة الخاصّة في معارف أهل البيت عليهم السلام والتأكيد على ترديدها؟ ثمّ هل إنّنا إذا اجتهدنا في جعل قلوبنا ملتفتة لله على الدوام، فلن نكون بعدها بحاجة للذكر اللفظيّ؟

من بين فِرَق المتصوّفة المختلفة هناك جماعات اتّخذت سبيل الإفراط أو التفريط سواء على صعيد الذكر اللفظيّ، أو بخصوص الذكر القلبيّ. فبعضٌ أكّد على الذكر اللفظيّ بشدّة لدرجة أنّهم يشكّلون «حلقات الذكر»

---

1. سورة «المنافقون»، الآية ٩.

التي يجتمعون فيها مردّدين لبعض الأذكار مع التلحين والحركات الخاصّة والصوت المرتفع وهو ما يسمّونه اصطلاحاً بـ«الذكر الجليّ». من ناحية ثانية فإنّ بعض الفرق الأخرى اكتفت بالذكر القلبيّ، وهم لا يعيرون أهمّية للذكر اللفظيّ، وقد شاهدتُ بنفسي بعض هؤلاء يصلّون من دون أن يحرّكوا شفاههم أو يقولوا شيئاً من أوّل الصلاة حتّى آخرها!! فهم يؤدّون تمام أجزاء الصلاة، من القراءة، إلى الركوع، وصولاً للسجود بصمت كامل! والسبب الذي دعاهم إلى ذلك حسب ادّعائهم أنّ فائدة الذكر اللفظيّ هي لجعل القلب يلتفت ويتوجّه، فإذا كانت قلوبنا متوجّهة أصلاً، فلا داعي للذكر اللفظيّ، بل إنّه سيحول دون توجّه القلب وسيشوّش عليه! ويقول آخرون: إنّنا نصل إلى درجة من التوجّه والذكر القلبيّ ونستغرق في ذكر الله استغراقاً بحيث نغفل عن الصلاة، وإنّ جاذبيّة الجمال الإلهيّ تجعلنا نذهل عن كلّ شيء حتّى عن الصلاة! أو تقول جماعة أخرى: إنّ الصلاة وأمثالها من العبادات هي أساساً من الأذكار اللفظيّة والظاهريّة المختصّة بالمراحل الابتدائيّة والمتوسّطة من العرفان والسير والسلوك، وبالمراتب التي لم يصل السالك فيها إلى مقام «اليقين»، لكنّه بوصوله إلى مقام اليقين فلن يعود أداء مثل هذه الأعمال والعبادات ضروريّاً له! مستندين في قولهم هذا إلى الآية الكريمة: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّاجِدِينَ * وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[1].

إنّ مثل هذه الاتّجاهات باطلة قطعاً حسب معارف أهل البيت عليهم السلام. وإذا رجعنا إلى القرآن والسنّة نلاحظ فيها تبييناً لألفاظ خاصّة وتأكيداً على تلاوتها. فأهل البيت عليهم السلام أنفسهم، وهم الذين يحتلّون قطعاً قمّة مراتب

---

١. سورة الحِجر، الآيتان ٩٨ و٩٩.

ومقامات العرفان، كانوا دائماً وحتّى آخر لحظة من أعمارهم الشريفة يولون اهتماماً خاصّاً للصلاة والدعاء والأذكارة اللفظيّة. فالذكر اللفظيّ كان يحوز من الأهمّية عندهم بحيث إنّهم كانوا يشدّدون في بعض الموارد على ضرورة ترديد عين الكلمات التي علّموها ونقلوها من دون أيّ زيادة أو نقصان؛ وكنموذج على ذلك، الرواية التي يرويها المرحوم العلاّمة المجلسيّ في كتابه الشريف «بحار الأنوار»؛ وهي كالتالي:

عن عبد الله بن سنان قال: قال أبو عبد الله [الصادق]عليه السلام: «**ستصيبكم شبهة فتبقون بلا عَلَم يُرى ولا إمامٍ هُدًى، لا ينجو منها إلاّ مَن دعا بدعاء الغريق**». قلتُ: وكيفَ دعاء الغريقِ؟ قال: «**تقول: يا اللهُ يا رحمٰنُ يا رحيمُ يا مقلِّب القلوب ثبّت قلبي على دينك**». فقلتُ: «يا مقلّب القلوب والأبصار ثبّت قلبي على دينك». فقال: «**إنّ الله عزّ وجلّ مقلّب القلوب والأبصار، ولكن قل كما أقول: يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك**»[1]، فنلاحظ أنّ الإمام الصادقعليه السلام قد أظهر حساسيّة شديدة حتّى من إضافة كلمة واحدة هي «والأبصار» وشدّد على ضرورة ترديد الذكر كما قاله هوعليه السلام بالضبط.

بالنسبة للصلاة كذلك، فعلاوة على وجوبها على السالك وغير السالك، وعلى العارف وغير العارف، وفي أيّ درجة أو مقام كانوا، فإنّ قراءة الحمد والسورة، وإجراء سائر أذكارها على اللسان أمر ضروريّ، وإنّ التوجّه القلبيّ وحده ليس كافياً، ولا يُبرئ ذمّة المرء من أداء التكليف الواجب. بناءً على ما مرّ، فإنّ ادّعاءات من هذا القبيل نظير: «إنّ الهدف الأساسيّ هو التوجّه القلبيّ، وهذه الأذكار ليست هي إلاّ مقدّمة له، وإنّه إذا نال المرء التوجّه والذكر القلبيّ من دون ذكر لفظيّ فهذا كاف بحدّ ذاته» ما هي إلاّ

---

١. بحار الأنوار، ج٥٢، الباب ٢٢، ص١٤٨، الرواية ٧٣.

ادّعاءات باطلة، وإنّ القائل بها إمّا أن يكون غافلاً وجاهلاً، أو إنّه يُضمر أغراضاً وأهدافاً سيّئة من ورائها. وهذا الكلام يشبه أيضاً ما يردّده البعض من أنّ: «المهمّ هو أن يكون القلب طاهراً، أمّا التقيُّد بأحكام الشرع والحلال والحرام فليس بذي أهمّية تذكر!!». بل إنّ باطن الإنسان ـ في نظر هؤلاء ـ إذا كان طاهراً، فلا ضير في أن يرتكب بعض المعاصي والذنوب! ولعلّنا جميعاً صادفنا من أمثال هؤلاء؛ فبعض النسوة ـ على سبيل المثال ـ يعلَمن أنّ الحجاب واجب في الإسلام، ومع ذلك فهنّ لا يتقيّدن به، وإذا ما نُبِّهن فإنهنّ يبادرن إلى القول: فليكن قلبك طاهراً!

إنّ كلّ اعتقاد أو كلام من هذا القبيل هو باطل ولا أساس له من الصحّة. فلا يجوز لنا أن نبتدع ديناً من أنفسنا، بل يجب علينا التمسّك بالكتاب والسنّة وأن نتّبع ما يقول القرآن الكريم وما قال أهل البيت عليهم السلام، وكيف تصرّفوا. ففي أيدينا ـ في هذا الحقل ـ العديد من الشواهد من كلمات أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام وسيرتهم العمليّة تثبت أنّهم كانوا يرون أنّ الذكر اللفظيّ لازم وضروريّ. وقد نقلنا عن الإمام الصادق عليه السلام تلك الرواية التي يقول فيها بخصوص أبيه الإمام الباقر عليه السلام: «**كان أبي عليه السلام كثير الذكر؛ لقد كنتُ أمشي معه وإنّه لَيذكر الله... ولقد كان يحدّث القوم وما يشغلُه ذلك عن ذكر الله، وكنت أرى لسانه لازقاً بحَنكه يقول: لا إله إلاّ الله...**»[1]. فهل يجوز لمن يتّبع الأئمّة الأطهار عليهم السلام أن يتجاهل هذه الروايات؟ فتوجّهنا القلبيّ مهما كان قويّاً فإنّه لن يكون أقوى من توجّه الإمام الباقر أو الإمام الصادق عليهما السلام. فإن كان هؤلاء العظماء يمارسون الذكر اللفظيّ فهل نأتي نحن لنقول: إنّه غير ضروريّ ويكفينا الذكر القلبيّ؟! فلبلوغ المنزل

١. أصول الكافي، ج٢، كتاب الدعاء، باب ذكر الله عزّ وجلّ كثيراً، ص٤٩٨ـ٤٩٩، الرواية ١.

المقصود يتحتّم علينا أن نبحث عمّا قاله أهل البيت عليهم السلام وما فعلوه في هذا الصدد، وأن نتوخّى الدقّة الكاملة في تنظيم أعمالنا وتصرّفاتنا وفقاً لأقوال هؤلاء العظماء وسيرتهم العمليّة.

مكانة الذكر اللفظيّ وبيان أهمّية الذكر القلبيّ

نرى من المناسب هنا أن ننوّه ببعض الملاحظات التي من شأنها أن تُبرز بشكل أكثر وضوحاً مكانة الذكر اللفظيّ وأهمّيته:

الملاحظة الأولى، والتي تتمتّع ـ إلى حدّ ما ـ ببُعد عرفانيّ أيضاً، تتعلّق بقضيّة أنّه لابدّ لكلّ عضو من أعضاء جسد الإنسان أن يناله من عبادة الله نصيب. فعبادة العين تكمن في النظر إلى الآيات والعلامات الإلهيّة؛ ومن أجل ذلك، فإنّ النظر إلى آيات القرآن الكريم، أو النظر إلى الكعبة المشرّفة في مكّة المكرّمة، هو عبادة. لذا فإنّ حظّ العين ونصيبها من العبادة هو في أمور من هذا القبيل. وعبادة الأذن هي في أن تستمع ـ مثلاً ـ إلى آيات من الذكر الحكيم؛ ولذا، فإنّ الإصغاء إلى آيات القرآن هو عبادة. وإنّ حظّ القلب من العبادة هو في أن يكون وعاءً لمحبّة الله عزّ وجلّ. من هنا نفهم أنّه لابدّ للسان أيضاً أن يكون له نصيبه الخاصّ من العبادة؛ وإنّ نصيبه منها هو التلفّظ بذكر الله.

الملاحظة الأخرى التي يمكن الإشارة إليها، في ما يتعلق بالحكمة من وراء الذكر اللفظيّ، هي البعد التربويّ للمسألة. فإذا كان مبتغانا نيل التوجّه إلى الله ومن ثمّ تقوية هذا التوجّه أكثر فأكثر بمرور الوقت فلابدّ لنا من التمرين، وإنّ الذكر اللسانيّ واللفظيّ هو أسهل بكثير للتمرّن من الذكر القلبيّ. ففي جميع الأمور التي تحتاج إلى التمرّن عادة ما يبدأ البرنامج بممارسة التمارين البسيطة أوّلاً ومن ثمّ الانتقال شيئاً فشيئاً إلى الأصعب

فالأصعب من التمارين، وهذه القاعدة تنطبق أيضاً على حقل العرفان والسير والسلوك. فمن أشقّ ما يكون على الإنسان أن يقوم ـ دفعة واحدة ـ بوضع خاتمة لالتفاته إلى المظاهر الدنيويّة والحياة المادّية ليتوجّه بقلبه إلى الله تعالى وحسب. فليس باستطاعة الناس العاديّين القيام بهذا العمل إلاّ لبضع دقائق أو لساعة أو ساعتين ـ كحدّ أقصى ـ في اليوم والليلة. فالدراسة، والمطالعة، والتكسّب والعمل، ومساعدة الآخرين، وقضاء حوائج الأخوة من المؤمنين، وأمثال هذه الأعمال كلّها ممارسات يتعيّن علينا أن نمارسها يوميّاً، وإنّ التوجّه القلبيّ إلى الله أثناء القيام بكلّ تلك الأعمال هو أمر صعب للغاية. بل إنّ أغلبنا ليس له من التوجّه القلبيّ أثناء الصلاة ـ وهي الساعات التي يُفترَض أن تُخصّص للتوجّه إلى الله ـ إلاّ للحظات في بدايتها، عند قول الله أكبر، بسم الله الرحمن الرحيم، ومن ثمّ تشرد أذهاننا ونغفل عن ذكر الله والصلاة حتّى آخرها! من هذا المنطلق، فإنّ ما يكون بوسعنا نحن الأشخاص العاديّين إنجازه وما هو أيسر علينا هو الذكر اللفظيّ. فإن عوّد الإنسان نفسه على الذكر اللسانيّ، فسيشكّل نفس هذا الأمر أرضيّة للالتفات إلى معانيه عند ترديده، والذي سيقود بدوره إلى جعل الذكر اللفظيّ وسيلة وسبيلاً مناسبة للوصول إلى التوجّه والذكر القلبيّين. من هذا المنطلق من الممكن أن يكون الذكر اللفظيّ وسيلة وأداة مناسبة للتوجّه القلبيّ، لاسيّما بالنسبة للأشخاص المبتدئين في هذا الطريق.

على أيّ حال، فبالرغم من ضرورة الذكر اللسانيّ، وأنّه لا سبيل إلى إنكار دروه ومكانته، إلاّ أنّه يتعيّن الالتفات إلى أنّ للذكر القلبيّ في حقل العرفان والسير والسلوك أهميّته وآثاره وفوائده الخاصّة أيضاً. إنّ من الملاحظات المهمّة على صعيد الذكر القلبيّ هي أنّ الأساس ـ على أيّ حال ـ

في المسيرة المعنويّة والتكامليّة لنا نحن البشر يكمن في توجّهنا القلبيّ وحضور الله عزّ وجلّ في قلوبنا وأرواحنا. ففي الحجّ والطواف حول بيت الله مثلاً فإنّ المهمّ هو الالتفات إلى الله جلّت آلاؤه، وطواف القلب حول تجلّيات المعشوق. فإن قطع المرء مئات الفراسخ صوب مكّة، وحلّ في جوار الكعبة المشرّفة، لكنّه لم يُودِع قلبه عند صاحب الدار هناك، بل كانت حواسّه كلّها تطوف حول كعبة الصكوك، والسندات الماليّة، وما على الناس له، وما في ذمّته لهم، فلن يكون له نصيب يذكر من هذه الزيارة. إنّ لدينا روايات خاصّة فيما يتعلّق بكثير من العبادات مفادها: أنّه إذا لم يكن العمل مصحوباً بروح العبادة الخاصّة، فلن يجني منه صاحبه أيّ نفع. فقد ورد في الخبر بخصوص صلاة الليل وعبادات السحر ما نصّه: «**رُبَّ قائمٍ حظُّه من قيامه السهَر**»[1]. لذا، فهناك نقطة مهمّة جدّاً في مسألة الذكر القلبيّ وهي أنّنا يجب أن لا ننسى أنّ الأصالة هي للذكر والتوجّه القلبيّ، فلو أنّنا قضينا تمام عمرنا منشغلين بالذكر اللسانيّ واللفظيّ من دون أيّ توجّه وحضور للقلب، فلن يكون لذلك، قطعاً، أيّ أثر في تكامل أرواحنا.

بالإضافة إلى أنّ أساس الذكر هو الذكر القلبيّ فإنّ من الأمور العظيمة التي يرجح بها الذكر القلبيّ على اللسانيّ هي أنّه لا مكان للرياء فيه. إذ من المعضلات الكبرى التي تقف عقبة أمام مسيرة تكامل الغالبيّة منّا والتي تفسد علينا أعمالنا هي الرياء وحبّ الظهور. إلاّ أنّ هذه المعضلة ترتفع ذاتيّاً، إلى حدّ كبير، عند ممارسة الأعمال والعبادات التي ليس لها شكل ظاهريّ. فالصيام ـ على سبيل المثال ـ يصنَّف في هذه القائمة من العبادات؛ فبما أنّه ليس للصيام أيّ هيئة ظاهريّة، فلن يشعر الآخرون بصيام المرء ما لم يُنبِئهم به. والذكر

---

١. بحار الأنوار، ج٨٧، الباب ١٢، ص٢٠٧، الرواية ١٧.

القلبيّ يمتاز بهذه الصفة أيضاً. وكمثال على ذلك، نحن قد ننظر ـ في الظاهر ـ إلى شجرة أو زهرة أو إلى السماء، لكنّنا في الباطن نسبّح الله سبحانه وتعالى واقعين تحت تأثير روعة الزهرة، أو جمال الشجرة، أو دقّة خلق السماء، ومتفكّرين بعظمة وجلال الباري جلّ شأنه. فالذي ينظر إلينا يظنّنا منشغلين بالتفرّج على الزهرة أو الشجرة أو السماء، إلاّ أنّه لا يعي الهيجان الذي يعتلج في داخلنا. وهذا هو ما يميّز الذكر القلبيّ عن اللفظيّ. فإذا رُدّد الذكر اللفظيّ بصوت عال فسوف يسمعه الآخرون، وحتّى إذا همس المرء بصوت خافت فإنّه سيلتفت الناس إلى انشغاله بالذكر من حركة شفتيه؛ اللهمّ إلاّ أن يشتغل به الإنسان في خلوة بعيداً عن الأنظار. ومهما كان، فإنّ انسداد الطريق على الرياء في الذكر القلبيّ يعدّ امتيازاً مهمّاً له بالمقارنة مع نظيره اللفظيّ.

من الملاحظات المهمّة الأخرى على صعيد الذكر القلبيّ والتي لا يخلو التنويه بها من فائدة هي ما يتعلّق بذلك الذكر القلبيّ لأولياء الله. فذكر أمثال هؤلاء وتوجّههم لله سبحانه يُحسب له حساب آخر؛ فنحن نقرأ في الزيارة الجامعة لأئمّة المؤمنين: «**ولكم القلوب التي تَوَلَّى اللهُ رياضتَها**»[1]. فالله، في ذلك المقام، هو الذي يمسك بعنان اختيار القلوب بيده، ويقودها إليه، ويجعلها متوجّهة له. وهذا الأمر لا يختصّ بالمعصومين عليهم السلام، فكلّ من خطى بصدق في طريق عبادة الله وعبوديّته، فسوف يمدّ الله له يد العون بما يفوق ما قدّمه هو نفسه في هذا المضمار. فالذين أثبتوا أنّهم راغبون ـ بصدق من نيّاتهم ـ في أن يكونوا عباداً لله، ويسيروا في جادّة طاعته، حتّى إذا فرضنا أنّه قد توفّرت الأرضيّة لغفلتهم، فإنّ الله سبحانه يوفّر سبباً يلغي تلك الأرضيّة. بل وقد يُرِي الإنسانَ ما لا يراه الآخرون كي يُلفِت نظره إليه سبحانه، ويحوّل توجّهه

---

١. مفاتيح الجنان، الزيارة الجامعة لأئمّة المؤمنين.

عن موقف المعصية ذاك. أجل، ففي ذلك المقام الخاصّ يهرع المحبوب بنفسه إلى المحبّ إذا كان الأخير في معرض الغفلة عنه، ويتجلّى أمام ناظريه، ويجعله يفتتن به وينجذب إليه، كي يصرفه ويشغله عمّن سواه!

أكثر وَصَفات السير والسلوك جامعيّةً

من الأوهام الشائعة إلى حدّ ما بين طالبي الكمالات المعنويّة والروحيّة هو أنّهم يتوهّمون أنّ هناك وَصَفاتٍ سرّية ورمزيّة لهذا الغرض لا يطّلع عليها إلاّ القليل من الناس، أمّا الباقون فمحرومون منها! لعلّ هذا التصوّر أو هذا الوهم هو من أخطر الكمائن التي يضعها الشيطان في طريق طلاّب الكمال الإنسانيّ والمعنويّات، وأشدّها مكراً وخداعاً. فهل من المعقول حقّاً أن يجنّد الله تعالى أنبياءه وأولياءه قاطبة لتربية الإنسان وإيصاله إلى الكمال، ثمّ يجعل أكثر العناصر أصالة وأهمّية في هذه العمليّة من جملة الأسرار التي لا يطّلع عليها إلاّ عدّة معدودة من الناس فقط؟! وإذا علمنا أنّ كلّ تلك الجهود المبذولة هي من أجل هداية البشر، فأنّى لنا القبول بأنّ الله تعالى يأتي بنفسه إلى السرّ الأساسيّ في الوصول إلى جوهر الهداية والكمال فيكتمه ويختم عليه؟! إنّ تصوّراً كهذا هو ـ قطعاً ـ بعيد كلّ البعد عن العقلانيّة والصواب. بل العكس هو الصحيح، فإنّه لابدّ أن تجري الأمور على قاعدة أنّ ما يكون وقعه وتأثيره أشدّ من غيره في تكامل الإنسان، فإنّ الإشارة إليه والتأكيد عليه في الكتب السماويّة ومعارف الوحي سيكونان أكثر وضوحاً وأشدّ قوّة. وعلى هذا الأساس يتحتّم علينا أن نتوخّى الدقّة عند استعراض معارف الوحي لنتبيّن أنّه على أيّ المسائل ورد تأكيد أشدّ، فنشمّر عن سواعدنا ونولي تلك المسائل من الاهتمام أكثر ممّا نوليه لغيرها.

تأسيساً على هذا التحليل، إذا ما استعرضنا القرآن الكريم - الذي يُعدّ في الوقت الراهن الكتاب السماويّ الموثّق الوحيد من بين الكتب المتوفّرة لدى البشر - لاكتشفنا أنّ القرآن لم يولِ أيّ شيء من الأهمّية بقدر ما أولاه للصلاة. فقد نزلت ما يناهز مائة آية تتحدّث عن الصلاة والمسائل المتعلّقة بها. وبحسب الآيات القرآنيّة الشريفة، فإنّ هذه الفريضة قد أُوجِبَت على أتباع كافّة الشرائع السالفة، وإنّ جميع الأنبياء قد أكّدوا عليها. ونرى من المناسب هنا أن نستعرض بعض الأمثلة من هذه الآيات:

إنّ من أعظم أنبياء الله قدراً، والذي له - وفقاً للروايات الإسلاميّة - المقام الأسمى من بين سائر الأنبياء - بعد نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله - هو سيّدنا إبراهيم عليه السلام، وإنّ أهمّ ما ورد في أدعية هذا النبيّ العظيم، وأكثر ما أكّد عليه هو مسألة الصلاة؛ حيث يقول في دعائه في محضر الباري عزّ وجلّ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلاَةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾[1]. كما نقرأ في موضع آخر أيضاً على لسان خليل الله عليه السلام قوله: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلاَةَ﴾[2]. ونلاحظ أنّ أوّل وحي نزل على سيّدنا موسى عليه السلام من قبل الله كان يتضمّن التأكيد على الصلاة: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ * إِنَّنِي أَنَا ٱللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾[3]. وفي قصّة سيّدنا عيسى عليه السلام، وهو نبيّ عظيم آخر من أنبياء الله، فإنّ أوّل كلمات نطق بها وهو في المهد، حيث لم يكن قد مضى على ولادته شيء يذكر، ذكر فيها الصلاة: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللهِ ءَاتَانِيَ ٱلْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً * وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَمَا كُنْتُ

١. سورة إبراهيم، الآية ٤٠.

٢. سورة إبراهيم، الآية ٣٧.

٣. سورة طه، الآيتان ١٣ و١٤.

وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[1]. كذلك، فإنّ من جملة وصايا سيّدنا لقمان لابنه كانت إقامة الصلاة: ﴿**يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ**﴾[2]. كذلك فقد جاء الخطاب إلى نبيّنا الكريم ﷺ بهذه الكيفيّة: ﴿**اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ**﴾[3].

كما ورد التأكيد الشديد على هذه الفريضة العظيمة في الروايات الإسلاميّة، وذُكر لها آثار وثمار مهمّة وعظيمة للغاية. ولعلّنا جميعاً مطّلعون على أغلب تلك الروايات، لكنّنا نستعرض هنا عدداً منها من باب التيمُّن والتبرّك:

ـ الرواية المشهورة التي يعرفها الجميع، بل ولعلّنا نقلناها للآخرين أيضاً، وهي التي تقول: «**الصلاة عمود الدين**»[4]. والعمود في العربيّة هو ذلك الوتد من الخشب أو الحديد الذي يوضع في وسط الخيمة عند نصبها. ومن البديهيّ أنّه إذا أُزيح هذا العمود فلن تبقى الخيمة قائمة وستهوي إلى الأرض. وفي الرواية ذاتها يعقّب الإمام عليه السلام فيقول من باب التشبيه: إنّ العلاقة بين الدين والصلاة هي هكذا، بحيث لو اُلغيت الصلاة من دين المرء لانهار دينه وما بقي قائماً أبداً! لذا فإنّ هذا الحديث يُظهِر الأهمّية الفائقة والبالغة جدّاً للصلاة، وقد صرّح أبو جعفر عليه السلام في ذيل الرواية ذاتها بذلك من خلال قوله: «**مَثَلُها كمَثَل عمود الفُسطاط؛ إذا ثبَت العمود ثبتت الأوتاد والأطناب، وإذا مال العمود وانكسر لم يثبت وتد ولا طنب**»؛ فالشرط الأساسيّ لبقاء الخيمة وثباتها هو وجود العمود. فإن ثبت عمودها وظلّ قائماً، فإنّ الخيمة ستظلّ ثابتة ومنتصبة أيضاً، لكنّه إذا انكسر العمود

---

١. سورة مريم، الآيتان ٣٠ و٣١.
٢. سورة لقمان، الآية ١٧.
٣. سورة العنكبوت، الآية ٤٥.
٤. بحار الأنوار، ج٨٢، الباب ١، ص٢١٨، الرواية ٣٦.

فلن يكون بمقدور الحبال والأوتاد وحدها أن تحافظ على الخيمة قائمة. وتأسيساً على هذه الرواية فإنّ العلاقة بين الصلاة وبقيّة أجزاء الدين هي بهذه الكيفيّة؛ أي إنّ وجود الصلاة في الدين هو من الأهمّية الفائقة بحيث لو التزم المرء في تديّنه بكلّ مسائل الدين ولم يعانِ من مشكلة ولا انحراف إلاّ في قضيّة الصلاة، فلن يجني أيّ نفع من دينه هذا.

ـ الرواية المرويّة عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام ـ وهي التي سبق أن ذكرناها في هذا الفصل ـ تبيّن المقام الرفيع للصلاة والأهمّية الفائقة لها أيضاً؛ والرواية هي: «سأل معاوية بن وهب أبا عبد الله عليه السلام عن أفضل ما يَتقرّب به العباد إلى ربّهم. فقال: «**ما أعلم شيئاً بعد المعرفة أفضل من هذه الصلاة ...**». ثمّ أتبع عليه السلام في ذيل الرواية: «**وسُئل النبيّ صلى الله عليه وآله عن أفضل الأعمال، قال: الصلاة لأوّل وقتها**»[1].

ـ رواية أخرى مرويّة عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام بألفاظ مختلفة. وقد جاء وفقاً لأحد النقلين: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**أوّل ما يُحاسب عليه العبد الصلاة، فإذا قُبلت قُبل سائر عمله وإذا رُدّت عليه رُدّ عليه سائر عمله**»[2].

ـ كما جاء في رواية مشهورة أخرى لعلّها طرقت مسامع الغالبيّة منّا، وهي: [أنّ الإمام جعفر الصادق عليه السلام] حين حضره الموت وقد قبض إحدى عينيه ثمّ قال: «**ادعوا لي قرابتي ومن لَطَفَ لي**» فلمّا اجتمعوا حوله قال: «**إنّ شفاعتنا لن تنال مُستخفّاً بالصّلاة**»[3].

على أيّ حال، فقد وردت في هذا الباب آيات وروايات مستفيضة جدّاً

١. بحار الأنوار، ج٨٢، الباب ١، ص٢٢٥، الرواية ٥٠.
٢. نفس المصدر السابق، ص٢٣٦، الرواية ٦٤.
٣. نفس المصدر السابق، الرواية ٦٣.

وكلّها تبيّن ما تتفرّد به الصلاة من أهمّية بالغة. هذه الأدلّة لا تُبقي أيّ مجال للارتياب في أنّ أفضل الأعمال التي يُتقرّب بها إلى الله هي الصلاة. ونحن نشهد على هذا الأمر كلّ يوم ولمرّات عدّة في أذاننا وإقامتنا عندما نقول: **حيّ على خير العمل**. لعلّنا ـ إلى الآن ـ لم نُعِر هذه القضيّة ما تستحقّه من الاهتمام، فنحن نكرّر هذه الجملة لأعوام طوال من دون تأمّل في مدلولها. فهل نحن نؤمن حقّاً أنّ الصلاة هي خير العمل؟! كما أنّنا طالما كرّرنا جملة: **حيّ على الفلاح**، فهل ترانا التفتنا يوماً إلى هذا المعنى؛ وهو أنّه بمقدور الصلاة أن توصلنا إلى تلك السعادة وذلك الفلاح اللذين نتحرّق شوقاً للوصول إليهما؟! أجل، فعين هذه الصلاة التي نمرّ عليها ـ بكلّ بساطة ـ مرور الكرام هي خير الأعمال، وهي مفتاح فلاحنا، وهي من أفضل وسائل التقرّب إلى الله جلّ وعلا! ولا يفوتنا أنّ الإمام الصادق عليه السلام قد قال في معرض جوابه على سؤال معاوية بن وهب عن أفضل ما يتقرّب به العباد إلى الله: «**ما أعلم شيئاً بعد المعرفة أفضل من هذه الصلاة**».

مهما يكن من أمر، فعلى غرار ما تصرّح به الروايات، وما نكرّره نحن يوميّاً مراراً، فإنّ الصلاة حقيقةً هي خير العمل، وهي أفضل وسيلة لإيصال الإنسان إلى الكمال والقرب الإلهيّ. ومن هذا المنطلق، إذا شئنا أن نسلك طريق النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله، فعلينا أن نُولي نفس هذه الصلاة أهمّية أكبر، سواء من حيث الكمّ أو الكيف. فمن حيث الكمّ؛ ينبغي أن لا نكتفي بالواجبات، بل نأتي بالمستحبّات أيضاً. ومن حيث الكيف أيضاً؛ علينا أن لا نقنع بما هو ظاهر من آدابها والخضوع والخشوع فيها، بل نسعى لتقوية حضور القلب فيها.

أجل، فإنّ أرقى مراتب توجّه القلب إلى الله تعالى ـ الذي هو أساس العرفان، والذي نجتهد لنيله في مجال العرفان والسير والسلوك ـ ينالها الإنسان أثناء الصلاة. إنّ لدينا في أحوال أئمّتنا عليهم السلام [أثناء الصلاة] روايات عديدة

تؤكّد هذا المعنى. كما تُنقَل مثل هذه الأحوال عن العديد من كبار العرفاء ممّن نثق بهم، إذ تحدّث هؤلاء عن حالات عجيبة حصلت لهم أثناء الصلاة.

مع بالغ الأسف، فإنّ المشكلة الأساسيّة للغالبيّة العظمى منّا هي أنّ الشيطان يغوينا فلا ننظر بالمقدار اللازم من الجدّية في مقولة أنّ الصلاة هي أفضل وأرقى وسيلة لنيل أسمى وأعلى المدارج والمقامات العرفانيّة، وكأنّنا لا نصدّق هذا الأمر! إنّنا ـ إلى حدّ ما ـ قانعون بهذه الهيئة الظاهريّة للصلاة، وتلاوة ألفاظها وأذكارها وأورادها، ولهذا السبب فنحن لا نحسّ لها أثراً يذكر، ذلك لأنّ تلك الآثار مرتبطة بروح الصلاة وإنّ صلواتنا فاقدة لتلك الروح. فالروح الأساسيّة للصلاة مرتبطة بحضور القلب وتوجّه المرء إلى الله، وإنّ درجة رفعها للمصلّي وزيادتها في كماله تتناسب مع مقدار ما يظفر به من حضور القلب والتوجّه فيها.

بالطبع لابدّ من التنبّه إلى أنّ السبيل لنيل حضور القلب ليس هو في اللجوء إلى زاوية قصيّة هادئة حيث لا نعود نسمع حتّى صوت طيران البعوضة. فإذا كان من المقدّر أن تتشتّت حواسّ المرء ويفقد التركيز بمجرّد سماع صوت أجنحة البعوضة عند طيرانها، لتعيّن علينا حصر العبادة في حالات العزلة والانزواء عن الناس والاعتكاف في الصومعة أو الدير أو الغار، وهذا قطعاً مخالف لتعاليم الإسلام، وإنّه ليس من أهداف الإسلام تربية أشخاص كهؤلاء. بل لابدّ من التمرّن بحيث يكون التفاتنا متوجّهاً إلى الله سبحانه وتعالى في نفس الظروف والأجواء الطبيعيّة التي نصلّي عادةً فيها، وعلى وجه الخصوص في صلاة الجماعة. فإذا انتهجنا هذا النهج فإنّ العنايات الإلهيّة سوف تسعفنا بالتدريج للوصول إلى درجة لا نغفل فيها عن ذكر الله، وتكون قلوبنا وبواطننا دائمة الالتفات إليه سبحانه حتّى في غير الصلاة، وأثناء القيام بأعمالنا اليوميّة المتعارفة، وفي خِضَمّ ما نعيشه يوميّاً من صخب الحياة وضوضائها؛ وهذا هو

المقام الذي يصفه القرآن الكريم في قوله: ﴿**رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ ٱللهِ**﴾[١]. فعباد الله الصالحون والعرفاء الحقيقيّون هم أولئك الذين لا ينقطع توجّههم إلى الله عزّ وجلّ ولا يغفلون عنه حتّى للحظة واحدة في ذات الوقت الذي يختلطون فيه مع الناس، وينشغلون بكسب رزقهم، وسائر شؤون حياتهم ومعيشتهم. فالذين لا يستطيعون ذكر الله إلاّ في الخلوات وفي حالات خاصّة، ويزول عنهم حضور القلب والتوجّه بمجرّد تواجدهم بين الناس، تكون هذه علامة على أنّهم يشكون النقص والضعف في أنفسهم. من هذا المنطلق، ينبغي للمرء في هذا الميدان الإفادة من توجيهات أولئك الذين لهم قصب السبق في هذا المضمار، والذين خطوا خطوات ثابتة وراسخة في طيّ هذه المراحل، والذين ينسجم منهجهم مع الشرع بشكل كامل، وأن يبذل قصارى جهده لتنمية حضور القلب عنده في الصلاة ـ بالدرجة الأولى ـ ومن ثمّ في الحالات الأخرى. فإن اجتهدنا في هذا الطريق فسوف يحيطنا الله جلّ شأنه بعناياته، ويمدّنا بإعاناته. فنحن إذا سرنا نحو الله ذراعاً، فإنّ الله سيُقبِل علينا بمقدار عشرة أذرع؛ فقد ورد في الحديث القدسيّ: «**من تقرّب إليّ شبراً تقرّبتُ إليه ذراعاً ومن تقرّب إليّ ذراعاً تقرّبتُ إليه باعاً**[٢]»[٣].

أجل، فألطاف الباري عزّ وجلّ وعناياته بعباده المؤمنين المخلصين وافرة على أيّ حال، وهو تعالى يأخذ بأيديهم بأنحاء شتّى. فمن عقد العزم على الطاعة له سبحانه، واجتهد في تقرّبه إليه، فإنّ الله سيشمله بنظرة خاصّة منه، وسيتولّى هو بنفسه تدبير أموره؛ فعلى سبيل المثال، يدلّه على أستاذ

---

١. سورة النور، الآية ٣٧.

٢. وحدة طول تساوي ١٦٢ سنتيمتراً تقريباً.

٣. بحار الأنوار، ج٨٧ الباب ١١، ص١٨٩، الرواية ٥.

جيّد، ويعرّفه على رفيق صالح، ويصلِح له أمور دنياه ويؤمّنها له، وخلاصة القول فهو يهيّئ له كلّ ما يلزمه وما فيه صلاحه كي يتمكّن من طيّ مدارج الكمال واجتيازها الواحدة تلو الأخرى.

السرّ في كون الصلاة «خير العمل»

يجدر بنا، وقد أتينا على ذكر الصلاة وكونها «خير العمل»، أن نتعرّض لسرّ هذه المسألة بمزيد من التحليل. فيا ترى ما الذي يجعل الصلاة، من بين سائر الأعمال الأخرى، «خير العمل» وأفضل وسيلة للتقرّب والتكامل والفلاح؟ فإنّنا إذا ما قسنا الصلاة مع غالبيّة الأعمال والعبادات الأخرى لوجدناها أبسط وأيسر منها بكثير. إذن، فكيف تحوز من الأهمّية ما يفوق جميع الأعمال الأخرى؟ فلو قارنّا الصلاة مع الجهاد مثلاً، لرأينا أنّ الجهاد عمل شاقّ للغاية، حيث يكون مصحوباً بصعوبات ومخاطر جمّة من قبيل العطش، والجوع، والتعب والنصب، والإصابة بالجروح، وبتر الأعضاء، والقتل، أمّا الصلاة ـ في المقابل ـ فهي عمل بسيط، لا يستوجب منّا سوى أن نجري على ألسنتنا بضعة ألفاظ، وننحني ونقف بضع مرّات! ومع ذلك فقد عُدّت الصلاة «خير العمل»، و«أفضل الأعمال»، و«أفضل ما يتقرّب به العباد إلى ربّهم»!

لعلّ إدراك هذه القضية بحقيقتها هو أمر خارج عن استطاعتنا، لكنّنا نستطيع ـ على أيّ حال ـ تبيين بعض المباحث بما يتناسب مع مستوى إدراكنا وفهمنا لها. ومن أجل توضيح هذا الأمر يتعيّن الالتفات إلى مسألة مهمّة وهي: أنّ حقيقة العبادة هي أن يشعر الإنسان، في مقابل المعبود الحقيقيّ، بتفويض كلّ أموره إليه. فكما أشرنا سلفاً، إنّ أوّل وأكبر معضلة وعقبة تواجه الكثير من أمثالنا في مسير التكامل هي أنّنا نعتبر لأنفسنا نمطاً من «الربوبيّة»

ونقرّ بأنّ «لنا الخِيَرة من أمرنا» في مقابل الله عزّ وجلّ. بطبيعة الحال، نحن لا نصرّح بهذا الأمر جهاراً بالبيان واللفظ، إلاّ أنّ حقيقته مضمرة ومكتومة في كياننا ووجودنا، وباستطاعتنا مشاهدة آثاره على أعمالنا وتصرّفاتنا. فنحن نخال أنفسنا شيئاً، وأنّ لنا سلطة وذكاء وإمكانات من ذواتنا، وأنّنا أصحاب أموال وممتلكات أيضاً، خصوصاً إذا أصبحنا أصحاب مناصب ومنازل اجتماعيّة، فإنّ شعورنا بـ«الأنانيّة» و«الاستقلال» يبلغ ذروته. نحن نرى أنّ لنا طلبات وإرادات في مقابل تلك التي لله جلّ شأنه، بل وفي معظم الأوقات نحن نرجّح طلباتنا وإراداتنا على طلبات وإرادة الله تعالى!! كما يقول القرآن الكريم في هذا الصدد: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**﴾[1].

أجل، فإنّ العدد الأكبر منّا منشغل بـ«عبادة الذات» بدلاً من «عبادة الله»، وعوضاً عن أن «نفوّض أمورنا لله»، فإنّنا «نفوّض أمورنا لأنفسنا» ولأهوائنا! فبقطع النظر عن النزر اليسير من الناس ممّن يُعدّون على الأصابع، فإنّ مرتبةً من «عبادة الهوى» موجودة فينا جميعاً، والقرآن الكريم يؤيّد هذا المعنى أيضاً عندما يؤكّد بأنّ شائبة الشرك موجودة عند أكثر الناس، إذ تكون «عبادة الله» عندهم مصحوبة بـ«عبادة الذات» فهو يقول: ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ**﴾[2].

بعد إيراد هذه المقدّمة، نقول: إنّ الفلسفة الأساسيّة للصلاة هي أن ننبذ تلك الأنواع المختلفة من «عبادة الذات» ونزيحها جانباً، ونفوّض كلّ وجودنا لله جلّ وعلا، وأن نشيح بوجوهنا عن «ذواتنا» وعن كلّ شيء آخر ونوجّهها «لله» وحده قائلين: ﴿**وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا**

---

١. سورة الجاثية، الآية ٢٣.

٢. سورة يوسف، الآية ١٠٦.

﴿أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[١]. أجل، فالصلاة فرصة لأن يقف الإنسان بتواضع بين يدَي الله تعالى، ممرّغاً جبينه بالتراب على أعتابه، وممرّناً نفسه على التفويض الكامل له سبحانه. والصلاة ساحة التمرين، ومنصّة القفز التي يجعل الإنسان فيها كلّ ما لديه، ومحياه، ومماته لله وحده، ويفوّض أمره له: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾[٢]. والصلاة تمرين على «التسليم»؛ إذ الغاية منها تنمية حقيقة العبوديّة، التي هي «التسليم»، في نفس الإنسان ليصل إلى حيث لا يقول: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لله﴾[٣] بلسانه فحسب بل يقولها بقلبه وبكلّ كيانه.

إنّ نسبة الإنسان كلّ وجوده ومتعلّقاته لله تعالى، بحيث يعترف له بأن لا شيء من تلك الأمور هو من ذاتي إطلاقاً، وأنّها كلّها متعلّقة بك، ولا بدّ أن تكون تحت تصرّفك، وأن تُبذَل في سبيلك، هي حقيقةٌ تتمثّل وتتجسّد في الصلاة. فالصلاة تقوّي هذه الحالة عند الإنسان وتنمّيها. فغاية الصلاة هي أن يوجّه المرء ظاهره وباطنه لله جلّ شأنه، وإنّ الأمر في أن يوجّه المصلّي وجهه نحو القبلة حتّى في الظاهر هو من هذا الباب أيضاً: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً﴾[٤].

فالكثير من الحركات الظاهريّة التي تصطبغ ـ كاملاً ـ بصبغة العبوديّة وتفوح منها رائحتها قد جُعلت في الصلاة؛ فمثلاً: وقوف العبد باحترام بين يدي مولاه، والإنحناء تعظيماً له، والهوِيُّ على التراب سجوداً له، ورفع اليدين لطلب الحاجة منه (في القنوت)، والإعراض عن كلّ شيء عند الإتيان بتكبيرة الإحرام، وأذكار الصلاة وقراءاتها، وشكر العبد لمولاه، وحمده له، وثناؤه عليه، ...الخ.

---

١. سورة الأنعام، الآية ٧٩.
٢. سورة الإنعام، الآية ١٦٢.
٣. سورة آل عمران، الآية ٢٠.
٤. سورة الأنعام، الآية ٧٩.

فكل ظواهر الصلاة تلك، من أفعال وأذكار، قد صُمّمت بشكل ينطوي على إظهار العبوديّة المحضة والتسليم الكامل لله عزّ وجلّ. أمّا كيف تتّخذ الصلاة في بعدها المعنويّ، والباطنيّ، والقلبيّ صبغة العبوديّة فذلك بحث آخر.

بناءً عليه، فإنّ السرّ في إعطاء الصلاة هذا القدر من الأهمّية هو في كونها أفضل وسيلة من شأنها أن تحقّق وتجلّي الهدف الأسمى للخلقة، ألا وهو حذف الأنانيّة من وجود الإنسان وإيجاد روح العبوديّة لديه. فالصلاة هي أفضل سبيل وأداة لإظهار الاعتراف بالمالكيّة الحقيقيّة للباري تعالى والعبوديّة له سبحانه في وجود الإنسان. فما من عمل عباديّ آخر يمتلك تلك الظرفيّة التي للصلاة في هذا المجال. فالصيام ـ مثلاً ـ هو من العبادات، إلاّ أنّه لا يعدو كونه تركاً لبعض الممارسات، فهو لا يتضمّن تلاوة الأذكار والأوراد، ولا إبراز العبوديّة الظاهريّة، ولا تمريغ الجبين بالتراب، ...الخ، ومثله سائر الأعمال العباديّة أيضاً. ففي هذا الميدان تعتبر الصلاة عبادة جامعة بحيث يكون بإمكانها أن تجعل وجود الإنسان برمّته ـ بدءاً من أبعاده البدنيّة والظاهريّة وانتهاءً بأبعاده الذهنيّة والقلبيّة والباطنيّة ـ في خدمة العبوديّة؛ وهذا هو السرّ في إعطاء الصلاة لقب «خير العمل» من بين كافّة العبادات الأخرى.

الصلوات المجرّدة من الروح!

بالنظر لمكانة الصلاة البارزة ودورها الجوهريّ في سموّ الإنسان، ونيله لمراتب الكمال العليا، وقربه إلى الله، نرى من المناسب هنا أن نُلفت عناية القارئ الكريم إلى ملاحظة أخرى في هذا الصدد، ألا وهي التأمّل في أنّه: إذا كانت الصلاة حقّاً هي خير الأعمال، وأنّ لها كلَّ هذا الأثر في رُقيّ الإنسان وسموّه على الصعيد المعنويّ، فلماذا لا نلمس تلك الآثار في وجودنا مع أنّنا نمارس

الصلاة؟! وإذا كان قد جاء في الخبر أنّ: «الصلاة معراج المؤمن»[١]، فما العلّة في أنّنا لا نشعر بعروجنا، ولو لمرّة واحدة، وقد مضت علينا سنوات طوال ونحن نصلّي؟! وإذا كان صريح القرآن الكريم يقول: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنْكَرِ﴾[٢]، فما بالنا نرتكب كلّ هذه الأنماط من المعاصي والقبائح مع أنّنا قد قضّينا عمراً بأكمله ملتزمين بالصلاة؟! ناهيك عن العشرات من آثار الصلاة الأخرى التي تشير إليها الأحاديث والآيات القرآنيّة، والتي لا نشاهدها ولا نشعر بها في أنفسنا. حقّاً، ما السبب في ذلك؟!

الجواب هو أنّنا لا نصلّي «صلاةً حقيقيّةً». إنّ ما نمارسه هو صورة ظاهرها يشبه الصلاة، أي إنّنا نؤدّي الصلاة ليس إلاّ! فالذي يلتفت في أثناء الصلاة لكلّ شيء ما عدا الله والصلاة، ولا يخطر بباله أنّه في حال صلاة إلاّ عندما يقول: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته»، فهل نحسبه «صلّى» حقّاً؟! فمعظمنا يُوكِل المسائل التي لا يجد فرصة للتفكير فيها إلى وقت الصلاة كي يُشبِعها - في أثناء الصلاة - مناقشةً وتحليلاً! فعلى سبيل المثال، إذا كنّا ننوي إلقاء درس بعد صلاتَي المغرب والعشاء، ولأنّنا لم نحصل على الوقت الكافي لمطالعة الموضوع، فإنّنا نغتنم فرصة العشائين ونتهيّأ للدرس بمراجعة المباحث في أذهاننا! كما أنّ الكثير من أصحاب التجارة والكسب والعمل يراجعون حسابات الدائن والمدين والصكوك والسندات أثناء صلواتهم! فهل حقّاً إنّ ما نقوم به يُدعى «صلاة»؟!!

إنّ الصلوات التي نؤدّيها ليس أنّها لا تقودنا نحو التكامل فحسب، بل إنّ علينا أن نتوب منها! أجل، فآثامنا ومعاصينا لها حسابها الخاصّ، وإنّه يتحتّم علينا أن نستغفر الباري عزّ وجلّ وأن نتوب إليه ونطلب منه الصفح

---

١. بحار الأنوار، ج٨٢، الباب ٢، ص٢٤٨، الرواية ١.
٢. سورة العنكبوت، الآية ٤٥.

بسبب نفس عباداتنا وصلواتنا![1] فلو انبرى شخص لمديحك في حضور

---

١. يستعرض الإمام الخمينيّ هذا الموضوع من زاوية أخرى، فيقول:
إنّ جميع أعمالنا هي من أجل اللذّات النفسانيّة، ومن أجل الاهتمام بالبطن والفرج. فنحن عُبّاد للبطن وعُبّاد للشهوة، ونترك لذّة صغيرة للذّة أعظم. وإنّ وجهة أنظارنا وقبلة آمالنا هي فتح بساط الشهوة. إنّ الصلاة التي هي معراج القرب إلى الله نؤدّيها قربة لنساء الجنّة ولا علاقة لها بالقرب إلى الله، ولا بطاعة الأوامر، وهي بعيدة آلاف الفراسخ عن رضا الله.
أيّها المسكين الغافل عن المعارف الإلهيّة، يا من لا تفهم سوى إدارة شؤون شهوتك وغضبك، أيّها المتقدّس المواظب على الأذكار والأوراد والمستحبّات والواجبات، والتارك للمكروهات والمحرّمات، والمتخلّق بالأخلاق الحسنة، والمتجنّب لسيّئات الأخلاق، ضع أعمالك في ميزان الإنصاف. أأنت تقوم بها لأجل الوصول إلى الشهوات النفسانيّة والجلوس على سُرُر مطعمّة بالزبرجد، ومعانقة الضحوكات والدعوبات في الجنّة، وارتداء الحرير والإستبرق، والسكنى في القصور الفارهة الجميلة، وبلوغ الأماني النفسيّة؟ أفينبغي أن تمنّ بهذه الأعمال ـ وهي جميعاً لأجل النفس ومن أجل عبادتها ـ على الله وتعُدّها عبادة لله؟ هل يختلف حالكم عن ذلك الأجير الذي ينجز عملاً من أجل الأجر، ثمّ يقول: إنّني أنجزت ذلك العمل لأجل صاحب العمل فحسب؟ أفلا تكذّبوه؟
ألستم كاذبين حينما تقولون: إنّنا نصلّي تقرّباً إلى الله تعالى؟ ألأجل التقرّب إلى الله هذه الصلاة أو لأجل التقرّب لنساء الجنّة وإشباع الشهوة؟ أقولها صراحة، إنّ جميع عباداتنا هذه لهي من كبائر الذنوب عند العارفين بالله وأولياء الله.
أيّها المسكين! أنت في حضرة الله جلّ جلاله، وفي محضر الملائكة المقرّبين، تعمل خلاف رضا الله تعالى، والعبادة ـ التي هي معراج القرب إلى الله ـ تؤدّيها لأجل النفس الأمّارة بالسوء ولأجل الشيطان، وعندها لا تستحي أن تكذب في العبادة عدّة أكاذيب في حضرة الربّ والملائكة المقرّبين وتفتري عدّة افتراءات، وتمنّ، وتعجب، وتتدلّل أيضاً، ولا تخجل بعد كلّ ذلك! بماذا تختلف عبادتي وعبادتك هذه عن معصية أهل العصيان، وأشدّها الرياء؟ فالرياء شرك وقبحه ناشئ من أنّك لا تؤدّي العبادة لأجل الله. جميع عباداتنا شرك محض ولا أثر فيها للخلوص والإخلاص، بل حتّى إنّ رضا الله لا يشترك في الدافع إلى إنجاز هذه العبادة، فهي لأجل الشهوات وإشباع البطن والفرج فحسب.
أيّها العزيز! إنّ الصلاة التي تكون لأجل المرأة، سواء أكانت في الدنيا أم في الجنّة، لا تكون لله. والصلاة التي تكون من أجل الحصول على آمال الدنيا أو آمال الآخرة لا علاقة لها بالله. فلماذا إذن تتدلّل إلى هذا الحدّ، وتنظر إلى عباد الله بعين الإحتقار، وتحسب نفسك من خواصّ الله تعالى؟ أيّها المسكين! أنت بهذه الصلاة تستحقّ العذاب وتستوجب سلسلة ﴿ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً﴾. فلماذا إذن تحسب نفسك دائناً لله، وتهيّئ لنفسك بهذا التدلّل والعجب عذاباً آخر؟ إعمل الأعمال التي أمِرت بها، واعلم أنّها ليست لأجل الله، واعلم أنّ الله يدخلك الجنّة بتفضّله وترحّمه، وأنّ الله تعالى خفّف عن عباده ـ لضعفهم ـ بالتجاوز عن نوع من الشرك وأسدل عليه بغفرانه ورحمته حجاب ستره، فحاذر أن يتمزّق هذا الحجاب، وليبق حجاب غفران الله على هذه السيّئات التي أسميناها عبادة، فإذا حدث ـ لا سمح الله ـ أن انطوت صفحتك هذه ورحلت عن هذه الدنيا، وجاءت صفحة العدل فإنّ عفونة عبادتنا عندئذ لن تقلّ عن عفونة المعاصي والموبقات التي يرتكبها أهل المعصية. (كتاب «الأربعون حديثاً»، تعريب السيّد محمّد الغرويّ، ص٩٤ـ٩٦).

الآخرين مستخدماً ألفاظاً وعبارات غير مفهومة حتّى لقائلها، فهل ستحسب ذلك مديحاً لك وإطراء عليك، أم ستعدّه ضرباً من الاستهزاء والإهانة؟! وإذا أبدى لك شخص مشاعر المودّة والإخلاص بقوله: «أنا أكنّ لك كلّ المودّة والإخلاص» والحال أنّك مطّلع على قلبه وباطنه وتعلم أنّ ذهنه شارد في مكان آخر تماماً، وأنّه لم يلتفت حتّى إلى معنى كلمة واحدة ممّا نطق به، فكيف سيكون تعاملك معه حينئذ؟! وإذا كان شخص يولّي وجهه شطراً آخر ويُشيح بوجهه عنك، أثناء الحوار معك، ويجيل بنظره يميناً وشمالاً وإلى الأعلى والأسفل وهو يتحدّث إليك، ألا تعتبر ذلك إهانة كبرى وإساءة أدب لشخصك؟! نحن نتساءل: هل إنّ ما نؤدّيه من عبادة وصلاة هي «عبادة» أم «إهانة»؟ فقد روي عن النبيّ الأكرم ﷺ أنّه قال: **«أما يخاف الذي يحوّل وجههُ في الصلاة أن يحوّل الله وجهَهُ وجه حمار»**[1].

فإن كان المصلّي يقول «الله أكبر» بلسانه، ويشهد بأنّ الله أكبر من أيّ أحد ومن أيّ شيء آخر، لكنّه عقد الآمال، في قلبه وذهنه، على أحد وشيء آخر، أليس معنى ذلك أنّه يعدّ ذلك الشخص أو ذلك الشيء أهمّ وأكبر من الله تعالى؟ وعندئذ ألا تعود هذه العبارة ـ والعياذ بالله ـ نمطاً من اللعب واللهو مع الله والسخريّة منه؟ فإذا شرع شخص ما بمديحنا والإطراء علينا ونحن على يقين من أنّه لا يعتقد بأيٍّ ممّا يقوله على الإطلاق، فهل ـ ياترى ـ سنحمل تصرّفه هذا على محمل آخر غير السخرية؟ ألا يستحقّ من يقول بلسانه: «الله أكبر»، والله عزّ وجلّ مطّلع على قلبه وباطنه في تلك الأثناء، وهو سبحانه يعلم بأنّه غير معتقد بما يقول، ولا يؤمن بأنّ «الله هو أكبر من كلّ شيء»، ألا

---

١. بحار الأنوار، ج٨٤ الباب ١٥، ص٢١١، الرواية ٣؛ وهذا نصّ الرواية: «**لا تلتفتوا في صلاتكم فإنّه لا صلاة لمُلتفت. وقال**ﷺ: **أما يخاف الذي يحوّل وجهه في الصلاة أن يحوّل الله وجهه وجه حمار**».

يستحقّ أن يمسخه الله حماراً؟ فنحن لا نُشيح بوجوهنا إلى أيّ جهة حتّى عندما نتحدّث إلى شخص عاديّ؛ فياترى هل إنّ قيمة الله عندنا لا ترقى ـ معاذ الله ـ حتّى إلى قيمة ذلك الشخص العاديّ، لأنّ أفئدتنا متوجّهة ـ أثناء الصلاة وعند مخاطبته عزّ وجلّ ـ إلى كلّ شيء ما عداه؟!! إنّه يتعيّن علينا بحقّ أن نتوسّل ونتضرّع إلى الله بعدد صلواتنا التي سبق أن أدّيناها، ونطلب منه أن يعفو عنّا ويغفر لنا تلك الصلوات. أجل، الصلوات وليس الذنوب! فتلك العبادات ليست في الواقع عبادات، بل كلّها إهانة واستهزاء. فالله عزّ وجلّ يقول في محكم كتابه العزيز: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ**﴾[1]؛ فإيّ قيمة لكلام السكران الثمل؟! إنّ المرء في حال السُكْر، وعندما لا يكون عقله وإدراكاته الحسّية سليمة، فإنّه لن يكون ملتفتاً إلى الكلمات والعبارات التي يقولها، وفي مثل هذه الحالة من الممكن أن يتفوّه بأيّ كلام. ومن هنا، فلا قيمة لإطرائه على الأشخاص وتمجيده لهم، ولن يعوّل أيّ شخص على كلامه، كما أنّه لو قال أيّ كلام آخر فلن يُعتنَى بكلامه أيضاً.

في الآية الكريمة يقول عزّ من قائل: لا تقفوا للصلاة ولا تتكلّموا مع الله وأنتم في حالة سُكْر لأنّكم لا تعلمون ما الذي تقولونه حينها. وبالرغم من أنّ ظاهر الآية يشير إلى السكر والغفلة الناشئين من شرب الخمر، إلاّ أنّ التعليل الوارد فيها يوحي بأنّ الخطاب موجّه لكلّ من يقف للصلاة أو يخاطب الله في حالة من الغفلة والجهل بما يقول. فالتعليل الذي أوردته الآية للنهي عن الصلاة في حالة السكر هو: ﴿**حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ**﴾؛ أي، لمّا كان الشخص السكران لا يعي ولا يفهم ما يقول، فلا ينبغي له أن يقرب

---

١. سورة النساء، الآية ٤٣.

الصلاة. وعلى هذا الأساس، فكلّ الغافلين عن الله في حال الصلاة، والذين تكون حواسّهم مشتّتة، وأذهانهم في مكان آخر هم مشمولون بهذا التعليل، لأنّ هؤلاء أيضاً لا يعلمون ما يقولون.

بناءً على هذا، فإنّ العلّة في كوننا لا نجني أيّ ثمرة من صلواتنا، ولا نلمس من ناحيتها في أنفسنا أدنى رُقيّ أو تكامل، تعود إلى أنّ صلواتنا ليست هي صلوات في الواقع، وإنّنا نأمل أن تكون هذه الصلاة مُسقِطة للتكليف، على الأقل! فأقصى أثر يتأتّى من صلاة الذين هم أمثالي هو أنّنا لن نُؤاخَذ في القبر والقيامة على تركنا للصلاة، إلاّ أنّنا لن نجني منها أيّ ربح معنويّ أو تكامليّ.

من المؤسف أنّ الغالبيّة العظمى منّا لا تولي الصلاة الأهمّية والقيمة المطلوبتين. فغاية الأمر أنّنا إذا كنّا متديّنين للغاية، ونرغب في أن نكون صالحين ومؤمنين، فسنبذل قصارى جهدنا في أن تكون قراءتنا وتجويدنا على أحسن وجه، وأن نؤدّي صلاتنا بصوت جميل ولحن مناسب! نحن نخال أنّ غاية ما يجب الاهتمام به في الصلاة هو أداء حروفها من مخارجها، غافلين عن أنّ تلك المسائل ليست إلاّ ظاهر الصلاة وهيكلها، أمّا حقيقة الصلاة وروحها فهما شيء آخر؛ إذ أنّ هذه الأمور تتّخذ طابع الرمزيّة لا أكثر، وإنّ ما يقرّب الإنسان من الله حقيقةً هو ارتباط قلبه وباطنه به سبحانه، وإنّ هذه الظواهر لابدّ أن تشكّل الهيئة الظاهريّة لهذا الارتباط والتوجّه القلبيّين. فحقيقة الصلاة وروحها يتمثّلان في هذا التوجّه القلبيّ، وبدونه تتحوّل الصلاة إلى جسد ميت، فهل يُرجى الحراك والتأثير من جسد ميت يا ترى؟!

هذه الجوهرة النفيسة النادرة هي تحت تصرّفنا وفي أيدينا إلاّ أنّنا ـ ويا للأسف ـ نمرّ عليها مرور الكرام، ولا نثمّنها بما تستحقّ. إنّ الكثير ممّن هم في

صدد طيّ مسير التكامل والسير والسلوك، يبحثون عن شخص يبوح لهم بسرّ مكتوم، ويعلّمهم ذكراً خاصّاً! فلو كان في هذا المجال عمل أهمّ من الصلاة، فهل سيبخل الله تعالى في تعليمه لعباده؟! فالله الذي أنزل الكتاب «هدى للناس» وأرسل نبيّه «رحمة للعالمين»، وأسند لأعزّ عباده مهمّة هداية البشريّة، هل تراه قد كتم سرّ هداية البشر وسعادتهم وكمالهم كي يضطلع شخص آخر غير النبيّ ﷺ وأهل البيت عليهم السلام بمهمّة نقله، خفية، لعدد قليل من الناس، في مكان سرّي، وبشكل رمزيّ؟!!

فلو كان هناك عمل أفضل وأكثر أثراً من الصلاة على صعيد مسير التكامل الإنسانيّ، لكان تأكيد الباري عزّ وجلّ عليه في القرآن الكريم أكثر وأشدّ قطعاً. ولو كان هناك عمل أهمّ من الصلاة، لأولاه أنبياء الله وأولياؤه أهمّية أكبر من أيّ شيء آخر. ولماذا ـ يا ترى ـ اختار أمير المؤمنين عليه السلام الصلاة من بين سائر الأعمال والعبادات، ليلتزم في اليوم والليلة بالصلاة ألف ركعة، وهي ليست في ظاهرها سوى تكرار للألفاظ والحركات فحسب؟! ما هو المفهوم وما هي الرسالة التي يحملها لنا هذا التكرار اليوميّ، وفي كلّ يوم ألف مرّة؟! لماذا كان عليه السلام قد ألزم نفسه أن لا يترك أداء تلك الركعات الألف أبداً، بل إنّه كان مواظباً على نوافله وقراءة قرآنه حتّى أثناء السير، وحرث الأرض، والاستقاء من البئر؟! نحن نعلم أنّ معظم الشروط المعتبرة في الفرائض كاستقبال القبلة، وطمأنينة البدن، والانحناء للركوع، والسجود على الأرض، وكثير من الأمور الأخرى لا تُشترَط في النوافل. ولذا فإنّ باستطاعة الإنسان أن يصلّيها في أيّ حال، ولعلّ غالبيّة تلك الركعات الألف التي كان أمير المؤمنين عليه السلام يؤدّيها خلال اليوم والليلة كانت بهذه الكيفيّة. أنا بنفسي شاهدت العديد من العلماء والعظماء يصلّون بهذه الطريقة. وهذه المسألة

كانت أكثر تداولاً في الأزمنة القديمة خصوصاً، بسبب عدم توفّر وسائط النقل الحاليّة آنذاك، فكانوا يقضون فترات وساعات أطول من الآن في تنقّلاتهم، وكان العديد من العلماء والأولياء يستغلّون هذه الفرص لأداء النوافل. فليرحم الله المرحوم العلاّمة الطباطبائيّ ﷺ الذي كنّا نرافقه أحياناً إلى مكانٍ ما لعقد جلسة، وكنت أشاهده أثناء الطريق منشغلاً بأداء النوافل. وكذلك كان المرحوم الشيخ غلام رضا فقيه الخراسانيّ ـ رضوان الله تعالى عليه ـ وكان من علماء مدينتنا «يزد»، حيث كان في أغلب الأوقات يشتغل بالنوافل خلال مسيره من منزله إلى المسجد أو إلى الأماكن الأخرى.

وخلاصة القول، نحن لم نكتشف أهمّية الصلاة وقيمتها، وإلاّ فليس هناك من شيء أو عمل أفضل من الصلاة بإمكانه أن يقرّب العبد إلى ربّه. إنّ الإشكال في صلواتنا هو أنّها ليست صلوات فعلاً، وإنّها لو تحوّلت إلى صلاة حقيقيّة، لرأينا كم سيصبح لها من الآثار والبركات، سواء على حياتنا الدنيويّة، أم على رقيّنا المعنويّ وتكاملنا الروحيّ. نسأل الله العليّ القدير أن يمنّ علينا أجمعين بالتوفيق لأداء مثل تلك الصلوات.

منهاج عمليّ لبناء النفس

ونختتم هذا الفصل بعرض منهاج عمليّ من أجل بناء النفس، وهو يتضمّن بعض الفقرات الإيجابيّة وبعض الفقرات السلبيّة أيضاً.

أهمّ الفقرات والتعاليم الإيجابيّة لهذا المنهاج هي:

١. ممارسة العبادات، وعلى وجه الخصوص الإتيان بالفرائض في أوقاتها، وبحضور قلب، وإخلاص كامل. فقد جاء في صريح القرآن

الكريم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[1].

فلنجتهد في أن نخصّص مقداراً من وقتنا، خلال اليوم والليلة، للتوجّه القلبيّ، ولنهيّئ لذلك زماناً ومكاناً مناسبين؛ فالقرآن الكريم يقول في ذلك: ﴿وَٱذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلآصَالِ وَلاَ تَكُنْ مِنَ ٱلْغَافِلِينَ﴾[2].

ممّا لا شكّ فيه أنّ الإدمان والتكرار اليوميّ هما من العوامل المؤثّرة في تحفيز الميول الفطريّة الإراديّة لدى المرء، حتّى لربّما يقود الأنسُ بلذّة معيّنة المرءَ إلى إغفال لذّات أسمى منها مقدّماً اللذّة التي اعتاد عليها، على الرغم من إقراره بأنّ اللذّات الأخرى هي أفضل وأسمى. وكما أنّه قد يكون للإدمان على مُتَع خاصّة ضرر على الإنسان، فإنّه قد يكون ذا قيمة وسبباً في نجاته أيضاً. إذن فمن المستحسن بمكان أن نعوّد أنفسنا على الأعمال الصالحة، والممارسات الحسنة بحيث لو حِيل بيننا وبين ممارستها، لسبب أو لآخر، فإنّنا سنغتمّ لذلك شاعرين بالخسارة. فعلى سبيل المثال، إذا أنس امرؤ بأداء صلاة الليل، فسوف يتألّم روحيّاً إذا فاتته لليلة واحدة واضطرّ لقضائها، كالذي فقد ثروة ضخمة من بين يديه.

إنّ أسمى وأرفع اللذّات في هذا الميدان هي أنس الفؤاد بالله تعالى، وتذوّق لذّة مناجاته، ومن خلال الاستمرار والتكرار يحصل التوجّه القلبيّ لله عزّ وجلّ، وإنّ المواظبة على ذكره لا تبعث على نشوء لذّة الأنس بالله في قلب الإنسان فحسب، بل وتُوجد حالة عدم الاكتراث بالمتع المادّية في نفسه. كما أنّه لا ينبغي الغفلة هنا عن الاستئناس بالأمور المرتبطة بالله، نظير التشرّف بحجّ

---

١. سورة «المؤمنون»، الآيتان ١ و٢.

٢. سورة الأعراف، الآية ٢٠٥.

بيت الله الحرام، وزيارة العتبات المقدّسة، والاختلاف إلى علماء الدين، فكلّ هذه الأمور هي من دواعي تنامي الأنس بحضرة الحقّ تعالى.

٢. ولا ينبغي نسيان الإنفاق والإيثار. فلا ريب أنّ الإيثار وإنفاق الإنسان ممّا يحبّ وما يحتاج هما من أفضل الوسائل لقطع تعلّقات القلب باللذائذ المادّية، وتطهيره وتصفيته وصيانته من ملوّثات الدنيا؛ فالقرآن الكريم يقول: ﴿**وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ**﴾[1]، ويقول أيضاً: ﴿**لَنْ تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾[2]، وفي موضع آخر يستخدم تعبيراً جديراً بالتأمّل بقوله: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا**﴾[3]؛ فالله سبحانه وتعالى لا يقول: «خذ من أموالهم الزكاة لتطهّر أموالهم، وإذا كان في أموالهم حقّ للفقراء أو لسائر الناس أو مال مغصوب فستُطهَّر منها وتُزكّى الأموال بذلك»، بل إنّه عزّ وجلّ يقول: خذ منهم الزكاة لتطهّرهم بأنفسهم، وتزكّيهم هم. ولعلّ المغزى من هذا البيان هو أنّ التعلّق بالمال والدنيا من شأنه أن يلوّث قلب الإنسان ويُمرِضه، وإنّه بالتصدّق وأداء الزكاة تقلّ درجة التعلّق بالدنيا لدى الإنسان، وتطهر بذلك روح الإنسان فضلاً عن ماله. بالطبع، إنّ هذا التفسير لا يتنافى مع ما ذكروه من وجه التسمية للزكاة وهي أنّها من دواعي تطهير المال، وكلاهما قابلٌ للجمع.

ولا ينبغي أن نغفل عن حقيقة أنّ الصلاة والإنفاق يكمّل كلّ منهما أثر الآخر، ولعلّ هذه هي العلّة التي دعت القرآن الكريم إلى ذكرهما جنباً إلى

---

١. سورة الحشر، الآية ٩.

٢. سورة آل عمران، الآية ٩٢.

٣. سورة التوبة، الآية ١٠٣.

جنب في أغلب الموارد؛ ومن جملة ذلك ما نقرأه في كلام نبيّنا عيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً﴾[١].

٣. ولنخصّص في كلّ يوم جانباً من وقتنا للتفكّر، لنتفكّر في صفات الله، وآياته، وإحسانه، وآلائه، وما هو الهدف من الخلقة. كما ينبغي أن نتأمّل ـ في جملة ما نتأمّل ـ في تشخيص الطريق الصحيح، وبعد المسافة، ومحدوديّة الفُرص والجهد، وكثرة العقبات، وتفاهة الأهداف الدنيويّة، وأنّ ملذّات الدنيا مشوبة بالآلام والمتاعب[٢]. وبشكل عامّ، إنّ على السالك أن يخصّص وقتاً من حياته اليوميّة للتأمّل في الأمور التي تشوّقه إلى طيّ طريق العبوديّة، وتردعه عن حبّ النفس وحبّ الدنيا. ونظراً لأهميّة هذه القضيّة فإنّ القرآن الكريم شدّد عليها في آيات عديدة وبتعابير شتّى، ومن جملة تلك الموارد الآيات الأواخر من سورة آل عمران، والتي تطرح نموذجاً شبه جامع لما ينبغي التفكّر والتأمّل فيه، حيث تقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ

---

١. سورة مريم، الآية ٣١.

٢. يقول الإمام الخمينيّ رحمه الله في هذا الخصوص: إعلم أنّ أوّل شروط مجاهدة النفس والسير باتّجاه الحقّ تعالى هو «التفكّر»، وقد وضعه بعض علماء الأخلاق في بدايات الدرجة الخامسة وهذا التصنيف صحيح أيضاً في محلّه.

و«التفكّر» في هذا المقام هو أن يفكّر الإنسان بعض الوقت في أنّ مولاه الذي خلقه في هذه الدنيا، وهيّأ له كلّ أسباب الدعة والراحة، ووهبه جسماً سليماً وقوى سالمة لكلّ واحدة منها منافع تحيّر ألباب الجميع، ورعاه وهيّأ له كلّ هذه السَّعَة وأسباب النعمة والرحمة. ومن جهة أخرى، أرسل جميع هؤلاء الأنبياء، وأنزل كلّ هذه الكتب (الرسالات)، وأرشد ودعا إلى الهدى.... فما هو واجبنا تجاه هذا المولى مالك الملوك؟! هل إنّ وجود جميع هذه النعم هو فقط لأجل هذه الحياة الحيوانيّة وإشباع الشهوات التي نشترك فيها مع الحيوانات، أم إنّ هناك هدفاً وغاية أخرى؟

هل إنّ للأنبياء الكرام، والأولياء العظام، والحكماء الكبار، وعلماء كلّ أمّة، الذين يدعون الناس إلى حُكم العقل والشرع ويحذّرونهم من الشهوات الحيوانيّة ومن هذه الدنيا البالية، عداءً مع الناس، أم إنّهم كانوا مثلنا لا يعلمون طريق صلاحنا نحن المساكين المنغمسين في الشهوات؟! (كتاب «الأربعون حديثاً»، تعريب السيّد محمّد الغرويّ، ص٢٩).

وَٱخْتِلاَفِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي ٱلأَلْبَابِ * ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ * رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾[1].

٤. إنّ استحضار المفاهيم والأفكار الذهنيّة له أثر حاسم على تصرّفات الإنسان ونهجه العمليّ. من هذا المنطلق، ومن أجل تحسين وتصحيح أسلوب حياتنا وتصرّفاتنا ورؤانا، لابدّ لنا من تنظيم برنامج يوميّ لقراءة القرآن وحفظه مع التدبّر فيه، ومطالعة الروايات والأحاديث الإسلاميّة، والمواعظ والكلمات التي تنطوي على الحكمة، والأحكام الفقهيّة، والتعاليم الأخلاقيّة. إنّ مثل هذا البرنامج من شأنه أن يُذكِّر المرء بأنّ له حاجة وهي طلب الكمال، ويرسّخ في ذهنه حقيقة الهدف، والطريق الصحيح الموصل إليه، وهو ما يمكن كشفه من خلال قراءة القرآن الكريم، ومطالعة روايات المعصومين عليهم السلام، والاطّلاع على كلام العظماء. ونخصّ من بين ما ذُكِر قراءة القرآن والتدبّر فيه فإنّ لهما تأثيراً جوهريّاً في هذا المضمار، وهذا هو سرّ التأكيد الشديد على هذه القضيّة. فالله سبحانه وتعالى يقول في هذا الصدد: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**﴾[2]. ومن هذا الباب أيضاً فقد صدر الأمر لنا بقراءة القرآن ما وسعنا ذلك: ﴿**فَٱقْرَأُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْآنِ**﴾[3]. فإذا حفظ المرء سورة من

---

١. سورة آل عمران، الآيات ١٩٠ـ١٩٤.

٢. سورة القمر، الآية ١٧.

٣. سورة المزّمل، الآية ٢٠.

القرآن، وأودع مفاهيمها في ذهنه، فسوف تتكرّر تلك المفاهيم العالية على ذهنه باستمرار، وتهيمن على فكره بتأثيرها عليه. كما أنّه إذا صافحت أذكارٌ مثل «الله أكبر»، و«لا إله إلاّ الله» وما شابهها ـ التي تحكي عظمة الله تعالى، وقدرته، وإحاطته الوجوديّة، وحمده والثناء عليه ـ مسامعَ الإنسان، وعبق عطرها الفوّاح في قلبه، لارتسم خطّ العبوديّة أمام ناظرَي الإنسان، الأمر الذي سيدفعه لأن يبذل قصارى جهده حتّى يتحرّك ـ على ضوء هذا الخطّ ـ وفقاً لإرادة الله ومشيئته، ويسير فيما يرضيه. وقد جاء في الخبر ـ كما أوردنا سابقاً ـ في أحوال الإمام الباقرعليه السلام أنّه كان دائم الترديد لذكر «لا إلـه إلاّ الله» حتّى عند مخاطبته الناس والاستماع إلى أحاديثهم[1].

أمّا أهمّ الفقرات السلبيّة في منهاج بناء النفس هذا فهي:

١ . إنّ التعلّق بالدنيا والمادّيات من شأنه أن يجعل الإنسان ذليلاً وضعيف الإرادة، ومنقاداً إلى الدنيا، ويسلب منه روح التحرّر وحرّية التفكّر، ولا يفسح له المجال للتدبّر بعواقب الأمور. وعليه، ينبغي لنا الاجتهاد في فكّ قيد التعلّق بالدنيا ومادّياتها عن أنفسنا وأذهاننا، وأن نُنمّي فيها روح الزهد وعدم الاعتناء بالدنيا. فإذا أَنِس الإنسان بالدنيا وملذّاتها، فإنّ إزالة هذا الأنس وقطع هذا التعلّق سيصبح غاية في الصعوبة ممّا لا يوفَّق إليه إلاّ النادر من الناس، ولا ينالون ذلك إلاّ بعد ممارسة رياضات شاقّة، وبذل جهود مضنية. من هنا يتحتّم على الإنسان أن يسعى منذ البدء لأن يسدّ الطريق أمام الاستئناس بالدنيا والولَع بملذّاتها، ويتجنّب الشكليّات ومظاهر الترف، ويعيش حياة متواضعة، وأن لا يتعلّق بما حوله وما لديه من وسائل وإمكانات كي لا ينتابه القلق ويصيبه الغمّ إذا لحقها أيّ مكروه أو خسر شيئاً منها. إنّ الاستمرار

---

١. راجع أصول الكافي، ج٢، كتاب الدعاء، باب ذكر الله عزّ وجلّ كثيراً، ص٤٩٨ـ٤٩٩، الرواية ١.

والمواظبة على هذا النهج تؤدّي بالإنسان ـ شيئاً فشيئاً ـ إلى نيل مقام «الزهد» وعدم الاكتراث بالدنيا، الذي هو من الخصوصيّات المميّزة لأولياء الله، ليكون مؤهّلاً، ببركتها، لنيل الآلاء الإلهيّة الباقية والأبديّة؛ كما نقرأ في طليعة دعاء الندبة: «**اللهمّ لك الحمدُ على ما جرى به قضاؤكَ في أوليائك الذين استخلصتهم لنفسك ودينك إذ اخترتَ لهم جزيل ما عندك من النعيم المُقيم الذي لا زوال له ولا اضمِحلالَ بعد أن شَرطتَ عليهم الزُّهد في درجات هذه الدنيا الدنِيّة وزُخرُفها وزِبرِجِها فشَرَطوا لك ذلك**»[1].

ونقل هنا رواية جديرة بالاهتمام إلى حدّ كبير وهي عن الإمام الباقر عليه السلام:

عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا أراد السفر سلّم على مَن أراد التسليم عليه من أهله ثمّ يكون آخر من يسلّم عليه فاطمة عليها السلام فيكون وجهُه إلى سفره من بيتها، وإذا رجع بدأ بها. فسافر مرّةً وقد أصاب عليّ عليه السلام شيئاً من الغنيمة** [في إحدى الحروب] **فدفعه إلى فاطمة عليها السلام فخرج. فأخذتْ** [بثمن الغنيمة بعد بيعها] **سِوارَين من فضّة وعلّقتْ على بابها ستراً. فلمّا قدم رسول الله صلى الله عليه وآله دخل المسجد فتوجّه نحو بيت فاطمة كما كان يصنع، فقامتْ فرِحةً إلى أبيها صُبابةً وشوقاً إليه، فنظر فإذا في يدها سواران من فضّة وإذا على بابها سِتر، فقَعَد رسول الله صلى الله عليه وآله حيثُ ينظُر إليها** [ولم يبق في بيتها كثيراً وخرج من فوره إلى المسجد]. **فبكتْ فاطمة وحَزِنت وقالت: «ما صنع هذا بي قبلها». فدَعَتِ ابنيها فنزعتِ الستر من بابها وخلعتِ السوارين من يديها ثمّ دفعتِ السوارين إلى أحدهما والستر إلى الآخر ثمّ قالت لهما: «انطلقا إلى أبي فأقرآه السلام وقولا له: ما أحدَثْنا بعدك غير هذا فشأنَكَ به». فجاءاه فأبلغاه ذلك عن أمّهما، فقبّلهما رسول الله صلى الله عليه وآله والتزمهما وأقعد كلّ واحد منهما على**

---

١. مفاتيح الجنان، دعاء الندبة.

فَخِذه، ثمّ أمر بذَينِك السوارين فكُسِرا فجعلهما قطعاً، ثمّ دعا أهل الصُفَّة، وهم قوم من المهاجرين لم يكن لهم منازل ولا أموال، فقسّمه بينهم قطعاً، ثمّ جعل يدعو الرجل منهم العاري الذي لا يستَتِر بشيءٍ، وكان ذلك الستر طويلاً ليس له عرض، فجعل يُؤَزِّر الرجل ...»[1].

نلاحظ كيف أنّ النبيّ ﷺ وأهل بيته عليهم السلام كانوا ينأون بأنفسهم عن أيّ شكل من أشكال التعلّقات المادّية والدنيويّة. إنّ ساحة العترة الطاهرة منزّهة، طبعاً، عن تلك التعلّقات، وإنّ هذه الرواية ونظائرها هي في الواقع بمثابة الدروس لنا، نحن أتباعَ ومحبّي أهل البيت عليهم السلام، لنعرف كيف نتعامل مع الشكليّات والزخارف الدنيويّة والمادّية.

٢. والنقطة الثانية هي أنّه ينبغي لنا أن لا نتمادى في التمتّع باللذائذ المادّية كي لا يؤدّي ذلك إلى الأُنس باللذّات الحيوانيّة وتوجّه النفس لها. فعلينا أن نجهد من أجل أن نُحكِم سيطرتنا على كافّة أعضائنا وجوارحنا، لاسيّما بطوننا؛ ذلك أنّه إذا لم يكن للإنسان برنامج لتنظيم وتحديد الانتفاع باللذّات الحيوانيّة، والطعام، والشراب ـ كمّاً وكيفاً ـ فهو لن يتمكّن من إحكام الهيمنة اللازمة على نفسه وإرادته. وعلى سبيل المثال، إذا لم يكن الإنسان مقيَّداً فيما يأكل، فإنّ ضعف الإرادة هذا في مجال الأكل سوف يسري إلى سائر الأعمال والبرامج اليوميّة على هيئة عادة مذمومة أو نهج خاطئ، ممّا يقود في النهاية إلى عدم قدرة الإنسان على اتّخاذ القرار المناسب، وإبداء الإرادة اللازمة تجاه المغريات المادّية والشهوانيّة.

بالطبع لابدّ أن تؤَسَّس منهجيّتنا في هذا الميدان على الاعتدال. فكما أنّ التمادي والإفراط في التمتّع باللذّات الدنيويّة يؤدّي إلى طغيان النفس

---

١. بحار الأنوار، ج٤٣، الباب ٤، ص٨٣ الرواية ٦.

وتمرّدها، وتسلّط الأهواء النفسانيّة، والشهوات الحيوانيّة، فإنّ التفريط في الإفادة من النعم الإلهيّة ـ في المقابل ـ يوجب الضعف والتكاسل عن أداء التكاليف. وبناءً عليه، فلابدّ من انتهاج الاعتدال والوسطيّة، واجتناب الإفراط والتفريط في جميع الأمور، بدءاً من العبادة والمطالعة والنوم ووصولاً إلى التمتّع بسائر اللذّات الحيوانيّة. لكنّ المهمّ في هذا السبيل هو أن نسعى لأن يكون الداعي من وراء انتفاعنا بالنعم واللذّات الدنيويّة هو تهيئة مقدّمات السير، أي المحافظة على سلامة البدن، والتزوّد بالقوّة والنشاط من أجل الاشتغال بعبادة الله عزّ وجلّ وشكره. وفيما يخصّ عدم التمادي والإنغماس في اللذّات المادّية، أو المقارنة مع أفعال أخرى من نفس السنخ، فإنّ للصيام، وعدم الامتلاء من الطعام، وقلّة الكلام والنوم ـ مع المحافظة على شرط الاعتدال والسلامة ـ دوراً جوهريّاً في التوفيق للسير إلى الله، وإضعاف درجة الأنس بالمُتَع الحيوانيّة.

٣. يتعيّن علينا السيطرة على قوانا الحسّية والخياليّة التي يمكن أن تكون ـ جرّاء التداعي ـ منشأً للدافع إلى النزعات والميول الحيوانيّة؛ ويجب علينا ـ خاصّة ـ حفظ العين من مشاهدة المناظر المهيّجة، والأذن من سماع الكلام الباطل والأصوات اللهويّة؛ وبشكل عامّ أن نمتنع عن كلّ ما يجلب انتباهنا وتوجّهنا لما لا يرضي الله. وقد وردت في القرآن الكريم آيات عديدة حول هذا الموضوع وهي تدعونا لمثل هذه السيطرة، وتُلفِت أنظارنا لهذا التنظيم؛ نذكر من جملة ذلك ما جاء في سورة الإسراء من قوله عزّ من قائل: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[١].

٤. من المخاطر التي تهدّد المرء باستمرار هي الانحرافات الفكريّة

١. سورة الإسراء، الآية ٣٦.

والعقائديّة. لذا يجب علينا الحذر من هذا الأمر، وتجنيب أنفسنا العثرات الفكريّة والنظريّة؛ وخصوصاً الحذر ـ في هذا المضمار ـ من المطالعة والبحث حول الشبهات التي لا نمتلك الإجابة عليها. فعلينا توخّي الحذر الشديد إذا ما طرأت في أذهاننا، أو طرقت أسماعنا من أمثال هذه الشبهات، إذ لابدّ حينَها من المبادرة فوراً لإيجاد أجوبة مقنعة لنا. يقول القرآن الكريم في هذا الخصوص: **﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ ٱللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللهَ جَامِعُ ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً﴾**[١]. وورد في الخبر في هذا الباب أيضاً: «**من أصغَى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق عن الله عزّ وجلّ فقد عبد الله، وإن كان الناطق عن إبليس فقد عبد إبليس**»[٢].

وفي الختام نودّ التأكيد على أنّه من أجل تنظيم وتنفيذ المنهاج العمليّ لبناء النفس فلا ينبغي إغفال الأصل القائل بالتدرّج والاعتدال. فيجب أن لا نحمّل أنفسنا، إطلاقاً، ما لا نطيق وما لا نتحمّل من الضغوط، لأنّ هذا العمل سوف لن يتسبّب في عصيان النفس وتمرّدها فحسب، بل من الممكن أن تكون له عواقب وخيمة عصيّة على الإصلاح في مجالات البدن والروح والنفس. من هذا المنطلق، فإنّه من المناسب بمكان أن تتمّ استشارة شخص مطّلع ومحلّ ثقة في مسألة تطبيق هذا المنهاج. أمّا، من ناحية أخرى، فلا ينبغي ـ بالطبع ـ التهاون في تنفيذ البرامج المعدّة بدقّة، والبحث عن الأعذار والذرائع لتركها وعدم العمل بها، إذ أنّ الآثار المترتّبة على مثل تلك البرامج

---

١. سورة النساء، الآية ١٤٠.

٢. بحار الأنوار، ج٢٦، الباب ٤، ص٢٣٩، الرواية ١.

لا تكون إلاّ في الاستمرار والمواظبة عليها[١]. على أيّ حال، لا يغيبنّ عن

---

١. نرى من المناسب هنا أن نزيّن كلامنا بإرشادات العارف الكامل، سماحة آية الله الشيخ محمّد البهاريّ الهمدانيّ. يقول هذا العظيم في إحدى كتاباته ما يلي:

ينبغي لجناب الشيخ أحمد أن يتأمّل بدقّة، وينظر إن كان عبداً أم حرّاً؟ فإن رأى أنّه حرّ، فهو يدري أنّه ما عليه إلاّ أن يصنع ما يحلوا له. وإن رأى أنّه عبد، فإنّ له مولىً، وهو ليس عتيقاً ليفعل ما يشاء، بل هو مسؤول حتّى عن تحريك يده، وعليه أن يختار جواباً مناسباً لذلك. إذن فلابدّ أن يكون جهده في تحصيل رضى مولاه، وإن لم يرض الآخرون على عمله أبداً. وهو لن ينال رضى المولى الحقيقيّ ـ جلّ شأنه ـ إلاّ بنيل التقوى.

إنّه لن يحصل الغرض الأصليّ من الخلقة إلاّ أن تسود المعرفة والمحبّة بين العبد ومولاه، وإنّ تحصيل التقوى يحتاج لعدّة أمور لا مفرّ منها:

أوّلها: اجتناب المعاصي. فيتعيّن على العبد أن يعرف المعاصي مفصّلاً، وأن يترك كلاً منها في مقامه، وإحدى تلك المعاصي هي ترك الفرائض. إذن يجب عليه أن يتعلّم فرائضه أيضاً على قدر وسعه وابتلائه بها، وأن يؤدّيها. ومن الواضح أنّ المعصية لن توجد أسباب المعرفة والمحبّة، هذا إذا لم تكن سبباً للعداوة.

فإذا قال الشيخ أحمد: ليس بمقدوري ترك المعصية بالمرّة، وإنّني واقع فيها حتماً. فالجواب: إنّ بمقدورك أن تتوب بعد المعصية، و«**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**». إذن فلا ينبغي اليأس من طرق باب الدار هذا حتّى وإن قطع المرء رأس سبعين نبيّاً فإنّه من الممكن أن تُقبَل توبته. فإنّ مولاه لقادر على إرضاء خصومه من معدن جوده، جلّت قدرته.

وثانيها: التورّع عن المكروهات، والإتيان بالمستحبّات مهما أمكن. فلا يستحقرنّ المكروه بقوله: كلّ مكروه جائز، فلعلّ ترك مكروه واحد أو فعل مستحبّ صغير يكون مقرّباً لمولاه أكثر من أيّ شيء آخر. وهذا سوف يحصل بالتأمّل في العرفيّات.

وثالثها: ترك المباحات إلاّ بمقدار الضرورة واللزوم. فعلى الرغم من أنّ الشارع المقدّس أباح الكثير من الأمور للأغنياء، لكنّ بما أنّه، في الباطن، لا يرغب أن ينشغل عبده بغيره من أمور الدنيا، فمن الحسن ـ نظراً لرغبة المولى ـ أن يترك العبد تمام تلك الزخارف الدنيويّة أو بعضها، وإن لم يكن ارتكابها محرّماً، اقتداءً بالنبيّين وتأسّياً بالأئمّة الطاهرين عليهم السلام.

ورابعها: أن يترك ما سوى الله، وأن لا يأذن لغيره بالدخول إلى قلبه؛ كما قال الخواجة:

نيست در لوح دلم جز الف قامت يار   چه كنم حرف دگر ياد ندادم استاد

(أي: ماذا أصنع وليس في لوح قلبي إلاّ «ألِف» قامةِ الحبيب، فأستاذي لم يعلّمني حرفاً آخر).

فإذا قال جناب الشيخ أحمد: أنّى للإنسان ترك ما سوى الله، وأن لا يكون في قلبه غير ذكره، مع كلّ هذه الابتلاءات من المعاش، والزوج، والأولاد، والرفيق، والصديق؟ فهذا الفرض بعيد بحسب المتعارف وغير قابل للتحقّق. نقول: إنّ من يتحتّم عليك ترك مجالسته هو كلّ شخص يلهيك عن ذكره جلّ شأنه، فلا ينبغي أن تفوق معاشرتك مع مثل هذا الشخص حدّ الضرورة ←

والواجب. أمّا الذي يُذكِّرك بالله، فليس من الصواب ترك مجالسته، فقد قال نبيّنا عيسى ـ على نبيّنا وآله وعليه السلام ـ : «**جالسوا مَن تُذكِّركم الله رؤيتُه**».

الحاصل، إذا كان طالب الله صادقاً فإنّ عليه ـ شيئاً فشيئاً ـ أن يُقَطِّع حبائل أنسه بكلّ ما سوى الله، ويكون دائم الذكر له سبحانه، اللهمّ إلاّ الأشخاص الذين يعينونه في هذا الأمر على مطلوبه، وبمقدار ما تستلزم الإعانة فقط. إذن فأن يكون المرء مع هؤلاء لا يتنافى مع الكون في ذكر الله، وإنّ محبّة هؤلاء الأشخاص هي شعاع من نور محبّة الله جلّ شأنه، ولا تنافي بينها وبين محبّة الله.

فإن قال الشيخ: كلّ ما تقوله حقّ، ولكن أنّى لي أن أقوم بذلك وحالي هذه؟! فشياطين الإنس والجنّ محيطة بي من كلّ حدب وصوب، فهم يوسوسون لي ويقفون عقبة أمامي باستمرار، ولا أستطيع التخلّص منهم بالمرّة. وإذا أردنا الانعزال فإنّ أمر معاشنا سوف يختلّ فنحن لا نستطيع التركيز على أنفسنا بحيث ننشغل بأعمالنا ولا نتدخّل بحياة الآخرين. فأين نحن وهذا الكلام؟!

نقول في جوابه: إذا كانت المسألة آنيّة، فالأمر كما تقول، بل وأكبر من ذلك؛ فإنّه يبدو للإنسان في الوهلة الأولى كالجبال، وليس هو بصغير. لكنّ الإشكال هو أنّهم لم يكلّفونا تكليفاً شاقّاً، بل تؤخذ الأمور بالتدريج. لهذا فإن سارت الأمور بشكل تدريجيّ فهذا كاف، فما من أحد تمكّن من الإمساك بالباز والصقر وغيرها من طيور الصيد إلاّ بعد ترويضها بالتدريج.

خلاصة القول: إنّك في أيّ مرتبة كنت، إذا لم تتسامح بالعمل بالمقدار الذي يمكنك الإتيان به بيسر وسهولة حتّى بما بقي لديك من نصف رمق، فإنّه ستضاف إلى قوّتك بهذا المقدار، بل وأزيد من ذلك؛ فهو سبحانه يقول: «**من تقرّب إليّ شبراً تقرّبتُ إليه ذراعاً**». وإن تسامحت في الأمر فسوف يتعرّض نفس المقدار من قوّتك إلى الزوال. فمثلاً، إذا أويت إلى الفراش ليلاً بنيّة الإفاقة [قبل الفجر] فلم تفق، فلماذا لا تقوم الآن ما دام الصبح في أوّله، فالبقاء مستيقظاً بين الطلوعين هو بحدّ ذاته فيض وتوفيق من جانب حضرة الإله جلّ جلاله، فلا تفوّت هذه الفرصة على نفسك بالمسامحة والتهاون ولا تصغينّ إلى الشيطان الذي يقول لك: «إنّ وقت صلاة الصبح طويل. نَمْ هُنَيهة»، فإنّ غرضه من هذا القول معلوم. كذلك إذا جلست في مجلس وأكثرت من اللغو والبطالة حتّى اسودّ فؤادك، فيمكنك النهوض قبل نصف ساعة ومغادرة المكان بالتدبير والحيلة. إذن، لا تضيّع هذه الفرصة الممتدّة لنصف ساعة من يدك. قُمْ واخرج، ولا تقل: ما الفائدة؟ منذ الصباح وأنا مشتغل بالباطل. فلا زال باستطاعتك التقدّم في كثير من الأمور ـ إن شاء الله تعالى ـ حتّى مع هذه المسائل الجزئيّة.

إذن، فعلى الشيخ أحمد العمل بما أكتبه بالترتيب التالي:

أوّلاً: يجب عليه أن لا يهدر أيّ مقدار من الوقت مهما كان عمله الذي يقوم به، وأن لا يدع قسماً من وقته مهمَلاً فيضيع من يده. لذا عليه أن يقسّم أوقاته بتعيين وقت خاصّ لكلّ شيء؛ فيحدّد وقتاً للعبادة فلا ينشغل أثناءه بأيّ عمل آخر سوى العبادة، ووقتاً لكسب رزقه ومعاشه، ووقتاً لقضاء شؤون أهله وعياله، ووقتاً للأكل والنوم، وأن لا يغيّر في ترتيب هذا الجدول، فيذهب كلّ وقته هدراً.

فليجعل ـ مهما أمكن ـ أوّل الليل وقت إيوائه إلى الفراش، وأن لا يظلّ مستيقظاً عبثاً بحيث يفوته آخر الليل بغلبة النوم عليه، وأن ينام على طهارة، ويقرأ المأثور من الأدعية؛ لاسيّما تسبيح الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء، وأن لا يأتي زوجه على شبع إطلاقاً، وأن يستيقظ قبل الفجر، وإذا استيقظ فليسجد لله شكراً، وإن كان لا يستيقظ من نفسه، فليهيّئ أسباب استيقاظه، فإذا أفاق من نومه

بالنا أنّ توكُّلَنا واعتمادنا في هذا السبيل لابدّ أن يكون على الله تعالى، وأن نطلب منه هو التسديد والموفقيّة في هذا المسير.

فليرمق أطراف السماء بنظرة، وليقرأ بتأمّل الآيات المباركة التي مطلعها: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ** ...﴾ إلى ﴿... **إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ المِيعَادَ**﴾، ثمّ يتطهّر ويتوضّأ، ويستاك، ويتعطّر، ويَجلس على سجّادته ويقرأ دعاء: «**إلهي غارت نجوم سمائك** ...»، ثمّ ليبدأ بصلاة الليل بالترتيب الذي ذكره الفقهاء ـ رضوان الله عليهم ـ كالشيخ البهائيّ في «مفتاح الفلاح»، والآخرين في «المصابيح»، وغيرها، وأن يلاحظ التفصيل أو الاختصار في العمل بمقدار ما لديه من وقت.

الحاصل، فليجعل هذا الوقت حتّى طلوع الشمس وقت عبادة ولا يفعلنّ فيه أيّ عمل آخر غير العبادة، وليشغل نفسه أثناءه بترديد الأذكار والأوراد المشروعة، هذا إذا لم يَصِر بعد من أهل الفكر، وأمّا إذا صادف مروره من ساحة الفكر، فليتبنّ ـ أثناء هذه الساعات ـ أيّ فرع من فروع الفكر، فإن رأى أنّ أفكاره تتدفّق بسهولة، فليتّخذ جانب الفكر عوضاً عن الأوراد والتعقيبات، أمّا إذا أحسّ بأنّ الفكر جامد، فليتركه إلى الذكر، وليختر من بين الأعمال ما يؤثّر فيه أكثر من غيره فليقدّمه على جميع الأعمال سواء كان قراءة القرآن، أو المناجاة، أو الدعاء، أو الذكر، أو الصلاة، أو السجود.

ثمّ لينظر في شؤون المنزل بعد ذلك وليجالس عياله وأهل داره بمقدار الضرورة. ثمّ ليذهب إلى السوق، ولا يتكلمنّ [في الطريق] مع من يراه بغير السلام، وليشتغل بذكره حتّى يرد السوق. وهناك ذكر خاصّ ورد في دخول السوق، فعليه الاهتمام به. ثمّ ليفتح متجره وليشرع في عمله ذاكراً. وتلاوة الأذكار في السوق لها ثواب وافر، فالشخص الذاكر في السوق هو بمنزلة المصباح في بيت مظلم. ولا يتدخلنّ في الأمور الدنيويّة للخلق عبثاً، ولا يجمعنّ الناس حوله، بل ولا يعظنّهم؛ اللهمّ إلاّ إذا رأى منكراً من أحد فليرفعه بطريقته إن استطاع، لكن إذا رأى أنّه لن يكون مؤثّراً، أو أنّه إذا نصح تمادى المقابل في المنكر، فلا يتدخلنّ في الأمر. وعليه مراعاة أوقات الصلاة، وأن يكون على طهارة مهما أمكن.

ولا يتركنّ، بعد صلاة الصبح، ذكر الاستغفار ١٠٠ مرّة، و«لا إله إلاّ الله» ١٠٠ مرّة، وسورة التوحيد ١١ مرّة، و«اللهمّ صلّ على محمّد وآل محمّد وعجّل فرجهم» ١٠٠ مرّة، وليقرأ الاستغفارات الخاصّة بعد صلاة العصر، مع سورة القدر ١٠ مرات. ولا يتركنّ الصيام قدر الإمكان، لاسيّما الأيام الثلاثة من كلّ شهر: وهي الخميس الأوّل والآخر والأربعاء الأوسط من كلّ شهر، هذا إذا كان مزاجه مواتياً، وإلاّ فمرعاة المزاج أولى؛ وذلك لأنّ البدن هو دابّة الإنسان، فإن تعرّض للأذى، فلن يقوى على المسير، كما لا ينبغي مطاوعته في كلّ ما يهوى حتّى يطغى ويتمرّد على طاعة صاحبه، لأنّ «**خير الأمور أوسطها**» جارية في كلّ شيء، فلا الافراط صحيح ولا التفريط في أيّ مرتبة كان المرء؛ وهذا هو تفسير قولهم: «**عليك بالحسنة بين السيّئتين**». ويستحسن أن يسجد سجدة طويلة في أيّ وقت من الليل إن استطاع ذلك، حتّى يتعب بدنه، وليكن ذكره المبارك فيها هو «**سبحان ربّي الأعلى وبحمده**»، وأن يكون ذكره مصحوباً بحضور القلب مهما أمكن، ولا ينبغي أن يكون قلبه منشغلاً في مكان آخر، وليداوم على العمل حتّى يصير ملَكة وعادة له فلا يتركه.

ولا يسع المقام لذكر شيء آخر، فهذه بضع كلمات كُتِبت على سبيل الاختصار، فإن استلزم الأمر، كتبنا فيما بعد أموراً أخرى، إن شاء الله. (عن كتاب «تذكرة المتّقين»، (بالفارسيّة)، ص٨٧ـ٩٦).

الفصل الخامس

البحث في بضع مسائل

المراد من «الكشف» و«الكرامة»

من المباحث التي امتزجت في ثقافتنا مع العرفان، والتي يتحدّث عنها الدجّالون من مُدّعي العرفان على وجه الخصوص، هي مسألة «الكشف» و«الكرامة». فلعلّ جميعنا قد طرق سمعه بين الفينة والأُخرى أنّ فلاناً من الناس هو من أصحاب الكشف والكرامات. فنحن نعرف الكثير من العظماء وأولياء الله ممّن كان لهم مثل هذه المقامات، بل إنّ بعضهم قد اشتهر حتّى في أثناء حياته بالكشف والكرامة، وكان الناس يُكِنّون لهم مودّة واحتراماً خاصّين.

على أيّ حال، فالكشف والكرامة من التعبيرات الشائعة والرائجة جدّاً في العرفان الإسلاميّ، وقد ادُّعِي أنّ عدداً من الأشخاص، لاسيّما رؤساء الفرق المنحرفة، كان لهم من أمثال هذه المنازل. وقبل الولوج في أيّ بحث بخصوص الكشف والكرامة نرى من الضروريّ عرض شرح موجز حول هذين المصطلحين كي يتّضح مفهومهما بشكل دقيق.

أوّلاً، لابدّ أن نعلم أنّ مفردتي «الكشف» و«الكرامة» هما ليستا

مترادفتين ومتماثلتين في المعنى، بل هما مختلفتان في الماهيّة والدلالة. فـ«الكشف» (أو المكاشفة) هو عبارة عن مشاهدة المرء لأشياء لا يراها الآخرون مع كونه في حالة اليقظة أو في حالة وسطيّة بين النوم واليقظة تدعى «الخُلسة». ففي المكاشفة قد تطرأ على الإنسان حالة هي أشبه ما تكون بالمنام لكنّها ليست مناماً طبعاً، وفي حالات كثيرة تكون عين الإنسان مفتوحة بالكامل، وهو يشاهد بعض المشاهدات، بالضبط كما يرى النائم أموراً في منامه. بل قد يسمع الإنسان في حال المكاشفة صوتاً، أو يرى شخصاً وهو يقوم بعمل، أو يشاهد حادثة تقع.

أمّا المقصود بـ«الكرامة» فهو تمتُّع المرء بقدرة روحيّة بحيث تصدر منه، بواسطتها، أعمال خارقة للعادة، وتمكّنه من القيام ببعض التصرّفات في عالم الوجود. فعلى سبيل المثال، يكون باستطاعته طيّ الأرض (أي قطع مسافة طويلة في زمن قصير جدّاً)، أو شفاء مريض، أو نقل شيء من مكان إلى آخر من دون الاستعانة بالأسباب الظاهريّة. فإن كانت تلك الأعمال منسوبة إلى الإذن الإلهيّ، وتدلّ على الارتباط بالله تعالى فهي تسمّى «كرامات». والمرتبة الأعلى من ذلك، والتي هي من مختصّات الأنبياء والأولياء والأئمّة الأطهار عليهم السلام، الذين يقومون بها من أجل إثبات دعوى نبوّتهم أو إمامتهم، فتدعى بـ«المعجزة». وهذه هي من أهمّ الفوارق بين المعجزة والكرامة فبينما يُصنّف كلّ من المعجزة والكرامة في حقل الأمور الخارقة للعادة، وأنّ كلتيهما تدلّ على ارتباط صاحبهما بالله تعالى لكنّه ليس لصاحب الكرامة أيّ ادّعاء على مستوى النبوّة أو الإمامة، بينما تأتي المعجزة أساساً لإثبات صدق دعوى صاحبها بنبوّته أو إمامته.

هل الكشف والكرامة حقيقة، أم أسطورة ووهم؟

إنّ من جملة المسائل التي يروّج لها مدّعُوا العرفان والمقامات الإنسانيّة العاليـة، ويتّخذونها ذريعة ووسيلة للتبليغ لفرقتهم ومسلكهم وطريقتهم هو ادّعاؤهم بأنّ رئيسهم ـ أو كما يصطلحون عليه: الشيخ أو القطب ـ هـو مـن أصـحاب الكرامات والمكاشفات. وبعبارة أُخرى، فإنّه ـ بشكل أو بآخر ـ يسود الاعتقاد القائل: بأنّ الكشف والكرامة هما دليل على حقّانيّة مدّعيهما، وأنّ حصول مثل تلك الأمور لامرئ هو إشعار بأنّه على حقّ، وأنّ طريقته ومسلكه صحيحان.

ومن أجل مناقشة هذا الادّعاء فلننظر أوّلاً: هل إنّ الكشف والكرامة هما حقيقة أساساً؟ وثانياً: إذا كانا حقيقة فهل هما دليل وأمارة على أنّ صاحبهما هو من أولياء الله، أو أنّه مشمول برعايته جلّ شأنه، أو مرضيّ عنده؟ وبتعبير آخر، هل إنّ مجرّد صدور فعل خارق للعادة من شخص يعدّ دليلاً على أنّه من أولياء الله تعالى، وأنّ الله ينظر إليه نظرة خاصّة، ويرعاه بلطف مميّز؟ وثالثاً وأخيراً: إذا تمتّع شخص، واقعاً، بالمكاشفات والكرامات الإلهيّة، وتولدّت لديه ـ جرّاء ألطاف الله وعناياته الخاصّة ـ القدرة على القيام بـأعمال خارقـة للعـادة، فهـل ينهض بذلك الدليل على أنّ كلّ ما يقوله وما يعتقده هو صحيح وعلينا القبول بما يقول ونحـن مغمـضون عيوننـا، مغلقـون آذاننـا، خافـضون جناحنـا لـه بالكامل؟ هذه هي مـن أهـمّ التـساؤلات التـي تُطـرح بخـصوص الكـشف والكرامة، وإنّه ما لم تتمّ الإجابة على كلّ منها بشكل واضح وجليّ فلن تُقطَع الطريق على أنماط الاستغلال السيّء لهذه الظاهرة.

حقيقة الكشف والكرامة

بالنسبة لأصل مسألة «الكشف» و«المكاشفة» فينبغي القول بأنّها قضيّة واقعيّة

طبعاً، وأنّه يوجد بعض الأشخاص ممّن يستطيعون ـ حقيقةً، وفي حالات معيّنة ـ إدراك أمور، أو مشاهدة أشياء، أو سماع أصوات ممّا يعجز الآخرون عن إدراكها ومشاهدتها وسماعها. إنّ أصل هذا الموضوع ثابت بالتجربة وهو أنّ هناك أُناساً لهم قدرات ذهنيّة وروحيّة خارقة للعادة، ومشاهدات وإدراكات تتعدّى الحدّ المتعارف والطبيعيّ ممّا لا يجد الآخرون إليه سبيلاً.

بالطبع إنّ لهذه الإدراكات أشكالاً مختلفة. فقسم منها، والذي تمّ التعرّف عليه، هو ما يدعى في علم النفس بالـ «telepathy» أو «التخاطُر» وفيه أنّ الشخص ـ من باب المثال ـ يخطر في ذهنه، وهو جالس في مكانه، أنّ زيداً من الناس في المكان الفلانيّ قد قام بالعمل الكذائيّ، أو أنّه مرض، أو فارق الحياة، ثم يُعلَم فيما بعد أنّ هذا الأمر قد وقع فعلاً. أو أن يخطر في ذهن المرء ـ مثلاً ـ أنّ شخصاً ما في المدينة الفلانيّة يتكلّم معه، ثمّ يتبيّن بعدها أنّه اتّفق كون ذلك الشخص قد توجّه ذهنيّاً إليه في نفس تلك اللحظة وأراد أن يطلعه على هذا الأمر إلاّ أنّ المسافة والبعد المكانيّ منعاه من القيام بذلك. مهما كان، فهذا هو نمط من الارتباط الروحيّ الذي يحصل بين شخصين، وهو من سنخ تلك الإدراكات الخارقة للعادة، ويسمّيه علماء النفس بالتخاطر. من الواضح هنا أنّ حصول مثل هذه الإدراكات ليس دليلاً على الكمالات المعنويّة للفرد وكونه مقرّباً من الباري تعالى، ولا يمكن اتّخاذ مثل تلك الإداركات شاهداً على كون المتمتّع بها هو من أولياء الله، وأنّ له مقاماً ومنزلة عند الله عزّ وجلّ، فهي قد تحصل لمن ليس له أدنى اعتقاد بالله جلّ شأنه. بطبيعة الحال، إنّ العلم البشريّ لم يتوصّل لحدّ الآن إلى ماهيّة وأسباب وأسرار هذا الارتباط، ونحن لا نعلم شيئاً عن العامل أو العوامل الدخيلة في حدوث هذه الظاهرة.

وبعيداً عن التخاطر، فهناك أشخاص يختلفون عن غيرهم حتّى في حواسّهم الظاهريّة. فمثلاً، لا يستطيع البشر العاديّ إلاّ سماع الأصوات التي تتراوح تردّداتها بين ٢٠ـ ٣٠٠٠٠ هرتز، وهم عاجزون عن إدراك الأصوات التي يكون تردّدها أعلى أو أوطأ من المدى المذكور. لكن هناك أشخاصاً يستطيعون سماع أصوات يكون تردّدها خارج هذا النطاق، كما أنّ الكثير من أنواع الحيوانات لها جهاز سمع أكثر تكاملاً ونطاق تردّد أوسع مما لدى الإنسان. وهذا الأمر يصدُق أيضاً مع حاسّة البصر، ففي الوقت الذي لا يستطيع فيه الأشخاص العاديّون رؤية الأشعّة الفوق البنفسجيّة والتحت الحمراء، نجد أنّ البعض قادر على مشاهدة بعض الأشعّة التي تكون ضمن الأطوال الموجيّة المذكورة. وهذا الاستثناء والحالات النادرة تلاحَظ، إلى حدّ ما، في سائر الحواسّ الظاهريّة الأخرى. وفي جميع الأحوال فإنّ وجود مثل هذه القدرة الجسمانيّة أو الروحيّة الخارقة، لا يُعدّ دليلاً أو شاهداً على كمال الإنسان وفضيلته على الصعيد المعنويّ، وقربه إلى الله سبحانه وتعالى.

وفي هذا السياق أتذكّر أنّني قرأت في كتاب تحت عنوان «ما وراء الطبيعة» أموراً تسترعي الانتباه إلى حدّ كبير عن سيّدة روسيّة يظهر أنّها ماركسيّة. يقول هذا الكتاب إنّ لهذه المرأة الروسيّة ـ التي تشتغل بالسياقة ـ قوّة بصريّة تستطيع بواسطتها مشاهدة ما في داخل أبدان الناس، والنظر إلى أحشائهم وأمعائهم وأعضائهم الداخليّة بكلّ وضوح. وقد ذكر الكتاب أنّ أشخاصاً كثيرين اكتشفوا ما يعانون من أمراض وإشكالات في أحشائهم وأجهزتهم الداخليّة عن طريق هذه المرأة. وبعبارة أخرى، فعوضاً عن مراجعة مختبر للتحليلات المرضيّة أو أخذ صورة أشعّة للجسم، كان بإمكان الشخص مراجعة هذه السيّدة لتنظر إلى داخل بدنه وتقول له مثلاً: إنّ هناك ورماً في

ذلك الجزء من معدتك أو أمعائك. وبحسب هذا الكتاب، فإنّ صور الأشعّة أحياناً تعجز عن كشف بعض الأمور التي تكشفها هذه السيّدة بعينها الثاقبة وقدرتها البصريّة الخارقة! مع العلم أنّ هذه المرأة لا تدّعي أيّ ارتباط بعالم الغيب، وما وراء المادّة وما شابه، بل هي أساساً ماركسيّة المذهب، ومنكرةٌ لأمثال تلك المعتقدات. كلّ ما هنالك أنّها، بسبب خاصّية في عينها أو جهازها العصبيّ أو لأيّ أمر آخر، تتمتّع بقدرة بصريّة خارقة للعادة واستثنائيّة حُرِم منها الآخرون.

على أيّ حال، فإنّ حصول مثل هذه الإدراكات الاستثنائيّة والخارقة لبعض الأشخاص هو أمر واقع تحت تأثير العوامل الطبيعيّة تماماً وليس له أيّ ارتباط بالكمالات المعنويّة للمرء ومنزلته عند الله. إنّ امتلاك هذا النوع من القابليّات ووجود هذا التباين بين الأشخاص هو شبيه بتمتّع بعض الناس ـ مثلاً ـ بقوّة بصريّة جيّدة بشكل طبيعيّ بينما يشكو البعض الآخر من ضعف ولاديّ في البصر ممّا يضطرّهم إلى استعمال النظّارات الطبّيّة. فهل في تمتّع البعض بقوّة بصريّة طبيعيّة ومعاناة الآخرين من النقص الولاديّ في البصر دلالة على كون أفراد المجموعة الأولى أكثر قرباً إلى الله، وأنّ لهم من الفضائل المعنويّة والكمالات الإنسانيّة ما ليس لأفراد المجموعة الثانية؟

وبقطع النظر عن القدرات الخارقة التي يمتلكها بعض الأشخاص بشكل طبيعيّ وولاديّ، فإنّ هناك من يحصل على بعض القدرات الجسميّة والروحيّة عن طريق تجشّم الرياضات وممارسة التمارين المختلفة، الأمر الذي يمنحهم القدرة على القيام بأعمال خارقة للعادة أو إدراك أو مشاهدة أمور خارج النطاق المتعارف والطبيعيّ. وهذا النوع من القابليّات وتنفيذ الأعمال الخارقة هو أيضاً مشترك بين الحقّ والباطل ولا دليل فيه على حقّانيّة شخص،

أو صحّة مسلكه وطريقته، وإنّ العديد من المرتاضين الهنود، ممّن لا يعتقدون بدين، أو إله، أو قيامة، هم من هذا القبيل. بالطبع إنّ المرتاضين من الهنود يؤمنون ـ إلى حدّ ما ـ ببقاء الروح، إلاّ أنّه ليس عندهم ما عندنا من الاعتقاد بالله من أنّه خالق الكون ومدبّره، وأنّه منزّه عن الجسم والجسمانيّة، وهم ينكرون الوحي والنبوّة بالكامل. كلّ ما هنالك فإنّه على خلفيّة إيمانهم ببقاء الروح يمكننا القول بأنّ لهم اعتقاداً بالمعاد، لكنّه من الواضح أنّه يختلف كلّياً وأساسيّاً عن اعتقادنا نحن بالمعاد والقيامة. ومهما كان، فمع أنّ كلّ عقائد هؤلاء المرتاضين الهنود وطرقهم ومذاهبهم هي باطلة قطعاً، لكنّهم ينالون بعض القدرات الروحيّة نتيجةَ ما يمارسونه من رياضات، الأمر الذي يؤهّلهم للقيام بأعمال عجيبة خارقة للعادة وللشيء المتعارف.

بالطبع إنّ هؤلاء المرتاضين ينتمون إلى فرق ومذاهب مختلفة، وقد كانوا أكثر عدداً في السابق، وقلّما يُشاهَد الآن من أمثال هؤلاء، وإنْ أمكن العثور عليهم هنا وهناك. إنّ الرياضات التي يتحمّلها هؤلاء المرتاضون تكون أحياناً شاقّة حقّاً ومضنية للغاية، وليس لكلّ أحد القدرة والإرادة على ممارستها. هذه الممارسات تؤهّلهم لأن يتلقّوا أموراً، ويروا أشياءَ، ويقوموا بأعمال ممّا ليس للأفراد العاديّين السبيل إليه. فبعض هؤلاء بإمكانه الإخبار عن الحوادث الماضية بل وعن المستقبليّة أيضاً. وتوجد نماذج كثيرة لمثل تلك المسائل، كما وأنّ هناك العديد من الأشخاص الثقات ممّن شاهدوا هذه القضايا عن كثب ونقلوها لنا كتابة أو شفاهاً. فالمرتاضون الهنود ينادون الشخص الذي لم يروه من قبل باسمه، ويخبرونه من أين قدم، وماذا ينوي فعله، وإلى أين ومتى سيذهب. وقد نقل لي شخصيّاً أحد الثقات أنّ مرتاضاً هنديّاً قال له مرّة: إنّك ستترك هذه المدينة يوم الخميس. ويقول هذا الشخص: هذا على الرغم من أنّ

بطاقة طائرتنا كانت يوم الأربعاء. فقلت في نفسي: عليّ أن لا أُعير كلامه أهميّة تذكر، فهذه من جملة هفواته، لكنّني لم أخبره شيئاً على أيّ حال. وعندما ذهبنا يوم الأربعاء إلى المطار للسفر، قيل لنا إنّ الرحلة قد ألغيت وأُجّلت إلى يوم الخميس، وقد غادرنا المدينة يوم الخميس فعلاً.

إنّه ليس أمراً عاديّاً أن يقال، بشكل قطعيّ ويقينيّ، لشخص يحمل بطاقة سفر ليوم الأربعاء، إنّك ستغادر يوم الخميس، ثمّ يحدث ذلك فعلاً. ومع ذلك كلّه، فلا يمكننا القول بأنّ هذا يحكي المقامات المعنويّة والإلهيّة للمرء وأنّ له منزلة عند الله عزّ وجلّ.

على أيّ حال، فعلاوة على القدرات الفطريّة والطبيعيّة، هناك من يتاح له ـ من خلال الرياضات الروحيّة والتمارين المجهدة والمتواصلة ـ امتلاك بعض القدرات والإمكانات التي تمنحه من الإدراكات والمعلومات ما يتجاوز حدّ المتعارف، ويقوم بأعمال خارقة للعادة. فتحضير الأرواح، والاتّصال بها، وإحضار الجنّ، والإفادة من معلوماتهم، وجعلهم في خدمة الإنسان كلّها أعمال ومسائل تقع ضمن هذا النطاق. فالعامل المشترك والعنوان العامّ لمجموع هذه الأمور هو أنّ المرء يتلقّى علوماً خارقة للعادة ويكتسب معلومات عن غير الطرق المتعارفة؛ كالعين، والأذن، والتعلّم العاديّ. ولاكتساب أمثال هذه الأمور يحتاج إلى بعض الرياضات والتمرينات. بالطبع إنّه ـ من ناحية ـ قلّما نجد أشخاصاً لهم هذا المستوى من الهمّة العالية لتحمّل مثل هذه الرياضات الشاقّة، ومن ناحية أخرى، فقد يكون تجشّم مثل هذه الرياضات عملاً لا ينمّ عن حكمة أساساً، وإنّما هناك طرق أفضل وأكثر منطقيّة ويسراً ينال الإنسان من خلالها، بجهد أقلّ، كمالات أعظم وأرفع. الملاحظة الأخرى التي تسترعي التأمّل بخصوص هذه المعلومات

والإدراكات هي أنّ معظمها، في الواقع، ليس له أيّ فائدة أو منفعة للإنسان، ولا يحلّ له أيّ مشكلة. فأساساً ما هو مقدار انتفاعنا من المعلومات التي نجمعها عن طريق البصر والسمع والقوى المتعارفة التي نمتلكها كي نسعى وراء طرق وسبل غير متعارفة وخارقة للعادة لنجمع معلومات أكثر؟ وعلى فرض أنّنا علمنا ما الذي فعله فلان بالأمس، أو ما الذي سيفعله غداً، وإلى أين سيذهب؛ فأيّ امتياز ستمنحه لنا هذه المعلومة، وأيّ كمال أو مقام أو فضيلة حقيقيّة وإنسانيّة ستُتحِفنا بها؟ إنّ هذا العمل لا يعدو كونه ولعاً وانسياقاً وراء هَوَس الرغبة في الحصول على ما لا يملكه الآخرون، وإلاّ فمن جهة المسائل المعنويّة والقضايا المهمّة في مجال التكامل الإنسانيّ، فليس لأمثال تلك الأمور ـ عادةً ـ أهمّية تذكر.

ومهما كان، فإنّ هذه الأمور هي حقائق وإنّ تحقُّقها أمر ممكن، بل وفوق الإمكان، فإنّها وقعت فعلاً. كما أنّ السبيل لنيلها مُشرَعة، ولها أساتذة مختصّون، وهي قابلة للتعليم والتعلّم، وهناك أشخاص خطَوا فعلاً في هذا الطريق، وإنّه بالرجوع إلى أستاذ معيّن، وتلقّي بعض التعاليم الضروريّة، والعمل بها يحصل الناس على أمثال تلك القابليّات والحالات. إلاّ أنّ ما يهمّنا هنا هو الالتفات إلى مسألة كون هذه الأمور لا تُعدّ دليلاً على أنّ للمرء منزلة ومقاماً عند الله تعالى. فكما قد تمّت الإشارة إليه، قد يكون الإنسان منكِراً لله ولجميع الأديان السماويّة كلّياً، ومخالفاً لكافّة الأنبياء والأولياء، لكنّه قد يمارس تلك التمارين والرياضات ويحصل على مثل هذه النتائج. فإحضار الأرواح، والارتباط بالجنّ ونظائر تلك الأمور هي بهذه الكيفيّة أيضاً؛ إذ أنّ هناك أشخاصاً لهم القدرة على تسخير الجنّ، فهم من خلال توفير المقدّمات والقيام ببعض الأعمال يتمكّنون من تسخير جنّي أو

أكثر وجعلهم في خدمتهم ليستعينوا بهم من أجل الحصول على بعض المعلومات. فالجنّ سريعوا الحركة جدّاً، ولكلّ واحد منهم القدرة على التنقّل من مكان إلى آخر بسرعة فائقة وتحصيل المعلومات من مكان ما لو ضعها تحت تصرّف الشخص الذي له علاقة به.

لكنّ ما تجدر الإشارة إليه هنا هو أنّ الدجّالين في هذا الوادي كثيرون جدّاً وأنّ عددهم يفوق بكثير عدد أولئك الذين تحمّلوا في هذا الدرب المشاقّ والذين يتعاملون بالوقائع. كما وقد تُقتَرف من أجل الوصول إلى تلك الأهداف وتحضير الأرواح وتسخير الجنّ أمور على خلاف الشرع. فعلى سبيل المثال، قد ينال هؤلاء أموراً وقد تضع الشياطين معلومات معيّنة تحت تصرّفهم في مقابل إهانة المقدّسات. فالجنّ ـ كما هو حال الناس ـ فيهم المؤمن وفيهم الكافر، وإنّ الكفرة منهم قد يشترطون ممارسة الشخص المعنيّ ما يخالف الشرع وإهانة بعض المقدّسات في مقابل إسداء خدمة معيّنة له، وهناك نماذج متعدّدة من هذا القبيل. فمثلاً، من أجل أن يحافظ المرء على علاقته بجنّي كافر فهو يعمد إلى ترك صلاته ـ والعياذ بالله ـ وتوجيه سيل من الإهانات الوقحة إلى القرآن الكريم ممّا يستحي اللسان والقلم من بيانه!

وبناءً على ذلك، فصدور أيّ عمل خارق للعادة من شخص ما أو اكتساب الشخص معلومات عن طريق غير متعارفة لا دلالة له على كون المرء مرتبطاً بالله تعالى وأنّه مقرّب إليه جلّ شأنه. فالأمور التي سردناها، وإن كانت مصنّفة ضمن الأمور الخارقة للعادة واكتساب المعلومات بطرق غير مألوفة، إلاّ أنّ أيّاً منها لا يرقى إلى حدّ المكاشفة؛ فلا «التخاطر»، ولا تحضير الأرواح، ولا الارتباط بالجنّ أو تسخيرهم، ولا الرياضات التي يمارسها المرتاضون الهنود هي ممّا يُصنّف في خانة المكاشفات. فالمكاشفة ـ كما قد أسلفنا ـ هي حالة

روحيّة تحصل للمرء بحيث إنّه يشاهد أشياء ويتلقّى أموراً وهو نصف واعٍ أو في حالة هي ما بين النوم واليقظة، تسمّى اصطلاحاً بـ«الخُلْسة». ولحصول مثل هذه الحالة لابدّ للإنسان من نوع من لطافة الروح وشفّافيّتها، ولذا فهي لا تحصل لأيّ شخص كان؛ إذ يتعيّن أن تتمتّع الروح بنمط خاصّ من النزاهة والسموّ من أجل أن تحصل مثل هذه الحالة للإنسان.

المكاشفة الرحمانيّة والمكاشفة الشيطانيّة

مع كلّ ما ذكر، فإنّ أرباب الفنّ والمشايخ وكبار العلماء في هذا المجال، ممّن تكنّ لهم جميع الفرق الصوفيّة الاحترام والتقدير، قد بيّنوا في مقالاتهم وكتبهم أنّ المكاشفات قسمان: مكاشفات ربّانيّة ورحمانيّة، ومكاشفات شيطانيّة. وبعبارة أخرى، فإنّ المشاهدات التي تحصل للإنسان والإدراكات التي تطرأ عليه في حالة الخُلْسة تكون، تارة، من ناحية الله تعالى، وتارة أخرى من إلقاءات الشيطان. فكما في المكاشفة الرحمانيّة، فإنّ الشخص في المكاشفة الشيطانيّة يسمع، مثلاً، صوتاً أو يرى شيئاً في الحقيقة والواقع ممّا لا يسمعه ولا يراه الآخرون، إلاّ أنّ المُلقي لهذا الأمر هو الشيطان. فقد يأتي المرءَ نداءٌ أو هاتفٌ غيبيّ يخبره عن أمر ما ثمّ لا يلبث أن يتحقّق وينكشف صدقه، إلاّ أنّ هذا الهاتف الغيبيّ يكون من الشيطان في الحقيقة، وهو مقدّمة لخداع هذا الشخص وجعله يتّخذ الطريق الذي يرسمه له الشيطان اللعين. فالشيطان هو عدوّ الإنسان اللدود الذي أقسم على أن يبذل كلّ ما بوسعه متّخذاً كافّة السبل المتاحة من أجل جرّ الإنسان إلى هاوية الضلال وحرمانه من بلوغ برّ النجاة والسعادة: ﴿**قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾[1].

---

۱. سورة ص، الآيتان ۸۲ و۸۳.

أجل فقد أقسم الشيطان على أن يجنّد كلّ طاقاته في إضلال جميع البشر، وإنّه ليحدوه الأمل في إغواء كلّ إنسان، إلاّ أنّ هناك مجموعة من الناس ممّن لا يطمع الشيطان في خداعهم وإغوائهم، وإنّه يائس من ناحيتهم تماماً، وهؤلاء هم «المُخلَصون»، ويقصد بهم ـ بحسب الروايات ـ المعصومون عليهم السلام.

إنّ من جملة الطرق التي يسلكها الشيطان لخداع الإنسان هي طريق الأمور العرفانيّة، حيث قد يجيء له في البدء بأمور صحيحة كي يجتذبه نحوه ومن ثمّ يجرّه، شيئاً فشيئاً، إلى الإنحراف والضلال. فقد يسمع المرء ـ مثلاً ـ أنّ هاتفاً من الغيب يخاطبه ليلاً ويأمره بالاستيقاظ من النوم والإتيان بصلاة الليل. فصلاة الليل من المستحبّات المؤكّدة جدّاً وهي من المسائل التي يهتمّ بها أولياء الله اهتماماً بالغاً، بل إنّ القرآن الكريم جعل نيل «المقام المحمود» للنبيّ صلّى الله عليه وآله منوطاً بقيامه في السحر وأدائه لنافلة الليل: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾[١]. من هذا المنطلق فإنّ المرء لا يشكّ أبداً بأنّ هذا الهاتف الغيبيّ الذي يدعوه لصلاة الليل هو مَلَك مأمور من جانب الله تعالى بهذه المهمّة، فيشكر الله سبحانه وتعالى على لطفه وعنايته به حيث قيّض له ملكاً من ملائكته لإيقاظه، ولذا فهو يستيقظ طبعاً، ويؤدّي صلاة الليل. ثمّ يستمرّ الحال على هذا المنوال عدّة ليال ليأتيه الهاتف ثانية فيقول له مثلاً: هذه الليلة عليك أن تقرأ القرآن حتّى الصباح! ثمّ يدعوه بعدها إلى صلة الرحم وزيارة أحد الأرحام والسؤال عن أحواله! حتّى يصل الأمر إلى أن يأمره ذلك الهاتف الغيبيّ ـ على سبيل المثال ـ بتعطيل الدرس الكذائيّ الذي يعطيه في الحوزة أو الجامعة، والتفرّغ، بدلاً عنه، لقراءة القرآن في داره!

---

١. سورة الإسراء، الآية ٧٩.

ولن يساور المرء أدنى شكّ في أنّ الأمر الصادر من ذلك الهاتف الغيبيّ، والذي سبق أن دعاه إلى صلاة الليل والدعاء وقراءة القرآن وصلة الرحم، هو صائب هذه المرّة أيضاً، وأنّه يصبّ في مصلحته، ولذا فهو لن يتأمّل أو يتردّد للحظة في أن يعطّل درسه من غده، ويتفرّغ لقراءة القرآن في المنزل عوضاً عن تدريس الطلبة في الحوزة أو الجامعة، غافلاً عن أنّ تلك النداءات الغيبيّة والأوامر بممارسة المستحبّات لم تكن إلاّ حبّات إغراء كان الشيطان يلقيها في طريقه كي يوقعه في نهاية المطاف في فخّ «ترك الواجب». ويالّلأسف فإنّ الشيطان، الذي يقوم بعمله بكلّ حنكة ودهاء، ينتصر بحيله في أغلب المواطن، وينال مراده المتمثّل في جرّ ابن آدم إلى مستنقع الإنحراف والضلال.

ومهما يكن، فنظائر هذه الأمور قد تحصل للإنسان في حالة المكاشفة أيضاً؛ فتحصل له مثل هذه الحالات في حال الخُلْسة وهو بين النوم واليقظة. فقد يشاهد أثناء اشتغاله بالذكر أموراً؛ كأن تكون نوراً أو أنواراً مختلفة الألوان أو يسمع صوتاً، بحيث تكون واقعيّة، ويكون الشخص فعلاً يشاهد تلك الأنوار أو يسمع تلك الأصوات. وعلى الرغم من ذلك كلّه، فإنّ أهل هذا الفنّ أنفسهم يقولون بأنّ هذه المكاشفات وإن حصلت أثناء الذكر أو الصلاة أو الدعاء أو السجود أو ما شاكل، فإنّها تنقسم إلى قسمين: مكاشفات شيطانيّة ومكاشفات رحمانيّة وربّانيّة. فتارة يكون العامل الذي يسهم في ظهور المكاشفات هو «الشيطان»، وتارة أخرى يكون «المَلَك»، وليس لكلّ أحد القدرة على التمييز بين ما إذا كانت المكاشفة هي من مصاديق المكاشفة الشيطانيّة أو المكاشفة الربّانيّة، وقد يكون الأمر غاية في الصعوبة. إلاّ أنّ المناط العامّ الذي يضعه المحقّقون من العرفاء لهذا الغرض هو ضرورة عرض مضمون المكاشفة على الكتاب

والسنّة ومقارنته إليهما، فإن وافق مضمونها الكتاب والسنّة ـ أو لم يخالفهما على الأقلّ ـ فهي صحيحة، وإلاّ لصار معلوماً أنّها من الطراز الشيطانيّ. بناءً عليه، وتأسيساً على قول المحقّقين وكبار العرفاء هذا، فإنّ المعيار والمحكّ في معرفة المكاشفة الصحيحة من الباطلة هو القرآن والسنّة.

عدم التلازم بين المكاشفة الرحمانيّة وكون المرء كاملاً ومنزّهاً عن النقص

لقد تبيّن لنا لحدّ الآن أنّه أوّلاً: هناك فرق بين المكاشفة وبين المسائل الأخرى نظير التخاطر، وتحضير الأرواح، وتسخير الجنّ وإحضارهم، والأعمال التي يقوم بها المرتاضون الهنود. وثانياً: إنّ المكاشفة ذاتها تقسم إلى قسمين: رحمانيّ وشيطانيّ؛ ولهذا لا تدلّ كلّ مكاشفة على كون المرء ذا منزلة ومقام عند الله تعالى، وأنّ الحقّ جلّ وعلا يشمله بعناياته.

فلنفترض الآن أنّ مكاشفة من النوع الصحيح والربّانيّ (أي ما لا يخالف الكتاب والسنّة) قد حصلت لشخص ما، وهو ليس من أهل الرياضات الباطلة والمنافية للشرع، كما أنّ معتقداته ودينه ومذهبه كلّها صحيحة، وهو ملتزم بتكاليفه الشرعيّة من صلاة وصوم وما إلى ذلك، وخلاصة الأمر فإنّه لا يتّجه إليه أيّ إشكال من هذه الناحية. فإن وقعت لمثل هذا الشخص مكاشفة في حال العبادة كالدعاء أو السجود أو الذكر، وكان مضمونها موافقاً للكتاب والسنّة مائة بالمائة، وأنّها ربّانيّة وصحيحة تماماً، فالسؤال هنا هو: هل إنّ هذا الشخص قد وصل إلى مقام القطبيّة ومنزلة المرشد، وهل صار مؤهّلاً لتربية الآخرين، وأنّ كلامه في كلّ الميادين حجّة، ولابدّ من الإذعان أمامه والقبول منه بلا تحقيق؟

وفي الجواب على ذلك نقول: ليس الأمر هكذا إطلاقاً. فأحياناً قد تحدث

مثل هذه المكاشفات لِفتية يافعين لم يبلغوا الحلُم. بل حتّى بالنسبة لأولئك المؤمنين البسطاء من الكسبة والمزارعين وأمثالهم، ممّن تكون حياتهم وأعمالهم منزّهة عن الغلّ والغشّ والمكر والخداع، قد يشاهدون أنواراً وأشياء أثناء صلاتهم أو بعض أحوالهم. أنا شخصيّاً أعرف بعض هؤلاء الأشخاص، وليس ما أقوله مجرّد افتراض أو مثال. إنّ المكاشفة التي يمكن استنتاج شيء منها والتعويل عليها هي تلك التي يتمتّع الشخص أثناء وقوعها بنوع من شفّافيّة الروح ولطافتها، إلاّ أنّه لا يمكن بأيّ حال من الأحوال الحكم على أساسها بأنّ هذا الشخص قد نال مقام القطب والمربّي والمرشد الكامل، وأنّ رأيه وكلامه هما حجّة ويبيّنان الحقّ في جميع الأمور.

فإذا ثبت وقوع المكاشفة حقّاً، وكانت من النمط الربّانيّ والرحمانيّ أيضاً، فالأمر لا يعدو كونه شبيهاً بمشاهدة الرؤيا الصادقة في المنام. فهل مشاهدة الرؤيا الصادقة هي دليل على كون صاحبها من أولياء الله؟ ألا يشاهد الأشخاص العاديّون، وأهل المعاصي، بل وحتّى المجرمون والجُناة، رؤى صادقة وصحيحة في منامهم؟ هل كانت رؤيا عزيز مصر، التي ينصّ القرآن الكريم على صدقها، دليلاً على عظمة شخصيّته، ومقامه المعنويّ، وسموّه الروحيّ؟ إنّ الكثير من الملوك الطغاة قد شاهدوا رؤى صادقة في مناماتهم وكان تفسيرها زوال حكوماتهم وقد تحقّق ذلك بالفعل. إذن فكما أنّ مشاهدة الرؤيا الصادقة في المنام ليست دليلاً على علوّ مقام صاحبها وعظمة شخصيّته المعنويّة، فكذا الأمر بالنسبة للمكاشفة أيضاً حيث لا يصحّ أن تكون شاهداً على أنّ المرء المكشوف له هو من أولياء الله وأنّ إدراكه وكلامه في جميع الأمور صائب وصحيح. فكون المكاشفة متلازمة مع شفّافيّة الروح ولطافتها هو أمر آخر وليس ذلك علامة على تمتّع الشخص المكشوف له بمقام ومنزلة خاصّة

عند الله تعالى. فالتمتّع بشفّافيّة الروح ـ أو ما يعبّر عنه أحياناً بصفاء الروح ـ لا يعني أنّ الإنسان قد وصل إلى درجة من النزاهة الأخلاقيّة والمعنويّة تؤهّله لأن يأخذ على عاتقه مهمّة تربية الآخرين، وأنّ إدراكه لكلّ المسائل صحيح، وطاعة الآخرين له واجبة. ولا يغيبنّ عن بالنا أنّ هذه الملاحظات هي في ما يتعلّق بالمكاشفات الربّانيّة والرحمانيّة، وإلاّ فممّا لا يحتاج إلى كثير من التوضيح والبيان أنّ المكاشفات الشيطانيّة هي خارجة موضوعاً عن نطاق هذا البحث، وليس فيها أدنى أمارة على فضيلة المرء وكماله وسموّه الروحيّ.

أساساً لابدّ من الالتفات إلى أنّ الكشف والمكاشفة هي من الأمور التافهة والمبتذلة لدى أولياء الله والعارفين الحقيقيّين الصالحين، فهم لا يعيرونها أيّ أهمّية، ولا يلتفتون إليها بالمرّة[1]. فهذه القضايا لا تحوز إلاّ على إعجاب

---

١. روي عن العارف الواصل المرحوم آية الله محمّد جواد أنصاري الهمدانيّ ﷺ أنّه قال: في يوم من الأيّام شعرت فجأة بأنّني صرت أمتلك علماً وقدرة لا نهاية لهما، ورأيت أنّ كلّ شيء قد أصبح تحت تصرّفي. لكنّني استغفرت الله من فوري وقلت: «إلهي، أنا لا أريد تلك الأمور، فهي تقطع عليّ الطريق. أنا أريدك أنت وحسب». وبمجرّد أن قلت ذلك شعرت فجأة أنّني قد فقدت جميع تلك القضايا.

ويكفي المرحوم آية الله الأنصاريّ الهمدانيّ ما قاله المرحوم القاضي ﷺ في حقّه عندما سُئِل: إلى من نرجع بعدكم؟ فأجاب: «ارجعوا إلى الشيخ الأنصاريّ الذي أخذ التوحيد عن الله مباشرة». ومن أجل معرفة المزيد عن شخصيّة وحياة المرحوم الأنصاريّ الهمدانيّ فإنّ بمقدور الراغبين مطالعة كتاب «سوخته» (وهو بالفارسيّة، ويعني «المحترِق») وهو من طباعة دار مؤسّسة شمس الشموس الثقافيّة للطباعة والنشر.

وشبيه لما حدث للمرحوم الأنصاريّ، نروي حادثة أخرى حدثت للمرحوم آية الله الشيخ محمّد البهاريّ، وهو من التلاميذ المميّزين والبارزين للمرحوم ملاّ حسينقلي الهمدانيّ. يقول المرحوم البهاري بنفسه: حضرت عند الملاّ حسينقلي وأنا في غاية البهجة، لكن عندما صرت في حضرته لم يعرني اهتماماً على الإطلاق ورفضني زاهداً فيّ. فخرجت من عنده وأنا أشعر أنّه ليس عليّ إلاّ أن أقول: لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم. وعندما وصلت إلى مقبرة وادي السلام في النجف الأشرف رأيت هناك أنّ ما نلتُه يمتلكه الوجود كلّه، ولا يعدّ امتيازاً بالنسبة لي أنا. فرجعت إلى أستاذي فاستقبلني هذه المرّة بالعناق والترحيب.

الأشخاص من أمثالي ممّن ليس لهم إلاّ هذه العين التي ترى الظاهر. ثمّ أيّ معضلة ستُحَل للإنسان، وأيّ فضيلة ستغرَس وتُنَمّى في نفسه، بل وأيّ رذيلة فيه ستُجتَثّ من جذورها أو تُضَعّف جرّاء مشاهدة نور ما في السماء أو سماع صوت غيبيّ معيّن[١]؟! من هذا المنطلق، فإنّ أولياء الله ينظرون إلى هذه المسائل كنظرهم إلى لعب الأطفال، ولا يعتبرون لها أيّ وقع أو أهمّية. فهذه الأمور بالنسبة لهم هي أشبه ما تكون بالأحلام والرؤى التي نراها نحن مع فارق واحد وهو أنّهم يرون تلك المشاهدات بأعين مفتوحة!

على أيّ حال، إذا أردنا تلخيص ما قلناه في باب المكاشفة نقول: إنّ قسماً من المعلومات التي يحصل عليها البعض عن طريق غير متعارف هي نتيجة مسائل من أمثال «التخاطر»، ولا علاقة لها بأعمال الشخص وحالاته وصفاته، وهي في الحقيقة معلولة لبعض العوامل الطبيعيّة والخَلْقيّة والغير الاكتسابيّة. والقسم الآخر من هذه المعلومات، وإن كانت اكتسابيّة، إلاّ أنّها تتولّد في الإنسان نتيجة الرياضات الباطلة والمنافية للشرع، نظير ما يحصل للمرتاضين الهنود. ثمّ إنّ هناك قسماً ثالثاً من تلك المعلومات وهي ما يطّلع عليه المرء جرّاء التقيّد بالتعاليم والرياضات الشرعيّة الصحيحة، وإنّ ما يُطلق عليه اصطلاحاً بـ«المكاشفة» يمثّل، في الحقيقة، هذا القسم الأخير. بيد أنّه لابدّ من الالتفات إلى أنّ القسم الثالث هذا يُقسم أيضاً إلى نوعين:

---

١. يقول السيّد إسلاميّة، وهو صهر وتلميذ المرحوم الشيخ محمّد جواد أنصاري الهمدانيّ: لقد كان الشيخ (المرحوم الأنصاريّ) يمنع أغلب الأشخاص من المكاشفات. وكان يعتبر أنّ الموت الاختياريّ، وطيّ الأرض وكلّ تلك الأمور هي من الحُجب التي تقطع على الإنسان الطريق. وكان يقول: «إنّ «مقام القرب» غير تلك الأمور. إنّ مقام «لقاء الله» لا يُنال بلعِب الأطفال هذا. فلنفترض أنّكم شاهدتم باطن الناس، أو تجلّى لكم منظرٌ ما! فماذا يعني ذلك؟». (عن كتاب «سوخته»، ص٢١٥، وهو بالفارسيّة ويعني «المحترِق»).

رحمانيّ وشيطانيّ. ولذا لا ينبغي النظر إلى أيّ مكاشفة على أنّها من إلقاءات الملائكة أو جنود الله الغيبيّين وأمثال ذلك، بل قد يكون إبليس وأذنابه هم الملقين للمكاشفة أحياناً. وذكرنا أنّ المعيار في تمييز المكاشفة الرحمانيّة عن الشيطانيّة هو الكتاب والسنّة. كما قد أشرنا في نهاية البحث أيضاً إلى أنّه حتّى لو ثبت أنّ مكاشفة رحمانيّة وربّانيّة قد حصلت للمرء، فإنّها لا تشكّل بالضرورة دليلاً على عظمة هذا الإنسان ومقامه وشخصيّته، كما أنّها لن تكون أمارة على حقّانيّة وحجّية سائر أقواله وأفعاله.

حقيقة «الكرامة» وماهيّتها

أمّا فيما يخصّ «الكرامة» فلا يسعنا إلاّ أن نقول إنّ البحث هنا يشبه إلى حدّ ما بحث المكاشفة. فكما هو الحال بالنسبة للمعلومات الخارقة للعادة، فإنّ للأعمال الخارقة للعادة أنواعاً شتّى أيضاً. وكما أنّ للمعلومات الخارقة للعادة مصادر مختلفة، فإنّ القدرة على إنجاز الأعمال الخارقة للعادة هي أيضاً كذلك؛ فبعض القدرات الخارقة تكون غير اكتسابيّة وهي معلولة لعوامل طبيعيّة وخَلْقيّة. فالتركيبة الوراثيّة والبنية البدنيّة لبعض الأفراد صُمّمت بحيث تكون لهم القدرة ـ بشكل طبيعيّ ـ على القيام ببعض الأعمال الخارقة للعادة ممّا يعجز الآخرون عنه؛ كما هو الحال بالنسبة لتلك السيّدة الروسيّة التي مرّ ذكرها مسبقاً. بالطبع إنّ أمثال هؤلاء هم قليلون جدّاً ويندر العثور عليهم.

القسم الآخر من القابليّات الخارقة للعادة تكون حصيلة الرياضات والتمارين المستمرّة والطويلة الأمد. وهناك طيف واسع من هذه الأعمال، ويمكن الإشارة هنا ـ من باب المثال ـ إلى السحر، وتحضير الأرواح، وتسخير الجنّ وإحضارهم، وبعض الأعمال الأخرى التي يقوم بها مرتاضو الهند

المعروفون باسم «الجوكي». فمن جملة الأعمال التي يقوم بها هؤلاء الأشخاص مثلاً هي الاستلقاء على أشياء حادّة وقاطعة، كالسكاكين أو الزجاجات من دون أن تلحق ببدنهم ضرراً يذكر، أو نقل أشياء من مكان إلى آخر بلا تدخل من أعضاء البدن أو الأسباب الظاهريّة، أو إيقاف قطار أو سيّارة عن السير بواسطة النظر وبالإفادة من قدرة التركيز الذهنيّ. لكنّ بعض الأعمال الخارقة للعادة تأتي نتيجةَ العبوديّة لله تعالى، والعمل بأوامره ونواهيه، وتجشّم الرياضات الشرعيّة الصحيحة.

ومهما كان، ففيما يتعلّق بأصل هذه المسألة فلا سبيل إطلاقاً لإنكار حقيقة أنّ للبشر القدرةَ على القيام ببعض الأعمال الخارقة للعادة من خلال ممارسة بعض التمارين والرياضات الخاصّة. فهذه القضيّة مفروغ من إثباتها وهي محطّ تأييد العديد من الأشخاص والجماعات من المفكّرين والباحثين. فلطالما سافرت فرق من الأطبّاء والباحثين من المتخصّصين في العلوم الإنسانيّة والطبيعيّة والتجريبيّة من دول مختلفة، لاسيّما أمريكا وأوروبا، إلى الهند وعاشوا لفترات طويلة مع المرتاضين الهنود وإلى جوارهم. وبعد سلسلة من المناقشات والدراسات التي أجروها خلال تلك الأبحاث أقرّ جميعهم في نهاية الأمر أنّ الأعمال التي يقوم بها هؤلاء المرتاضون لا تنطبق على أيّ من القوانين الطبيعيّة والعلميّة الموجودة والمعروفة. وبعبارة أخرى، فقد صدّق الجميع أنّ العوامل الطبيعيّة لا تقتضي مثل هذه الأعمال، وأنّه لا دليل في أيدينا على الإطلاق يدلّ على أنّ المرتاضين يقومون بتلك الممارسات بالإفادة من القوانين الطبيعيّة المعروفة.

هذا الحكم لم يصدر لمرّة واحدة إو لمرّتين، ولم يكن نتيجة دراسة واحدة أو اثنتين، بل هو حصيلة عدد هائل من التجارب والدراسات والأبحاث

المتواصلة، وإنّ نتائج العديد من تلك الدراسات قد دُوّنت ونشرت في مختلف الكتب، والموسوعات، والمقالات، والرسائل العلميّة. لقد آمن هؤلاء الأشخاص والفرق العلميّة في نهاية المطاف، بعد أعوام مديدة من البحث وصرف المبالغ الطائلة في هذا السبيل، أنّ أعمال المرتاضين هي غير عاديّة، وخارجة عن نطاق المتعارف، ولا يمكن تفسيرها من خلال القوانين الطبيعيّة والفيزيائيّة أو قوانين علم النفس وعلم وظائف الأعضاء (الفسلجة) وأمثالها. بالطبع من الممكن أن يستند عدد من أعمال أصحاب «الجوكي» والمرتاضين الهنود إلى بعض الجوانب من مختلف القوانين العلميّة، لكنّها ـ على أيّ حال ـ لا زالت غامضة ولم يتمّ إثباتها، على الأقل بالنسبة للبشر في عصرنا الحاضر.

فبعض هؤلاء ـ مثلاً ـ يقف أمام قطار يسير بسرعة تتجاوز مائة كيلومتر بالساعة، أو يقف إلى جانب سكّة الحديد ويمدّ يده باتّجاه القطار، فيتسمّر القطار في مكانه فجأة مع كلّ هذه السرعة والتعجيل والوزن والعدد الهائل من الركّاب، وما لم يرفع المرتاض يده أو يتزحزح من أمام القطار فلن يسير القطار أبداً! لقد حدث ذلك مرّات عديدة ولم يفلح مهندسو وفنيّو القطار في العثور على خلل أو نقص في القطار أو في أنظمته المختلفة، ولم ينجحوا في تحريكه وجعله يسير. كما قد حدث أيضاً أن تكون طائرة متأهّبة للإقلاع على مدرج المطار وقد تمّ فحص جميع المسائل المتعلّقة بطيرانها والتأكّد منها ثمّ يأتي في هذه الأثناء شخص من أفراد «الجوكي» فيضع يده فلا تعود الطائرة قادرة على التحرّك. وعبثاً حاول طاقم الطائرة ومهندسوها تحريكها فهي لم تتزحزح من مكانها ما دام هذا الجوكيّ لم يرغب في العدول عن رأيه!

لقد تكرّرت مثل هذه القضايا كثيراً وتمّ تثبيتها وتسجيلها ضمن تقارير متعدّدة أنجزها أشخاص وفرق مختلفة من الثقات وليست هي محلّ إنكار

أو تشكيك. هذه المسائل إن دلّت على شيء فهي تدلّ على أنّ الله سبحانه وتعالى قد أودع في روح الإنسان قوى وقدراتٍ هائلةً بحيث لو أنّها صُقلت وقُوِّيت لاستطاعت التغلّب والتفوّق على القوى والقوانين الطبيعيّة.

لكن هل في ما ذكر دلالة على أنّ هذا الجوكيّ، بشعره الأشعث، وهندامه الوسخ، وحياته القذرة، هو من أولياء الله عزّ وجلّ، ومن الأقطاب والأخيار والأوتاد، وأنّ علينا طاعته، والتبرّك بالتراب الذي تطأه قدماه؟!! من الجليّ أنّ الأمر ليس هكذا إطلاقاً، وأنّ مثل هذا التفكّر لا يعدو كونه تصوّراً ساذجاً، ووهماً باطلاً لا أساس لهما من الصحّة. فأنّى لهذا الجوكيّ ـ الذي لا يعتقد بأيّ دين أو نبيّ أو كتاب سماويّ، ولا يعرف عن العمل والعبادة والطاعة شيئاً سوى ما يمارسه من تلك الرياضات ـ أن يكون من أولياء الله عزّ وجلّ، ومن المقرّبين منه تعالى؟! فعمل هذا الجوكيّ هو أشبه بعمل البهلوان الذي اكتسب، جرّاء التمرين والتكرار، بعض المهارات ممّا لا يملكه عامّة الناس. فإذا تمكّن بطل في رفع الأثقال من رفع ثقل كبير جدّاً لا يطيق الناس العاديّون حمله، فهذا الأمر لم يكن ليتحقّق إلاّ من خلال التمرين والتكرار وتحمّل المشاقّ والمصاعب الجمّة. والشخص الجوكيّ هو كذلك أيضاً، كلّ ما في الأمر أنّ التمارين التي يمارسها رافع الأثقال ترتبط بالبدن، بينما التمارين والرياضات التي يقوم بها الجوكيّ تتعلّق بالروح، فهو ينال تلك القدرات والقوى الروحيّة الخارقة للعادة عن طريق ضبط النفس، والضغط عليها، وقمعها، وحرمانها من متطلّباتها لأيّام طويلة وفترات مديدة. على أيّ حال، فقد كشف هؤلاء هذه العلاقة وهي أنّه بضبط النفس، وتقليل الأكل والنوم، وتحميل النفس بعض الضغوط فإنّه من الممكن تقوية إرادة المرء بحيث تتغلّب على قوى الطبيعة. وعلى أساس هذه العلاقة، فبالمقدار الذي يرفع به المرء ـ بواسطة

السيطرة على النفس ـ قدرة إرادته وتركيزه، سيكون قادراً بنفس الدرجة على تنفيذ بعض التصرّفات في الطبيعة، والقيام بأعمال خارقة للعادة والعرف.

«السحر» و«الكرامة» شيئان مختلفان

بناءً على ما مرّ، فبالرغم من أنّ إنجاز الأعمال الخارقة للعادة ليست هي كذباً بل هي واقع، بيد أنّه ليس كلّ ما هو خارق للعادة فهو يرقى إلى مستوى الكرامة الإلهيّة، وأنّه علامة على المنزلة التي يتمتّع بها الشخص عند الله تعالى، ومعيار للعناية التي يوليها جلّ شأنه له. فمثلاً، إنّ بعض الأعمال الخارقة للعادة هي من قبيل السحر، وإنّ السحر والكرامة هما شيئان مختلفان. فالسحر ـ في الجملة ـ هو حقيقة، وإنّ القرآن الكريم والسنّة يؤيدان أنّ هناك حقيقة اسمها «السحر» يمكن عن طريقها القيام ببعض الأفعال الخارقة للعادة، من قبيل زرع الخلاف بين الزوج وزوجه؛ فقد جاء في محكم كتاب الله العزيز: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ ٱللهِ﴾[1]. أمّا ما معنى السحر، وما هي حقيقته وماهيّته، وكيف يتعلّمه الناس، وما هي أنواعه و...الخ؟ فهذا خارج عن بحثنا الحاليّ. مضافاً إلى أنّني لست بساحر ولا من المتبحّرين في علم السحر. بطبيعة الحال، توجد كتب في هذا المضمار وقد قرأت أنا بعضها، لكنّ هذا الموضوع هو مسألة تخصّصية ولها مباحثها الخاصّة. على أنّه قد يصير تعلّم السحر ـ أحياناً ـ واجباً على بعض الأشخاص في بعض الموارد التي تقتضي إبطال السحر.

---

١. سورة البقرة، الآية ١٠٢.

على أيّ حال، فالأصل في وجود شيء اسمه «السحر» هو صحيح، والسحر أمر واقعيّ، وكما نوّهنا فإنّ القرآن الكريم والروايات تؤيّد وجوده وواقعيّته. لكن إذا أتقن الإنسان السحر، وصار ساحراً وأصبح قادراً على القيام بأعمال خارقة للعادة، فهل يصبح من أولياء الله؟ وهل يكون ذلك دليلاً على أنّ لديه سرّاً مع الله تعالى، وأنّه مقرّب منه جلّ شأنه، وله منزلة عنده؟ فالسحر هو بمعنى قهر الطبيعة والتصرّف في القوانين الطبيعيّة، بل وأبعد من ذلك، حيث تكون له القدرة على التصرّف والتأثير في قلوب الناس إلى حدّ زرع الضغينة والكراهية بين الزوج وزوجه أو بين صديقين حميمين جدّاً؛ لكنّ كلّ ذلك لا يدلّ إطلاقاً على عظمة الشخصيّة المعنويّة للإنسان وقربه إلى الله عزّ وجلّ.

مضافاً إلى ذلك، فإنّ كلّ هذا إنّما يصحّ إذا كان ذات السحر وادّعاء القدرة عليه أمراً حقيقيّاً وواقعيّاً، وإلاّ فكثيرون هم المدّعون للسحر والدجّالون والذين امتهنوا هذا الأمر وليس همّهم إلاّ ملء جيوبهم وجمع المال والثروة. وكثيرون هم الذين يدّعون السحر وإبطاله، وزرع المحبّة بين الزوجين، والعثور على المفقودين والأشياء الضائعة، وأمثال هذه الأمور، إلاّ أنّهم، في الواقع، صفر اليدين وخالي الوفاض من تلك الأمور، ولا يملكون إلاّ خداع الناس البسطاء السريعي التصديق، وامتصاص الأموال من جيوبهم. بالطبع ـ وكما أشرنا ـ فإنّ أصل السحر ومسائل الجنّ لها واقع وهي صحيحة في الجملة وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم، إلاّ أنّ هذا لا يعني أن نخاف في كلّ ليلة متخيّلين أنّ هناك جنّياً في سريرنا! أو أنّ كلّ من يدّعي السحر والارتباط بالجنّ وتسخيرهم فهو صادق! فبين المئات من المدّعين للسحر قد لا يُعثَر إلاّ على شخص واحد صادق وفي جعبته شيء يمكن أن يُعوّل عليه.

إنّ باستطاعة المسافر إلى بلاد الهند أن يلاحظ عن كثب بعض تلك

الأمور الخارقة للعادة التي يمارسها المرتاضون هناك. فهؤلاء ـ الذين يكون شعرهم وهندامهم وظاهرهم أحياناً غاية في القذارة والغرابة ـ يقومون بأعمال هي حقّاً خارقة للعادة، بل لا تصدّق في بعض الأحيان إلى حدّ يصعب على الإنسان التصديق أنّه في يقظة ولا يرى حلماً، على الرغم من أنّه يشاهد هذه الأمور بأمّ عينه! ومع كلّ هذا فلا دلالة لأيّ من هذه الأمور على مقام فاعلها ومنزلته العالية عند الله تعالى، ولا تعدو كونها أجراً قد حصلوا عليه جرّاء تحمّل بعض المشاقّ والمصاعب.

ولمزيد من التوضيح لهذا المبحث أرى من المناسب أن نسترجع معاً قصّة من التراث الإسلاميّ في هذا الخصوص:

أحد أولياء الله والمُخبر عن الغيب

جاء في تراثنا الإسلاميّ أنّ شخصاً دخل في يوم من الأيّام مسجد المدينة فقال للناس: ما خبّأ أحدكم شيئاً في يده إلاّ وأخبرته ما هو. فتحلّق الناس من حوله مُخفياً كلّ واحد منهم شيئاً في يده ليسألوه عمّا في أيديهم، فأجاب عن كلّ سؤال بدقّة ولم يخطئ حتّى في مورد واحد. فثارت في المسجد بلبلة وصخب واشرأبّت أعناق الناس وصاروا يتسوّرون أكتاف غيرهم لينظروا من يكون ذلك الشخص الذي يخبر عن الغيب. فدخل المسجد في هذه الأثناء وليّ من أولياء الله وحين رأى هذه الجَلَبة والضوضاء وشاهد الناس مزدحمين سأل عن السبب. فقيل له إنّ شخصاً ورد المسجد وادّعى هذا الادّعاء وما من أحد اختبره إلاّ وكانت إجابته صائبة. فتقدّم وليّ الله وقد قبض على شيء في يده وسأله: ما الذي في يدي؟ فتأمّل الرجل هنيهة ونظر إلى الوليّ وآثار الحيرة والتعجّب بادية على وجهه. فسأله الوليّ: علامَ تعجّبك؟ ألا يمكنك أن

تخبرني عمّا في يدي؟ فقال الرجل: بل أعلم ما الذي في يدك، لكنّ تعجّبي هو أنّك كيف حصلت عليه. فقال الوليّ: ولكن ما الذي في يدي؟ قال: لقد تفحّصتُ العالَمَ أجمع في هذه اللحظة فرأيت أنّ كلّ شيء في محلّه وما من تغيير طرأ سوى أنّ أنثى طائر في جزيرة كانت قد وضعت بيضتين لكنّ إحداهما مفقودة الآن ولابدّ أن تكون في يدك! فقال وليّ الله: أصَبت. ففتح يده وأرى البيضةَ للرجل وللحاضرين في المسجد. ثمّ التفت الوليّ إلى هذا الشخص فسأله: من أين لك هذا العلم وهذه القدرة؟ قال: كنت أُخالف هوى نفسي، وكلّما أحبّت نفسي شيئاً بادرت إلى فعل ما يخالفه. قال الوليّ: ألا ترغب في اعتناق الإسلام؟ قال: لا. قال: لقد قلتَ بنفسك الساعة إنّني كلّما أحبّت نفسي شيئاً فعلت خلافه، فلِمَ لا تخالف نفسك في هذا الأمر؟ فأذعن الرجل بعد أن أُفحِم ولم يعرف بماذا يجيب، وأسْلم. فعاد الناس إليه بعد إسلامه وطلبوا منه أن يخبرهم بما في أيديهم، لكنّه عبثاً حاول هذه المرّة ولم يستطع الإجابة على أيّ من أسئلتهم، الأمر الذي أثار عجب الناس وعجبه هو بشدّة. فقال: يبدو أنّ الدين الذي كنت عليه والطريقة التي كنت أنتهجها كانا هما الحقّ والصدق؛ فكلّ ما كنت أتمتّع به من ذلك العلم وتلك القدرة العجيبة قد ذهبا إدراج الرياح بمجرّد إسلامي. فقال وليّ الله للرجل: كنتَ حتّى هذه الساعة قد بذلت جهداً فأعطاك الله أجر وأتعاب ذلك الجهد في هذه الدنيا؛ لأنّك كنت على باطل ولم يكن لك نصيب في الآخرة كي يعطوك أجركَ هناك. أمّا الآن وقد أصبحت مسلماً فقد نلت أعظم نعمة وقبضت أفضل أجر، لذا فقد سُلِبتَ تلك النعمة والأجر اللذان أُعطِيتَ إيّاهما من قبل. ومن الآن فصاعداً، فإنّ أيّ جهد تبذل، وأيّ مخالفة تخالف بها نفسَك في سبيل الله، فسوف يُدّخر أجرها كي يدفع لك في الآخرة.

تمييز الكرامة عمّا يشابهها

بناءً على هذا، فلا تعدّ القدرة على التصرّف في الطبيعة والقيام بالأعمال الخارقة دليلاً على التمتّع بالمقام والمنزلة عند الله سبحانه وتعالى. كما أنّها ـ بالطبع ـ ليست دليلاً أيضاً على عدم تمتّع المرء بذلك المقام والمنزلة، بل من الممكن أن يكون هناك فعلاً بعض عباد الله الصالحين الذين يحبّهم الله ويرى من المصلحة أحياناً أن يُجري على أيديهم بعض الأعمال الخارقة للعادة. فيوجد عندنا من عباد الله الصالحين الذين نالوا مقاماً يكونون فيه من جملة «مستجابي الدعوة» بحيث لا يردّ الله لهم أيّ دعاء يدعونه به؛ فقد كان لدينا من العظماء والعلماء والصلحاء ممّن كانوا يشفون المرضى بإذن الله عزّ وجلّ. من هنا، فإنّه من الممكن أن يكون هناك مثل هذه الأمور، إلاّ أنّها ليست أموراً عامّة على أيّ حال، ولا يسعنا اعتبار إنجاز أيّ عمل خارق للعادة دليلاً على أنّ فاعله هو من أولياء الله وعباده الصالحين والمقرّبين من حضرة الحقّ تعالى. فمثلما أنّ القيام بهذه الأمور قد يكون نتيجة العبوديّة وتقرّب الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى، فهو قد يحصل أيضاً من سلوك الطريق الباطلة والخاطئة، ونتيجة لإعانة الشيطان[1]. وكما أسلفنا، فللمرء القدرة على القيام بهذه الأعمال بواسطة الارتباط بالجنّ، وعن طريق بعض القوى الخفيّة والغير المرئيّة الأخرى كالأرواح. فإنّ بعض الأعمال الخارقة

---

١. ينقل السيّد أحمد الأنصاريّ، نجل العارف الكبير المرحوم الشيخ محمّد جواد أنصاري الهمدانيّ، عن قول أبيه المرحوم الأنصاريّ في الكشف والكرامة ما يلي: «لا تولوا المكاشفات والكرامات اهتماماً على الإطلاق، إلاّ إذا امرتم بها.... فقد يكون الإنسان قادراً على شقّ القمر، ولا يكون من أولياء الله». (عن كتاب «سوخته» بالفارسيّة، ص٢١٤).

كما وينقل السيّد إسلاميّة، صهر المرحوم الأنصاريّ عن هذا العارف الكبير قوله: «في المكاشفة على السالك خطران؛ الأوّل: تشخيص ربّانيّها من شيطانيّها، وذلك لأنّ للنفس قوّة خلاّقة، والتمييز بين هاتين الفئتين أمر مشكل. والثاني: إنّها توقِف السالك، وتشغله بهذه التفاصيل». (نفس المصدر السابق، ص٢٢٤).

للعادة قد تكون نتيجة أعوام من التمرين والتكرار والمتابعة المستمرّة والمضنية في الليل والنهار، وهي على أساس القاعدة التي تقول: بذلَ مجهوداً فأخذ عليه أجراً. وبطبيعة الحال، من الممكن أيضاً أن يكون الشخص صاحب كرامات جرّاء التسليم لله جلّ جلاله والعبوديّة له سبحانه.

وهنا يتبادر إلى الذهن السؤال الآتي: في مثل هذه الحالة، كيف يتسنّى لنا التشخيص بين ما إذا كان هذا العمل الخارق للعادة هو من مصاديق «الكرامة الإلهيّة» أو هو من الأنواع الأُخرى للأعمال الخارقة للعادة؟ والجواب إنّ هذا ليس بالأمر الميسور إلاّ أن نكون على معرفة دقيقة بالشخص نفسه. بالطبع قد لا يكون هذا الأمر ـ خصوصاً في بعض الموارد ـ يسيراً للغاية، بيد أنّه مع ذلك ليس بالمستصعب والمستحيل. فبمقدور المرء أن يستفسر عن معتقدات هذا الشخص، ومذهبه، ومسلكه، وسلوكه وتصرّفاته إن كانت صائبة، وهل إنّه قد نظّم حياته وفقاً لأوامر الشرع المقدّس وتعاليم الله عزّ وجلّ ونبيّه الكريم صلى الله عليه وآله، أم إنّه من أهل المعاصي والأعمال المخالفة للشرع والرياضات الباطلة، وليس له حظّ من العقائد الصحيحة الحقّة.

هل الظاهر شاهد على الباطن؟

ومهما كان، فما نودّ التأكيد عليه ثانية هنا هو الخطأ الذي قد يقع فيه المرء في تمييزه بين الكشف والكرامة الإلهيّين الربّانيّين وبين الأمور الباطلة. فكما سبق وأشرنا مراراً وتكراراً، فإنّ حيازة العلوم والمعلومات الغير المتعارفة والغيبيّة والشبيهة بالغيبيّة، وكذلك إنجاز الأعمال الخارقة للعادة هي من المسائل المشتركة بين الحقّ والباطل. فهناك الكثير من الأعمال الخارقة للعادة التي قد يقدر أهل الباطل على القيام بها. وقد ذكرنا أنّ هناك الكثير من

المرتاضين الذين يقومون بتلك الأعمال من دون أن يكون لهم إيمان بـالله أو اعتقاد بأيّ دين أو مذهب صحيح. هناك أمثلة عديدة على أعـمال مـن هـذا القبيل تُنجَز بواسطة تصرّفات الجنّ، وقد لا يـدرك نفـس المـرء ـ في بعـض الأحيان ـ أنّ الجنّ هم الذين يعينونـه عـلى هـذا العمـل الخـارق للعـادة في الواقع. إنّ معظم تلك القدرات والقضايا الخارقة للعادة هي من آثار تقوية الروح والرياضات التي بواسطتها يقوّي المرء روحه. وهذه هـي مـن جملـة أنماط العلاقة بين العلّة والمعلول، والقـوانين الإلهيّـة في هـذا العـالم؛ فمـثلما يقوى بدن الإنسان بالتمارين الرياضيّة فيكون قادراً على القيام بـما لا يقـدر عليه الآخرون، فكذلك الأشـخاص المرتاضـون هـم في الواقـع يمارسـون رياضات روحيّة، فتكتسب روحهم ـ بسبب ذلك ـ من القوّة ما يمكنّها من القيام بأعمال خارقة للعادة. وهذا الأمر ليس دليلاً على القرب مـن الله عـزّ وجلّ، بل إنّ هؤلاء يجهـدون أنفسهم، فيعطـيهم الله في هـذه الـدنيا أجـر جهدهم وتعبهم. وبناءً عليه، فلا ينبغي أن يكون مجرّد صدور فعـل خـارق من شخص دليلاً على تمتّعه بمقام معنويّ وعرفانيّ سام ورفيع.

ممّا تمّ استعراضه ـ إلى الآن ـ من مباحث في هذا الكتاب لابدّ أن نكـون قد خلصنا إلى نتيجة جليّة وواضحة مفادها: أنّ الركن الأسـاسيّ والمهـمّ في «العرفان» والسير إلى الله يكمن ـ أساساً ـ في المنزلة والدرجة التـي يكـسبها المرء في مضمار «معرفة الله تعالى». والمراد من هذه المعرفة ـ كما أُشير إلى ذلك مراراً ـ هي المعرفة الحضوريّة والشهوديّة، وهي أمـر لـيس لغـير الـشخص ذاته سبيل إليه. أمّا هل إنّ هذه المعرفة هي موجودة في نفس الإنسان أم لا؟ وإنّها إذا كانت موجودة، ففي أيّ درجـة ومـستوى هـي؟ فهـذا الموضـوع خارج عن نطاق علمنا واطّلاعنا، ولا يسعنا في هذا الباب إلاّ الحـدس بهـا

والظنّ ـ إلى حدّ معيّن ـ من خلال ما يجري على لسان الشخص وما ينقله من أمور. لكن لابدّ من الالتفات هنا إلى أنّ التحدّث والكلام في الأمور العرفانيّة هو أيضاً أمر مشترك بين من أصاب ونال، واقعاً، شيئاً من حقيقة العرفان، وبين من يردّد ما تعلّمه من الآخرين من ألفاظ. ومن هذا المنطلق، فليس كلّ من يتحدّث في الألفاظ الرنّانة، والمضامين العرفانيّة العالية يكون قد نال حقائقها وشاهدها فعلاً، بل ربّما كان كلامه هذا هو نتاج ما قرأه في الكتب من مباحث، أو ما تلقّاه من أساتذة علم العرفان.

أساساً، إنّه لا تلازم على الإطلاق بين حقيقة العرفان (التي هي المعرفة الشهوديّة لله تعالى) وبين التحدّث في المواضيع العرفانيّة وتبيينها، أو القيام بالخوارق للعادة من الأعمال. فلا العلم بالمباحث العرفانيّة، والحديث فيها، وصدور الأفعال الخارقة للعادة هي دليل على حيازة المرء لحقيقة العرفان، ولا عدم معرفته بالألفاظ والاصطلاحات العرفانيّة وعدم صدور الأعمال الخارقة للعادة منه علامة على أنّه لا نصيب له من المعرفة الشهوديّة والحضوريّة لله جلّ جلاله. في الحقيقة هناك أربع حالات يمكن تصوّرها في هذا المضمار:

١. فمن الممكن أن يكون الشخص عارفاً بالمباحث العرفانيّة، ويشاهَد منه بعض الخوارق للعادة من الأفعال، في حين أنّه لم يُصِب حتّى بصيصاً من حقيقة العرفان.

٢. وقد يكون الشخص غير عارف بالألفاظ والمفاهيم والاصطلاحات العرفانيّة المتداولة، ولا يصدر منه أيّ أمر خارق للعادة، إلاّ أنّه واصل إلى حقيقة العرفان، وقد تجلّت معرفة الله الحضوريّة في نفسه.

٣. ومن الممكن أن لايكون المرء عالماً بالألفاظ والاصطلاحات

العرفانيّة، ولا يقوم بعمل خارق للعادة، وهو في الواقع غير نائل لروح العرفان وحقيقته أيضاً.

٤. كما ويمكن أن يكون الإنسان عارفاً بالألفاظ والمفاهيم العرفانيّة من جهة، وهو من أهل المكاشفة والكرامات من جهة أخرى، ويكون قد نال حقيقة المعاني والمضامين العرفانيّة وأدركها من جهة ثالثة.

عندما تكون مثل هذه العلاقة بين أمرين، يُقال، باصطلاح علم المنطق، أنّ بينهما نسبة «العموم والخصوص من وجه». وعلى أيّ حال، فمجرّد استخدام المرء للألفاظ العرفانيّة المعقّدة والرنّانة، وسبره العميق للمصطلحات والمباحث العرفانيّة، لا يقدّم أيّ برهان على وفرة حظّه من المعرفة القلبيّة والشهوديّة لله عزّ وجلّ. وفي المقابل فإنّ عدم المعرفة بالمفاهيم والمواضيع العرفانيّة، أو عدم التطرّق إليها والحديث عنها لا يُعدّ دليلاً على عدم وصول المرء لحقيقة العرفان ومقاماته الرفيعة. وطبقاً للقاعدة ذاتها، فلا حصول الكشف لامرئ، وظهور الكرامات والأمور الخارقة للعادة على يديه يعدّ شاهداً على مقاماته المعنويّة والعرفانيّة العليّة، ولا عدم ظهور تلك المسائل على يديه دليل على أنّ طريق التشرّف بساحة القرب الإلهيّ، ونيل المقامات العرفانيّة المنيعة مسدود في وجهه.

أساساً، إنّ من القضايا المهمّة التي يتعيّن الالتفات إليها في باب العرفان هي أنّه ليس من السهل إصدار الحكم لتحديد المقامات المعنويّة والعرفانيّة للأشخاص اعتماداً على الظواهر. إنّ ما يسعنا نحن الحكم على أساسه هو أن ننظر من هم الأشخاص الذين تنسجم حياتهم مع الموازين الشرعيّة، والذين تعبّر مراعاتهم لدقائق الأمور في أعمالهم وتصرّفاتهم عن مدى إخلاصهم لله جلّ شأنه، وعمق ودقّة معرفتهم له، ودرجة توكّلهم عليه،

وما إلى ذلك. إنّ مشاهدة هذه الأمور هي التي يمكن أن تعيننا ـ إلى حدّ ما ـ على تحديد المستوى المعرفيّ والعرفانيّ للشخص. وعلى أيّ حال، فإنّ الـذي باسـتطاعته أن يـدرك ويـشخّص حقيقـة مراتـب الأشـخاص الـشهوديّة، ودرجات معرفتهم القلبيّة بالله جلّ وعلا، هو ذلـك الواصـل إلى مـستوى الإحاطة بالروح نتيجة طيّه للمدارج العالية للكمال الإنسانيّ، على أن تكون إحاطته إحاطة حقيقيّة، وليست خياليّة ووهميّة.

عبد الكشف والكرامة!

الملاحظة الأخرى التي تلقى أهمّيـة بالغـة في مجـال الـربط بـين «العرفـان» و«القيام بالأمور الخارقة للعادة وجريانها على يد المـرء» هـي أنّـه، في مـسير العرفان والسير والسلوك، فإنّ ظهور العلوم الخارقة، والاطّلاع على مـا في ضمائر الناس وبواطنهم، أو جريان الكرامـات عـلى يـد الإنـسان، والقيـام بالأعمال الخارقة للعادة ليست هي ـ أساساً ـ مما يُغتَرّ به، ولا ينبغي أن تُـولَى اهتماماً يُذكر. إنّ هذه الأمور هي من ثمار الخطوات الأولى والبسيطة في هذا الطريق، ومن الدرجات الدنيّة جدّاً للعرفان والمعرفـة الـشهوديّة لله تعـالى، وإنّ العرفاء الكبار الحقيقيّين لم ولن يعطوها أيّ وقع أو أهمّية على الإطلاق. فقد يعطي الله سبحانه وتعالى بعـضاً مـن هـذه الأمـور لعـدد مـن الأفـراد استناداً لبعض المصالح التي لا يعلمها إلاّ هو جلّ شأنه، وقد يحجبهـا عـن البعض الآخر بحسب ما تقتضيه المصلحة أيضاً. كما قد تكون مجموعة مـن الناس من أصحاب الكرامات إلاّ أنّهم لا يُظهرونها لمصلحة ما.

أساساً، إنّه لابدّ من الالتفات إلى أنّ الكشف والكرامة ليسا من الأمـور التي تدعوا الإنسان إلى التعلّق بها، بل إنّنا إذا أمعنّا النظـر أكثـر لأدركنـا أنّ

التعلّق بأمثال تلك الأمور هو ضرب من الشرك، وهو من حبائل الشيطان التي ينصبها للإنسان في هذا الطريق. فالشخص الذي يخوض في السير والسلوك، ويتحمّل المتاعب في هذا السبيل، ويلتزم بالتعاليم والضوابط الشرعيّة بدقّة، لكنّ ما يصبوا إليه في أعماق قلبه هو الوصول إلى الكشف والشهود، وجريان الكرامة على يديه، فليعلم أنّه مخطئ تماماً، وأنّه يسير في الطريق الباطلة. إنّ إنساناً كهذا ليس هو في مقام العبوديّة لله، بل هو ـ في الحقيقة ـ عبد للكشف والشهود والكرامة! فقبلة آماله ومقصوده في هذا المسير ليس هو الله تعالى، بل الكشف والشهود. من هذا المنطلق، إذا وصل مثل هذا السالك إلى مستوى الكشف والشهود فلن يعود له طلب آخر يطلبه من الله عزّ وجلّ، فيكون مَثَله كمثل ذلك المرتاض الذي بذل جهوداً جبّارة لتقوية روحه ثمّ لم يحصل إلاّ على أجور أتعابه في هذه الدنيا.

إنّ العبوديّة الحقيقيّة لله جلّ وعلا هي أن يعبد الإنسان الله تعالى لا لشيءٍ إلاّ لأنّه الله وحسب؛ وأن يترك الخيار لله في أن يعطي أحداً شيئاً أو أن يحرم الآخر من شيء وفقاً لما يراه هو سبحانه من مصلحة. فلا ينبغي أن نعبد الله بدافع الوصول إلى مقام الكشف والكرامة، لأنّ عبادة الله وطاعته لهذا الغرض ستكون من مصاديق الآية الشريفة: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾[1]، فهوى الإنسان قد يتمثّل تارة في المنصب والرئاسة، وتارة أخرى في الثروة، وتارة ثالثة في الشهوة الجنسيّة، وأحياناً في الكشف والشهود والكرامة أيضاً. فلا فرق بين هذا وذاك إطلاقاً من حيث أنّ كلّ تعلّق بما سوى الله هو من مصاديق ﴿مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾. فمثلما يدور الشغف للكرسيّ والرئاسة في خلد المرء ويبذل الغالي والنفيس من أجل بلوغه، فمن

---

١. سورة الجاثية، الآية ٢٣.

الممكن أن تشغله نزوة نيل الكشف والكرامة أيضاً. فلا فرق بين الاثنين على الإطلاق من جهة أنّ كليهما من مصاديق «هوى النفس». من هنا، فإنّ من أهمّ المسائل في مضمار السير والسلوك هي إخلاص النيّة. فيتعيّن على الإنسان منذ البداية، ومن أوّل خطوة يخطوها في هذا السبيل، أن يُخلي قلبه من أيّ دافع وحافز غير الله تعالى وكسب رضاه، وأن لا يقوم بأيّ فعل إلاّ بنيّة أنّ الله أمر به، وأنّه ممّا يرضيه سبحانه، لا بدافع الآثار والمقامات التي ستُنال بسبب هذا العمل، أو أيّ دافع آخر ما خلا جلب رضاه عزّ وجلّ[1].

العرفاء الحقيقيّون

على أيّ حال، لابدّ من الالتفات إلى أنّ هناك أشخاصاً يدّعون حيازتهم أعلى مراتب المعرفة الإلهيّة في حين أنّهم لم يشمّوا ولا نسيماً من معرفة الله، بل إنّ قلوبهم خاوية من معرفته جلّ شأنه، وليس لهم في هذا الوادي سوى الادّعاء والثرثرة. علينا أن نتوخّى غاية الحذر لئلاّ نقع فريسة حِيَل هؤلاء. فالكلام ليس هو المعيار، بل يجب التمعّن والتفحّص في سلوك المرء وسيرته ومعتقداته؛ هل إنّها مبنيّة على أساس من أوامر الشرع المقدّس وأصوله

---

١. يروي نجل العارف الكبير سماحة آية الله الشيخ محمّد جواد أنصاري الهمدانيّ ﵀ قائلاً: لم يكن المرحوم والدي يهتمّ بالكرامات وأمثال هذه المسائل، وكان يوصي تلاميذه بأنّ المرء إذا تعلّق قلبه بهذه الأمور فلن يبلغ القرب الإلهيّ، وسيبقى على قارعة الطريق. كان يقول: «إنّ الإنسان يصل، بواسطة المجاهدات الشرعيّة، إلى حيث يصبح المرآة التي تعكس الصفات الإلهيّة بتمامها وكمالها، ولذّة ذلك لا هي ممّا يُتذوّق، ولا ممّا يُقال». وكان يردّد:

با پیر سخن همی گفتم دوش — کز راز جهان بر من دلخسته مپوش
نرم نرمك مرا همی گفت به گوش — دانستنی است گفتنی نیست خموش

(أي: قلتُ للعارف ليلاً: لا تُخفِ عنّي أسرار العالم. فهمس في أذني قائلاً: إنّها تُدرك وتُعرَف ولا تُقال، فَصَهْ). (عن كتاب «سوخته»، ص٢٢٠، وهو بالفارسيّة).

وتعاليمه أم لا؟ هل إنّ عمله يصدّق قوله تماماً، أم إنّ هناك تعارضاً وتناقضاً بين الاثنين؟

فالعارف الحقيقيّ لا يحتاج إلى الجَلَبة والضجيج، وهو ليس من أهل التظاهر، ولا يتحيّن الفرص لإفهام الجميع بأنّه قد عرف الله وبلغ مقام العرفان. فكون المرء عارفاً لا يقتضي أن تكون له خصوصيّة في الشكل، والهيئة، والزيّ، وتصفيف الشعر، والهندام؛ فمن الممكن أن يصير المرء عارفاً في أيّ زيّ كان. فقد يقطن محلّتك أو مدينتك إسكافيّ بسيط، وهو ليس من ذوي الادّعاءات، وأنت لا تعرف حقيقة أمره، لكنّه ـ في الحقيقة ـ من أولياء الله ومن خواصّ المقرّبين إليه عزّ وجلّ. لقد كان بين صفوف المجاهدين والشهداء في جبهات الدفاع المقدّس عرفاء ذوو درجات رفيعة لم يصل إلى منزلتهم حتّى أولئك الذين قضّوا ستّين عاماً من المجاهدات الروحيّة والعبادات المختلفة. لقد قطع هؤلاء طريق مائة عام في ليلة واحدة. فهنيئاً وطوبى لهم، وإنّه لفخر لي، وأنا في عمري هذا وشيبتي هذه، لو كنت التراب الذي وطأته أقدام هؤلاء. فليس الانضواء تحت راية العرفان ونيل المقامات العرفانيّة الشامخة حكراً على جماعة أو طائفة بعينها، بل إنّ باب العرفان مفتوح على مصراعيه لكافّة شرائح المجتمع؛ بدءاً من العالِم، والدكتور، والمهندس، والمتعلّم، وانتهاء بالكاسب، والتاجر، والعامل، والمُزارع، والأمّي.

أنْ يكون المرء «عارفاً» ليس هو بالتسمية، فليس بالضرورة أن يُطلق على المرء اسم «العارف» لنقول إنّه أدرك حقيقة العرفان. فالكثير من العلماء ممّن لم نعرفهم إلاّ بالفقاهة والإفتاء، والتخصّص في الأحكام الشرعيّة، والحلال والحرام كانوا من أصحاب المقامات العرفانيّة الرفيعة ومن أعاظم العرفاء في

عصرهم. فلابدّ من البحث عن العرفان في أعمال الأشخاص وسيرتهم وخُلُقهم ونهجهم، لا في قولهم وكلامهم البرّاق وادّعاءاتهم التي تصمّ آذان الأفلاك. فالأئمّة عليهم السلام، الذين كانوا في أوج منازل العرفان، وفي قمّة المقامات المعنويّة، قد علّمونا العرفان الحقيقيّ في سيرتهم وكلماتهم. فقد بُيّنت سمات العرفان الحقيقيّ وخصوصيّات العرفاء الحقيقيّين في الكثير ممّا بين أيدينا من الأدعية المأثورة عن هؤلاء العظماء عليهم السلام، ولعلّ المناجاة الشعبانيّة هي من أبرز الأمثلة على ذلك؛ فهي تنطوي على مضامين غاية في السموّ والعلوّ، ولقد حرص أمير المؤمنين وسائر الأئمّة من بعده عليهم السلام ـ وفقاً لما جاء في الخبر ـ على الالتزام بتلاوتها. إنّنا نقرأ في جانب من هذه المناجاة: «**إلهي وألحِقني بنور عزّك الأبهج، فأكون لك عارفاً، وعن سواك منحرفاً، ومنك خائفاً مراقباً**»[1].

فالحاجة التي تُطلب من الله تعالى في هذا المقطع من الدعاء هي الإيصال إلى مقام العرفان؛ فهو يقول: «**فأكون لك عارفاً**». فما هي علامة العارف يا ترى؟ إنّ أوّل وأهمّ علامة للعارف هي كونه: «**عن سواك منحرفاً**». فإن كان المرء عارفاً بالله حقّاً، فلن يسلّم قلبه لغير الله عزّ وجلّ، وسيكون قلبه منحرفاً ومشيحاً بوجهه عن كلّ ما سوى الله جلّ شأنه. إنّه سوف يتسامى عن مقام العلاقة بين المريد والمراد، وسيكون الأمر بالنسبة له سيّان؛ كان له مريد، أم لم يكن. والعارف الحقيقيّ هو الذي لا يهتمّ بشيء عدا الله سبحانه وتعالى، والذي يتساوى في عينه تلّ من الرماد مع كنز عظيم من الجواهر الثمينة.

العلامة الثانية للعارف الحقيقيّ هي أن يكون «**منك خائفاً مراقباً**»؛ فهو لا يخاف إلاّ من الله وحده، وإنّ التفاته منصَبّ دوماً على الله، وهو دائم المراقبة لنفسه لئلاّ يخطو خطوة واحدة فيما يخالف رضا الله تعالى ورغبته.

---

١. مفاتيح الجنان، أعمال شهر شعبان المشتركة، المناجاة الشعبانيّة.

هذه هي حقيقة العرفان، وعلامات العارف الحقيقيّ. ففي العرفان والقرب من الله ليس هناك ضرورة للاسم والهيئة، إذ ليست القضيّة أنّه إذا لم يُنعَت الشخص بـ«العرفان» ولم يكن معروفاً بين الناس باسم «العارف» أو «الصوفيّ» وما شابه ذلك فهو محروم من العرفان. فالكثير من أعاظم علمائنا لم يكونوا يُلقّبون بالعرفاء، إلاّ أنّ الذي يسعى وراء حقيقة العرفان يتعيّن عليه أن يبحث عنها عندهم. كثيرون ممّن نعرفهم بلقب الفقيه أو الفيلسوف أو المحدّث كانوا أصحاب كرامات إلهيّة، ومقامات عرفانيّة عليّة، ومعرفة شهوديّة، لكنّهم، إذ لم يكونوا من أهل التظاهر والضجيج والاسم والهيئة، لم يشتهروا بين الناس بلقب العرفاء في حين أنّهم قهروا قمماً شامخة من المعرفة العرفانيّة، وخلّفوها وراء ظهورهم. وبالمناسبة، فإنّ الوثوق والإطمئنان بأمثال هؤلاء لَيفوق الوثوق بمن يدّعي العرفان ومن يُنادَى بعرفانهم في كلّ حيّ وزقاق. بالطبع إنّ بعض الكُتّاب قد صنّفوا فريقاً من هؤلاء العظماء في زمرة العرفاء بسبب ما نُقل عنهم من كرامات، ولكنّه على أيّ حال لم يكن لهؤلاء في زمانهم هذا اللقب وهذه الصفة. ولربما تكون منازل العرفان ومقامات القرب الإلهيّ لأشخاص من قبيل المقدّس الأردبيليّ، والشيخ الأنصاريّ قد فاقت ما لأولئك المشهورين بالعرفان والتصوّف والكشف والكرامات.

إنّنا قد نقَيّم أشخاصاً، وفقاً للمقاييس المتعارفة، فنرى أنّهم شخصيّات عظيمة وبارزة جدّاً على صعيد العرفان والمقامات المعنويّة، في حين أنّهم لا يتمتّعون عند الله بذلك البروز وتلك المنزلة. كما وقد يتمتّع أشخاص بأعلى المقامات عند الله تعالى، وأشدّ درجات القرب منه، بينما لا نشاهد نحن عليهم ـ بحسب الظاهر ـ أيّ شيء يوحي بذلك البروز أو الكشف أو الكرامة.

من هذا المنطلق، فإنّ ظهور الكشف والكرامة وأمثالها على يد امرئ ليست هي دليلاً على أفضليّته على من لم تصدر منه مثل تلك الأمور. فقد يكون لأشخاص القدرة على القيام بالخوارق للعادة من الأعمال بيد أنّهم لا يُظهرون ذلك على الإطلاق. بل إنّه لكمالٌ بحدّ ذاته أن يكون المرء قادراً على فعل ما هو خارق للعادة، إلاّ أنّه يحجم عن القيام به لئلاّ يعرفه الآخرون، وأن لا تشوب عبوديّتَه لله تعالى شائبةُ الرياء والتظاهر. وعلى هذا الأساس، فلا يصحّ لنا أن نصنّف من لا تجري على أيديهم الكرامات في مستوىً أدنى من الآخرين؛ إذ قد تكون لديهم الكرامات إلاّ أنّهم لا يُظهرونها لسبب من الأسباب.

حكايتان عن الشيخ الأنصاريّ

الشيخ الأنصاريّ هو أحد كبار علماء الشيعة، وفي عداد شخصيّاتهم العلميّة الفذّة والمهمّة والمؤثّرة. منذ عشرات السنين وكتاباه «الرسائل» و«المكاسب» يدَرّسان في الحوزات العلميّة. من هنا فإنّ جميع علماء الحوزة الشيعيّة وكبارها ممّن تلا الشيخ الأنصاريّ في ميدان الفقه والفقاهة هم ممّن جلسوا على المائدة العلميّة لهذا العالم العظيم وتزوّدوا منها. وعلاوة على المقام العلميّ للشيخ وتعمّقاته وابتكاراته في الفقه والأصول، فإنّ ما يُضفي المزيد من الامتياز والبروز على شخصيّته هو زهده وتقواه وفضائله المعنويّة، فالشيخ الأنصاريّ هو من بين الأشخاص الذين يتسنّى العثور على حقيقة العرفان في كلّ زاوية من زوايا حياتهم وشخصيّتهم وسيرتهم. هو لم يكن يدرّس العرفان، ولا ألّف كتاباً في العرفان، ولم يشتهر بين طلاّبه وأهل زمانه بلقب «العارف»، إلاّ أنّ حضور الله عزّ وجلّ كان مشهوداً تماماً في

كلّ جانب من جوانب حياته. فالحديث في حياة الشيخ وسجاياه الأخلاقيّة، التي تُظهِر حضور حقيقة العرفان في نفسه وروحه، طويل ولا مجال للخوض فيه في هذا الكتاب. لكن من أجل إيراد الشاهد على ما أشرنا إليه من بحوث في السطور الأخيرة، نرى أنّ سرد حكاية أو اثنتين عن هذا العبد الصالح لا يخلو من اللطف والحسن.

يُنقل عن الشيخ، عندما كان يعيش في النجف الأشرف، أنّه دخل في نهار صيفيّ قائض إلى منزله، ويعرف الذين شهدوا صيف النجف أيّ قيض مريع هو. إذن، يصل الشيخ إلى بيته في هذا القيض اللاهب وهو ظمآن فيطلب جرعة من الماء. في ذلك الزمن، حيث لم يكن في النجف ثلج أو برّادات، ومن أجل حفظ الأغذية في فصل الصيف وتبريد الماء، كان الناس يجعلون لبيوتهم أقبية عميقة ويعلّقون مشربات وجِرار الماء في سقفه كي تبرد قليلاً. فإلى أن ينزلوا إلى القبو ويجلبوا الماء اغتنم الشيخ الفرصة وقال لنفسه: يستحسن أن أصلّي ركعتين. فلنتخيّلوا الموقف: في ساعة الظهيرة، وفي صيف النجف اللاهب حيث درجة الحرارة تتجاوز الخمسين، يعود الشيخ من درسه متعباً منهكاً ظمآنَ ويطلب الماء، لكنّه لا يجلس عاطلاً ولا يفوّت فرصة حتّى في هذا الوقت القصير! على أيّ حال، يشاء القدر أن يحصل للشيخ حال معنويّة بعد دخوله في الصلاة فيشرع بقراءة إحدى السور الطوال، فتستغرق صلاته وقتاً طويلاً، وعندما ينتهي منها ويأتي إلى الماء لشربه يجد أنّه قد سخن، فيشربه وهو ساخن، ثمّ ينصرف إلى عمله!

فهل العرفان ـ واقعاً ـ هو هذا؟ أم هو أن يعيش ذلك السيّد في قصره في باريس أو سويسرا أو أمريكا ويوجّه التوجيهات والنصائح من أجل جمع المريدين حوله؟ فأيّ من هذين المثالين ـ إذا نظرنا بعين الإنصاف ـ هو نموذج

للعرفان الحقيقيّ ولحقيقة العرفان؟ هل إنّ ما يتماشى مع العرفان هو العيش في المنازل الفخمة الفارهة في بلاد الكفر والاستعمار؟ أم هي حياة الشيخ الأنصاريّ في النجف الأشرف المفعمة بالبساطة والزهد؟

كان لباس الشيخ الأنصاريّ من الكِرباس الخشن، وتصفيف شعره وهندامه غاية في التواضع وعدم التكلّف، حتّى أنّ أساتذتنا الذين كانوا من تلامذة الشيخ ومعاصريه نقلوا أنّ هندام الشيخ وزيّه الظاهريّ كان يوحي لمن يراه في الطريق ممّن لا يعرفه بأنّه من المشتغلين في المقابر، أو كما كان يقول بعض المشايخ: «من عمّال الموتى»! هذا في الوقت الذي كانت تنهال على بيته كلّ يوم، من مختلف المدن والبلدان، أنواع الصرر والأكياس الضخمة من النقود والذهب ومختلف الأشياء كخمس وسهم إمام ولم يكن ليعيرها أيّ أهمّية!

أجل، فالعرفاء الحقيقيّون هم أمثال الشيخ الأنصاريّ الذين ما إن تسنح لهم الفرصة حتّى يغتنموها للخلوة مع المحبوب، فيهرعون إلى الصلاة، وينتابهم من الأنس، ويصيبون من اللذّة ما ينسيهم حتّى الظمأ. فهؤلاء قد وصلوا إلى درجة من الإنقطاع عن الدنيا وزخارفها المادّية بحيث أنّهم يقنعون بالقليل من متاع الدنيا ومنافعها، هذا وفي متناول أيديهم كمّ هائل من الأموال والمجوهرات. وفي هذا الباب تُروَى عن الشيخ حكاية غاية في الروعة وهي تستحقّ الإصغاء:

ينقل أحد طلاب الشيخ: شاهدت في ليلة من الليالي في عالم الرؤيا الشيطانَ وفي يده حبال مختلفة الأشكال. فسألته: ما هذه الحبال التي في يدك؟ قال: هذه الحبال التي أخدع بها الناس، فأُلقيها حول أعناقهم وأجرّهم نحوي؛ أحدها المال، والآخر النساء، والثالث المقام، والرابع الشهوة، و... الخ. ثمّ

رأيت حبلاً غليظاً قد انقطع، فسألت الشيطان: ما هذا؟ ولماذا هو مقطوع؟ فقال: منذ سنوات وأنا أحاول السيطرة على الشيخ الأنصاريّ والإيقاع به في حبائلي، حتّى أفلحت في هذا المجال ليلة أمس وألقيت هذا الحبل حول عنقه، لكنّ الشيخ قطع الحبل في النهاية ومزّق كلّ خيوطه.

يقول هذا الطالب: أفقت من نومي وأنا في حيرة شديدة ممّا رأيت فاستغرقت في التفكير فيه. ثمّ هرعت في الصباح الباكر إلى الشيخ وقصصت عليه ما رأيت في حلمي، فبكى الشيخ وقال: صدق هذا الملعون، فقد حاول ليلة الأمس خداعي بكلّ ما أوتي من لطائف الحيل، وقد جرّني معه إلى حافة الهاوية، لكنّه لم يفلح في نهاية الأمر. فقلت: ما هي القضيّة؟ قال: عشيّة أمس كان موعد ولادة امرأتي وقد طلبت منّي النسوة أن أجلب لها بعض السمن (قد جرت العادة عند معظم الناس قديماً أن يحضّروا للنفساء طعاماً سائغاً هو عبارة عن خليط من السمن ودقيق الحنطة معتقدين أنّ فيه فائدة كبيرة لها) لكن لم يكن لديّ المال لشراء السمن، فقلت لنفسي: لديّ «قِران واحد» (وهي عملة بسيطة لا تساوي كثيراً)من سهم الإمام عليه السلام، فلآخذه بعنوان القرض، ولأشتري به السمن، ثمّ أُرجعه بمجرّد حصولي على المال. فأخذت «القِران» بهذه النيّة، وخرجت من المنزل لشراء السمن. فقلت لنفسي وأنا في الطريق: لماذا أنا أفعل ذلك؟ فلو ابتُلِي الليلة أحد الطلبة بالمشكلة التي ابتُلِيت بها، فهل سيكون هذا «القِران» في متناول يده أيضاً كي يحلّ به مشكلته، حتّى عن طريق الاقتراض؟ فأيّ فرق بيني وبين الطلاّب العاديّين؟ فصرفت النظر عن الأمر، وقفلت راجعاً إلى المنزل، وأعدت النقود إلى مكانها.

فبالله عليكم إذا كان العرفان هو في الخوف من الله ومراقبته؛ حيث أنّه:

«**ومنك خائفاً مراقباً**»، فهل يشاهَد هذا الخوف من الله تعالى، ومراقبته عزّ وجلّ، والالتفات إليه في أعمال وحياة أولئك الذين يدّعون العرفان أكثر، أم في حياة من هم من أمثال الشيخ الأنصاريّ؟ أيكون أولئك الذين يتحدّثون عن العرفان وهم متشبّثون بالدنيا، وكلّ حياتهم وسيرتهم توحي بأنّ حبّ الدنيا والتعلّق بها قد ملأ كلّ وجودهم هم أقرب إلى حقيقة العرفان وروحه، أم الشيخ الأنصاريّ الذي لم يكن حتّى يحمل لقب «العارف»؟

من «القطب» إلى «الشريعة والطريقة»

من الأمور التي يمكننا الادّعاء أنّ جميع من يوصف بـ «التصوّف» يشترك فيها هو الاعتقاد بوجود «القطب». فالمتصوّفة يعتقدون بوجود قطب في كلّ زمان، وأنّ عليهم تشخيصه والإذعان والتسليم المطلق له، ذلك لأنّ القطب ـ حسب ادّعائهم ـ هو ذات «الإنسان الكامل». بل إنّ مقام ومنزلة القطب لدى المتصوّفة ـ في الحقيقة ـ هو أشبه بالمقام الذي نقول به نحن الشيعة للأئمّة المعصومين عليهم السلام.

إنّ الاعتقاد بالقطب له جذور في معتقد آخر شائع بين المتصوّفة، بل وبين بعض المتشرّعين أيضاً، وأساسه هو أنّ الأمور المعنويّة والمسائل المتعلّقة بالسير إلى الله مودعة فقط لدى أشخاص خاصّين بشكل سرّي ولم تُكشَف للملأ. فالمتصوّفة يعتقدون بأنّ النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وبعض الأئمّة الأطهار عليهم السلام، كالإمام أمير المؤمنين أو الإمام الرضا عليهما السلام، لم يكشفوا عن مسائل السير والسلوك إلاّ لأفراد خاصّين ممّن يمتلكون الظرفيّة المناسبة لإدراكها وحفظها، وإنّ هذه الأسرار قد حُملت في الصدور وانتقلت من يدٍ إلى يدٍ على مرّ التاريخ حتّى وصلت إلينا. فالأشخاص الذين يتلقّون هذه

الأسرار في كلّ عصر وزمان ويأخذون على عاتقهم مهمّة هداية الآخرين استناداً إليها يُطلَق عليهم اسم «الأقطاب».

على أساس من هذا التصوّر، فإنّ المسائل المرتبطة بالسير والسلوك وكيفيّة السير إلى الله هي من جملة الأسرار التي لم تبيَّن في الكتاب والسنّة المتوفّرة عندنا، بل إنّها أُودعت في خزانة صدور الرجال الإلهيّين، وهؤلاء الرجال ـ الذين يُعرفون بالأقطاب ـ موجودون في كلّ عصر وهم يتلقّون تلك الأسرار الواحد تلو الآخر. فإن أراد أحد بلوغ مقام مرموق في المسائل المعنويّة والعرفان والسير والسلوك ومعرفة الله فليس له من سبيل سوى الرجوع إلى القطب، وإذا ما انتخب أيّ طريق آخر فلن يكون نصيبه إلاّ الغيّ والهلاك.

هذا الاعتقاد، القائل بأنّ الأمور المتعلّقة بالسير والسلوك ونيل المقامات المعنويّة هي غير متوفّرة في ما بين أيدينا من الكتاب والسنّة، يحكي ـ في الواقع ـ العقيدة السائدة عند المتصوّفة والتي تذهب إلى القول بالتمايز بين «الشريعة» و«الطريقة». فالمتصوّفة يعتقدون بأنّ للإسلام شريعة كما أنّ له طريقة؛ حيث تتمثّل الأولى بأحكام الحلال والحرام، والواجب والمستحبّ، والطهارة والنجاسة، وأمثال ذلك ممّا هو في متناول الجميع وإنّ تفصيله مذكور عادة في الرسائل العمليّة. فالشريعة في نظر المتصوّفة هي قشرة الدين وظاهره، أما لبّ الدين وباطنه فيتمثّل بالطريقة التي هي من الأسرار الإلهيّة، وهي عند أصحاب السرّ، ولم تُجعل في متناول العامّة.

لكنّ المتصوّفة يختلفون في العلاقة بين الشريعة والطريقة، وهذه القشرة وذاك اللبّ. إذ يذهب بعضهم إلى القول بأنّ الطريقة هي فرع الشريعة؛ بمعنى أنّه لابدّ في جميع المراحل من رعاية أحكام الشرع بشكل كامل، لكن هناك ـ إلى جانب ذلك وبمعيّته ـ مجموعة من الآداب والطقوس والأعمال والمسائل التي

تُدعى «الطريقة» يتعيّن علينا الالتزام بها والعمل وفقها، وإلاّ لبقينا في قشرة الدين وظاهره، ولن ننال أبداً كنهه ولبّه وحقيقته. في المقابل، تميل جماعة أخرى من المتصوّفة إلى الفصل بين الشريعة والطريقة معتقدين بأنّ الشريعة هي المقدّمة والمدخل إلى الطريقة وأنّ العمل بالأحكام الشرعيّة هو الذي يُكسِب الإنسان الاستعداد والقابليّة للورود إلى الطريقة. لكن بعد اجتياز مرحلة الشريعة والولوج في مرحلة الطريقة لا تعود هناك ضرورة لرعاية الأحكام الشرعيّة؛ وبعبارة أخرى، إنّ قصد الله من الحلال والحرام والواجب والمستحبّ وما إلى ذلك هو أنّ العمل بها يمنح الناس اللياقة اللازمة لاكتساب الأنوار المعنويّة والتجليّات الربوبيّة. لذا، فبعد ظهور مثل هذه الظرفيّة واللياقة عند الإنسان، يحصل المقصود، ولن يكون الالتزام بالأحكام الشرعيّة والعمل بها ضروريّاً للمرء بعدئذ![1] هذه الجماعة لا تستثني حتّى الأعمال والأحكام العباديّة من هذا الأمر، وهم يعتقدون، في جملة ما يعتقدون به، بأنّه لا ضرورة حتّى لأداء الصلاة بالنسبة لمن تخطّى قشرة الدين ووضع قدمه على عتبة مرحلة الطريقة! وأمثال هؤلاء يتمسّكون ببعض الآيات والروايات في إثبات رأيهم هذا، ومن جملة ما يوردونه من الآيات كدليل في

---

١. يقول الإمام الخمينيّ ﷺ في هذا الخصوص: واعلم أنّ طيّ أيّ طريق في المعارف الإلهيّة لا يمكن إلاّ بالبدء بظاهر الشريعة. وما لم يتأدّب الإنسان بآداب الشريعة الحقّة، فإنّه لا يحصل له شيء من حقيقة الأخلاق الحسنة، كما لا يمكن أن يتجلّى في قلبه نور المعرفة، وتتكشّف له العلوم الباطنيّة وأسرار الشريعة. وبعد انكشاف الحقيقة، وظهور أنوار المعارف في القلب، سيستمرّ أيضاً في تأدّبه بالآداب الشرعيّة الظاهريّة.

ومن هنا نفهم بطلان دعوى من يقول: «إنّ الوصول إلى العلم الباطن يكون بترك العلم الظاهر»، أو: «إنّه، وبعد الوصول إلى العلم الباطن، تنتفي الحاجة إلى الآداب الظاهريّة»، وهذه الدعوى ترجع إلى جهل القائل بها بمقامات العبادة ودرجات الإنسانيّة. (عن كتاب «الأربعون حديثاً»، تعريب السيّد محمّد الغرويّ، ص٣١).

هذا الصدد هذه الآية الشريفة: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[١]؛ فهذه الطائفة من المتصوّفة يقولون في تفسيرهم لهذه الآية: إنّ الله سبحانه وتعالى عندما يقول لنبيّه صلى الله عليه وآله: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ فهو يعني: «أنّك إذا وصلت إلى مقام اليقين فلا داعي للعبادة بعد ذلك» والشاهد على ذلك هو كلمة «حتّى» التي تستخدم عند العرب لبيان غاية الشيء ونهايته. ومن هنا يكون معنى الآية هو: إنّ نهاية العبادة وغايتها هي بلوغ منزلة اليقين التي إذا وصل إليها المرء فلا داعي لأن يستمرّ في العبادة والصلاة بعدئذ!

لكن لابدّ من الالتفات إلى أنّه، وكما جاء في مختلف التفاسير، فإنّ المراد من كلمة «اليقين» في الآية مورد البحث هو «الموت» وليس «العلم» و«الاطمئنان»، بالضبط كما هو المراد من كلمة «اليقين» الواردة في سورة المدّثر؛ ففي يوم القيامة عندما يسأل «أصحابُ اليمين» المجرمين: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾[٢] يقول القرآن الكريم على لسان المجرمين في جوابهم: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * حَتَّىٰ أَتَانَا ٱلْيَقِينُ﴾[٣].

علاوة على ذلك فإنّ نفس سيرة النبيّ صلى الله عليه وآله هي خير شاهد على بطلان هذا الفهم. فهل لأحد الادّعاء بأنّه قد وصل في مدارج اليقين والمقامات المعنويّة والسير والسلوك إلى منزلة تفوق تلك التي للنبيّ صلى الله عليه وآله؟ إنّه لمن الواضح والجليّ أنّ للنبيّ صلى الله عليه وآله أعلى وأرفع مراتب اليقين والكمال وأنّ الناس العاديّين مهما بلغوا من مكانة ومقام فلن يصلوا حتّى إلى غبار المقام الذي

١. سورة الحجر، الآية ٩٩.
٢. سورة المدثر، الآية ٤٢.
٣. سورة المدثر، الآيات ٤٣ـ٤٧.

للنبيّ صلى الله عليه وآله والمرتبة التي هو فيها. مع ذلك فنحن نلاحظ أنّه صلى الله عليه وآله كان يهتمّ تمام الاهتمام، حتّى آخر يوم وآخر ساعة من عمره الشريف، بعبادة الله عزّ وجلّ، بما في ذلك أداء الصلوات الواجبة والمستحبّة. فإذا أخذنا هذا الأمر بنظر الاعتبار، فهل من المعقول أن نجعل النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله أسوة لنا ثمّ ندع العبادة جانباً بذريعة أنّنا وصلنا إلى مقام اليقين؟!

في الحقيقة إنّ أمثال هذه المسائل هي من إلقاءات الشيطان ودسائسه، ولا ينبغي الشكّ في بطلانها وكونها من الخرافات. فلم يكن للإسلام في يوم من الأيّام منهجان منفصلان يسمّى الأوّل «الشريعة» ويُدعى الآخر «الطريقة». فالإسلام في المجموع لا ينطوي إلاّ على منهج واحد للحياة ليس غير، وإنّ الغاية منه هي سموّ الناس، والبلوغ بهم إلى أرفع درجات الكمال والقرب الإلهيّ. فممّا لا ريب فيه أنّ الإنسان إذا عمل بحذافير ما جاء في هذا الكتاب وهذه السنّة، اللذين هما في متناول الجميع، فسيصل إلى أعلى درجات المعرفة بالله، والقرب منه جلّ جلاله، وأسمى مراتب الكمال الإنسانيّ[1]. فالإسلام كما

---

١. في هذا الصدد يقول العارف الواصل المرحوم آية الله الشيخ محمّد جواد أنصاري الهمدانيّ: «إنّ الشرع المقدّس فيه كلّ شيء. فجميع مراحل العرفان والسير والسلوك، حتّى المرحلة النهائيّة منه، التي هي الفناء في الله، قد جاءت على لسان الأئمّة المعصومين عليهم السلام في أخبارهم وأحاديثهم، وهي موجودة في كلام الله عزّ وجلّ». (عن كتاب «سوخته»، ص٧٨، وهو بالفارسيّة).

كما ويقول العارف الكامل المرحوم الشيخ ملاّ حسينقُلي الهمدانيّ في هذا الميدان: لا يخفَيَنّ على الأخوة في الدين أنّه لا سبيل إلى التقرّب إلى حضرة مِلك الملوك جلّ جلاله سوى الالتزام بالشرع الشريف في جميع الحركات، والسكنات، والكلمات، واللحظات، وغيرها، وأنّه ـ وإن كان الذوق في غير هذا المقام حسناً ـ فإنّ اتّخاذ سبيل الخرافات الذوقيّة، كما هو دأب الجهّال والصوفيّة ـ خذلهم الله جلّ جلاله ـ لا يوجب إلاّ بعداً. فلو التزم المرء بعدم حلق الشارب، والامتناع عن أكل اللحم، فإنّه سيبتعد عن حضرة الواحد الأحد حتّى وإن كان مؤمناً بعصمة الأئمّة الأطهار ـ صلوات الله عليهم ـ وعلى هذا يُحمل الأمر في كيفيّة الذكر بغير ما ورد عن السادة المعصومين عليهم السلام. بناءً على هذا، لابدّ من تقديم الشرع الشريف، والاهتمام بكلّ ما اهتمّ به فيه. (عن كتاب «تذكرة المتّقين»، ص١٧٧، وهو بالفارسيّة).

أنّه يقول بأعلى مرتبة وقيمة لـ «معرفة الله»، فهو لم يبخل أبداً، ولم يتوان إطلاقاً عن إرشاد الناس من أجل الوصول لهذا المقام، ونيل هذه القيمة، وقد وضع تحت تصرّف البشر كلّ ما يلزم للوصول لهذا الهدف، وفي هذا السبيل فقد أشار بمزيد من التأكيد على كلّ ما هو أكثر أهمّية، وقد تحدّثنا بإسهاب عن هذا الموضوع في مباحث الفصل السابق.

لم يجعل الإسلام تعاليمه والطريق الذي رسمه من أجل تكامل الإنسان منحصرة في شخص معيّن، بل إنّ الجميع باستطاعته فهمها والإفادة منها. فمن خصوصيّات منهج الإسلام وتعاليمه هو أنّها تمنح كلّ فرد الفرصة لكي ينتفع من آثارها وفوائدها بما يتناسب مع لياقته، ومعرفته، والجهد الذي يبذله. وإنّنا، وإن كنّا لا نُنكر أيضاً أنّ هناك مسائل لا يمتلك كلّ فرد اللياقة أو الظرفيّة لإدراكها، لكنّ أصل طريق السير والسلوك لم يكن ممّا بخل الله تعالى به على خلقه، أو أنّه لم يجعله في متناول الجميع. وبتعبير آخر، صحيح أنّ هناك حقائق متعالية لا يجد الإنسان اللياقة لإدراكها في بادئ الأمر، وأنّه يتعيّن عليه، من أجل نيلها، طيّ مدارج من الكمال والمراتب المعنويّة، بيد أنّ السبيل لبلوغ تلك المراتب ـ وهي البوّابة التي من خلالها تشاهَد تلك الحقائق وتُدرَك ـ قد تُرِك مُشرعاً للجميع، وأنّ كلّ من يسير فيه فسيصل إلى مقصده.

لكن، بخصوص «القطب» الذي يعتقد به المتصوّفة، والذي يعدّونه «الإنسان الكامل» في كلّ زمان، فلابدّ من القول: إنّ هذه العقيدة لا تنسجم مع المعتقدات الصحيحة للتشيّع. بطبيعة الحال، يمكن القول ـ بشكل من الأشكال ـ إنّه يوجد في كلّ زمان قطب وإنسان كامل، إلاّ أنّ هذا القطب وذلك الإنسان الكامل لا يمكن أن يكون غير «الإمام المعصوم عليه السلام». وفي زماننا هذا يكون القطب هو الإمام صاحب العصر والزمان عجّل الله تعالى فرجه الشريف.

إنّ العقائد والتعاليم الحقّة لمذهب التشيّع لا تتقبّل أبداً العقيدة القائلة بأنّه لابدّ في كلّ زمان من وجود إنسان كامل يكون غير الإمام المعصوم عليه السلام بحيث يكون كالمعصوم ذا شخصيّة مطلقة لا نقص فيها ولا زُخرف، وأنّه يتعيّن على الآخرين الخضوع له بشكل كامل ومطلق كخضوعهم للإمام المعصوم. بالإضافة إلى ذلك، يعتقد بعض الصوفيّة ـ على هذا الصعيد ـ أنّ وجود القطب متّحد بوجود صاحب الزمان عجّل الله فرجه؛ فهم ـ بعبارة أخرى ـ يعتقدون بوجود صاحب الزمان النوعيّ، ويقولون: صاحب الزمان ليس هو شخصاً معيّناً، بل إنّ صاحب الزمان النوعيّ في كلّ زمان يحلّ في جسد قطب ذلك الزمان! فعلى سبيل المثال، يمكن ـ إلى حدّ ما ـ العثور في كتب وأقوال الفرقة «الغناباديّة» و«الشيخية» على أمور ممّا يستنبط منه هذا المعنى.

على أيّ حال، فمثل هذا الاعتقاد هو مردود وباطل قطعاً ويقيناً، ولا يُعثَر في معارف الشيعة على مثل هذه الأمور على الإطلاق. فإن كان المراد من القطب هو فقط الإنسان الأكمل في كلّ زمان، فلن يكون هذا الشخص غير الإمام المعصوم عليه السلام، وفي زماننا الحاضر هو الإمام صاحب العصر والزمان عجّل الله فرجه. فنحن لا نعتقد بضرورة وجود فرد شاخص آخر غير المعصوم عليه السلام يُدعى «القطب» ويكون إنساناً كاملاً أيضاً. فلا ينهض أيّ دليل أو برهان على أصل هذه المسألة، فضلاً عن القول (كما يدّعي بعض فرق المتصوّفة) بأنّ هؤلاء الأشخاص هم سلسلة متّصلة ينالون مقام القطبيّة الواحد تلو الآخر بالوراثة. فلم يثبت هذا الأمر لدى الشيعة الإماميّة، ولا يلزم الاعتقاد به إطلاقاً، بل إنّ الدليل قائم على خلافه؛ فوفقاً لرأينا نحن الشيعة، فإنّه لن يصل أحد في زمان الغيبة (عدا الوجود المقدّس لصاحب الزمان عجّل الله فرجه) إلى منزلة العصمة والمقام

الذي ناله الأئمّة الأطهار عليهم السلام أصلاً[1]، وإنّ كلّ من نال أيّ مقدار من التكامل، وبلغ أيّ مرتبة ومقام، فإنّه لن يكون إلاّ ضيفاً على الإمام عليه السلام، وإنّ كلّ ما يتلقّاه فهو من مجرى فيض الإمام المعصوم عليه السلام[2]. من هنا، فما خلا الإمام المعصوم عليه السلام ليس هناك ـ حسب اعتقادنا ـ فرد بارز يتعيّن على الآخرين معرفته والإذعان له.

السير والسلوك ومسألة الحاجة إلى الأستاذ

من جملة ما يُطرح في بحث العرفان والسير والسلوك من أسئلة ومسائل هي مسألة الحاجة إلى الأستاذ والمربّي. والسؤال هو: هل الحاجة للأستاذ والمربّي من أجل السير إلى الله، والخطو في وادي العرفان، وطيّ طريق السير والسلوك هي حاجة ماسّة وملحّة، أم أنّه بوسع الإنسان الاكتفاء ببناء نفسه ومراقبتها، والعمل بأوامر الشرع المقدّس للوصول إلى الهدف المقصود؟ أمّا البُعد الآخر لهذا التساؤل فهو: هل إنّ البدء في طريق السير والسلوك يحتّم على المرء مطالعة المراحل والمسائل المتعلّقة به، على الأقل في الكتب المصنّفة

---

١. يصرّح الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة أنّه لا يمكن قياس أيّ أحد من هذه الأمّة بأهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله، أيّ الأئمّة المعصومين عليهم السلام، بقوله: «**هُم** [آل محمد صلى الله عليه وآله] **مَوضِع سرّه، ولَجَأ أمره، وعيبة علمه، ومَوئل حُكمه، وكهوف كتبه، وجبال دينه. بهم أقام انحناء ظهره، وأذهبَ ارتعاد فرائصه ... لا يُقاس بآل محمّد صلى الله عليه وآله من هذه الأمّة أحد، ولا يُسوّى بهم مَن جرَت نعمتهم عليه أبداً. هم أساس الدين، وعماد اليقين. إليهم يَفيء الغالي، وبهم يُلحَق التالي، ولهم خصائص حقّ الولاية، وفيهم الوصيّة والوراثة**». (نهج البلاغة، الخطبة ٢).

٢. يروي أحد الأخوة (وهو سماحة حجّة الإسلام الدكتور مرتضى آقا طهرانيّ) عن أحد العظماء قوله: رأيت آية الله الشيخ حسينقلي الهمدانيّ في المنام فسألته: هل إنّ أستاذنا السيّد عليّ القاضيّ إنسان كامل؟ فأجاب: ليس هو الإنسان الكامل الذي في ذهنك. فرويت المنام على المرحوم السيّد القاضي نفسه، فحكى سماحته منامي في درسه ثمّ عقّب قائلاً: «إنّني لا أساوي حتّى حذاء الناس الكُمّل!».

في هذا الحقل، أم إنّ التقيّد ببناء النفس ورعاية ما جاء في الكتاب والسنّة كاف للسالك؟

ومن أجل الردّ بشكل واضح على هذا التساؤل لابدّ من الالتفات إلى أنّ السير المعنويّ والتهذيب الأخلاقيّ يشبه تقوية الجسم، ومداواة البدن. فإن مِرض المرء فإنّه - بشكل طبيعيّ - سيراجع الطبيب، خصوصاً إذا كان المرض جدّياً وخطيراً، وكان المريض يعرف طبيباً ماهراً وحاذقاً ممّن له تخصّص في هذا المجال، فإنّه سيراجعه من دون تردّد. والطبيب بدوره سيصف للمريض، بعد الفحص والتشخيص، دواءً، ويوصيه بمجموعة وصايا، فيستعيد المريض عافيته من خلال العمل بتوصيات الطبيب، واستعمال الدواء الذي وصفه له. فإن وُجِد الطبيب في المجتمع وكان الوصول إليه أمراً سهلاً، فإنّ السبيل الذي يتّخذه النوع البشريّ هو هذا، ويتجلّى مصداق هذا الأمر بشكل أوضح في زماننا حيث التخصّصات الطبّية المختلفة والمتعدّدة.

لكن، إذا ما عدنا إلى الوراء لقرن أو قرنين من الزمن لرأينا أنّ الوضع كان مختلفاً تماماً في هذا الجانب؛ ففي ذلك الزمان كان يوجد الحكماء وأمثالهم، وفي أكثر الأحيان لم يكن عددهم في المدينة الواحدة يزيد عن الواحد أو الاثنين. كما لم يكن لديهم التخصّصات التي نشاهدها اليوم، إذ كان الحكيم يُبدي رأيه في جميع التخصّصات ويصف الدواء لكافّة الأمراض بدءاً من الأمراض العصبيّة، وأمراض الأذن، والعيون، وصولاً إلى أمراض القلب، والمعدة، والكلية، والكبد، وسائر الأمراض الأخرى. وبسبب هذه المحدوديّة كان كلّ شخص في ذلك الزمن تقريباً يعتبر نفسه نصف حكيم، بل وفي كثير من الأحيان كان الناس يتداوون بالرجوع إلى

تجاربهم الشخصيّة في هذا المجال، أو تجارب الكبار ومن لهم بعض الإلمام بأمور الطبابة، وأحياناً كانوا يرجعون إلى الكتب المدوّنة في هذا الحقل من أجل التداوي وحلّ مشاكلهم الطبّية.

وما ذكرناه في ميدان التداوي من الأمراض البدنيّة يصدق أيضاً في مجال الألعاب الرياضيّة التي تُتّخذ كحرفة. ففي السابق لم يكن المدرّبون البارزون والأكفاء في صناعة الأبطال الرياضيّين، ممّن يقومون بتدريب الرياضيّين وفق أُطر وبرامج علمية دقيقة ومعروفة، متوفّرين في كلّ مكان. ففي تلك الأيّام كان الذين يرومون بلوغ مستويات مرموقة في هذه الرياضة أو تلك، يفيدون من تجارب المتمرّسين في هذا المضمار، ويمارسون التمرينات الشخصيّة لبلوغ تلك الغاية. وبالطبع، لمّا لم يكن هذا العمل يُنجز غالباً تحت إشراف أستاذ أو مدرّب، ولم يكن ضمن إطار برنامج خاصّ ومعروف، كان يؤدّي أحياناً إلى بعض الخسائر. لكن اليوم، حيث أصبح لكلّ احتراف رياضيّ مدرّبوه الخبراء والمتمرّسون، وبرامجه العلميّة المعروفة الخاصّة، فإنّ الرياضيّين في الوقت الحاضر يقومون بتدريباتهم تحت إشراف مدرّب خاصّ وفي إطار برنامج علميّ، وتمارين خاصّة، وضمن مقاييس محدّدة.

على أيّ حال، فإنّ الأمور المعنويّة أيضاً هي على نفس هذا المنوال وتتّبع نفس القانون تقريباً. ففي هذا الحقل أيضاً، إذا كان هناك أشخاص ممّن تجشّموا عناء مصاعب كثيرة، ووصلوا إلى المقامات العالية والسامية من السير والسلوك، ولهم القدرة على تربية الآخرين، فإنّ بمستطاع الإنسان الإفادة من تجاربهم وتعليماتهم وإرشاداتهم، وأن يُخضِع نفسه لتربيتهم، كي يطوي ـ بالتدريج وفي ظلّ إرشاداتهم وتوصياتهم ـ المراحل التي ينصحون بها الواحدة تلو الأخرى. هؤلاء الأشخاص، وبالنظر لما لديهم من تجارب وطول باع في هذا المجال،

قادرون على تشخيص النقاط الأشدّ ضعفاً لدى الإنسان، فيضعونها في حساباتهم، ويعالجونها ـ بحسب الأولويّات ـ ضمن منهج محدّد ومبرمَج. إذن، إن أمكن العثور على أشخاص كهؤلاء، فإنّ السبيل العقلائيّ ـ كما هو الحال في المجالات الأخرى ـ يقضي باستشارتهم والإفادة من إعاناتهم وإرشاداتهم[١].

إلاّ أنّ الواقع المتوفّر في الخارج يشير إلى أنّ العثور على مثل هؤلاء الأشخاص أمر صعب للغاية. فالعثور على أشخاص يكونون محطّ ثقة من كلّ الجوانب، وواصلين إلى المقامات العالية من معرفة الله والسير والسلوك، ليس هو بالأمر اليسير. أضف إلى ذلك أنّ وجود أمثال هؤلاء ـ أساساً ـ غاية في الندرة في كلّ زمان، ومن حيث أنّهم ليسوا من أهل التظاهر والرياء فإنّ ذلك يزيد في صعوبة العثور عليهم، وعلى الأقل فهم ليسوا ممّن يسهل كثيراً نيلهم والوصول إليهم. فالمدّعون كثيرون، إلاّ أنّ أولئك «الواصلين» حقّاً، والذين ليسوا بضالّين ولا مضلّين، فهم قلّة للغاية، وإنّ الأصعب هو كشفهم والوصول إليهم.

لكن ـ على أيّ حال ـ فإنّ ندرة وجود هؤلاء، وصعوبة الوصول إليهم يجب أن لا تشكّل عائقاً أمامنا، وذريعة بيد الشيطان الذي ديدنه ردعنا عن السير والسلوك وطيّ سبيل العرفان ومعرفة الله. ومطالعة الكتب الأخلاقيّة والعرفانيّة المعتبرة، والاطّلاع على التوصيات التي دوّنها كبار العرفاء للمتعلّمين، وقراءة

١. يقول المرحوم السيّد عليّ القاضيّ: «إنّ أهمّ ما يلزم في هذا الطريق هو الأستاذ الخبير البصير، التارك لهواه، الواصل إلى معرفة الله، والإنسان الكامل الذي طوى ـ مضافاً إلى السير إلى الله ـ ثلاثة أسفار أخرى، بحيث أنّ تجوّله ومشاهداته في عالم الخلق تكون بالحق». وكان المرحوم القاضي يقول: «لو أنّ طالب السير والسلوك في طريق الله قضى نصف عمره في البحث عن الأستاذ الذي يدلّه على هذا الطريق، فإنّ ذلك يستحقّ هذا الثمن». وكان يقول: «من وجد الأستاذ فقد قطع نصف الطريق». (عن كتاب «تحفة الملوك في السير والسلوك» المنسوب لبحر العلوم، ص١٧٤، وهو بالفارسيّة).

الرسائل التي خطّها بعض أساتذة الأخلاق وأرباب المعرفة لبعض السالكين وغيرهم من الناس، يمكنها أن تنفعنا وأن تفتح الطريق أمامنا[١]؛ نذكر من

---

١. وكنموذج نرى أن نزيّن كلامنا هنا بجانب من كلام العارف الكامل المرحوم الملاّ حسينقلي الهمدانيّ، نقلاً عن كتاب «تذكرة المتّقين»:

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على خير خلقه محمّد وآله الطاهرين. وبعد، فلا يخفى على طالبي النجاة والسعادة الأبديّة أنّ أهل النجاة هم طائفتان: الأولى هم «أصحاب اليمين»، والأخرى هم «المقرّبون».

فإن عمل طالب السعادة بوظيفة أصحاب اليمين ـ التي هي عبارة عن ترك المعصية ـ كان من جملتهم، أمّا المقربون فإنّ لهم ـ علاوة على ذلك ـ وظيفة أخرى ليس غرضنا هنا بيانها.

أوّلاً، لابدّ أن نعلم أنّه إذا فهم شخص من أفراد الإنسان مقدار حقارته ودناءته، ثمّ أدرك بعد ذلك مدى عظمة وقدرة حضرة ملك الملوك، فسوف يفهم لا محالة أنّ كلّ ما تجرّأ عليه من الخطو في طريق المعصية والإقدام عليها في حضور سلطان عظيم الشأن كهذا سيجعل كلّ شيء في مهبّ الريح ويلحقه بالمعدومات. وإنّ ما تراه من استسهال المعصية في نظرك فهو يرجع إلى عدّة أمور نذكر هنا بعضها:

أوّلاً: إنّك قد حصرت تفكيرك في الدنيا الدنيّة تماماً، فغفلت لذلك ـ بالمرّة ـ عن النفع والضرر الأخرويّ. فأنت لا تدري أيّ مقدار عظيم من المنافع والسعادة الأبديّة قد فاتك، وكم من الأضرار العظيمة الجمّة قد ألحقت بنفسك.

وثانياً: إنّك غير ملتفت إلى عجزك وحاجتك وفقرك، إذ أنّ كلّ ذرّة في بدنك هي قائمة بحفظ عُمّاله هو، وهم الملائكة.

وثالثاً: إنّك لا تعلم أنّه في كلّ آن، وفي كلّ جزء من أجزاء بدنك، هناك نعَم غير متناهية قد تَرحّم ويترحّم عليك بها ممّا لا يمكن حصره بالبيان والبنان! فإن كان الأمر كذلك، فكيف تستعمل نعمه في معصيته؟!

ورابعاً: كيف تغفل عن عقوباته الشديدة؟ ألا تعلم أنّ لنا بين الموت والقيامة ألف غصّة وحسرة، أهونها مرارة نزع الروح؟ لماذا الغفلة عن شدائد القيامة؟ الويل من ذلك اليوم الذي من دهشته ووحشته يكون المقرّبون في خوف واضطراب. ولمَ لا يكونون؟! الويل من ذلك اليوم الذي تكون أرضه وهواؤه ناراً، وجهنّم محيطة بالخلائق من حولهم، زبانيتها ملائكة غلاظ شداد، والصالحون هم في وحشة واضطراب، والمجرمون هم في ألم وعذاب. الشمس في كبد السماء، والأرض أحمى من أتّون الحدّاد. فخطر الحساب من جهة، ودهشة الصراط من جهة أخرى، والحال أنّه لم تصل الأمور بعدُ إلى جهنّم. فهل أتحدّث عن نارها وسلاسلها وأغلالها، أم عن أفاعيها وعقاربها؟

والحاصل، إنّ كلّ ما كتبته هو خلاصة؛ فهذه الفقرات المكتوبة لا تبيّن حتّى واحداً من ألف. فجُلّ نصائح هذا الفقير المسكين لك هو الاهتمام بترك المعصية. فإن أسديت هذه الخدمة [لنفسك]، ←

لأوصلت نفسك إلى منازل عالية في نهاية المطاف. لا ينبغي أن تتوانى عن اجتناب المعصية بتاتاً، وإن صادف أن أذنبت ـ لا سمح الله ـ فتب من فورك، وصَلِّ ركعتين، واستغفر الله بعد الصلاة سبعين مرّة، ثمّ اسجد واطلب العفو من حضرة الإله المتعال في سجودك، ورجائي أنّه سيعفو عنك.

لقد ورد ذكر المعاصي الكبيرة في بعض الرسائل العمليّة، فتعلّمها واتركها. وحذار من الغيبة، والكذب، وإيذاء الآخرين.

فلتستيقظ ـ على الأقلّ ـ ساعة قبل الصباح ولتسجد لله. إنّ ما ذكر في «منهاج النجاة» للمرحوم الملاّ محسن الفيض ـ رضوان الله جلّ جلاله عليه ـ كاف وشاف لأعمالك في اليوم والليلة، فاعمل على غراره، واحرص على أن لا يقتصر عملك وذكرك على اللسان، وأن يكون بحضور من القلب، فالعمل من دون حضور لا يُصلِح القلب، وإن كان له القليل من الثواب.

لابدّ، لابدّ أن تفرّ من الطعام الحرام! وأن لا تأكل إلاّ الحلال. وكُلْ قليلاً ولا تسرف في الأكل، أي لا تأكل ما يزيد عن حاجة بنيتك؛ فلا تكثر من الأكل حتّى تشعر بالثقل فيحرمك ذلك من العمل، ولا تقلّله إلى الحدّ الذي تضعف به عن العبادة. وصم ما وسعك ذلك، شريطة أن لا تقوم في ليلك بأعمال نهارك. والحاصل، إنّ الطعام على قدر حاجة البدن ممدوح، وانّ كلاًّ من الزيادة والنقصان مذموم.

وابدأ بصلاتك بقلب طاهر من الحقد والحسد والغلّ والغشّ للمسلمين، على أن يكون كلّ من لباسك وسجّادتك ومكان صلاتك مباحاً. وإنّه وإنْ كانت نجاسة المكان ـ عدا محلّ الجبهة ـ بنجاسة غير مسرية ليست مبطلة للصلاة، لكنّ عدم كونه نجساً أولى. وقف للصلاة وقوف العبد بين يدي المولى الجليل، بعنق محنيّ، وقلب خاضع وخاشع. واستغفر بعد صلاة الصبح سبعين مرّة، واتلُ كلمة التوحيد الطيّبة مائة مرّة، واقرأ دعاء الصباح المشهور، ولا تتركنّ تسبيح سيّدة النساء عليها السلام بعد الفريضة. وأقرأ كلّ يوم ما وسعك ـ على الأقل جزءاً ـ من القرآن باحترام ووضوء وخشوع وخضوع، ولا تتكلّم أثناء القراءة إلاّ في مقام الضرورة. وعند الإيواء إلى الفراش تشهّد، واقرأ آية الكرسيّ، والفاتحة مّرة واحدة، وسورة التوحيد أربع مرّات، والقدر خمس عشرة مرّة، وآية ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ ...﴾، كما أنّ الاستغفار مناسب أيضاً. وإن استطعت أحياناً أن تقرأ التوحيد مائة مرّة فذلك حسَن جداً.

ولا تغفلَنّ عن ذكر الموت، واستلق على جانبك الأيمن ذاكراً لله واضعاً يدك على خدّك الأيمن. ولا تغفلَنّ عن الوصيّة، واتلُ الذكر المبارك: ﴿**لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ**﴾ قدر ما استطعت، وردّده كثيراً في كلّ وقت، وبالدرجة الأولى في الليل. واقرأ سورة القدر المباركة مائة مرّة في كلّ ليلة جمعة، ولا تتركنّ قراءة دعاء كميل في تلك الليلة، ولتقرأ إحدى مناجاة خمس عشرة فيها أيضاً، أيّاً منها تراها مناسبة لحالك؛ لاسيّما مناجاة المساكين، والتائبين، والمفتقرين، والمريدين، والمتوسّلين، والمعتصمين، فلتُكثِر من قراءتها. كما أنّ أدعية الصحيفة الكاملة [السجّاديّة] (كلّ في مقامه المناسب) حسنة جداً.

واستغفر الله في وقت العصر سبعين مرّة، وقل: «**سبحان الله العظيم، سبحان الله وبحمده**» مرّة، واتل الاستغفارات الخاصّة، ولا تنس إطالة السجود، كما إنّ إطالة القنوت حسنة جداً أيضاً، وكلّ هذا مع ترك المعاصي حسن للغاية. ألتمسك الدعاء. (عن كتاب «تذكرة المتقين»، ص١٩٤ـ١٩٩، وهو بالفارسيّة).

هؤلاء العظماء: المرحوم الملاّ حسينقلي الهمدانيّ[١]، والمرحوم الشيخ محمّد

---

١. العارف الكامل، والحكيم العظيم، والفقيه الكبير المرحوم الآخوند الملاّ حسينقلي الهمدانيّ يعدّ من نوادر عصره، ممّن بلغ الذرى في العرفان والسير والسلوك، وأفلح في إرشاد جمع غفير من الناس. لقد كان أستاذاً متفرّداً في زمانه، بل وبعد وفاته. يقول المرحوم الشيخ آقا بزرك الطهرانيّ في كتابه النفيس «الذريعة» في ترجمته لحياته وسيرته ما يلي:

«لقد كان من أعاظم علماء الشيعة، وأكابر فقهائهم، والخاتم لعلماء الأخلاق في عصره. ولد في قرية «شَوَند» في «جزين» من «همدان» عام ١٢٣٩ للهجرة. درس المقدّمات في طهران، ثمّ تلقّى الدروس الحوزويّة العالية على يد العالم الأكبر الشيخ عبد الحسين الطهرانيّ، المشهور بشيخ العراقين. سافر بعدها إلى «سبزوار» واختار الإقامة فيها لمدّة من الزمن مستفيداً من درس الفيلسوف المعروف الحاج المولى هادي السبزواريّ، ليهاجر بعد ذلك إلى النجف الأشرف، ويتتلمذ لسنوات طوال على يد الشيخ مرتضى الأنصاريّ. وفي حقل الأخلاق فقد أفاد من السيّد علي الشوشتريّ وكان تلميذه.

لم يتصدّ الملاّ حسينقلي الهمدانيّ بعد وفاة أستاذه للفتوى، ولم يسعَ وراء الرئاسة، بل جلس في داره يجذب الطلاّب من ذوي الاستعداد... فربّى طلاّباً هم أعجوبة في العلوم الإلهيّة والعرفان... وكان يؤمّ الجماعة في منزله خواصّ المؤمنين والأتباع ممّن كان يتولّى تربيتهم، وانتشالهم من ظلمات الجهل إلى نور المعرفة، وجعلهم طاهرين مطهّرين من كلّ دنس وهوان بالرياضات الشرعيّة والمجاهدات العلميّة، حتّى صاروا من عباد الله الصالحين ومن السالكين في سبيل الله».

وكما جاء في كلام المرحوم الشيخ آقا بزرك الطهرانيّ، فإنّ الأستاذ المرحوم الملاّ حسينقلي الهمدانيّ كان في العرفان تلميذ السيّد علي الشوشتريّ الذي كان هو بدوره من أعاظم الفقهاء ومن التلامذة البارزين للمرحوم الشيخ مرتضى الأنصاريّ وأنّه، بعد وفاة الشيخ، ابتدأ في درسه من حيث انتهى الشيخ منه، وقد كان بحراً متلاطماً من العلم إلاّ أنّه توفّي هو الآخر بعد مضيّ ستّة أشهر. إنّه وإن كان في الفقه من طلاّب الشيخ الأنصاريّ، إلاّ أنّ الشيخ نفسه كان تلميذ السيّد عليّ في الأخلاق؛ بمعنى أنّ كلاًّ من هذين الإثنين كان الأستاذ والتلميذ بالنسبة للآخر، وقد كان الآخوند الملاّ حسينقلي الهمدانيّ تلميذ الشيخ الأنصاريّ في الفقه، وتلميذ السيّد علي الشوشتريّ في العرفان. ومنذ ذلك الحين وإلى يومنا هذا، فقد امتزج علما الفقه والعرفان معاً، وإنّ كلاًّ من تلامذة هذه السلسلة؛ وهم: الآخوند الملاّ حسينقلي الهمدانيّ، والسيّد أحمد الكربلائيّ الطهرانيّ، والحاج الميرزا عليّ القاضيّ، والمرحوم العلاّمة الطباطبائيّ، وسماحة آية الله العظمى الشيخ بهجت ـ دام ظلّه ـ كانوا ولا يزالون من فقهاء الإسلام الجليلي القدر، ومن العرفاء ذوي المرتبة المنيعة أيضاً.

من جملة طلاّب المرحوم الملاّ حسينقلي الهمدانيّ يمكن الإشارة إلى السيّد أحمد الكربلائيّ، والشيخ محمّد البهاريّ، والحاج الميرزا جواد ملكي التبريزيّ ـ رضوان الله عليه ـ.

رحل المرحوم الآخوند الهمدانيّ عن هذه الدنيا في ٢٨ شعبان سنة ١٣١١ هـ في كربلاء المقدّسة، ووري الثرى في الحرم الشريف لأبي عبد الله الحسين عليه السلام.

البهاريّ[1]، والمرحوم السيّد أحمد الكربلائيّ[2]. ولقد جاءت في بعض الكتب

---

١. كان سماحة آية الله الشيخ محمّد البهاريّ الهمدانيّ يعدّ من أبرز تلاميذ العارف الكامل الآخوند الملاّ حسينقلي الهمدانيّ، حيث أدركه وتشرّف في محضره لسنوات، ونال على يده درجات المعرفة الرفيعة، ومقامات الشهود المنيعة. ويكفيه كمالاً وشرفاً ما يقوله فيه المرحوم العلاّمة الطباطبائيّ نقلاً عن العارف الكامل المرحوم آية الله الحاج ميرزا عليّ القاضيّ، حيث قال: «قال أستاذنا المرحوم الحاج السيّد أحمد الكربلائيّ: كنّا دائماً نحضر في خدمة المرحوم آية الحقّ الآخوند الملاّ حسينقلي الهمدانيّ، وقد كان الآخوند لنا حصريّاً مائة بالمائة. لكن بعدما تعرّف الحاج الشيخ محمّد البهاريّ على الآخوند ونشأت بينهما علاقة مودّة واحترام، وصار يتردّد عليه باستمرار، خطف [الشيخ البهاريُّ] الآخوندَ من أيدينا».

في التاسع من شهر رمضان سنة ١٢٣٥ هـ وفي قرية «بهار» في «همدان» ودّع المرحوم البهاري هذه الدنيا الفانية إلى الدار الباقية، لينعم في جوار الحقّ تعالى برحمته الواسعة، وقد صار مضجعه الشريف مزاراً للمشتاقين. ومن المعروف أنّ هذا المرحوم يُضيِّف ضيوفه وزائريه.

٢. جمال السالكين، آية الله الحاج السيّد أحمد الطهراني الكربلائيّ هو من كبار الفقهاء والفلاسفة والعرفاء. اتّخذ طريق السير والسلوك فوصل إلى قمم الكمال. بعد رحيل آية الله الآخوند الملاّ حسينقلي الهمدانيّ في النجف الأشرف، كان السيّد الكربلائيّ وعديله وصنوه المرحوم الحاج الشيخ محمّد البهاريّ هما الأكثر بروزاً من بين ثلاثمائة من تلامذة المرحوم، ومن الأساتذة الفريدين في العرفان والسير والسلوك. وبعد هجرة آية الله البهاريّ إلى همدان، تفرّد [الكربلائيّ] في علم الأخلاق، وتربية النفوس، وإرشاد طالبي الحقيقة إلى طيّ جادة المقصود، والورود إلى سبل السلام، والتعريف بطريق لقاء حضرة الواحد الأحد، والسير في معارج ومدارج كمال النفس الإنسانيّة، والإيصال إلى كعبة المقصود، وحرم المعبود.

يكتب المرحوم العلاّمة الطباطبائيّ في حقّه: «لقد كان المرحوم السيّد أصفهانيّاً أصلاً، إلاّ أنّ نشأته وترعرعه كان في كربلاء المقدّسة. وعندما وصل إلى سنّ الإدراك والرشد اشتغل في دراسة الأدب... وفي نهاية الأمر سلك وادي التربية والتهذيب على يد المرحوم آية الحقّ، أستاذ زمانه، الشيخ الجليل الآخوند الملاّ حسينقلي الهمدانيّ، ولازمه لسنوات طوال، حتّى خطف الأضواء من زملائه، وأصبح في الرعيل الأوّل والصفّ المتقدّم من بين تلامذة الآخوند والمتربّين على يده. فشغل في العلوم الظاهريّة والباطنيّة مكاناً مكيناً ومقاماً أميناً. وبعد وفاة المرحوم الآخوند، اختار الإقامة في النجف الأشرف، واشتغل في تدريس الفقه، وكانت له كذلك اليد الطولى في المعارف الإلهيّة وتربية الناس وإيصالهم إلى الكمال. لقد دخل جمع كثير من كبار العلماء والأحرار، بيمن تربية وتكميل هذا العظيم، إلى دائرة الكمال، بعد أن خلّفوا الطبيعة وراء ظهورهم، فأصبحوا من سكّان مكان دار الخلد ومحارم حريم القرب، ومن جملة هؤلاء السيّد الأجلّ، وآية الحقّ، والنادر في دهره، والعالم العابد، والفقيه المحدّث، والشاعر المُفلِق، سيّد العلماء الربّانيّين، المرحوم الحاج الميرزا عليّ القاضيّ الطباطبائيّ التبريزيّ (١٢٥٨ـ ١٣٦٦ هـ) الذي كان أستاذ هذا الحقير [يقصد نفسه] في المعارف الإلهيّة، والفقه، والحديث والأخلاق...

نظير «تذكرة المتّقين»[١]، أو «زاد السالك» توصيات من كبار العلماء من أمثال: المرحوم الشهيد الثاني، والمجلسيّ الأوّل، والمرحوم الفيض. أمّا بالنسبة للكتب الأخلاقيّة فيمكن الإشارة إلى الكتب التالية: «معراج السعادة»، و«المحجّة البيضاء»، و«الحقائق»، و«جامع السعادات». فالرجوع إلى أمثال هذه الكتب هو كمطالعة كتب الطبّ من أجل علاج الأمراض، أو كالرياضيّ الذي يروم الاحتراف في لعبة رياضيّة معيّنة ولا يجد المدرّب. فكما نضطرّ، في حال تعذّر العثور على الطبيب أو المدرّب، إلى الرجوع إلى الكتب والمؤلّفات المدوّنة في هذا المجال، ففي المسائل المعنويّة وطيّ مراحل السير والسلوك أيضاً بمقدور الإنسان مطالعة الكتب المصنّفة في هذا الميدان إذا لم يجد الأستاذ المتمرّس الذي يكون أهلاً للثقة[٢].

أضف إلى ذلك، فإنّ الإنحرافات التي يمكن أن يعاني منها المرء في المراحل الأوليّة والمدارج المتدنّية من العرفان والسير والسلوك ليست هي

---

١. هذا الكتاب ينطوي على مجموعة من أقوال ورسائل العالم والعارف الجليل القدر آية الله الشيخ محمّد البهاري ﵀.

٢. من جملة الآثار القيّمة في هذا المضمار رسالة السير والسلوك للمرحوم بحر العلوم. يقول المرحوم العلاّمة السيّد محمّد حسين الطهرانيّ (تلميذ المرحوم السيّد هاشم الحدّاد، والمرحوم العلاّمة الطباطبائيّ) في حقّ هذه الرسالة: قلت يوماً للمرحوم العلاّمة الطباطبائيّ ﵀: على الرغم من مطالعتي للكثير من كتب الأخلاق والسير والسلوك والعرفان، لم أجد كتاباً جامعاً، وشاملاً، ومتيناً، وأصوليّاً، ومفيداً، وسلساً، وفي الوقت ذاته مختصراً، وموجزاً، وبالإمكان وضعه في الجيب والإستفادة منه في السفر والحضر مثل هذه الرسالة. فتعجّب من قولي هذا وقال: هذا الكلام مشابه لما سمعته من المرحوم القاضي؛ فقد كان يقول: لم يدوّن في العرفان كتاب كهذا من حيث الجمال وغزارة المباحث. كما ويقول سماحة آية الله الحاج الشيخ عبّاس القوتشانيّ (وصيّ المرحوم القاضيّ): كان المرحوم القاضيّ يهتمّ كثيراً بهذه الرسالة، إلاّ أنّه كان يقول مراراً: إنّني لا أسمح لأيّ أحد بالعمل بالأوراد والأذكار الواردة في تلك الرسالة. (رسالة «السير والسلوك» المنسوبة لبحر العلوم، المقدّمة، ص١٢، وهي بالفارسيّة).

جوهريّة وجدّية كي تحتّم على الإنسان من أجل اجتنابها أن يكون تحت إشراف وتربية مربٍّ أو أستاذ. فالحاجة إلى الأستاذ لا تصبح ملحّة إلاّ في المراحل المتقدّمة من السير والسلوك، حيث التعثّر والسقوط في تلك المراحل قد يؤدّي بالمرء إلى الكفر.

ففي مراحل ومنازل معيّنة من العرفان إذا ارتكب المرء خطأً أو صدرت منه زلّة، فستكون وطأة ذلك عليه من الشدّة بحيث يبطل معه وينهار كلّ ما سبق أن شيّده. من هذا المنطلق، فإنّ وجود احتمال بروز مثل هذه الانحرافات الخطيرة تجعل ـ في هذه المراحل ـ الحاجة إلى الأستاذ المجرّب والثقة الذي يمدّ يد العون والهداية للإنسان حاجة ملحّة وجوهريّة. فالسقوط والزلل في هذه المراحل هو أشبه بالسقوط من قمّة الجبل. فالهويّ من قمّة جبل شاهق يتسبّب في تحطيم جميع بدن الإنسان ودماغه فلا يبقى منه شيء، على خلاف من لم يرقَ إلاّ مترين أو ثلاثة أمتار، فإنّه إن زلّت قدمه فغاية ما يصاب به هو خدش في ساقه وحسب، وبإمكانه القيام مجدّداً واستئناف المسير. على هذا، فإنّه كلّما ارتقى المرء في صعوده وابتعد عن سفح الجبل فستكون الأضرار الناشئة من سقوطه أكثر جدّية وأشدّ خطراً. وهذا يصدُق أيضاً في عمليّة السير والسلوك.

فكلّما تقدّم الإنسان أكثر في مراحل هذا الطريق ومنازله، فسوف تزداد حساسيّة موقفه وتتضاعف الحاجة لأن تكون حركاته وتصرّفاته مدروسة ويُطمئنّ إليها بنفس النسبة، وقد يكون بحاجة ماسّة عندئذ إلى إرشاد الأستاذ والمربّي. لكن، في الخطوات والمراحل الأولى من السير والسلوك لن تكون الحالة بهذه الحساسيّة، وبوسع الإنسان أن يسير

وحده في هذا الطريق، وإذا ما ارتكب خطأً في الأثناء فسيكون قابلاً للتدارك بسهولة وسرعة.

أضف إلى ذلك أنّ المراحل والخطوات الأوّليّة للعرفان والسير والسلوك ليس فيها ـ أساساً ـ ما هو خفيّ أو غامض بل هي أمور جليّة ومعلومة. فكلّ من له أدنى مطالعة في حقل المسائل المتعلّقة بالسير والسلوك فهو يعلم أنّ الخطوة الأولى في هذا الطريق هي أداء الواجبات وترك المحرّمات؛ أو بعبارة أخرى، ترك المعاصي. أمّا المرحلة التالية فتتضمّن الإتيان بالمستحبّات وترك المكروهات، حيث يبذل السالك فيها قصارى جهده لأن يأتي بما أمكنه من المستحبّات ويجافي ـ ما وسعه ـ المكروهات.

ومن هذا المنطلق، فإنّ مسير السير والسلوك في مراحله الأوّليّة ليس فيه ـ أساساً ـ وعورة ومنعطفات كثيرة، وليس هناك اختلاف في هذا الميدان بين العرفاء وفرق المتصوّفة الأخرى. على سبيل المثال، إنّ ممّا لا يناقش فيه أحد أو جماعة من العرفاء أو المتصوّفة على الإطلاق هو أنّه من أسرار الموفقيّة والنجاح في عمليّة السير والسلوك هي الذكر القلبيّ، وأنّه يتحتّم على الإنسان أن يجهد من أجل زيادة توجّهه القلبيّ لله سبحانه وتعالى ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

ومهما كان، فإذا طوى شخص هذه المراحل، وشعر بالحاجة للإرشاد والمعونة، فمن المستبعد عن الله عزّ وجلّ ـ وهو اللطيف ـ أن لا يدلّه على من هو بحاجة إليه في المراحل التالية من مسيره. لكن إذا كان الشخص لا يزال في أوّل الطريق ولم يطوِ حتّى تلك المراحل الإبتدائيّة والواضحة، فعلامَ السعي وراء أستاذ على مستوى عال من المعرفة؟ إنّ علينا أن نسأل مثل هذا الشخص: هل عمل بما يعلَمُه أصلاً كي يبحث الآن

عن توصياتٍ ومعارف أخرى؟ فحقيقةً، ما مقدار عمَلِنا بتلك المسائل التي نعلمها وما مدى تطبيقنا لها، حتّى نسعى وراء أمور وأوامر جديدة؟

الكثير من الناس يحدوهم الأمل في أن يتشرّفوا بلقاء صاحب الزمان عجّل الله تعالى فرجه الشريف كي يتلقّوا منه الأوامر بخصوص السير والسلوك، والحال أنّهم، إلى الآن، لم يجتازوا عقبة أداء الواجبات وترك المحرّمات. لقد كرّر أئمّتنا عليهم السلام التأكيد ـ لفظاً وعملاً ـ على الصلاة لأوّل وقتها، فهل أنا ـ المتعطّش للأوامر والتوصيات العرفانيّة العالية ـ قد عملتُ بهذه التوصية البسيطة جدّاً والمهمّة والمؤثّرة للغاية في الوقت ذاته؟ جميع أئمّتنا عليهم السلام يوصون بالقيام بالواجبات والكفّ عن المحرّمات؛ فهل ترانا عمِلْنا بهذه التوصية ثمّ لم نصل إلى مقام مرموق؟ فما الذي ننوي ـ نحن الذين لم ندفع بعجلتنا نحو الأمام بسبب ترك العمل بجلّ ما نعرفه ـ أن نسأل صاحب الزمان عليه السلام عنه يا ترى؟ خوفي من أن يكون تمنّي التشرّف بلقاء صاحب العصر والزمان عجّل الله تعالى فرجه الشريف أو البحث عن الأستاذ والعارف لا يعدو أن يكون نزوة نشغل بها أنفسنا، فتلهينا حتّى عن العمل بتلك التوصيات والأمور المهمّة والجوهريّة التي نعرفها؟!

إذن خلاصة الأمر، إنّ الأصل القائل بأنّ السير والسلوك وطيّ المدارج المعنويّة ـ حاله حال الفنون الأخرى كافّة ـ له أُناسه المتميّزون والبارزون ممّن لهم تجارب في هذا المجال، وإنّ باستطاعتهم الأخذ بيد الآخرين، وتذكيرهم بأخطائهم، وصونهم من الإنحرافات من حيث كونهم ساروا في هذا الطريق مسبقاً، هُوَ أصل صحيح تماماً. فمثلما أنّ كافّة الفنون والعلوم؛ نظير الطبّ، والرياضيّات، والفقه والأصول، لها أساتذة، وأنّ على الإنسان

أن يبذل ما بوسعه للتعرّف على أفضل أستاذ فيها، لينتفع من علمه وتجاربه، فإنّ مصاحبة الأستاذ المجاهد لنفسه، والعارف بالطريق في مسير العرفان والسير والسلوك من الممكن أن يكون مفيداً جدّاً للمرء وفيه مفتاح للطريق. فتربية النفس هي فنّ أيضاً، وكما في الفنون الأخرى، فإنّ أولئك الذين ذاقوا حلاوة الطريق ومرارته يصبح بمقدورهم الأخذ بيد المبتدئين، وتعريفهم بمنعطفات الطريق وصعوباته، خصوصاً إذا كان هؤلاء ممّن لهم بعض الإحاطات الروحيّة فإنّ من الممكن ـ ومن خلال مشاهدة أنواع العجز ونقاط الضعف الروحيّة والنفسيّة التي يعاني منها السالك ـ أن يكونوا ذوي فائدة جمّة وتأثير كبير في تربية نفسه. لكن في هذا السياق لا ينبغي أن نغفل حقيقة أنّ أولئك العارفين بالطريق حقّاً، والذين بمقدور الإنسان الاعتماد عليهم في طيّ هذا السبيل المليء بالمخاطر والعقبات، هم عادة غاية في الندرة في كلّ زمان.

والملاحظة الأخيرة التي لابدّ من التنويه إليها في نهاية المطاف، هي أنّ الوصول إلى المقامات والمراتب المعنويّة، مهما كانت عالية وسامية، لا يوجب عصمة الشخص الواصل، ولا ينبغي تصوّر كونه مطلق الصحّة فيما يفكّر به، ولا أنّ معارفه خالية من الخطأ والزلل؛ وأفضل شاهد على هذا المدعى هو أنّه في كلّ الأزمنة يُلاحظ هناك نوع من الاختلاف في وجهات النظر بين أساتذة الأخلاق والسير والسلوك. فعلى الرغم من أنّه لا ريب في طهارة وتقوى وإخلاص الكثير منهم، لكنّ طرقهم في العرفان ليست متشابهة، وإنّ الاختلاف فيما بينهم في الأذواق، والسلوك أمر ملحوظ، بل إنّ بعضهم يخطّئ البعض الآخر بصراحة في بعض الأحيان. ففي هذا دلالة على أنّ غير المعصومين عليهم السلام،

مهما علت درجاتهم وتكاملت نفوسهم، فإنّهم لن يصلوا إلى الحدّ الذي يدعوا الإنسان إلى التصديق بأنّهم لا يخطئون في أيّ من القضايا الدنيويّة أو الأخرويّة أو المادّية أو المعنويّة. بناءً على ذلك، فهناك عند كلّ الطوائف المختلفة ـ تقريباً ـ نوع من الأخطاء والانحرافات، ولا يمكن العثور على فرقة تكون على الحقّ مائة بالمائة، وعارية عن أيّ فساد فكريّ، أو انحراف عمليّ.

فطريّ، لكنّه صعب المنال؟!

لقد تكرّرت الإشارة في مباحث هذا الكتاب، لاسيّما في الفصل الأول، إلى أنّ النزعة العرفانيّة في الإنسان هي فطريّة. كما بيّنا أيضاً أنّ مجموعة التعاليم والأحكام الإسلاميّة قد صِيغت بالشكل الذي تكون فيه مؤهّلة لإيصال الإنسان إلى غاية العرفان؛ ألا وهي الشهود الباطنيّ لله سبحانه وتعالى. والمراد من هذا الكلام هو أنّ الأحكام الإسلاميّة مبنيّة على الفطرة، وأنّ العمل وفقها يؤدّي في نهاية المطاف إلى نموّ وتفتّح أسمى الميول والنزعات الفطريّة لدى الإنسان. إنّ التأمّل في هذه النقطة قد يثير في الذهن السؤال التالي: إذا كان الميل العرفانيّ ميلاً فطريّاً، إذن فلماذا نجد أنّ الخطو في جادّة العرفان والسير والسلوك، وطيّ منازله أمر غاية في الصعوبة، حتّى أنّ الأشخاص الذين أفلحوا في تسلّق قممه الشاهقة هم قليلون جداً؟ فإذا كانت أحكام الإسلام مبنيّة على الفطرة، فلماذا يكون العمل بها غير يسير، ليس هذا فحسب، بل إنّه يستلزم الصراع مع النفس، وآمالها، وميولها في كثير من المواطن وهو أمر على جانب كبير من الصعوبة؟ أليس من المسلّمات أنّ تقبُّل الأمر المطابق للفطرة الإنسانيّة

السليمة، والعمل به ـ في حال كونه مستلزماً للعمل ـ لابدّ أن يكون يسيراً وسهل المؤونة؟

في معرض الإجابة على هذا التساؤل يتعيّن القول: صحيح أنّ النزعة العرفانيّة في الإنسان هي نزعة فطريّة، إلاّ أنّ اتّصافها بخصلتين هو السبب الذي يجعل عمليّة ازدهارها وتفتّحها وإشباعها تواجه الصعوبات والمشاقّ دوماً.

الخصلة الأولى مرتبطة بالقيمة العليا لهذا الميل ومتعلَّقه. ولتوضيح ذلك نقول: كلّما ازدادت ندرة الشيء ونفاسته في هذا العالم، زادت صعوبة العثور عليه. فالحصول على الأشياء الرخيصة والمتوفّرة لا يتطلّب مؤونة كثيرة، وبإمكان المرء نيلها بجهد بسيط. إلاّ أنّه كلّما كان الجوهر نادراً، فإنّ هذه الندرة ذاتها تضفي عليه المزيد من القيمة، وكلّما زادت قيمة الشيء، زادت المؤونة اللازمة للحصول عليه بنفس النسبة. هذه القاعدة هي قاعدة عامّة وليس لفطريّة الشيء أو عدمها أثر فيها. من هذا المنطلق، فإنّه، وإن كان الميل العرفانيّ ميلاً فطريّاً، إلاّ أنّه بالنظر لندرة متعلَّقه (أي معرفة الله تعالى حضوريّاً) وشدّة ارتفاع قيمته، فلن يكون ازدهاره وتكامله بالأمر اليسير. ولا بأس هنا، من أجل الإعانة على فهم الموضوع، في ذكر مثال:

إنّ الميل للطعام لدى الإنسان هو ميل وغريزة فطريّة، لكن كما أنّه بمقدور الإنسان سدّ جوعه ببعض الخبز فقط، فإنّ بإمكانه أيضاً أن يذهب لاصطياد حيوان أو طائر نادر فيسدّ جوعه بشواء لحمه. فهل الجهد والمشقّة اللازم تحمّلها متساوية في الحالتين؟ من البديهيّ أنّه كلّما طلب الإنسان طعاماً ألذّ وأطيب، كان عليه بذل جهد أكبر، ودفع قيمة أكثر، وهذا لا يتنافى مع كون غريزة الجوع مسألة فطريّة.

كما أنّ الميل للثروة عند الإنسان قضيّة فطريّة أيضاً، لكنّ العثور على الألماس ليس بالأمر اليسير، وإنّ الوصول إليه يتطلّب أن يتصبّب المرء عرقاً في قعر المناجم، ويحفر الجبال، ويزيل مئات بل آلاف الأطنان من الحجارة. أجل، فالشاعر يقول:

تريدين إدراك المعالي رخيصةً ولابدّ دون الشَّهدِ من إِبَر النحلِ[1]

كذلك فإنّ كلّ من يطلب معالي مراتب الكمال النفسانيّ، والمعرفة الحضوريّة لله جلّ شأنه، فليعلم أنّ أنفس جواهر الكمال الإنسانيّ هذه لا تُنال بثمن بخس، بل هي تتطلّب دفع ثمن باهظ.

أمّا الخصلة الثانية من الخصال التي تبعث على صعوبة الطريق فهي أنّ الميل العرفانيّ لدى الإنسان ليس ذاتيّ التفتّح والازدهار. وكما أشرنا في الفصل الأول من هذا الكتاب، فإنّ الميول الفطريّة لدى الإنسان تُقسم إلى نوعين: «ذاتيّة الظهور» و«غير ذاتيّة الظهور» أو «ذاتيّة الازدهار» و«غير ذاتيّة الازدهار». فالميول الذاتيّة الظهور أو الازدهار هي تلك التي تبرز وحدها ومن دون جهد من قبل الإنسان نفسه، فتصل إلى حدّ الازدهار تدريجيّاً. في هذا النوع من الميول يتعرّض الإنسان ـ بشكل طبيعيّ ـ إلى ضغوط من إجل إشباعها؛ والغريزة الجنسيّة ـ مثلاً ـ هي من هذا القبيل. فكلّ إنسان، عندما يبلغ سنّاً معيّناً، يشعر بالغريزة الجنسيّة في داخله، وهذا الميل يزداد شدّة ـ بشكل طبيعيّ وذاتيّ ـ يوماً بعد آخر حتّى يصل إلى أوجه في عمر معيّن. إنّ الهيجان الذي تولّده هذه الغريزة في نفس الإنسان يجعله ـ على نحو طبيعيّ ـ بحيث لا يجد مفرّاً من إشباعها. كما أنّ غريزة الجوع كذلك؛ فهي تتحفّز لدى

---

١. لأبي الطيّب المتنبّي، في إشارة إلى المثل الفارسيّ: «هر كه طاووس خواهد جور هندوستان كشد».

الإنسان نتيجة بعض العوامل الطبيعيّة والفسلجيّة منذ نعومة أظفاره، الأمر الذي يدفعه إلى السعي للعثور على الغذاء من أجل إشباعها. إنّ الكثير من الميول الإنسانيّة الطبيعيّة هي من هذا النوع. إلاّ أنّ هناك ميولاً ونزعات لدى الإنسان وهي ـ وإن كانت فطريّة أيضاً ـ بيد أنّها لا تصل بذاتها إلى مرحلة التكامل والازدهار، وإنّ فِعليّتها وازدهارها منوطان ببعض الجهود المبذولة من قبل الإنسان. مثل هذه الميول لا تُخضِع الإنسان إلى ضغوط بحيث أنّه لا يرى بُدّاً من إشباعها، ونحن نُطلق على هذا النوع من الميول ـ اصطلاحاً ـ اسم «الميول الغير الذاتيّة الظهور» أو «الغير الذاتيّة الازدهار». من باب المثال، يمكننا عدّ ميل البشر نحو «العلم» و«المعرفة» من هذا النوع من الميول. فالإنسان بشكل طبيعيّ لديه حسّ الفضول والرغبة في التعرّف على الأشياء، ومن هنا نرى أنّ الأطفال عادة يبدأون بالسؤال عن الأشياء بعد فترة وجيزة من بدئهم بالنطق. فهم بطرحهم الأسئلة المتعدّدة يحاولون التعرّف أكثر على محيطهم وما فيه من أشياء وأشخاص. لذا، فإنّ أصل الميل للعلم والمعرفة عند البشر هو أمر غريزيّ وفطريّ. لكن، هل إنّ إثمار هذا الميل، وتفتّحه، وازدهاره، ونموّه يحصل بشكل ذاتيّ ومن دون أيّ جهد من قبل الإنسان؟ كلاّ، فالقضيّة ليست على هذه الشاكلة بتاتاً. فالذين فتحوا قمم المعرفة، ونالوا المقامات العلميّة الرفيعة قد جرّبوا الأرق والسُهاد كثيراً، وأتعبوا أدمغتهم وأذهانهم، وتجرّعوا العذاب والألم في هذا السبيل. فهل من الممكن يا ترى أن يصل المرء إلى لُباب العلم، ويطمح في أن يكون نجمة في سماء المعرفة من خلال الراحة والدعة، ومن دون أيّ آلام أو مشقّات؟! فمجرّد كون هذا الميل ميلاً فطريّاً لا يجعل من نموّه وازدهاره أمراً سهل المؤونة.

إنّ الميل العرفانيّ عند الإنسان هو من هذا القبيل أيضاً. فهـذا الميـل وإن كان فطريّاً، إلاّ أنّ وصوله إلى حيّز الفعليّة، وترقّيه يتطلّب بـذل الجهـد مـن قبل الإنسان نفسه. فهذا الميل يكون في بداية الأمر خفيّاً ومُضمَراً وغير واعٍ ولابدّ أن يوقَظ تدريجيّاً بالجدّ والاجتهاد والالتفات ليُنقَل من حيّز القوّة إلى نطاق الفعليّة. كذلك فإنّ الاستمرار في هذه العمليّة، وتساميه، وازدهاره أكثر فأكثر، وبلوغ مقام القرب الإلهيّ لا يحصل من ذاته، بل يتطلّب المزيد من الجهد والمثابرة التي لا تعرف الملل ولا الكلل، والمتواصلة في الليل والنهار.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين